



روبين مكينلي

البطل والتاج

ترجمة عبد الفتاح عبد الله

البطل والتاج

تأليف
روبين مكينلي

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
محمد حامد درويش



The Hero and the Crown

Robin McKinley

البطل والتاج

روبين مكينلي

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣٥٧ ٤

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٨٤.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للكاتبة روبين مكينلي، عناية
رايتز هاوس إل إل سي.

Copyright © 1984 by Robin McKinley.

المحتويات

١١	الجزء الأول
١٣	الفصل الأول
٢١	الفصل الثاني
٣١	الفصل الثالث
٤١	الفصل الرابع
٤٩	الفصل الخامس
٥٧	الفصل السادس
٦٧	الفصل السابع
٧٥	الفصل الثامن
٨٥	الفصل التاسع
٩٣	الفصل العاشر
١٠٣	الفصل الحادي عشر
١١٥	الجزء الثاني
١١٧	الفصل الثاني عشر
١٢٧	الفصل الثالث عشر
١٣٧	الفصل الرابع عشر
١٤٧	الفصل الخامس عشر
١٥٧	الفصل السادس عشر
١٦٣	الفصل السابع عشر

١٧٥	الفصل الثامن عشر
١٨٩	الفصل التاسع عشر
٢٠١	الفصل العشرون
٢٠٩	الفصل الحادي والعشرون
٢٢١	الفصل الثاني والعشرون
٢٢٩	الفصل الثالث والعشرون
٢٤١	الفصل الرابع والعشرون
٢٤٩	الفصل الخامس والعشرون

إهداء إلى تيري

تدور أحداثُ رواية «البطل والتاج» قبل فترةٍ طويلةٍ من أحداثِ رواية «السيف الأزرق». وثمّة اختلافات طوبوغرافية جذرية، إلى حدٍّ كبير، في دمار بين عصرَي إيرين وهاري.

الجزء الأول

الفصل الأول

لم تستطع تذكر وقتٍ لم تعرف فيه القصة؛ فقد كبرتُ وهي تعرفها. قدّرت أنه لا بد أن أحداً ما قد حكاها لها في وقتٍ ما، لكنها لم تستطع تذكر السرد. كانت قد تخطت مرحلة أن تُحاول أن تصريف دموعها بأن تطرف بعينها حين كانت تفكر في تلك الأمور التي ذكرتها القصة، لكنها حين كانت تشعر بأنها أصغر وأكثر رثاءً من المعتاد، في المدينة الكبيرة النابضة بالحياة الواقعة عالياً في تلال مملكة دامار، كانت لا تزال تجد نفسها تتأمل تلك الأمور وتُطيل التفكير فيها؛ وأحياناً ما كانت إطالة التفكير تجلب معها شعوراً بصداق قوي حول صدغيها، شعوراً أشبه بدموع مكبوتة.

أطالت التفكير، وهي تُطل إلى الخارج من فوق العتبة العريضة المنخفضة لإطار النافذة الحجري؛ ثم رفعت ناظريها إلى التلال؛ لأن سطح الفناء المزجج كان لامعاً جداً في أوقات مُنتصف النهار، فلم يكن يُمكن التحديق فيه طويلاً. وسلك ذهنها مسلكاً قديماً مألوفاً: ترى من ذا الذي حكى لها القصة؟ كان من المُستبعد أن يكون والدها هو من حكاها لها؛ لأنه نادراً ما كان يتحدث إليها بأكثر من بضع كلماتٍ مجتمعة حين كانت أصغر سناً؛ كان أكثر ما كانت تعرفه عنه هو ابتساماته الرصينة الحنونة ومظهره الذي يُوحى بأنه منشغل قليلاً. كانت تعرف على الدوام أن والدها شغوف بها، وهو ما كان حقيقياً؛ لكنه لم يجعلها موضع اهتمامه إلا مؤخراً، وقد حدث هذا بصورة غير متوقعة، كما أخبرها والدها بنفسه. إن والدها هو أصلح من يُخبرها قصة ولادتها، وصاحب الحق الأوحد في ذلك، لكن كان من المُستبعد أن يكون قد فعل.

وكذلك كان من المُستبعد أن يكون الخدم هم من أخبروها بالقصة؛ فدائماً ما كانوا مُهذّبين معها بطريقتهم الحذرة، وكانوا مُحفظين ولا يتحدثون إليها إلا عن شئون المنزل.

أدهشها أنهم كانوا لا يزالون يتذكّرون أن يكونوا حذرين معها؛ إذ كانت قد أثبتت لهم منذ وقتٍ طويل أنها لم تكن تملك شيئاً يحذرون بشأنه. عادةً ما كان أطفال العائلة الملكية مُقلقين نوعاً ما في التعامل اليومي معهم؛ لأنه كثيراً ما كانت تتدفّق «مواهبهم» بطرقٍ مفاجئة وغير متوقّعة. وكان من المدهش قليلاً أن الخدم كانوا يكلّفون أنفسهم عناء معاملتها باحترام؛ وذلك لأن مسألة كونها من صُلب أبيها لم يكن يدعمها شيء عدا أن زوجة أبيها قد وُجِدَت حُبلى بها. لكن مع كلِّ ما قيل عن والدتها، لم يُلَمَح أحدٌ قط إلى أنها لم تكن زوجةً مخلصة.

وما كانت هي لتُهرع وتختلق الأقاويل عن أيٍّ من الخدم الذين كانوا يزدرونها، كما كان من شأن جالانا أن تفعل — وكانت تفعل ذلك باستمرار، على الرغم من أن الجميع كانوا يُعاملونها بأكبر قدر من الاحترام يمكن لإنسان إظهاره. وقد انتشرت شائعة ساخرة مفادها أن «موهبة» جالانا هي أنه مُحالٌ إرضاؤها. لكن ربما كان من وجهة نظر الخدم أنه لا يجدرُ المخاطرة باكتشاف أيٍّ أوجه تشابهٍ أو اختلاف بينها وبين جالانا؛ ولا شك أن الخدمة في منزلٍ يضمُّ بين جنباته جالانا جعلت من صمد فيه حِزراً بتلقائية وموقراً لأي شيءٍ يتحرّك. ابتسمت إيرين. إذ رأت الرياح تُحرّك قمم الأشجار؛ ذلك أن سطح التلال بدا وكأنه يتموّج تحت السماء الزرقاء؛ وحمل النسيم رائحة أوراق الشجر حين انسلَّ عبر نافذتها.

وفي واقع الأمر، من المرجّح جداً أن تكون جالانا هي من حكّت لها القصة. وكان هذا من شيمها؛ فقد كانت جالانا تكرهها دوماً، وما زالت تكرهها، مع أنها الآن قد كبرت، وعلاوة على ذلك متزوجة من بيرليث، أمير دامار الثاني. ولم يكن يعلو هذه الرتبة سوى ولي العهد والملك؛ لكن جالانا كانت قد تطلّعت إلى الزواج من تور، الذي كان وليّ العهد والذي سيُصبح الملك في يومٍ من الأيام. ومع ذلك ما كان تور ليتزوَّج من جالانا حتى لو كانت هي العذراء الملكية الوحيدة المتاحة؛ «كنتُ سأهرُب إلى التلال وأُصبح قاطع طريق ولن أفعل ذلك»، هكذا قال تور حينما كان صغيراً جداً، لقريبته التي تصغره كثيراً، والتي انفجرت عندئذٍ في نوباتٍ من القهقهة على فكرة أن يرتدي تور أسماً وعصابة زرقاء ويرقص طلباً للحظ الطيب في كل تربيعة من تربيعات القمر. في ذلك الوقت كان تور، الذي تملّك منه الرعب جرّاء المحاولات المتسمة بالإصرار التي كانت تبذلها جالانا لإيقاعه في شركها، قد استرخى بما يكفي ليبتسم لها ويُخبرها أنها لا تتمتع بما يليق من الاحترام، وأنها طائشة لا تستحيي. وقد ردّت عليه من دون تردّد أن «أجل». وقد كان تور يتعامل

بطريقة رسمية بصورة مُفْرِطَة مع أي أحدٍ آخر عداها، وذلك بغضّ النظر عن الأسباب؛ لكن كونه وليّ العهد لملك وقور ترمّل مرّتين ويحكم مملكةً تُخَيِّم عليها الكآبة، ربما أثّر ذلك على شابٍّ يفوق تور طيشًا وعبثًا بكثير. وقد ظنّنت هي أنه كان مُمتنًّا لوجودها بقدر امتنانها لوجوده؛ فإحدى أولى ذكرياتها أنها كانت تركب على كتفَي تور في حقبة للأطفال فيما يعدو هو بفرسه ويقفز فوق سلسلة من العقبات؛ وكانت تصرخ سرورًا وفرحًا، كذا جُرّحت يدها الرقيقة الصغيرة من شعره الأسود الكثيف. وقد غضبت تيكا لذلك لاحقًا؛ لكن تور، الذي كان عادةً ما يتلقّى أيّ اتهام، بأدنى إهمالٍ للواجب، بشفاهٍ شاحبة ووجه جامد، لم يزد على أن ضحك.

لكن متى ما قرّرت أن جالانا هي مَنْ أخبرتها أولًا بالقصة، وجدت أنها لا تستطيع أن تُصدّق ذلك من جانبها في نهاية المطاف. إن كانت قد أخبرتها بها لتغيظها ولتتعمّد أذيتها فبلى؛ لكن القصة نفسها كانت تحمل الكثير من الجلال المُتسم بالحزن. لكن ربما كان ما دعاها إلى الشعور بذلك أن القصة كانت عن والدتها؛ ربما تكون قد غيّرتها في ذهنها، فاختلقت مأساةً من مجرد شائعات فظة وكريهة. لكن أن تعمد جالانا إلى قضاء وقت طويل بصحبته لتخبرها بالقصة كان تصرفًا غير مألوف منها؛ إذ كانت جالانا تفضّل، متى كان ذلك ممكنًا، أن تتعمّد تجاهل أدنى أقربائها مكانةً، ووجهها يحمل تعبيراتٍ تُوحى وكأنّ ثمة ذبابةً ميتة على عتبة النافذة فلمْ لم يُزلها الخدم؟ حين كانت جالانا تُجبر على الحديث إليها من الأساس، فعادةً ما يكون ذلك بدافع الانتقام الفوري. وما كانت حكاية زوجة أرلبيث الثانية لتخدم أغراضها بسبب طبيعتها غير المباشرة والمُعقّدة. لكن يظل التخمين الأفضل أن يكون أحد أقربائها هو مَنْ قصّ القصة عليها. ليس تور بالطبع. وإنما أحد أقربائها الآخرين.

مالت بجسدها إلى خارج النافذة ونظرت إلى الأسفل. كان من الصعب التعرّف على الناس من أعلى رعوسهم، وعلى بُعد عدة طوابق. ولكن لم يكن هذا ينطبق على تور؛ إذ كانت تتعرّف عليه على الدوام، حتى ولو كان كلّ ما ستراه منه هو كوعه ممتدًا من هيكل الباب بمسافة بوصة واحدة أو اثنتين. على الأرجح أنّ من يقف تحتها الآن هو بيرليث؛ كانت تلك المشية الواثقة مُميّزةً له حتى من أعلى، وأكّدت ذلك الطريقة التي يتبعه بها ثلاثة من الخدم الذين يرتدون كسوةً أنيقة، ليس لسببٍ سوى أن يُضيفوا بحضورهم إلى ما يتمتّع به سيدهم من أهمية. كان تور يتحرك وحيدًا، كلما أمكن له ذلك؛ فقد أخبرها متجهّمًا أنه حظي بما يكفي من الرفقة أثناء أدائه مهامّ ولي العهد، وأن آخر ما كان يريده

في الأوقات غير الرسمية هو حاشية غير رسمية. وكانت تُحب أن ترى والدها يجرُّ إمعاتٍ مكتسبين بالمخمل في إثره، وكأنه طفل يجرُّ لعبةً بخيط.

رأت من أعلى بيرليث يتحدث إلى شخصٍ آخر ذي شعر داكن، وكان الخدم ينتظرون في إجلال على مسافةٍ بضع أذرعٍ منهما؛ ثم برز شخصٌ يمتطي حصاناً من عند الزاوية؛ لم يكن باستطاعتها تمييزُ الأصوات لكنها سمعت طقطقة الحوافر. كان الراكب يرتدي كسوةً رسول، ودلّ طراز سُرجه على أنه أتى من جهة الغرب. التفت له كلا الرأسين وأطلاً نحوه، فتسنى لها رؤية وجهيهما الشاحبين الغائمين وهما يتحدثان إليه. ثم أوقف الفارس خببَ حصانه، فكان الحصان يضع أقدامه بحرص شديد؛ فقد كان من الخطير السيرُ بسرعة عبر أرجاء الفناء؛ ثم اختفى بيرليث والرجل الآخر وحاشية بيرليث من أمام ناظريها.

ولم يكن يتعين عليها أن تسمع ما قاله أحدهم للآخر لتعرف ما يدور؛ لكنها لم تسعد بمعرفتها لما دار؛ ذلك أن معرفتها تلك جلبت لها ارتباكاً وخيبةً أملٍ مريعة. كان الارتباك أو خيبة الأمل هي ما أبقى عليها مُحْتَجَزةً ووحيدة في مقرها، الآن.

لم ترَ والدها أو تور طوال الأسبوع المنصرم إلا لِمَاماً؛ إذ كانا يتلقيان الكثير من الرسائل والكثير من الرسل، حيث كانا يُحاولان إبطاء حدوثٍ ما كان سيقع على أي حال، وفي أثناء ذلك كانا يُحاولان أن يقرّرا ما يلزم فعله بعد حدوثه. كان بارونات الغرب — وهم الأمراء من المرتبة الرابعة — يثيرون المتاعب. سرت شائعة مفادها أن أحداً من الشمال — إما أنه كان بشرياً أو بشرياً بما يكفي ليبدو بمظهر البشري — كان قد حمل معه جنوباً عبر الحدود شيئاً من شرّ شيطاني وأطلقه في اجتماع مجلس البارونات الذي انعقد في الربيع. كان نيرلول هو رئيس المجلس، ليس لسببٍ وجيه سوى أن والده كان الرئيس من قبله؛ لكن والده كان رجلاً أكثر صلاحاً وحكمة. ولم يكن يُعرف عن نيرلول ذكاؤه، وعُرف عنه سرعة انفعاله وطبعه الحاد: كان الهدفُ الأمثل للشر الشيطاني.

لو أن والد نيرلول كان مكانه لأدرك حقيقة الأمر. لكن نيرلول لم يتبين أي شيء؛ بدا الأمر ببساطة فكرةً رائعة أن ينشق عن دامار وعن حكم أرلييث ملك دامار والأمير تور ويُنصب نفسه الملكَ نيرلول؛ وأن يفرض ضرائب جديدةً على مزارعيه ليؤمّن تكوين جيش، ليستولي في نهاية المطاف على بقية دامار من أرلييث وتور، اللذين لم يكونا يحكمانها جيداً بقدر ما يمكن له أن يحكمها. وتمكّن من إقناع عددٍ من رفاقه البارونات بعبقرية خطته، بينما شوّش الشر الشيطاني على أذهانهم (فبمجرد أن يصيب الشر الشيطاني أحد البشر، عادةً ما ينتشر كالطاعون). وكان ثمة شائعة أخرى أقل انتشاراً، مفادها أن

نيرلول اكتسب فجأة قدرةً ساحرة على التأثير فيمن يستمعون له يتحدث بفكرته الرائعة، وكانت هذه الشائعة أكثر إزعاجًا وإثارة للقلق بكثير؛ ذلك أنها لو كانت صحيحة فإن الشر الشيطاني كان فعلًا قويًا للغاية.

وقد اختار أربليث ألا يولي الشائعة الثانية أيَّ اهتمام؛ أو بالأحرى أن يوليها اهتمامًا كافيًا فقط لدحضها، حتى لا يظنَّ أحد أتباعه أنه اجتنبها خوفًا. لكنه أعلن أن المتاعب كانت كافية لأن يتحتمَّ عليه أن يحلَّ المسألة بشخصه؛ وأن تور سيذهب معه، وسيأخذ جزءًا كبيرًا من الجيش، وجزءًا كبيرًا بنفس القدر من أفراد الحاشية، ومعهم مُخلهم ومجوهراتهم لتقديم استعراض كبير وأنيق بكياسة، ليتظاهر بإخفاء الجيش من خلفه. لكن كلا الطرفين يعرف أن الجيش هو الجيش، وأن الاستعراض ما هو إلا استعراض. ما خطَّط أربليث لفعله كان صعبًا، وخطيرًا أيضًا؛ ذلك أنه أراد أن يمنع حربًا أهلية، لا أن يفتعل واحدة. وسيختار مَنْ سيذهبون معه بكل حيلة وحذر.

«لكنك ستصطحب بيرليث؟» هكذا سألت تور مستنكرة، حين التقته مصادفةً ذات يوم في الخارج خلف الحظائر، حيث يمكن لها أن تُظهر استنكارها.

تجهَّم تور. وقال: «أعرف أن بيرليث ليس إنسانًا ذا شأن، لكنه في واقع الأمر مؤثّر للغاية في هذا النوع من الأمور؛ لأنه بارع في الكذب، كما تعرفين، ولأنه يستطيع قول أشنع الأشياء بأكثر الأساليب لطفاً.»

ولم يكن جيش أربليث يضم نساءً. قد يُسمح لبعض الزوجات الأكثر جسارَةً أن يرافقن أزواجهن، أولئك اللاتي يستطعن ركوب الخيل وتلقين تدريبات سلاح الفرسان؛ وأولئك اللاتي يمكن الوثوق بأن يبتسمنَ حتى في وجه نيرلول (يتوقَّف هذا على كيفية سير المفاوضات) وينحنين له احترامًا كما يليق برُتبته بصفته أميرًا من المرتبة الرابعة، بل حتى أن يُراقصنه إن طلب ذلك. لكن كان من المتوقَّع ألا تذهب زوجةً مع زوجها إلا إذا طلب منها زوجها هذا، وما من زوج كان سيطلب هذا إلا إذا كان قد طلبه من الملك أولاً.

ومن المؤكَّد أن جالانا لن تذهب، حتى لو كان بيرليث مُستعدًا لخوض عناء أن يحصل على الإذن من أربليث (وعلى الأرجح أنه ما كان سيحصل عليه). ومن حُسن حظ كل المعنَّيين بالأمر، أن جالانا لم تكن مهتمةً بالذهاب؛ فأَيُّ شيءٍ من قبيل المصاعب لم يكن يستميلها على الإطلاق، وكانت هي واثقة أن لا شيء في الغرب البربري يمكن أن يستحق وقتها وجمالها. يمكن لابنة الملك الذهاب أيضًا؛ ابنة الملك التي ربما تكون قد أثبتت جدارتها بطرق بسيطة؛ والتي تعلَّمت أن تُبقي فمها مطبقًا، وأن تبتسم لدى الإشارة إليها بذلك؛ ابنة الملك

التي صادفَ أنها ذُريته الوحيدة. كانت تعلم أنهم لن يسمحوا لها؛ كانت تعلم أن أرلييث ما كان ليجرؤ على أن يمنحها الإذنَ حتى ولو أراد ذلك، ولم تكن تعلم إن كان قد أراد ذلك أم لا. لكنه ما كان ليجرؤ على اصطحاب ابنة الساحرة لمواجهةِ فعال شر شيطاني؛ ما كان شعبه ليسمح له أبداً، وقد كان هو في أمسِّ الحاجة لحُسن نية شعبه.

لكنها لم يكن بوسعها ألا تطلب أن ترافق أبيها؛ في تصوُّرها بقدر عدم قدرة نيرلول الغبي البائس على ألا يفقد صوابه حين مسَّ الشر الشيطاني. كانت قد حاولت أن تختار توقيت طلبها، لكنَّ والدها وتور كانا مشغولين كثيراً في الآونة الأخيرة حتى إنه تعيَّن عليها الانتظار، والانتظار مُجدداً حتى كاد ينقضي الوقت المتاح أمامها. وكانت قد قدَّمت طلبها أخيراً بعد عشاء يوم أمس؛ وذهبت إلى غرفتها بعد ذلك ولم تخرج من حينها.

«أبي..» علا صوتها كما كان يعلو حين تكون خائفة. كانت النسوة الأخريات وأفراد البلاط الأقل شأنًا قد غادروا القاعة الطويلة بالفعل؛ وكان أرلييث وتور وقلَّة من الأقارب، ومن بينهم بيرليث، يستعدُّون لأمسية متعبة أخرى من النقاش حول ما ارتكبه نيرلول من حماقة. صمتوا جميعاً والتفتوا ينظرون إليها، وتمنَّت لو لم يكونوا حاضرين بهذه الكثرة. ازدردت ريقها. كانت قد قرَّرت ألا تقدِّم طلبها إلى والدها في ساعة متأخرة في غرفته، حيث كان من المؤكد أنها كانت ستجده وحيداً، لأنها كانت تخشى أن يتعامل معها بعطف فحسب وألا يأخذ حديثها على محمل الجد. إن كان من المؤكَّد أنها ستتعرَّض للإحراج — وكانت تعرف، أو قالت لنفسها إنها تعرف أن طلبها سيلقى الرفض — فعلى الأقل سترى كم كان الأمر يعني لها، أن تقدِّم له طلبها وأن يلقى طلبها الرفض على مرأى من الآخرين.

التفت إليها أرلييث بابتسامته المُتمهِّلة المعتادة، لكنها كانت أكثرَ تمهلاً من المعتاد وامتدَّ أثرها إلى عينيهِ بأقلَّ من المعتاد. لم يقل: «أسرعى، أنا مشغول» كما كان ليفعل — ولو فعل ما لامه أحد، هكذا فكَرت في نفسها بأسى.

«أستمضي إلى الغرب، قريباً؟ لتعالج مسألة نيرلول؟» كان بإمكانها الشعورُ بأنظار تور موجَّهة إليها، لكنها أبقت عينيها مثبَّتتين على أبيها.

قال أبوها: «أعالج مسألة؟ إن ذهبنا، فسندهب بجيش يشهد على المعاهدة.» تسلل شيءٌ من ابتسامته إلى عينيهِ في النهاية. «أنت تتعلَّمين لغة البلاط يا عزيزتي. أجل، سندهب لنعالج مسألة» نيرلول.

قال تور: «ولدينا بعضُ الأمل في أن نأسِر الشر» — لم يكن المرء لينطق بكلمة «شيطان» إن استطاع تفاديها — «وأن نحتويه ونعيده من حيث أتى. لا يزال هذا الأمل

يرادونا حتى الآن. هذا لن يوقّف المتاعب، لكنه سيمنع أن تتفاقم الأمور. إن كان نيرلول لا يشعر بالخزي والضيّق من هذا الشر، فقد يعود إلى سابق عهده ويصبح مجددًا نيرلول الحاذق الفاتن الذي نعرفه جميعًا ونوقّره.» وافترّ فمُ تور عن ابتسامة ساخرة.

نظرت إليه واختلّجت زاويتا فمها. كان من شيم تور أن يجيئها وكأنها عضو حقيقي في البلاط الملكي، بل حتى كعضو في المداولات الرسمية، وليس باعتبارها مصدر مقاطعة أو إزعاج. ربما كان تور سيسمح لها حتى بأن تذهب معهم؛ فلم يكن مُتقدمًا في السن بما يكفي ليهتم كثيرًا برأي شعبه كما فعل أرلبيث؛ وعلاوة على ذلك، كان تور عنيدًا. لكن القرار لم يكن قرار تور. فعاودت النظر إلى والدها.

«حين تذهبون، هل يُمكنني الذهاب معكم؟» كان صوتها أعلى قليلًا من كونه حادًا، وتمنّت لو كانت إلى جوار جدار أو باب بوسعها أن تستند إليه، بدلًا من كونها في منتصف قاعة الطعام الكبيرة الخاوية، وركبتها تُحاولان الانهيار من تحتها وكأنها مُهرة لا يزيد عمرها عن ساعة واحدة.

فجأة أصبح الصمت أثقل، وصارت وجوه الرجال الماثلين أمامها جامدة؛ أو هكذا صار وجه أرلبيث ومن بعده من هم خلفه، ذلك أنها تجنّبت بكل حزم أن تنظر إلى تور. قالت في نفسها إنها لا تستطيع أن تتحمّل أن يتخلّى عنها أيضًا صديقها الوفي الوحيد؛ ولم يسبق لها مطلقًا أن حاولت أن تكتشف مدى ما ينصف به تور من عناد. ثم كُسِر الصمت بضحكات بيرليث العالية النبرة.

«حسنًا، وماذا توقّعت من السماح لها باتّباع هواها في السنوات الماضية؟ من الجيد جدًّا أن تجعلها منشغلة عنك وتمنعها من أن تكون مصدرًا لإزعاجك، لكن كان حريًّا بك أن تُفكّر في أنّ الثمن الذي دفعته للتخلّص منها ربما كان مرتفعًا بعض الارتفاع. ماذا توقّعت حين يُعطيها فخامة ولي العهد دروسًا في المبارزة وتندفع هي في الأرجاء على ذلك الجواد الثلاثي الأرجل وكأنها صبيّ مزارع من التلال، دون أن يُنكر أحدٌ عليها ذلك أبدًا عدا توبيخٍ تتلقّاه من تلك المرأة السليطة التي تعمل خادمة لها؟ ألم تفكّر فيما هو قادم من حساب؟ كانت في حاجة للتأديب، وليس للتشجيع، منذ سنوات؛ وأظنّ أنها الآن في حاجة للتأديب. ربما لم يُفْت الأوان بعد.»

«كفى.» هكذا جاء صوت تور مزمجرجًا.

كانت ساقاها ترتعشان الآن كثيرًا حتى إنها تعين عليها أن تُحرّك قدميها، مُتململة في مكانها، لتُبقي مفاصلها ثابتة حتى تحملها وتُبقّيها واقفة. وشعرت بالدم يتدفّق إلى

وجهاها بفعل كلمات بيرليث، لكنها ما كانت لتدّعه يحملها على الذهاب من دون إجابة. «ما قولك يا أبي؟»

فقال بيرليث محاكياً لها: «أبي. صحيح أن ابنة الملك يمكن أن تكون ذات نفع في مواجهة ما أرسله الشمال علينا؛ ابنة الملك التي تجري في عروقتها دماء ملكية حقيقية..»
مدّ أرلييث ذراعه، في حركة غير ملكية على الإطلاق، وأمسك تور قبل أن يكتشف أي أحد ما كان سينجم عن حركة ولي العهد المفاجئة تجاه بيرليث. «بيرليث، أنت تخون شرف منزلة الأمير الثاني بحديثك هكذا.»

فقال تور بنبرة مخنوقة: «سيعتذر، وإلا لقنّته درساً في المبارزة لن يروق له على الإطلاق.»

شرعت هي تقول في غضب: «تور، لا تكُن...» لكن قاطعها صوت الملك. «بيرليث، ثمة إنصافٌ فيما طالب به وليُّ العهد.»

ساد صمتٌ طويل كرهت هي فيه جميع الحاضرين دون تمييز؛ كرهت تور لأنه تصرّف كابن مزارعٍ أهيئت دجاجته الأليفة للتو؛ وكرهت أباهاً لأنه تصرّف بطريقة ملكية راسخة؛ وكرهت بيرليث لكونه بيرليث. كان هذا أسوأ حتى مما توقّعت؛ وعند هذه المرحلة ستكون مُمتنة لو أنها هربت وحسب، لكن كان الألوان قد فات.

فقال بيرليث في الأخير: «أعتذر، أيتها الأميرة إيرين. لأنني قلت الحقيقة»، هكذا أضاف في خبث، ثم دار على عقبيه وسار عبر القاعة. وعند الباب توقّف والتفت ليصيح فيهم: «أذهبي واقتلي تينياً يا سيدتي! السيدة إيرين، قاتلة التنانين!»

خيم الصمت عليهم، ولم يعد باستطاعتها حتى أن ترفع ناظريها في وجه أبيها.
قال أرلييث: «إيرين...»

أنبأتها الرقة في نبرة صوته بما كانت تحتاج إلى معرفته، فاستدارت وسارت مُبتعدةً نحو الجانب الآخر من القاعة، في الجهة المقابلة من الباب الذي خرج منه بيرليث. كانت تُدرك كم هو طويل الطريق الذي تعيّن عليها أن تسلكه؛ لأن بيرليث كان قد سلك الطريق الأقصر، وقد كرهته أكثر لهذا؛ وكانت واعية لكل الأنظار التي تتوجّه نحوها، وواعية لأن ساقها لا تزالان ترتجفان وأن مسارها الذي قطعته لم يكن مُستقيماً. لم يُنادها أبوها ليطلب منها العودة. ولم يفعل تور كذلك. وحين وصلت إلى الباب أخيراً، كانت كلمات بيرليث لا تزال تتردّد في أذنيها: «ابنة الملك التي تجري في عروقتها دماء ملكية حقيقية ... السيدة إيرين، قاتلة التنانين!» كانت كلماته مثل كلاب صيد مُنطلقة في أثرها تتبعها بلا كلل.

الفصل الثاني

آلمها رأسها. كان المشهد لا يزال حيًا متجددًا أمام ناظريها، حتى إن باب غرفة نومها كان قد صار شبه مفتوح قبل أن تسمع صوته. استدارت بحركة سريعة، لكن لم يكن القادم سوى تيكّا، تحمل صينية؛ نظرت تيكّا نظرةً إلى وجهها المُتجهّم وحولّت نظرها. فكّرت إيرين في نفسها بمزاجٍ نكد أن الاختيار قد وقع عليها خادمةً في البداية على الأرجح بسبب مهارتها في تحويل نظرها؛ لكنها لاحظت حينها الصينية، ورائحة البخار التي تتصاعد منها، وعلامة القلق البادية بين حاجبي تيكّا. فارتخى وجهها.

قالت تيكّا: «لا يُمكنك الامتناع عن الطعام.»

فأجابتها إيرين: «لم أفكر في هذا»، مُدركةً صحّة هذا.

حينها قالت تيكّا: «ينبغي ألا يدفعك الاستياء إلى أن تنسّي أمرَ تناول الطعام.» ثم نظرت بحدّة إلى سيدتها الشابة، فبدّت علامة القلق أعمقَ على وجهها.

فقالت إيرين بنبرةٍ جافة: «الاستياء.»

تنهّدت تيكّا. «الاختباء. إطالة التفكير. سمّيه ما شئت. إنه ليس من صالحك.»

فأشارت إيرين: «ولا من صالحك.»

تبدّد شيء من القلق بابتسامة. «ولا من صالحِي.»

«سأحاول التقليل من استيائي إن قللت من قلقك.»

وضعت تيكّا الصينية على الطاولة وبدأت ترفع المناديل عن الأطباق. «لقد افتقدك

ثلاث اليوم.»

«بالطبع هو مَنْ أخبرك بذلك.» كانت إيرين تعرف جيدًا خوفَ تيكّا من كل شيءٍ

حجمه أكبر من أصغر حصان قزم، ومن ثمّ كانت تعرف أنها كانت تترك مسافةً كبيرة جدًا

بينها وبين الإسطبلات ومراعي الماشية وراءها. «سأذهب إليه بعد حلول الظلام.» وعادت

النظر إلى النافذة. كان هناك الكثير من الغادين والرائحين عبر الفناء الممتد الذي تُطل عليه غرفتها؛ فرأت المزيد من الرسل، وَرَجُلَيْنِ يَسْتَبِقَانِ في سيرهما مرتديَيْنِ الزيَّ الرسمي لجيش الملك، وعلى ساعديهما الأيسرين شريطة حمراء تدل على الفرقة التي ينتميان إليها وهي فيلق الإمداد. كانت عملية تجهيز رفقة الملك استعدادًا لمسيرها غربًا تتقدّم بوتيرة مُسرعة وتتزايد حتى كادت أن تكون مذعورة. في الظروف العادية لم تكن إيرين ترى أي أحد من نافذة غرفة نومها عدا أحد رجال الحاشية بين الحين والآخر يتباطأ في سيره.

اهتزَّ فجأةً شيءٌ على الصينية، وجاء بعده صوتٌ تنهيدة. «إيرين ...»

فقالَت إيرين دون أن تلتفت: «لقد فكَّرتُ بالفعل في كلِّ ما ستقولينه.»

ساد الصمت. ثم التفتت إيرين في النهاية نحو تيكاً، فوقفت ورأسها وكثفاها منحنيان تحدّق إلى الصينية. كانت الأطباق من الخزف الثقيل الحسّن الأنيق، لكن كان من السهل استبدالها إذا ما كسرت إيرين أحدها، وكثيراً ما كانت تفعل؛ ولم تكن تملك «الهمة» الصغيرة التي تُتيح لها تصليحها. حدّقت إيرين إلى الأطباق. كان تور يصلح ما تكسره حين كانت طفلة، لكنها كانت أكثر تكبراً من أن تلتمس ذلك؛ إذ كانت قد تخطّت بكثير المرحلة العمرية التي ينبغي لها فيها أن تكون قادرةً على أن تؤلّف أجزاء الأطباق معاً، ثم تنظر إليها بالنظرة الملكية الغريبة الموهوبة، فتجعلها تعود كسابق عهدها. ولم يكن كِبَرُ حجمها ولا كونها خرقاء غير عادية تستطيع تكسير الأشياء الموجودة معها في المكان نفسه، لم يكن ذلك ليعزّز طُمأنينتها ولا مزاجها الآن؛ وكأنّ القدر أراد لها ألا تنسى أبداً أنه حرّمها شيئاً كان ينبغي أن يكون حقّها المكتسب بالولادة. ولم تكن إيرين شابة تتصّف بأنها خرقاء جدّاً، لكنها في الوقت الراهن كانت مقتنعة جدّاً بافتقارها إلى التناسق بحيث كان لا يزال بإمكانها كسر الأشياء بين الحين والآخر بسبب الجزع المحض.

كانت تيكاً قد بدّلت في صمتٍ الأطباق الملكية الفاخرة بتلك الخزفية قبل عدة سنوات، بعدما اكتشفت جالاناً أن الأطباق الملوّنة باللّونين الأحمر والذهبي التي ينبغي ألا يستخدمها إلا أعضاء دائرة المنزل الملكي الأسمى — والتي تضم إيرين — كانت تختفي شيئاً فشيئاً. وقد أصابتها نوبة غضبٍ قوية جرّاء ذلك، وتسبّبت في أزمةٍ وفزع لدى الخدم كلهم بمختلف درجاتهم، وطُردت على إثر ذلك ثلاثٌ من أحدث الفتيات الخادِمات وأدناهنّ منزلةً للاشتباه في أنهنّ يسرقن، وبعد ذلك، حين لم يتمكّن أحد من غض الطرف عن حالة الفوضى التي كانت تتسبّب فيها، وجدت وسيلةً لاكتشاف أن اختفاء الأشياء ليس إلا نتيجة لكون إيرين خرقاء. قالت جالاناً لإيرين المُتمرّدة، في خبثٍ مُستتر يكمن وراء كلماتها: «أيتها الطفلة

المُثيرة للاشمئزاز، حتى ولو كنتِ عاجزة عن إصلاح الأشياء من حولك، يمكنكِ الاحتفاظ بالقِطْع لتَدْعِي أَحَدًا يُصلحها لكِ.»

فَقَالَت إيرين بَبْغُص: «كنت لأشْنِق نفسي أولاً، ثم أعود في هيئة شبح وأطاردكِ حتى يَضْنِيكِ الخوف وتفقدِي جمالكِ ويشير الناس في الشارع نحوكِ ...»

هنا صَفَعَتْهَا جالانا، وكان هذا خطأً تَكْتِيكِيًّا. ففي المقام الأول، لم يتطلَّب الأمر من إيرين سوى هذا السبب لكي تقفز عليها وتَقْلِبْها على الأرض، فتُصِيب إحدى عينيها بكدمة وتُمرِّع معظم قماش الدانتيل من الفستان المُخَصَّص للخروج بعد الظهيرة المنمَّق للغاية — وبطريقةٍ ما كان أفراد البلاط الملكي والخدم الشهود على هذا المشهد بَطِيئِينَ قليلًا في سحب إيرين من فوقها — وفي المقام الثاني، خَرَبَت الصَفْعَةُ وما نتج عنها محاولة جالانا الاضطلاع بدور السيدة العظيمة التي تتعامل مع طفلةٍ وضيفة. وقد اعتبر الجميع، ومن بينهم جالانا نفسها، أن إيرين فازت بتلك الجولة. ومن بين الفتيات الخادِمات الثلاث، أُعِدَّت إحداهن إلى الخدمة، وأُوكل إلى الثانية عملٌ في الإسطبلات، وهو ما كانت تَفْضُله كثيرًا، أما الثالثة، التي صرَّحت بأنها لا ترغب في أن يكون لها أيُّ صلة بالمنزل الملكي حتى ولو تسبَّب قولها ذلك في قطع رأسها بتهمة الخيانة، فقد عادت إلى منزلها في قريتها التي تبعد عن المدينة كثيرًا.

تنهَّدت إيرين. كانت الحياة أسهل حين كان هدفها المنشود هو قتل جالانا بيديها المجرَّدَتَيْن. وقد استمرت إيرين بالطبع في استخدام الأوعية الفاخرة حين كانت تتناول الطعام مع أفراد البلاط الملكي؛ وحين كانت أصغر سنًا، لحسن الحظ، كان من النادر أن تُجَبَّر على فعل ذلك، حيث لم تكن تتناول الكثير من الطعام، لكنها كانت تجلس متصلةً ومتأهبة طوال الأمسية (كانت حُلقة جالانا فيها، والتي تُشبه حُلقة الأصلة، من مسافة بعيدة على الطاولة العالية تُساعد على ذلك). لكنها على الأقل لم تكسر شيئًا كذلك، وكان بالإمكان إقناع تيكَا دائمًا بأن تُحْضِر لها عشاءً مُتأخِّرًا كلما اقتضت الحاجة. وكانت تُحْضِرُه في أنية خزفية.

رفعت إيرين ناظريها إلى تيكَا، التي كانت لا تزال واقفةً بلا حراك خلف الصينية. «تيكَا، أسفة لكوني مُتعبة. يبدو أنه ليس باستطاعتي التوقُّف عن ذلك. إنه شيء يجري في دمي، مثل كوني خرقاء، مثل كلِّ شيءٍ آخر بداخلي مُختلف عن المعتاد.» ثم سارت نحو العجوز واحتضنتها، رفعت تيكَا نظرها وابتسمت ابتسامةً خفيفة.

«أكره أن أراكِ ... تتنازعين مع كل شيءٍ بهذه الطريقة.»

ارتفعت عينا إيرين دون إرادة منها إلى السيف العتيق المجرد من النقوش والمعلق فوق رأس سريرها المرتفع المغطى بالستائر.

«تعرفين أن بيرليث وجالانا مقيتان لأنهما بغيضان ...»

قاطعتها إيرين ببطء: «أجل. ولأنني الابنة الوحيدة للساحرة التي سحرت الملك وجعلته يتزوجها، ولأنني هدف سهل للغاية.» ثم قالت قبل أن تحظى الأخرى بفرصة مقاطعتها: «تيكا، أظنن أن جالانا هي من أخبرتني بتلك القصة أولاً؟ ما برحت أحاول أن أتذكر متى سمعتها للمرة الأولى.»

فتساءلت تيكا، حريصة على أن تكون حيادية: «قصة؟» كانت حريصة دوماً على أن تكون حيادية بشأن والده إيرين، الأمر الذي كان أحد أسباب استمرار إيرين في سؤالها عن أمها.

«أجل. إن أُمِّي سحرت والدي لتنجب منه وريثاً يحكم دامار، وأنها ماتت قانطة حين عرفت أنها أنجبت بنتاً وليس ولداً، حيث إنهم دائماً ما يجدون طريقة يتفادون بها السماح للبنات بأن يرثن.»

هزت تيكا رأسها بنفاد صبر.

قالت إيرين: «لقد ماتت.»

«تموت النسوة أثناء المخاض.»

«لكن ليس الساحرات، غالباً.»

«لم تكن ساحرة.»

تنهدت إيرين، ونظرت إلى يديها الكبيرتين المخططتين بخطوط غليظة من الجلد والمصابة بندوب قديمة من السيف والدرع وشق طريقها عبر الأغصان المتشابكة في الغابة خلف تنانينها — «قاتلة التنانين» — ومن السقوط من فوق صهوة ثلاث الوفي. «لا شك أن من شأن المرء أن يظن أنها لم تكن ساحرة من الحال التي كانت عليها ابنتها. فلو كانت أُمِّي المسكينة قد رزقت بصبي وتبين أنه مثلي، ما كان ذلك لينفعها بشيء.» صمتت إيرين وأطالت النظر والتفكير في آخر ندباتها التي كان سببها حرقاً أصابها، حيث لعقها تنين ولم يكن الدهان موزعاً بالتساوي عليها. «كيف كانت أُمِّي؟»

بدت تيكا مُستغرقة في التفكير. ونظرت هي الأخرى نحو سيف إيرين ورماحها لقتل التنانين، لكن إيرين كانت واثقة جداً من أنها لم تكن تنظر إليهم، ذلك أن تيكا لم تكن تحبذ هوايتها باعتبارها أميرة أولى. «كانت قريبة الشبه منك كثيراً لكنها كانت أصغر حجماً

— كادت أن تكون ضعيفة البنية.» ثم ارتفعت كتفاها. «ضعيفة البنية جدًّا بحيث لم تكن تستطيع أن تحمل بطفل. ورغم ذلك كان الأمر وكأن شيئاً بداخلها يتآكل؛ كانت ثمّة نار خلف تلك البشرة الشاحبة، مُستعرةً على الدوام. أظن أنها عرفت أنها لا تملك من الوقت إلا القليل، وأنها كانت تقاتل لتكسب ما يكفي من وقتٍ لتكون حُبلى بطفلها.»

عادت تيكا للتركيز على الحجرة بعينيهما، وأبعدت ناظريها سريعاً عن رماح التنانين. ثم قالت: «كنتِ طفلةً قويةً وجميلةً منذ وُلدتِ.»

«أتظنّين أنها سحّرت أبي؟»

نظرت إليها تيكا مُقطّبة. وقالت: «لماذا تسألين سؤالاً سخيفاً هكذا؟»

«أحب سماعكِ تروين القصص.»

ضحكت تيكا رغماً عنها. «في واقع الأمر. لا، لا أظن أنها سحّرت أباك؛ ليس بالطريقة التي تقصدها جالانا وجماعتهما على أيّ حال. لقد أُغرِمتَ به، وأُغرِمَ بها؛ وهذا إن شئت من السّحر.»

كانتا قد خاضتا هذا النقاش من قبل؛ خاضتاه مراتٍ كثيرةٍ مذ أصبحت إيرين كبيرةً بما يكفي لتتحدّث وتطرح الأسئلة. لكن على مرّ السنين كانت تيكا في بعض الأحيان تنطق بجملةٍ أو صفةٍ إضافية فيما تطرح إيرين الأسئلة نفسها، وهكذا ظلّت إيرين تسأل. لم يكن لديها أدنى شكٍّ في أنه كان ثمّة لغز. لم يكن أبوها يناقش أمرَ والدتها معها مطلقاً، عدا إخبارها إنه لا يزال يفتقدها، وقد وجدت إيرين هذا مطمئناً إلى حدٍّ ما. لكن لم تستطع إيرين قطعاً حُسم رأيها بشأن ما إن كانت حقيقة اللُّغز معروفة للجميع عداها، وأن تلك الحقيقة قاسية جدًّا فلا يُمكن الحديث عنها، خاصةً لابنة مصدر اللغز، أو إن كان اللغز مجهولاً للجميع ومن ثم كانوا يُلْقون باللوم عليها لأنها تُدكّرهم به دون توقّف. إجمالاً كانت تميل نحو الاحتمال الأخير؛ فلم تستطع أن تتخيّل شيئاً أبغض من هذا بحيث تتورّع جالانا عن استخدامه ضدّها. وإن كان ثمّة شيء مريع بهذا القدر، فلن يقدر بيرليث على مقاومة التوقف عن تجاهلها فترةً طويلة بما يكفي ليفسّر.

كانت تيكا قد التفتت عائدةً إلى الصينية وصبّت كوباً من الملاك الساخن، وقدّمته لإيرين التي جلست متربّعةً على فراشها، فكان قراب السيف المتدلي يمسّ مؤخّر عنقها.

«لقد أحضرتُ قضبان الميك أيضاً لأجل تالانت، حتى لا تحتاجي إلى الذهاب إلى المطبخ

إن كنتِ لا ترغبين في ذلك.»

ضحكت إيرين. «أنتِ تعرفينني معرفةً حقيقية. فبعد نوبة الاستياء، أتلَّسُ إلى الإسطبلات بعد حلول الظلام — حبذا لو كان بعد وقت النوم — وأتحدَّثُ إلى حصاني.»
ابتسمت تيكا وجلست على الوسادة المُطرَّزة باللونين الأحمر والأزرق على الكرسي المجاور لفراش إيرين (كان التطريز من صنْعها هي وليس من صنْع إيرين). «لقد أمضيتُ وقتًا طويلًا في تربيتك، على مرِّ تلك السنين الطويلة.»

أقرَّت إيرين قائلةً: «سنين طويلة جدًا» وهي تمدُّ يدها نحو ساقٍ من التوربي. «خبريني عن أُمي.»

أخذت تيكا تفكّر. وقالت: «أنت ذات يوم إلى المدينة سيرًا. بدا أنها لم تكن تملك شيئًا سوى الرداء الطويل الباهت الذي كانت ترتديه؛ لكنها كانت طيبة، وكانت تعامل الحيوانات معاملةً طيبة، وأحبَّها الناس.»

«حتى تزوّجها الملك.»

أخذت تيكا شريحة خبزٍ داكن وقسمتها إلى نصفين. «كان بعضهم يحبُّها حتى عندما تزوجها الملك.»

«أكنتِ تحبينها؟»

«ما كان الملك أرليث سيختارني لرعاية ابنتها لولا ذلك.»

«هل أشبهُها إلى هذا الحد الذي يقوله الناس؟»

حدّقت فيها تيكا، لكن شعرت إيرين أن مَنْ كانت تيكا تنظر إليها هي والدتها. «أنتِ تُشبهين أُمكِ كثيرًا لو كانت صحيحة وقوية ولم يُصبها أذى. لم تكن والدتك بالغةً الجمال، لكنها كانت ... تأسّر الأنظار. أنتِ أيضًا كذلك.»

فكّرت إيرين في سريرتها، في أنها تأسّر نظر تور، ولهذا تكرهها جالانا بحماسٍ أكبر مما كانت ستفعل في أي حالٍ آخر. إنها أغبى من أن تدرك الفارق بين ذلك النوع من الحب وحب الصديق لصديقه الذي يعتمد على علاقة الصداقة تحديدًا، أو حب ابن المزارع لدجاجة الأليفة. أتساءل إن كان بيرليث يكرهني لأن زوجته كانت تتطلّع إلى أن تتزوَّج تور، أم فقط لأسبابٍ صغيرةٍ سطحية تخصّه. «إنما ذلك بسبب الشعر البرتقالي السخيف وحسب.»

«ليس برتقاليًا. إنه بلون الذهب.»

«النار لونها برتقالي.»

«أنتِ ميثوس منك.»

ابتسمت إيرين رغم امتلاء فمها بالخبز. «أجل. وإضافة إلى ذلك، من الأفضل أن يكون المرء ميثوسًا منه؛ لأن ...» وهنا اختفت الابتسامة.

فقالت تيكا بلهفة: «عزيزتي، لا يمكن أن تكوني قد صدقت أن أباك كان سيسمح لك بالذهاب مع الجيش. قلة من النسوة يفعلن ذلك ...»

فقالت إيرين بحدّة: «ولهنّ جميعاً أزواج، ولا يذهبن إلا بتصريح خاص من الملك، وشريطة أن يتقن الرقص بقدر إتقانهن ركوب الخيل. ولم تركب امرأة مطلقاً بجوار الملك منذ أن تعلم الرجال على يد إيرينا، إلهة الشرف والنار، صناعة سيوفهم. من شأن المرء أن يظن أن إيرينا كانت يمكن أن تتمتع بإدراك أفضل. أظن أننا جميعاً كنّا سنظل نركب إلى جوار الملوك لو كنّا لا نزال نستخدم المقاليع والأغاني السحرية. كانوا في حاجة لأصوات النسوة من أجل أن تجدي الأغاني نفعا ...»

فقالت تيكا في حزم: «ما تلك إلا أسطورة جذابة. فلو كان الغناء يجدي نفعا لظللنا نستخدمه.»

«لماذا؟ لربما ضاع ذلك مع التاج. على الأقل كانوا سيُسْمُونِي كوبكا أو مارلي أو ... أو جالانا أو شيئاً من هذا القبيل. شيئاً يُقدّم لي تحذيراً منصفاً.»

«لقد أطلقوا عليك اسم والدتك.»

فقالت إيرين: «إذن لا بد وأنها كانت دامارية.» وكانت تلك المسألة أيضاً محلّ جدال قديم. «إيرينا كانت دامارية.»

قالت تيكا: «إيرينا دامارية بالفعل، وهي إلهة. لا أحد يعرف من أين أتت في البداية.» ثم ساد الصمت. توقفت إيرين عن المضغ. ثم تذكّرت أنها كانت تأكل، فابتلعت الطعام، وتناولت قضمّة أخرى من الخبز والتوربي. «لا، لا أظن أنني حسبت مطلقاً أن الملك كان سيسمح لابنته الوحيدة، التي هي دون المستوى بطريقة ما، أن تركب الخيل لتدخل معركة محتملة، حتى ولو كان التعامل مع السيف هو الشيء الوحيد الذي برعت فيه بدرجة قليلة؛ وركصها ليس مرضياً قطعاً.» ثم نخرت. وأردفت: «تور مُعلّم جيد. لقد علّمني بصبر كما لو كان من الطبيعي لابنة الملك أن تتعلّم كل ضربة سيفٍ عن ظهر قلب، وأن تتدرّب على كل مناورة حتى تحفظها العضلات نفسها؛ ذلك أن لا شيء يستيقظ في دم ابنة الملك ليوجّهها.» ونظرت إيرين إلى تيكا بعينين مُحمرّتين، وهي تتذكّر مجدداً كلمات بيرليث وهو يُغادر القاعة ليلة أمس. «ليس من السهل قتل التنانين يا تيكا.»

فقالت تيكا بنبهة صادقة: «ما كنت لأرغب في أن يتعيّن عليّ قتل تنين.» كانت تيكا خادمة وراعية، وكانت تُعد الحليب المُخمر وتحيك الرُقع في القماش، وهي ساخرة ومواسية

وصديقة، ولم تُكْ ترى شيئاً جميلاً في سيفِ جيدِ التوازن، كما كانت ترتدي دوماً التنانيرِ الطويلة الكاملة والمآزر.

انفجرت إيرين ضاحكة. «أجل، لستُ مندهشةً من ذلك..»
فابتسمت تيكا في ارتياح.

أكلت إيرين بضعة قضبان من الميك قبل هبوط الظلام وتمكّنت من أن تتسلل خلسةً من القلعة باستخدام السلالم الضيقة الخلفية التي لم يكن أحدٌ آخر يستخدمها، ودلفت إلى أكبر الحظائر الملكية التي تُحفظ فيها خيولُ الدائرة الأولى. كان يروق لها أن تتظاهر بأن الرجال والنساء الذين يتعهدون الخيول على الدوام، أي السُّيَّاس، لم يلاحظوها في كل مرة تتسلل فيها في ساعةٍ غير معهودة من الليل لتزور تالّات. كان يمكن لأي أحدٍ آخر ممن يحملون الدّم الملكي أن يحرص على ألا يراه أحد لو أراد ذلك؛ أما إيرين فلم يكن بمقدورها إلا أن تتسلل على أطراف أصابعها في الظلام، حين يكون ثمة ظلام، وتخفّض صوتها؛ ورغم ذلك كانت تعرف أن وجودها كان ببساطة معروفاً وكان مسموحاً لها أن تمرّ. تقبّل السُّيَّاس أنها حين تأتي بهذا الهدوء فإنها ترغب في أن يتركوها وشأنها، وكانوا يحترمون رغباتها؛ وكان هورنمار، وهو السائس الخاص بالملك، صديقها. عرف جميع السُّيَّاس ما فعلته من أجل تالّات؛ لذا حقيقة أنهم كانوا عطوفين معها بتجاهلهم لها كانت تؤلّها أقلّ مما تؤلّهم تصرفاتٌ مشابهة تجاه نقائص الأميرة الأولى في أماكن أخرى من البلاط الملكي. كان تالّات يتساءل عما حلّ بها على مدار ما يقرب من يومين، وكان عليها أن تطعمه آخر ثلاثة قضبان من الميك قبل أن يُسامحها؛ راح تالّات يتشمّم سائر جسدها، من ناحية لكي يطمئن إلى أنها لم تكن تُخبئ أي شيءٍ آخر يُمكنه تناوله، ومن ناحيةٍ أخرى ليطمئن إلى أنها عادت إليه فعلاً. ثم فرك وجنته في حزن على كمّها ورفع عينه معاتباً إيّاها.

كان تالّات يُقاربها في العمر؛ إذ كان حصان والدها حين كانت صغيرة. تذكّرت إيرين الحصان الرمادي الداكن المرقط برقط سوداء لامعة على كتفيه وخاصرته، وعينيّه الداكنتين المتحمّستين. كانت زينات الملك تبدو جيدةً عليه خاصةً: زماءاً وعذاراً أحمرين، وحاشية حمراء للسرّج، ودرع صدر عريضاً أحمر به ورقة شجر ذهبية مطرّزة عليه؛ ورقة شجرة السوركا، شعار الملك، ذلك أن واحداً فقط من ذوي الدّم الملكي بإمكانه أن يلمس ورقة السوركا ولا يموت من نُسْغها.

لقد أصبح جلّ الحصان أبيض الآن. وكلّ ما بقي من شبابه كانت بضع شعرات سوداء على عرفه وذيله، وأطراف أذنيه السوداء.

«لم يهجركَ أحد؛ لا تحاول حتى أن تجعلني أظن ذلك. فأنت تحصل على الطعام والماء، ويُسمح لك يومياً بأن تخرج لتتمرَّغ في التراب سواء أُتيَتْ أم لم آتِ.» ثم مرَّرت يدها على ظهره؛ لا شك أن أحدَ تابعي هورنمار قد مشَّطه تمشيطاً جيداً، لكن تاللات كان يُحب أن يُدَلَّل كثيراً؛ لذا جلبت إيرين الفرش وأخذت تمشُّطه ثانيةً فيما مدَّ عنقه وأخذ يلوي قسماً وجهه بما ينمُّ عن الاستمتاع. وقد هدأت إيرين وهي تفعل ما تفعل، وتلاشت من رأسها ذكرى المشهد في القاعة، وهدأت حالتها المزاجية التي كانت قد سيطرت عليها طوال اليومين الماضيين وبدأت تتبدَّد كالغمام في وجه الريح.

الفصل الثالث

كانت إيرين في صغرها تعشق تالأت، فَحَلَّ الحربِ الجسورَ الخاصَّ بوالدها، برأسه الشامخ وذيله المرتفع. وقد رأت أن من البديع أن يقف على قائمتيه الخلفيتين ويُهَاجِمُ أيَّ أحد عدا هورنمار ووالدها، كان الجواد يقف على قائمتيه الخلفيتين وأذناه مُستقيمتان جهة الخلف، بحيث يبدو رأسه الطويل الإسفيني الشكل وكأنه ثعبانٌ يُهاجم.

لكن حين كانت في الثانية عشرة من عمرها كان والدها قد انطلق إلى معركة حدودية؛ إذ كانت طُغمة قليلة من الشماليين قد تسلَّت عبرَ الجبال وأحرقت قرية دامارية. كان شيء من هذا القبيل يحدث بصورة متكررة، وفي تلك الأيام كان أرلييث أو أخوه ثومار يتولَّيان أمرَ هذه الأحداث، فكانا يركبان الخيلَ على عجلٍ مُتَشَجَّعين لسحق مجموعةٍ قليلة من الشماليين الذين مكثوا لينهبوا ويغنموا بدلاً من أن يعودوا من فورهم عبرَ الحدود. وكان الشماليون يعرفون أن انتقام الداماريين دائماً ما يكون سريعاً، لكن دائماً ما تكون منهم قلةٌ جشعة متباطئة. كان هذا هو دور أرلييث هذه المرة؛ وقد كان هناك من الشماليين عددٌ أكثر من المعتاد. قُتِل ثلاثة رجال مباشرةً ولَقِيَ حصان حتفه؛ وأُصيب رجلان بجروح ... وكذا أُصيب تالأت.

كان تالأت قد تلقَّى ضربةً بسيف أحد الشماليين شَقَّتْ خاصرته جهة اليمين، لكنه حمل أرلييث آمناً عبرَ المعركة حتى نهايتها. وارتاع أرلييث حين أصبح أخيراً في حلٍّ لأن ينزل عن صهوته ويتعهَّد الجرح؛ فقد قُطعت عضلاته وأوتاره؛ كان يُفترض أن يسقط الجواد حين تلقَّى الضربة. إنَّ أول ما جال ببال أرلييث هو أن ينهي حياته في حينها؛ لكنه نظر إلى وجه جواده الأثير، وقد التوت شفاهُ كاشفةً عن أسنانه وبدا بياض عينه حول حدقتها: كان تالأت يتحدَّى سيِّده أن يقتله، ولم يستطع سيِّده فعلها. فكَّر أرلييث إن كان

الجواد عنيدًا بما يكفي ليسير إلى المنزل على ثلاثة أرجل، فأنا عنيد بما يكفي لأن أدعه يحاول.

كانت إيرين من أوائل مَنْ هرولوا خارج المدينة والتقت بالسريّة العائدة. وكانت السرية بطيئةً في عودتها للديار؛ ذلك أن تالأت كان قد حدّد إيقاع مسيرهم، ومع أن إيرين كانت تعرف أن رسولاً كان سيُرسل إلى المدينة في الطليعة لو كان أي شيء قد حدث لوالدها، إلا أن بطئهم كان يُقلقها؛ وشعرت بخوفٍ مريعٍ يعتصر أمعاءها حين رأت تالأت أول ما رأت، ورأسه يتدلّى فيكاد يصل إلى رُكبتَيْه، وهو يضع سيقانه الثلاث ببطءٍ واحدةً تلو الأخرى ويَحْجَل على الرابعة. وحينها فقط رأت أباهما يسير على الجانب البعيد من الجواد.

بطريقةٍ ما صعد تالأت بصعوبةٍ التلّ الأخير نحو القلعة، وتحرك ببطءٍ إلى داخل مربطه، وبتنهيدةٍ فظيعةٍ شاقّةٍ استلقى ببطءٍ على القش، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يجلس فيها منذ تلقى ضربةَ السيف. قال أرلبيث مُتجهّماً: «لقد قطع كل هذه المسافة»، وأرسل في طلب المُعالجين؛ لكنهم حين أتوا مُحاصرين تالأت في مربطه، هبّ واقفاً وخوَّفهم، وحين حاولوا أن يصبّوا المخدّر في حلقة، تطلّب الأمر أربعةً من الخدم وسلسلةً مربوطة حول فكّه لتثبيته.

وقد خاطوا له جرح ساقه، وشُفيت. لكنه صار أعرج، وسيظل أعرج طوال حياته. أحالوه إلى مرعى خاصٍّ به، أخضرٍ بعُشبٍ طوله يُقارب ارتفاع صدره، معتدل الجو بفعل الأشجار فيه، به جدولٌ صغير يشرب منه وبركة ينقع نفسه فيها، وطين عند حافة البركة ليتمرّغ فيه، وسقيفة كبيرة جافة وجميلة تقيه المطر؛ وكان هورنمار يُحضّر له الحبوب في الصباح والمساء ويتحدّث إليه.

لكن تالأت ازداد نحولاً وبدأ يفقد رُقطة السوداء؛ إذ خُشن شعر جلده ولم يأكل الحبوب، ورفض التعامل مع هورنمار؛ لأن هورنمار كان حينئذٍ يرعى جواد الحرب الجديد لأرلبيث.

كان أرلبيث قد علّق آماله على أن يُنجبَ له تالأت أمهارة؛ وما كان ليرغب في شيءٍ أفضل من أن يمتطي صهوة تالأت ثانية. لكن ساق تالأت المُصابة كانت ضعيفةً للغاية؛ فلم يكن بإمكانه أن يَعْتَلِي إناث الخيل، ومن ثمّ كان يُهاجمها بضراوة، وكان ينقلب على سائسيه حين يحاولون منعه من ذلك. وقد أُعيد تالأت إلى مرعاه في خزي. فلو كان حصاناً عادياً ولم يكن الأثير عند الملك، لصار طعاماً للكلاب.

كان قد مرّ ما يزيد على سنتين منذ أن اقتاد أرلبيث تالأت إلى الديار من آخر معاركه، وكانت إيرين في الخامسة عشرة من عمرها حين أكلت بعض أوراق السوركا. ففيما كانوا

يُحاولون أن يجعلوا ثلاث يتناسل، كانت إيرين تترنَّح وتسقط من فوق السلاالم ويطاردها دخان أرجواني ينبعث من كهوفٍ قرمزية.

بدأ الأمر بمواجهةٍ مع جالانا، كما بدأ الكثير من أسوأ المتاعب التي حدثت لإيرين. كانت جالانا هي الأصغر بين أفراد العائلة الملكية باستثناء إيرين، وكانت على مشارف السابعة من عمرها حين وُلدت إيرين. وكانت جالانا قد أصبحت مُعتادةً تمامًا أن تكون الطفلة المدللة للأسرة، فكانت تتلقَّى المُلطفة والمُداعبة؛ وكانت طفلةً غايةً في الجمال، وقد تعلَّمت بسهولةٍ أفضل سُبُل استغلال مَنْ يُرجَّح أن يُدللوها. وكان تور هو الأقرب لها في العمر؛ إذ كان يكبرها بأربعة أعوام فقط، لكنه دائمًا ما كان يحاول أن يتظاهر بأنه ناضج بقدر بقية أقربائه بيرليث وثورني وجريث، الذين كانوا أكبر منه بست وسبع وعشر سنوات. ولم يكن تور يشكِّل تهديدًا، أما قريبتهم التالية الأصغر سنًا، كاتاه، فكانت تكبر جالانا بخمس عشرة سنة، وكانت المسكينة كاتاه بسيطةً وساذجة. (وقد تزوّجت أيضًا بعد فترة قصيرة للغاية من ولادة إيرين، بأحد البارونات القرويين، حيث ازدهرت حياتها؛ الأمر الذي أثار اشمئزاز جالانا كثيرًا، وأصبحت شهيرةً بأنها سوّت خلافًا في أسرة زوجها على أرض، كان سببًا في صراع دموي طويل استمرَّ أجيالًا.)

لم تكن جالانا مسرورة على الإطلاق بولادة إيرين؛ فلم تكن إيرين تحمل لقب أميرة أولى وحسب — اللقب الذي لن تحمله جالانا أبدًا إلا إذا تمكَّنت من الزواج بتور — بل إن أمها ماتت وهي تلدها، الأمر الذي جعل إيرين شخصيةً مثيرةً للاهتمام جدًّا داخل الأسرة نفسها التي كانت جالانا ترغب في أن تستمرَّ في أن تتمحور حولها هي.

كانت إيرين بطبيعتها من نوع الأطفال الذي يقع في المتاعب أولًا ثم يفكر في الأمر لاحقًا إن فعل، وكانت جالانا بدورها فطنةً إلى حدٍّ كبير. كانت جالانا هي مَنْ تحدّثت إيرين لتتناول ورقة من السوركا؛ تحدّثت بأن قالت إن إيرين ستخشى أن تمسّ النبات الملكي؛ لأنها لم تكن تحمل دمًا ملكيًا حقيقيًا؛ وأنها انتكاسةٌ إلى نسل أمها من الساحرات، وأن أرلييث كان أباه اسمًا فقط. وأنها ستموت إن مسّت نبات السوركا.

كان ينبغي لإيرين، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، أن تكون قد أظهرت بالفعل علاماتٍ على «هبات» دمها الملكي؛ عادةً ما تبدأ «الهبة» في إظهار وجودها — في أغلب الأحيان من خلال نوباتٍ سببها روح شريرة — في سنٍّ أصغر من ذلك بسنوات. كانت جالانا قد دبّرت لأن توارى كُرهمها لأصغر أقربائها طوال سنوات بعد أن كانت نوبات غضبها على مولد إيرين قد باءت بفشل تام؛ لكن مؤخرًا خطر لجالانا، التي كانت حينئذٍ

قد تقدّمت في العمر، أن إيرين لو كانت حقًا انتكاسة، أو تسلية — كما بدأ يظهر حقًا — لكان جالانا مُسوَّغٌ ممتاز يجعلها تزدرى إيرين وتمقّتها؛ فوجود إيرين كان عارًا على الشرف الملكي.

وقفت الاثنتان متواجهتين وحيدتين في الحديقة الملكية، تتبادلان التحديق إحداهما في الأخرى. كانت جالانا قد اكتملت نموًا وجمالًا بحلول ذلك الوقت؛ كان شعرها الأسود الضارب إلى الزُرقة يتدلّى متجاوزًا وركيها في تموجات ثقيلة، وكان مثبتًا في مكانه ببراعة من خلال شبكة ذهبية من خيوط دقيقة نُظمت فيها حبّات اللؤلؤ؛ وكانت وجنتاها محمرّتين من الغضب على نحو جذّاب حتى أصبحتا في حمرة شفّتها، وكانت عيناها السوداوان الواسعتان جدًّا مفتوحتين على اتساعهما. وكادت أهدابها الطويلة أن تنمو مُجدّدًا منذ الليلة التي وضعت فيها إيرين مُخدّرًا في نبيذ عَشائها وتسَلّلت إلى حجرة نومها في وقت لاحق وقصّت أهدابها. عرف الجميع من فورهم مَنْ فعلها، ولم تتكبّد إيرين عناء إنكار ذلك؛ ففي عموم الأمر كانت إيرين تزدرى الكذب. كانت إيرين قد قالت أمام البلاط المنعقد — ذلك أن جالانا كانت قد أصرّت كالعادة أن تعقد جلسة خصومة علنية — إنه يجب على جالانا أن تكون مُمتنةً لأنها لم تحلق لها شعر رأسها؛ كانت جالانا تنخر كالخنزير في نومها، وما كانت لتستيقظ منه حتى لو رمّتها خارج نافذة حجرة نومها. عندئذ انفجرت جالانا في نوبة هستيرية قوية وتحتّم أن تُحمَل إلى خارج القاعة (كانت ترتدي بُرقعًا يغطي وجهها حتى شفّتها، حتى لا يمكن لأحد أن يرى ملامحها المُدمّرة) وأبعدت إيرين إلى غرفتها الخاصة مدة أسبوعين.

كانت إيرين في نفس طول جالانا، فكان جسد جالانا مكتنزًا وصغيرًا ومستديرًا، وكان جسد إيرين طويلًا وأخرق؛ وكانت بشرة إيرين الشاحبة تُظهر بُقعًا حين تغضب، وشعرها المائج بعنف — الذي حين يكون مبتلًا بعد استحمامها يكون في واقع الأمر أطول من شعر جالانا — ازداد تموجًا بفعل حرارة انفعالها، رغم كلّ ما به من دبابيس تحاول أن تُبقيه تحت السيطرة. كانتا وحيدتين في الحديقة؛ ولم تكن جالانا تخشى أن تثرثر إيرين بما حدث أيًّا كان (كان ذلك ذريعةً ممتازة أخرى لجالانا كي تزدرى إيرين)، وهكذا حين التفتت إيرين وجذبت فرعًا من السوركا وحشّت معظم أوراقه في فمها، لم يكن من جالانا إلا أن ابتسمت. التوت شفتا جالانا المُمتلئتان بجاذبية شديدة حين ابتسمت، فأصبح بروز عظام وجنتيها مستدقًا.

حاولت إيرين أن تتقيأ وشهقت وتلَوْنَ جسدها بألوان كان آخرها الشحوب، ثم هوت بشدة على الأرض. لاحظت جالانا أنها كانت لا تزال تتنفس، ومن ثمَّ انتظرت بضع دقائق فيما أخذت إيرين تتلَوَّى وترتجف، ثم توجَّهت متأنيةً تطلب المساعدة. وكانت مقالتها أنها ذهبت تنتزَّه في الحديقة ووجدت إيرين هناك. كان هذا صحيحًا إلى حدٍّ ما؛ لكنها كانت تخطُّ منذ مدةٍ من الوقت لأن تجد إيرين وحيدةً في الحديقة، حتى يتسنَّى لها أن تقول لها أشياء معيَّنة. كانت قد فكَّرت في تلك الأشياء بينما لازمت حجرتها فيما أخذت أهدابها تنمو مجددًا.

مرضت إيرين أسابيع. كانت الجرعة التي تناولتها قد سبَّبت لها هلوسات جنونية عن رجال لهم جلدٌ شفاف أزرق يمتطون وحوشًا لها ستُّ أرجل، وعن وجهٍ شاحب يُشبه وجهها إلى حدٍّ مُرعب ملفوف حول صدغيه ضمادةٌ رمادية باهتة، ينحني فوقها خلال سحبات من الدخان، وعن كهفٍ له خمسة جدران تتلألًا وكأنها مُرصَّعة بالياقوت. بعد ذلك أخذت أسوأ هذه الهلوسات تخبو، فتسنَّى لها أن ترى ثانيةً جدران حجرتها حولها، ووجه تيكا وهي منحنية فوقها، تختلط فيه مشاعرُ الغضب والدُّعر؛ لكنها كانت لا تزال تعاني نوبات دُوارٍ وآلامًا في المعدة، وقد دامت هذه النوبات والآلام فترةً طويلة جدًا. كانت تعرف أنَّ الأمر لم يكن يُفترض أن يكون على هذا النحو في حالة ابنة ملك، تمامًا كما قالت جالانا؛ وقد تسبَّب اكتئابُ أصابها، ولم تُقرَّ بوجوده أكثر من ذلك، بأن أبطأ من تعافيتها. «أيتها الحمقاء!» هكذا صاح فيها تور. «أيتها البلهاء المُغفلة، يا لك من معتوهة مجنونة! كيف استطعت فعل ذلك؟» حاول أن يُدكِّرها بقصص نبات السوركا؛ وتساءل إن كان قد تصادف وتذكَّرت هي أن تلك النبتة خطيرة حتى على أولئك الذين ينتمون إلى العائلة الملكية؟ صحيح أنها لم تكن تقتلهم؛ صحيح أن ورقةً منها كانت تهبُّ حاملَ الدم الملكي قوةً خارقةً للطبيعة وعينًا نافذةً كعيون الطيور الجارحة، أو إن كانت «الهبة» قوية بما يكفي، كانت تمنح رؤى حقيقية؛ وإن كانت الأخيرة تلك غاية في الندرة. لكن حين ينجلي أثرُ تلك الأوراق بعد عدة ساعات أو عدة أيام، تكون التأثيرات اللاحقة في أفضل الأحوال إنهاكًا مُميَّيًا ورؤية مشوشة، وأحيانًا تكون هذه التأثيرات مستديمة. أنسيت حكاية الملك ميرث الثاني، الذي ظلَّ في ميدان المعركة طوال أسبوعين لم يدُقَّ فيهما الراحة بفضل نبتة السوركا، فلم يكن يتوقَّف إلا ليمضغ أوراقها لدى الحاجة؟ لقد ربح المعركة، لكنه مات وهو يُعلن انتصاره. وحين دفنوه كان يبدو وكأنه طاعن في السن جدًا، مع أنه لم يكن قد تجاوز العشرين إلا بعامٍ واحد.

«لا بد أنك أكلت نصف الشجرة، يبدو ذلك من حجم ندبة الفرع الذي اقتلعتِه. هذا يكفي لاثنين أو ثلاثة من أمثال الملك ميرث. هل حقًا تُحاولين قتل نفسك؟» هنا كاد صوته ينقطع، فتعيّن عليه أن ينهض وأخذ يضرب الأرض بقدمه في أرجاء الغرفة وركل كرسيًا كان في متناوله، ورفع به بعد ذلك حتى لا تلاحظ تيكا ما فعل فتمنعه من دخول غرفة التمريض. ثم جلس على حافة فراش إيرين وأطال التفكير. «لا بد أن جالانا هي مَن كانت وراء ذلك. جالانا دائمًا هي السبب. ماذا فعلت هذه المرة؟»

تحركت إيرين في مكانها. «بالطبع جالانا هي السبب. لقد يئستُ من التفكير في عذرٍ يمنعي من حضور زفافها. لم يبقَ عليه إلا ما يزيد قليلًا على موسمٍ واحد كما تعلم. وكان هذا هو أفضل ما واثاني من أفكار.»

هنا ضحك تور، على مضض، لكنه ضحك. «أسامحك تقريبًا.» ثم مدَّ يده وأمسك إحدى يديها. أحجمت هي عن إخباره أن تقافزَه على حافة فراشها كان يُشعرها بالإعياء، وأن كل مرة يتحرك فيها يتعيّن عليها أن تُعيد التركيزَ عليه ببصرها، وأن ذلك كان يجعلها تشعر بإعياء أكثر، فضغطت على يده. «أظن أنها تحدّتك لتأكلي ورقة منها. أظن أنها أخبرتك أنك لا تنتمين إلى سلالة الملوك، وأنك ما كنتِ لتجرّئي على مسّ تلك النبتة.» ونظر إليها بنظرات صارمة. نظرت إليه بدورها، وكانت ملامحها خالية من أي تعبير. كان تور يعرفها معرفةً تامة، وكان يعرف أنها تعرف، لكنها لم تقل شيئًا؛ عرف تور ذلك أيضًا، وأطلق تنهيدة.

كان أبوها يزورها بين الفينة والأخرى، لكنّه كان دائمًا ما يُرسل خبرًا بقدومه، وبمجرد أن أصبح بإمكانها الخروج من الفراش من دون أن تسقط من فورها وتتكوّم على الأرض، بدأت تستقبله في غرفة الجلوس، فكانت تُثبّت نفسها منتصبّة في كرسي مُستقيم ويدها متقاطعتان على حجرها. وعندما كان يسألها عن حالتها كانت تُجيب أنها الآن تشعر بتحسنٍ وتشكره. كانت قد عرفت أن أحدًا لا يستطيع أن يعرف مدى سوء انحراف بصرها عن موضع تركيزها، ما دامت ساكنة في مكانها حيث لا يمكن للدّوار أن يشوّتها؛ فكانت تُبقي عينيها مثبتّتين على الظلال الآخذة في التبدّل أمامها بلون البشرة حيث وجه والدها. ولم يكن والدها يمكث طويلًا مطلقًا، وحيث كانت تغلق عينيها حين كان يقترب منها لينحنى عليها ويقبّل وجنتها أو جبينها (كانت حركات الآخرين حولها تُسبّب لها الدّوار بقدر حركتها هي)، لم تر قط تعبيرات القلق على وجهه، ولم يكن يصيح بها كما كانت تفعل تيكا أو يفعل تور.

وحين كانت بصحة أفضل بما يكفي لأن تترنح خارج الفراش فترة أطول مما يتطلبه الأمر لتجلس في كرسي في حجرة الجلوس الخاصة بها، أو بالأحرى حين كانت تبغض الفراش كثيراً حتى لم يعد بإمكان تيكاً أن تبقى عليها فيه، كان يتعين عليها أن تشق طريقها في أرجاء القلعة بالتحسس على امتداد الجدران؛ ذلك أن عينيها وقدميها لم يؤثقا بهما. وكان تسلل أحد محاربي أبيها القدامى الذين هربوا من مساكن النعمة والفضل في الجزء الخلفي من القلعة غير ذي تأثير على معنوياتها، وكانت بعزمٍ وطيدٍ أكثر من المعتاد تتفادى الجميع عدا تيكاً، وكذلك تور بدرجة ما؛ وكانت تبتعد تماماً عن طريق البلاط الملكي.

وكانت بصفة خاصة تتجنب الحديقة في منتصف القلعة. كانت نبتة السوركا موجودة عند بوابتها الرئيسية، ملتفة حول أحد الأعمدة الطويلة البيضاء. وكان وجود تلك النبتة رمزياً ليس إلّا؛ إذ يمكن لأي أحد أن يمر من دون أن يكون عرضةً لخطر أن يمس أوراقها، وكان ثمة مداخل أخرى عدة للحديقة. لكنها شعرت وكأن نبتة السوركا تثبت الهلوسات في الجو من حولها وتنتظر بابتهاج أن تتنفسها، وشعرت أيضاً وكأن النبتة تخشخش أوراقها في وجهها إن هي اقتربت منها أكثر من اللازم. وسمعت إيرين النبتة تسخر منها إن هي تجرأت حتى أن تطأ إحدى الشرفات المطلّة على الحديقة من ارتفاع ثلاثة طوابق أو أربعة. كاد مرضها الذي طال أمده أن يثبت حجة جالانا حول إرثها بأكثر من كونه حجة عليها هي نفسها، وذلك بغض النظر عما قاله تور، لكنها لم تر داعياً لأن تذكر نفسها به بأكثر مما تفعل.

كان ما ساقها إلى المرعى انزعاجاً محصوراً يخالطه إحساس بعلاقة تربطها بتالات المضطرب والمحصور بنفس القدر. كانت قد زارته من قبل أو حاولت ذلك، في السنوات الثلاث المنصرمة، لكنه لم يكن مهذباً معها أكثر من تهذيبه مع هورنمار، وقد ألمها كثيراً مجرد النظر إليه؛ لذا وبدافع الجبن توقفت عن الذهاب. والآن كانت تشعر أنها لم تعد تهتم؛ فهي على أي حال لم يكن بإمكانها أن ترى بوضوح مسافة قدمين أمامها. لكن كان شاقاً نوعاً ما أن تنفذ ولو خطة بسيطة جداً كأن تسير إلى أحد المراعي الأصغر التي تقع خلف الحظائر الملكية. أولاً، كانت تريد عصاً، حتى يكون معها شيء تتحسس به طريقها؛ لذا أقنعت تور أن يفتح لها باب قاعة كنوز الملك، الذي كان فتحه يتطلب تعويذة تُحرر الأقفال، لم يكن باستطاعتها تنفيذها مثلما لم يكن باستطاعتها إصلاح الأطباق المكسورة.

أخبرت تور فقط أنها تريد أن تستعير عصاً للسير تتكى عليها في صعودها ونزولها الدَّرج. وعرف تور يقيناً أنها كانت ترمي إلى شيء أبعد من ذلك، لكنه لبى لها طلبها على أي حال. اختارت عصاً لها رأس كبير على نحوٍ مقبول، حيث إن حاسة اللمس لديها كانت أيضاً ملتبسةً بعض الالتباس.

كانت أول ردة فعلٍ من تالات أن يهاجمها. ولم تتحرك، إنما نظرت إليه وحسب، متكئة على عصاها وتتمايل برفق. «إن حاولت الهرب منك، فستقفز الأرض بي وترميني عنها». وفي صمتٍ تحدّرت دمعتان على وجنّتيها. «لا يُمكنني حتى أن أسير على نحوٍ طبيعي. مثلك». طأطأ تالات رأسه وبدأ يأكل العشب، دون اهتمامٍ كبير، لكن ذلك أعطاه شيئاً يتظاهر أنه يفعله بينما ينظر إليها.

عادت في اليوم التالي، والذي يليه. بدا أن التريض، أو الهواء العليل، أو كليهما، يجديانها نفعا؛ إذ بدأت رؤيتها تنجلي بعض الشيء. وكان الهدوء والسكينة يعمّان مرعى تالات، حيث لم يأت أحد، وكانت تعود إلى القلعة المزدحمة على كُرّه يزداد شيئاً فشيئاً. ثم واتها فكرة المكتبة الملكية. ما كانت قدّم جالانا لتطأ المكتبة أبداً.

ذهبت إيرين إلى المكتبة للمرة الأولى لتهرّب من مقرّ إقامتها، الذي بدا في حجم علبة حذاء، وأيضاً بداعٍ من شيءٍ من الانزعاج المُبهم نفسه الذي كان قد أوحى لها بزيارة تالات. لكن، بفتور، مرّرت إيرين أصابعها على ظهور الكتب التي اصطفت على الأرفف، وسحبت واحداً له غلاف مُتقن الصُّنع بصورةٍ مثيرة للاهتمام. وفي فتورٍ أكبر فتحته، ووجدت أن عينيها السقيمتين المشوّشتين كانتا تركّزان تركيزاً رائعاً جداً على صفحة مطبوعة أمسكت بها ليس ببعيد كثيراً عن أنفها؛ ووجدت أنها تستطيع القراءة. وفي اليوم التالي أخذت الكتاب معها إلى مرعى تالات.

لم يستقبلها تالات بصهيل متحمّس ينمُّ عن الترحيب، لكن بدا أنه يقضي معظم وقته على الضفة غير المُوحلة للبحيرة، حيث أسندت ظهرها إلى ساق شجرة مُريحة وأخذت تقرأ. وقالت وهي تمضغ عوداً من العشب: «من الغريب أن يظنّ المرء أنه لا يستطيع القراءة ما دام لا يستطيع السير. أن يظنّ أن تنظيم حركة العينين سيكون على الأقل بنفس صعوبة تنظيم حركة القدمين». انحنت إيرين وطرحت قضيب الميك على الأرض بأبعد ما يمكن ليدها أن تصل، واعتدلت في جلستها ثانية وهي لا تنظر إلا أمامها مباشرةً. وبعناية حملت الكتاب الكبير في حجرها وأضافت: «حتى حملة في الأرجاء مُفيد. إنه نوعاً ما يزيد من ثِقلي، فلا أترنّح كثيراً». كان بإمكانها سماع دقات حوافره يتبعها صوتُ جرّه لساقه

الفصل الثالث

الضعيفة. «ربما يكون ما أحتاج إليه لقدمي مُكافئًا للتركيز العضلي للقراءة.» هنا توقّف صوتُ الحوافر. «والآن، لو بإمكان أحدهم أن يُخبرني ماذا قد يكون ذلك.»
كان قضيب الميك قد اختفى.

الفصل الرابع

سرعان ما اكتشفت تيكا مكانها؛ إذ كانت قد ظلت متيقظة تمامًا لأمرتها المشاكسة منذ أن قامت من فراشها مُتعبة بعد النوبة التي أصابتها جرّاء تناول نبتة السوركا. وقد ارتاعت حين اكتشفت وجود إيرين لأول مرة تحت الشجرة في حظيرة الفحل الوحشي؛ لكنها كانت تتمتع بإدراكٍ أكبر بعض الشيء مما كانت إيرين تتوسّم فيها («كل ما تفعلينه هو الاهتمام والقلق يا تيكا! دعيني وشأني!») وبانفعالٍ شديد أدركت أن تالات عرف أن أحدًا اجتاح ميدانه ولم يُمانع. رآته يأكل أولَ قضيبٍ ميك له، وحين بدأت قضبان الميك تختفي بعددٍ بوتيرةٍ مناسبة من الوعاء على مقعد النافذة الخاص بإيرين، لم تفعل تيكا سوى أن تنهّدت تنهيدةً عميقة وبدأت توفرّ قضبان الميك بكمية أكبر.

كان الكتاب ذو الغلاف المثير للاهتمام عن تاريخ دامار. كان يتحتّم على إيرين أن تتعلم قدرًا معيّنًا من التاريخ كجزءٍ من تعليمها الملّكي، لكن كان هذا الكتاب شيئًا مختلفًا تمامًا. كانت الدروس التي اضطرّت إلى تعلّمها دروسًا فارغة وجافة، كانت حقائق من دون روح، مُقدّمة بأبسط لغة، وكأنّ الكلمات يمكن أن تُخفي الحقيقة أو تُعيدها إلى الحياة (وهذا أسوأ). وكان التعليم أحدَ هواجس أرلبيث الأثيرة؛ لم يشعر ملك، من قبله بأجيال، برغبةٍ كبيرة في التعلّم من الكتب، ولم يسبق أن كان المعلّمون الملكيون من ذوي الكفاءة والجودة.

كان الكتاب باهتًا بفعل السنين، وكان أسلوب الكتابة غريبًا على إيرين، حتى إنه تعيّن عليها محاولة أن تستبين بعضَ الكلمات؛ وكان بعض الكلمات عتيقًا وغير مألوف؛ لذا كان عليها أن تحاول أن تفهم المعنى. لكن كان الأمر يستحقّ العناء؛ ذلك أن الكتاب أخبرها

بقصصٍ مُثيرة أكثر من تلك التي ابتدعتها لنفسها قبل أن تَخْلُدَ إلى النوم في الليل. وهكذا وفيما أخذت تقرأ، تعلّمت عن التنانين القديمة.

كانت دمار لا يزال بها تنانين؛ تنانين صغيرة، مخلوقات كريهة لئيمة الطباع بحجم الكلاب على استعدادٍ لأن تَشْوِيَ طفلًا لتتناوله طعامًا فتبلّعه في قضمَتَيْن لو أمكن لها ذلك؛ لكن صُدَّت هذه المخلوقات وأُعيدت إلى الغابة الكثيفة والتلال البرية في أيام إيرين. كانت تلك المخلوقات لا تزال تقتل صيادًا غافلًا بين الحين والآخر؛ لأنها لم تكن تخشى شيئًا، وكانت لها أسنانٌ ومخالبٌ وكذلك نيران تقهر بها فريستها، لكنها لم تُعدْ تُمَثِّلُ خطرًا جسيمًا. وبين الحين والآخر كان أرلبيث يسمعُ عن أن أحدها — أو أسرة منها، ذلك أنها في غالب الأحيان كانت تصطاد في جماعات — يؤذي قريةً أو مزرعةً نائيةً، وحين كان يحدث ذلك كانت مجموعةٌ من الرجال مُجهّزة بالرماح والسهم — لم تكن السيوف ذات نفع كبير في ذلك؛ لأن المرء لو كان قريبًا بما يكفي ليستخدم السيف فإنه قريب بما يكفي ليحترق بنارها — تخرج من المدينة لُتْجَابِ تلك المخلوقات وتتصدى لها. وكان أولئك الرجال دائمًا ما يعودون بالمزيد من القصص البشعة عن غدر التنانين ومكرها؛ ودائمًا ما كانوا يعودون وهم يُطَبِّبون بعض أطرافهم المُحترقة؛ وأحيانًا ما كانوا يعودون ينقصهم حصان أو كلب. لكن لم تكن ثَمَّة بهجة في اصطياد التنانين. كان عملاً شاقًا ومعقدًا ومروّعًا، وكانت التنانين مُؤذية. ولم يكن المسئولون عن الصيد — واسمهم الثوتار، وهم الذين يشرفون على كلاب الملك ويؤفرون اللحم للأسرة الملكية — يمتنون لصيد التنانين بِصَلَة، وبمجرد أن تُستخدَم الكلاب لصيد التنانين، كانت تلك الكلاب تُعد عديمة القيمة لأي شيءٍ آخر.

كانت الأساطير القديمة عن التنانين الكبيرة لا تزال قائمةً، وحوش ضخمة ذات حراشف، حجمها أكبر من الخيول مراتٍ ومرات؛ حتى إنه كان يُقال في بعض الأحيان إن التنانين الكبيرة كانت تطير، تطير في الهواء، بأجنحةٍ عريضة يُمكن لها أن تحبب الشمس. كانت أجنحة التنانين الصغيرة ضامرة، لكن أحدًا لم يرَ من قبلُ أو يسمع بتنينٍ أمكنه رفع جسده الغليظ والقصير عن الأرض باستخدامها. كانت التنانين تضرب بأجنحتها عند الغضب والتوؤد، فيما ترفع أعرافها؛ لكن كان هذا هو كل ما تفعله بها. لم تكن التنانين العتيقة والتنانين الطائرة أكثر من مجرد أقصوصة.

لكن هذا الكتاب كان يتناول التنانين العتيقة على مَحْمَل الجد. كان الكتاب يقول إنه رغم أن التنانين الوحيدة التي رآها البشر على مدار سنواتٍ كثيرة كانت صغيرة الحجم، فإنه لا يزال يُوجَد واحد أو اثنان من التنانين الكبيرة يختبئان في التلال؛ وأنه في يومٍ ما سيطير

هذا التنين أو هذان التنينان من مَخْبِئَهما السَّرِّيَّ ويعيثان فسادًا في بني الإنسان، وذلك لأنَّ البشر سيكونون قد نَسُوا كيفيةَ التعاملِ مع التنانين الكبيرة. كانت التنانين الكبيرة تعيش طويلًا؛ فكان يمكن لها أن تتحمَّلَ انتظارَ الوصولِ إلى تلك الحالة من النسيان. ومن نبرة المؤلِّف الدفاعية، كانت التنانين الكبيرة أسطورةً حتى في زمنه، حكاية تُروى في الاحتفالات، وإدامها الخمر والنبيذ. لكن إيرين كانت منبهرة مثلما كان الكاتب.

«لقد جمعتُ معلوماتي بأقصى درجات العناية؛ ويسعني الظنُّ أن بإمكانني أن أقول صدقًا إن التنانين الكبيرة العتيقة والصغيرة منها التي تعيش في يومنا هذا هي من نفس النوع. ومن ثمَّ فإنَّ مَنْ يرغب في تعلُّم مهارة التغلُّب على التنانين الكبيرة لا يمكنه أن يفعل ما هو أفضل من أن يجمع من الصغار منها بقدرٍ ما يجد في أوكارها النتنه ويرى كيف تُقاتَل.»

ومضى مؤلِّف الكتاب يسردُ أساليبَ جمعه للمعلومات، والتي بدا أنها تتألَّف من تذييل دُوب للقصص القديمة عن وسائل التنانين وطُرُقها؛ على الرغم من اعتقاد إيرين أن ذلك ربما يكون أيضًا مأخوذًا من الرواة الشفاهيين الذين يُكَيِّفون التنانين القديمة على طُرُق التنانين المُعاصرة منها وكأنها الحقيقة من وجهة نظر المؤلِّف. لكنها تابعت القراءة. كان للتنانين سيقانٌ قصيرة وثخينة تحمل أجسادًا عريضة؛ ولم تكن سريعة العدو في المسافات، لكنها كانت غايةً في البراعة، وبإمكانها أن تُوازن نفسها بسهولة على ساق واحدة من سيقانها لتستخدم أيَّ ساقٍ من الثلاث الأخرى في التمزيق، وذلك بالإضافة إلى ذيلها الشائك. وكانت رقابها طويلة ومَرنة، بحيث يمكن للتنين أن ينفُث نيرانه عند أي نقطة في محيط دائرة؛ وغالبًا ما كانت التنانين تحكُّ أجنتها في الأرض لتنشرَ الغبار مما يزيد من ارتباك حُصمها أو فريستها.

«من المعتاد في وقتنا الحاضر أن يكون اصطليادُ التنانين بالسهم والرمح الموجهة؛ لكن إن عادت التنانين الكبيرة مجددًا، فإن هذا لن ينفع مَنْ يهاجمها إلا قليلًا. وقد ضعُفت دِرْعها كما تقلَّص حجمها؛ فيمكن للرُّمح المقدوف جيدًا أن يخترق جسدَ تنين صغير في أي مكان يُصيبه. أما التنانين الكبيرة فكانت لها نقطتا ضعفٍ فقط يمكن التحويل عليهما: عند قاعدة الفك، حيث يلتقي الرأس الصغير بالرقبة الطويلة؛ وخلف مرفقها، حيث منشأ الأجنحة. وكما قلتُ فالتنانين بارعة؛ فمِن المُستبعد جدًّا أن يكون أحدُ التنانين الكبيرة من الحُمق لدرجة أن يخفِض رأسه أو أجنته فيُصبح هدفًا سهلاً. ولا يُقتل تنين كبير إلا على يد بطل عظيم؛ بطل يُمكنه بالمهارة والشجاعة أن يقترب بما يكفي ليوجِّه ضربة قاتلة.»

«ومن حُسْنِ حظٍ مَنْ يعيشون على الأرض أن التنانين الكبيرة لا تتناسل إلا نادرًا؛ وأن بني الإنسان قدّموا من الأبطال ما يكفي لقهرٍ مُعظمها. لكن الكاتب يعتقد وهو يفيض حماسةً أنه سيتعيّن أن يخرج بطلًا واحدًا على الأقل من بين شعبه ليواجه آخرَ التنانين الكبيرة.»

«ولا أدري عددَ آخرِ التنانين الكبيرة؛ قلت إنه واحد أو اثنان؛ وربما كان ثلاثة أو أربعة. لكنني سأعلّق على شخصٍ واحد بصفة خاصة: جورثولد، الذي قضى على كريدينور ورازمثيث، ومضى أيضًا يواجه مور، «التنين الأسود»، ولم يقص عليه. وقال جورثولد — الذي أصيب بجراحٍ مميتة — وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: إن التنين سيموت مُثخنًا بجراحه هو أيضًا؛ لكن لم يتيقّن أحدٌ من ذلك قط. الأمر الوحيد الأكيد هو أن مور اختفى؛ ولم يره إنسان — أو لم يره أحدٌ ممن عادوا ليقصّوا القصة — منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا.»

وفي آخرِ الكتاب وجدت إيرين مخطوطةً هي أقدمُ من الكتاب حتى: بضع ورقات فقط، تكاد تكون غير مقروءة بفعل مرور الزمن عليها، مَخيطة بعناية في الغلاف. كانت تلك الصفحات الأخيرة العتيقة وصفةً لدهانٍ يُدعى كينيت. دهان مضاد لنيران التنانين، هكذا قالت المخطوطة.

كانت المخطوطة تحوي عددًا من المكوّنات غير المألوفة؛ من وقّع الكلمات ظنّت إيرين أنها أعشاب. كانت تعرف من اللغة القديمة ما يكفي لتُميِّز مقاطعَ قليلة؛ وكانت ترجمة إحدى تلك الكلمات «الجنود الحمراء». قطّبت إيرين؛ إذ كان ثَمّة شيء يُدعى الجنود الحمراء كان يأتي ذكره في القصائد الرعوية المملّة، لكنها ما برحت تظنّ أنه شيء ينتمي إلى الفئة الكلاسيكية المعروفة باسم الخيالية، كالحوريات والفيلة. قد تعرف تيكّا بشأن الجنود الحمراء؛ إذ كانت تُعد شايًا شنيعًا على نحوٍ استثنائي أو شايًا عشبيًا لكل داء، وحين كانت إيرين تسألها عن مكوّنات ذلك الشيء الشنيع، كانت تيكّا دائمًا ما تسرد عليها قائمةً بالأشياء التي لم تكن إيرين قد سمعت بها من قبلٌ مطلقًا. فكانت تميل إلى افتراض أن تيكّا تردّ عليها بكلام عبثي وحسب، لكن ربما لم تكن الحال كذلك.

دهان مضاد لنيران التنانين. إن كان يؤتي مفعولًا، فيمكن لشخصٍ واحد أن يتصدّى وحده لثنيتين بأمان؛ ليس تنيّنًا كبيرًا بالطبع، لكن على الأرجح أن «التنين الأسود» لقي حتفه مُثخنًا بجروحه ... لكنه سيتصدى للثنانين الصغيرة التي كانت تُمثّل مصدر إيذاء كبير. في الوقت الراهن كان النسق المعتاد أن تُهاجم التنانين بالسهم وما إلى ذلك من بعيدٍ، بعددٍ من الرجال يكفي لصنع دائرة حول واحدٍ أو مجموعة منها، بحيث إذا هجمت على أحدٍ

يمكنه أن يفرَّ لينجُو بحياته فيما يُمطرها مَنْ هم على الجانب الآخر من الدائرة بالسهم. لم يكن بوسع الثنانين أن تجري مسافاتٍ طويلة، وعادةً ما كانت العشيرة الواحدة منها تهجم جميعها في نفس الاتجاه. وحين لا تفعل ذلك كانت الخيول تموت.

كانت إيرين تجلس تحت الشجرة المُرِيحة بالقرب من بحيرة تالأت معظم أوقات ما بعد الظهيرة عدة أسابيع حين اكتشفت وصفا الدهان المُضاد للثنانين. جعلها هذا تفكَّر كثيرًا، وكانت مُعتادة أن تمشي بخطواتٍ سريعة وهي تفكَّر. كانت سيطرة نبتة السوركا تنفكُّ عنها ببطء، وفي حين لم يكن بإمكانها السير بخطواتٍ سريعة، كان بإمكانها أن تسير على مهلٍ من دون عصاها. فكانت تسير الهوينى حول بحيرة تالأت.

كان تالأت يتبعها. وحين كانت تتوقَّف، أو تُمسك بفرع شجرة لتوازن به نفسها، كان يتحرك بعيدًا عنها بخطوة أو بضع خطوات وينزل بأنفه إلى الأرض ويضع بين شفتيه ما يجده. وحين تتابع سيرها، كان يرفع رأسه ويتبعها. وفي عصر اليوم الثالث مذ أن اكتشفت الوصفة كانت لا تزال تسير بخطواتٍ سريعة، ليس لأنها بطيئة التفكير وحسب، لكن لأن ظلَّها ذا الأرجل الأربع الذي يجرُّ ساقه الخلفية خدعها. ففي اليوم الثالث حين مدَّت يدها لتثبت نفسها في مواجهة الهواء، تسَلَّت رقبة حصان تحت أصابعها الممدودة. فتركت يدها تسقط برقعة على عُرفه، وعيناها مُتجهتان للأمام، متجاهلة إياه؛ لكن حين خطَّت خطوة أخرى للأمام، فعل مثلها.

بعد ذلك بيومين أحضرت مَحَسَّة وبعض الفُرَش إلى مرعى تالأت؛ كانت تلك تخصُّ كيشا، مُهرَّتْها، لكنها لن تفتقدها. كانت كيشا هي المَطِيَّة المثالية لأُميرة يافعة؛ إذ كانت ممشوقة الجسم ورقيقة وأجمل من قطيطة. كما كانت مُختالة بنفسها بقدر جالانا، وكانت أحب الأشياء إليها هي المواكب الملكية، حيث تتزيَّن خيول الدائرة الأولى كلها بالذهب والشراريب. علاوة على ذلك كانت أفراس الأميرات تحظى بشرائط تُجَدَل في أعرافها وذيلوها، وكان ذيل كيشا طويلًا وناعمًا جدًّا. (لا شك في أنها ستغضب من تفويتها تحية الخيالة في زفاف جالانا وبيرليث.) لم تجفُل كيشا من قبل من الرايات المرفرفة وذيل السَّرج المُخملية؛ لكن إن حاولت إيرين أن تمتطيها في الريف، كانت كيشا تجفُل عابسة من كل ورقة شجر، وتطلُّ تحاول الاستدارة والانطلاق نحو المنزل. كانت إحداها تكره الأخرى بشدة. وكانت جالانا تمتطي أختها الكبرى روكا. وكانت إيرين تؤمن أن روكا وكيشا تثرثان سويًّا في الإسطلب ليلاً عن سيدتيهما.

كان لدى كيشا عشرات الفُرَش. وطوت إيرين بعضها في قطعة من الجلد وخبأتها في إحدى ثنايا الشجرة التي تقرأ عندها قرب البركة.

كان تالأت لا يزال يأخذ الأمر على محمل كرامته كثيراً أن يُقرَّ كم كان يُحب أن يُعتنى به؛ لكن كانت أذناه تميلان إلى أن تتدلّيا، وتلتَمع عيناه وترتخي أجفانهما وتلتوي شفاهه حين تحكُّ إيرين جسده بالفُرَش. كانت شعراتٌ بيضٌ تتطاير كعاصفة ثلجية؛ لأن لون تالأت كان قد استحال إلى الأبيض في السنوات التي تلت إصابته بالأعرج. قالت إيرين بعد بضعة أيامٍ تُحاول أن تبدو غير مكترثة: «هورنمار، هل تظن أن ساق تالأت لا تزال تؤلمه حقاً؟»

كان هورنمار يحكُّ جسد كيثتاذ، فحل أرلييث الكستنائي اليافع، بقطعة قماش ناعمة. ولم تكن شمة ذرة غبار في أي مكانٍ على جلد الحصان. نظرت إليه إيرين في نفور: كان صحيحاً ومتناسقاً ومتألّقاً وبهيجاً وكفوّاً، وكانت هي تُحب تالأت. نظر هورنمار إلى ابنة أرلييث مفكّراً. كان كل السُّيَّاس الآن يعرفون علاقة الصداقة الخاصة بينها وبين الفحل الأعرج. كان هورنمار مسروراً لكل من تالأت وإيرين، لأنه كان يعرف أكثر مما كانت تأمل عن الحال الذي كانت عليه حياتها. وكان في قرارة نفسه أيضاً يشعر بالقليل جداً من الحسد؛ فقد كان كيثتاذ حصاناً رائعاً، لكن تالأت كان فيما مضى أفضل منه. والآن كان تالأت يولي وجهه بأذنين مُسطّحتين عن صديقه القديم.

ثم قال بنبرة محايدة: «أرى أنها لم تُعد تؤلمه كثيراً. لكنه اعتاد عدم الاتكال على تلك الساق، وعضلاتها ضعيفة، ومُتعبسة أيضاً، من الجرح.» ثم أخذ يحكُّ بضعة إنشات أخرى من عُرف كيثتاذ. وقال: «يبدو تالأت بحالة جيدة هذا الفصل.» ثم رمق إيرين بنظرة خاطفة فرأى الدم يتدفّق إلى وجهها، وأشاح عنها ثانية.

قالت: «أجل، إنه يزداد بدانة.»

تنهّد كيثتاذ ونفض ذيله نفضةً سريعة؛ كان هورنمار قد ربط ذيله حتى لا يصفعه على وجهه. واستدار هورنمار حول رِدفي الفحل وبدأ يعمل على جانبه الآخر؛ وكانت إيرين لا تزال تتكئ على سور الإسطبل تشاهد. وأخيراً قال هورنمار بحذر: «قد تُصبح حال تالأت أفضل بعض الشيء من حاله السابقة. لكنه لن يتمكّن أبداً من أن يحمل، مثلاً، وزن رجل.» فقالت إيرين: «أوه»، وهي لا تزال غير مكترثة. كان لدى كيثتاذ بقعة سوداء على أحد كتفَيْه؛ فركت إيرين البقعة بإصبعها، فالتفت إليها كيثتاذ برأسه ونكزها بأنفه. داعبته لحظة، ثم انسَلَّت مُبتعدة في هدوء.

وفي اليوم التالي، امتطت فحلّها الأعرج. مشطته أولاً، وحين انتهت، وضعت من يدها أدوات الاعتناء بالخيول معاً في كومة. مرّت إيرين إصبعها على إحدى وجنتيّ العريضتين؛

أما تالأت، الذي لم يعترض على شيءٍ قليل من الاهتمام الإضافي، فأسند أنفه على بطنها حتى تُمسد وجنته الأخرى بيدها الثانية. بعد لحظة عمّدت إلى جانبه الأيسر ووضعت يديها على حاركه وخاصرته، واتكأت عليهما. كان أصغر من معظم جياد الحرب الملكية، لكنه كان لا يزال أطول جدًّا من أن تعتمد على يديها في أن تحملاً قدرًا كبيرًا من وزنها لتمتطيته. حرّك الجواد أذنيه لها. فقالت: «حسن.» وضعت إحدى يديها على كتفه وتبعها هو نحو صخرة كانت قد اختارتها قبل عدة أيام لهذا الغرض. وطئت إيرين على الصخرة، ووقف تالأت في هدوء فيما مررت هي ببطء إحدى ساقَيْها من فوق ظهره.

كانت الآن جالسةً عليه. ولم يحدث شيء. وقد قالت لنفسها بنزق، ما الذي كان من المفترض أن يحدث؟ لقد جُعِل للركوب فيما كنت لا أزال أتعلّم المشي. كانت تلك هي المرة الأولى.

نصب تالأت أذنيه للخلف نحوها، وكان رأسه منحنيًا وكأنه شعرَ بالشكيمة في فمه مجدّدًا. دفعته إيرين برجلها دفعًا رقيقًا، فسار مبتعدًا عن حجر الركوب؛ وسار على قوائمه الثلاث وجرّ الرابعة. كان أكبر مما توقّعت، وألمتها ساقاها من امتدادهما على ظهر جواد الحرب العريض. وكانت كتفاه تحت يديها مُتبيّستَي العضلات، فلم يكن تالأت يفعل شيئًا طوال ما يزيد على عامين سوى الوقوف في حقل.

امتطته إيرين كلَّ يوم بعد ذلك. في البداية كان امتطاؤها إيّاه يدوم جولةً واحدة حول مرعاه، وكان مبدأ الجولة ومنتهاهما عند حجر الركوب؛ ثم صارت الجولة بعد ذلك جولتين وثلاثًا؛ وهو يسير على قوائمه الثلاث ويجرّ الرابعة. كان يسير حين تعتصر بطنه بساقَيْها، ويمضي يمنةً أو يسرةً حين تصدمه بخارج ركبتيها صدمة خفيفة؛ وبعد بضع محاولات أدرك أنها ترغب في أن يتوقّف حين تدفع بعظام مؤخرتها في ظهره. وكانت تُمرّر يديها كل يوم على ساقه المصابة بعد أن تنزل من فوق صهوته؛ ولم يكن بها سخونة أو تورّم أو ضعف. وذات يوم ضربت الندبة الطويلة القبيحة بقبضة يدها وقالت: «جيد جدًّا، أُمِّل ألا تؤلم حقًّا»، ثم عادت تعتلي صهوته ولَفّت ساقَيْها حوله حتى انطلق في هرولة ثقيلة وأذنه تنتفض من المفاجأة. سار ستَّ خطوات وهو يعرّج ثم تركته يتوقّف. وخزّتها الدموع في عينيها، وأطعمته قضبان الميك في صمت، ثم غادرت مُبكرة في ذلك اليوم.

ومع ذلك عادت عصر اليوم التالي، لكنها بدت مُتجهّمة، وحاولت أن تمسك بكتابها بعد أن اعتنّت به. لكنه مضى كما هو متوقّع منه إلى حجر الركوب ووقف يرقبها حتى إنها تنهّدت، وامتطت ظهره ثانيةً وبساقَيْها جعلته يتقدّم للأمام. لكنه بدأ يهرول من فوره

هرولته الثقيلة، وفي نهاية الخطوات الست لم يتعثّر ويتوقّف، بل باعد مدى خطواته بعض الشيء في جراءة أكبر قليلاً؛ وقطع ربع المسافة حول الحقل، ثم نصف المسافة؛ واعتدلت إيرين جالسةً على صهوته فهدمت خطواته إذعاناً منه وصارت مشياً، لكن بدا لها من مظهر أذنيه أنه يقول لها: أترين؟ في ذلك اليوم بزغ في قلب إيرين لأول مرة أملٌ صغير لكنه قوي.

الفصل الخامس

كان سيتحتم على إيرين أن تشارك في زفاف جالانا في نهاية المطاف. كان تأثير نبتة السوركا يتلاشى من دون شك؛ «لقد امتدَّت تأثيرها طوال كل هذه المدة، فلماذا لم يستمر فترة أطول قليلاً؟» هكذا قالت إيرين لتور في انزعاج.

وكان ردُّه: «لقد حاولتُ، أنا واثق من هذا. الأمر فقط أنها لم تكن تتوقَّع جالانا.» كانت جالانا قد تدبَّرت أن تؤجِّل الحدث الكبير نصف عام إضافي، لأنها أرادت، حسبما قالت في حياءٍ وخجل، أن يكون كل شيء على أكمل وجه، ولم يكن ممكناً في غضون الوقت المتبقي أن يفِي الكثير من الأشياء بهذا المعيار. في تلك الأثناء كانت إيرين قد بدأت على مضضٍ الاضطلاع بمكانتها القديمة في بلاط والدها؛ لم يكن حضورها ضرورياً جداً، لكن جرى التنويه على غيابها المستمر، كما أن نبتة السوركا لم تكن قد قتلتها في نهاية المطاف. «أتساءل إن كان بإمكانني على الأقل أن أقنعها بأنني أكثر وهناً من أن أحمل صولجاناً ووشاحاً أو أن ألقِي بالزهور وأغنِّي. ربما يُمكنني أن أفلت بمجرد الوقوف إلى جوار أبي وأن أبدو شاحبة ومعتلة. ربما. فلا يُعقل أنها ترغب في وجودي أكثر مما أرغب أنا في أن أكون موجودة.»

«كان ينبغي بها أن تفكِّر بانتقائية أكثر بشأن التوقيت حين حتَّتْك على تناول نبتة السوركا في المقام الأول.»

ضحكت إيرين.

وقال تور في أسَى: «أكاد أتمنَّى لو أنني كنتُ قد استبقت الأمر بأن أكل شجرة منها.» كان بيرليث قد طلب من تور أن يقف خلفه في المراسم. كان من المفترض أن يحمل الإشبين شارة الطبقة الاجتماعية الخاصة بالأمرءاء في زفافه؛ لكن في هذه الحال بعينها كانت هناك بعض الحساسيات المثيرة للاهتمام. كانت التقاليد تقضي بأن يطلَّب بيرليث من الملك وولي

العهد أن يقفأ إلى جواره في المراسم، وتقضي أيضًا بأن يقبل الملك وولي العهد الدعوة. وكان موضع الإشبين، كما تقضي الترتيبات، هو الموضع الأهم، لكنه أيضًا كان الموضع الأكثر تطلبًا للانتباه؛ وكانت اللفظة الدارجة المرادفة لموضع الإشبين لفظة فظة، وتشير إلى موقع الرفيق بالقرب من ظهر أميره. وكان الطلب من تور أن يقف في موضع الإشبين رمزًا على تقديره المنقطع النظير لولي العهد، حيث ينبغي بموضع الإشبين أن يكون من نصيب أعز صديق لبيرليث. وستكون تلك أيضًا هي فرصة بيرليث الوحيدة لكي يجعل ولي العهد يخدمه.

قالت إيرين: «ينبغي لك أن تلقي بالشارة في جلبه، تمامًا حين تصل الأنشودة إلى الجزء المتعلق بالولاء للأسرة والغبطة اللامتناهية لأن تكون فردًا في أسرة. آآه..» فرد تور يقول: «لا تحاولي إغرائي على أن أفعل..»

لحسن الحظ لم تكن جالانا تتمتع بحس الفكاهة الذي يتمتع به زوجها المستقبلي، وكانت مسرورة أن تُعفي إيرين من المشاركة على أساس انعدام الثقة المستمر في صحة ولية العهد. وكانت جالانا عاجزة عن التخطيط والتدبير لأي شيء مدة عام مقدّمًا، ولم يكن لحادث السوركا علاقةً بالاقتراب المنتظر ليوم زفافها. بل كان لذلك علاقة بفقدانها لأهدابها حين عرفت أن بيرليث قد قرّر أن يتقدّم للزواج بها — العرض الذي كان يتحتم حينها تأجيله حتى تعود أهدابها طويلة بما يكفي لترفع ناظرها إليه من خلالها. (كانت في واقع الحال ضعيفة بما يكفي لتتساءل إن كانت إيرين «موهوبة» في نهاية المطاف؛ إذ كان توقيتها في هذا شيطانًا جدًّا.) لكن كان قد خطر لها في الآونة الأخيرة أنه سيكون خيرًا لو وجدت طريقة تُبقي بها إيرين بعيدة عن الحفل نفسه، من دون أن ترتكب بذلك إساءة عامة ظاهرة (وحيث إن السوركا لم تقتلها، فإن جالانا لم تحاول أن تفعل، وهو فضل لم تكن تستحقّه على أي حال). فهمت جالانا كما فهم بيرليث لماذا طُلب من تور أن يكون الإشبين، ولماذا سينفذ ذلك؛ لكن تور كان أهلاً للثقة، مع كل تعاطفه المثير للاشمئزاز مع قريبته الأصغر. كان يؤمن بمكانته وليًا للعهد في حين لم يكن لدى إيرين أي سبب يجعلها تؤمن بمكانتها كوليّة للعهد؛ ولو أن إيرين أُجبرت على تأدية دور شكلي، فإنها ستُفسد كل شيء بقصد أو بغير قصد منها. ولم يكن أي شيء سيفسد يوم زفاف جالانا. وقد فهمت، هي وإيرين، كلّ منهما الأخرى جيدًا جدًا حين قدّمت لها إيرين بطريقة رسمية وباسمة اعتذاراتها وأسفها، وقبلت جالانا ذلك منها بالطريقة نفسها.

وقد كان زفاف جالانا وبيرليث هو أول حَدَثٍ رسمي كبير منذ الاحتفال ببلوغ تور، ومن ثَمَّ تَوَلَّيه مسئولية مكانته كاملةً، معاونًا وناصحًا لعمه، بعد أقل من عامين من وفاة والده. وكانت إيرين جزءًا من تلك المراسم، وقد عازمت على تأدية دورها في جلالٍ ودقة، حتى لا يشعر تور بالحرج أمام كلِّ مَنْ أخبروه ألا يطلب منها أن تشارك في المراسم. وكانت النتيجة أنها تذكَّرت القليل جدًّا من الطقوس التي استغرقت يومًا كاملًا. تذكَّرت أنها كانت تُكرِّر استجاباتها في ذهنها بطريقةٍ محمومة (وقد حفظت تلك الاستجابات بصرامة شديدة حتى إنها ظَلَّت تتذكرها طوال حياتها). حين ينتهي الكهنة من تلاوة أسماء الملوك قبل أرلييث والذين يبلغ عددهم ثلاثمائة ملك وعشرة (لم يكن ذلك يعني أن جميعهم حكموا البلد نفسه، لكن التلاوة الرنانة لأسماء كل الملوك المُتَعاقِبِينَ كان لها وَقْعٌ مُثير للإعجاب)، كان يتعيَّن عليها أن تُعيدَ تلاوة أسماء آخر سبعة منهم، كون الرقم سبعة هو الرقم الكامل وذلك بسبب عدد الآلهة الكاملة السبعة، كما كان يتعيَّن عليها تلاوة أسماء زوجاتهم أو ملكاتهم المُبجَّلَات (كان قد مرَّ زمن طويل منذ أن كانت ثَمَّة ملكة حاكمة) وأي أشقاء أو شقيقات لهم. وكانت خاتمة التلاوة: ثم يأتي من بعده تور، ابن ثومار، شقيق أرلييث؛ كان تور هو التالي. وكان يتعيَّن ألا تكون نبرتها عالية، وذلك لثلاث مراتٍ يوميًّا، ذلك أنهم كانوا يُؤدُّون كلَّ تلك المراسم مرَّةً عند الفجر، ومرَّةً عند الظهيرة ومرَّةً عند الغروب. كما كان يتعيَّن عليها أيضًا أن تُمسك بنجاد سيفه، وبحلول المساء كانت تُصاب بالثبور في كلتا راحتي يديها من شدة الضغط عليهما. لكنها أدَّت كل شيءٍ بصورةٍ صائبة.

منذ ذلك الحين أصبح تور أكثر انشغالًا، فكثيرًا ما كان خارج المدينة، يظهر بنفسه لأهل التلال الذين كان مَجيئهم للمدينة نادرًا أو منقطعًا، وذلك حتى يعرفوا جميعًا شكل الرجل الذي سيُصبح ملكهم يومًا ما ويسمعوا صوته؛ كما أن تناول إيرين لنبته السوركا كان بعد فترةٍ وجيزة من بلوغ تور. ومع أن ذلك كان ثقيلًا عليها لم تكن تتطلَّع لأن تراه كثيرًا حتى حين يكون في المدينة، على الرغم من أنه كان قد أتى في أحيانٍ كثيرة ليجلس إلى جوارها حين كانت مريضةً جدًّا بحيث لا تستطيع الاعتراض، حتى — ومن دون أن تعرف هي ذلك — إنه أَجَلَ رحلةٍ أو اثنتين حتى يتسنَّى له أن يظلَّ بالقرب منها. لكن وبينما تحسَّنت حالتها لتكون واثقةً من أنها ليست على ما يرام، وبينما أخذ غيابُه الناجم عن الضرورة يتزايد، بدأ ينمو بينهما حاجز، ولم تُعد بينهما علاقة الصداقة التي كانت بينهما فيما مضى. كانت تفتقده، ذلك أنها اعتادت الحديث معه كلَّ يوم تقريبًا، لكنها لم تقل قط إنها افتقدته، وقالت لنفسها إنَّ وليَّ العهد لن يلوِّث نفسه بالبقاء بصُحبته كثيرًا،

حيث أثبتت نبتة السوركا صدق معظم ما ساقته جالانا في حقها. وحين كانت تراه، كانت تبذل جهداً جهيداً لتبدو متألفة وفظة.

بعد بضعة أيام من هرولة ثلاث لنصف المسافة حول مرعاه وإيرين على صهوته، سألت هورنمار عما حلّ بتسريحة ثلاث. كانت تعرف أنّ كلّ جواد من جياذ البلاط له تسريحته الخاصة، وما كان كيثاذ ليهان أبداً بارتدائه أجزاء من تسريحة سلفه؛ لكنها كانت تخشى أن يكون قد تخلّص من تسريحة ثلاث حين انتهى أمره جرّاء إصابته في ساقه. أما هورنمار الذي كان قد رأى ثلاث يجري حول حقله وإيرين تمتطي ظهره في تحوُّط ومراعاة، فقد أحضر سرّجاً وطوقاً ولجاماً؛ ذلك أنه لم يملك الجرأة ليتخلّص منها على الرغم من أنه ظنّ أنها لن تُستخدَم ثانية أبداً. ومع أن إيرين لاحظت أن التسريحة يبدو أنها نُظِّفَتْ وَزِيَّتْ حديثاً، لم تقل شيئاً سوى «شكراً لك». وفي نفس اليوم الذي حملت فيه تسريحة ثلاث إلى حُجرتها وخبأتها في خزانة ملابسها (حيث اكتشفتها تيكا لاحقاً بعد أن وجدت أنها خلّفت بُقْع زيت على أفضل فساتين إيرين التي ترتديها في البلاط الملكي)، رأت من نافذة حجرتها تور يعود على صهوة جواده من أحد جولات زيارته السياسية؛ فقرّرت أن الوقت قد حان لتربّص له.

قال تور في سرور وقد احتضنها: «إيرين. لم أرك منذ أسابيع. هل انتهيت بعد من فستانك لزفاف القرن؟ من منكما فازت، أنت أم تيكا؟»

لوت إيرين قسمات وجهها. «لقد فازت تيكا أكثر مما فزت أنا، لكنني أرفض بتاتاً أن أرتدي فستاناً باللون الأصفر، وهكذا على الأقل سيكون بدرجة من درجات الأخضر الداكن، وسيكون أقل زخرفة. لكنه لا يزال فظيماً إلى حدّ كبير.»

بدا تور مُستمتعاً. وحين بدا مستمتعاً كادت تنسى أنها كانت قد فضّلت ألا يعودا صديقين مُقرَّبين. قال تور: «تناولي معي وجبة المساء. ينبغي لي أن أتناول العشاء في القاعة — أظن أنك ما زلتِ تزعمين اعتلال الصحة وتتناولين الطعام في سلام مع تيكا؛ لكنني سأتناول وجبة المساء المتأخرة في غرفتي. فهلا أتيت؟»

قالت إيرين: «بالفعل أدّعي اعتلال الصحة. أتريدني حقاً أن أصاب بالدُّوار لحظة وأسكب كأساً ممثّلةً بالنبيذ في حجر الضيف المُوقَّر عن يميني، أو عن يساري؟ احتمال أن أتسبّب في حرب أهلية أقلّ إن تخلّفت عن الحضور.»

«هذا عذرٌ ملائم جداً. أحياناً يُخيّل إليّ أنني لو اضطرّرتُ إلى النظر إلى جالانا وهي تغمغم في عجرفةٍ تعليقاً على آخر تفاصيل الحدث المُنتظر، فسألقي عليها برميلاً كاملاً

من الشراب. ومن الطريقة التي تستطرد بها السرد حول أهمية ما حدث، مرتين، من إزالة ترتيبات جلوس أقارب البارونات من الدرجة الثالثة، قد تَظُنُّنَّ أَنَّنا كُنَّا نعلن استقلالاً ملطَّخاً بالدم عن طاغية يرتكب الإبادة الجماعية. أعرفتُ أن كاتاه لا تريد المجيء على الإطلاق؟ يقول زوجها إنه قد يُضطرُّ إلى وضع حقيبة على رأسها ويربطها إلى حسانها. وتقول كاتاه إنها تعرف جالانا ولا يعرفها هو. هلا تأتين لتناول وجبة المساء؟»

«بالطبع، إن سَكَّتْ بما يكفي لأن أعلن قبولي.» ثم ابتسمت له.

نظر تور إليها وهو يشعر باختلاجٍ من المفاجأة؛ رأى في ابتسامتها للمرة الأولى ما سيقُضُّ مضجعه عما قريب؛ رأى شيئاً لا يُشبه كثيراً الصداقة التي نَعِمَ بها طوال حياتهما وحتى ذلك الحين؛ شيئاً سيزيد ارتفاعَ الحاجز بينهما أسرع مما يُمكن لأي شيءٍ آخر أن يفعل؛ الحاجز الذي رأت إيرين وحدها حتى هذه اللحظة أنه يرتفع. سألتها قائلة: «ما الخطب؟» كان شيءٌ من المودة والألفة القديمة لا يزال يؤدي الغرض، ورأت الطيف يمرُّ بملامحه، وإن لم تملك أدنى فكرة عما سبَّبه.

«لا شيء. سأراك الليلة إذن.»

ضحكت حين رأت أدوات المائدة لوجبتهما: أدوات ذهبية. كانت الأقذاح الذهبية أسماگًا تقف على ذيلها، وأفواهها المفتوحة تنتظر النبيذ كي يُصبَّ؛ ويُحيط بالأطباق أيلٌ ذهبي واثب، رأس كلٍّ منها مَحْنِيٌّ على وسط التي تسبقها، وقد شكَّلت أذيالها المعلقة حافةً مروحية الشكل؛ وكانت المَلَاعِقُ والسكاكين طيورًا ذهبية، تشكِّل أذيالها الطويلة مقابضها. قالت: «غير قابلة للكسر بدرجة كبيرة. لا يزال بإمكانني أن أريق النبيذ.» «سيتعين علينا أن نتدبَّر أمرنا.»

«من أين حصلتَ على هذه في دمار؟»

تسلل إلى وجهه شيءٌ أشبه بتوهُّج. «أربع أدوات من هذه كانت ضمن هدايا بلوغي؛ إنها من بلدة جهة الغرب تشتهر بمشغولاتها المعدنية. إنما أحضرتها في رحلتي الأخيرة وحسب.» كان زعيم البلدة قد أخبره أنها أُعْطِيتَ له لأجل عروسه.

نظرت إليه إيرين، وهي تُحاول أن تقرِّر أمرَ التوهُّج؛ كان في البداية بُنيًّا، وكان كذلك بلون النحاس من لفح الشمس، وكان من الصعب أن تُقرَّر. «حتمًا كان احتفالًا طويلًا ومبهرجًا، وألبسوك حلَّة من المجد الذي لا تشعر أنك استحقَّقْتَه.» ابتسم تور. وقال: «تقريبًا.»

لم يَرُق إيرين شيء في تلك الأمسية، وطفقت هي وتور يتذكّران قدر استطاعتهما أكثر لحظات الطفولة إحراجًا، وأخذوا يضحكان. ولم يذكّرا زفاف جالانا وبيرليث ولو مرة واحدة.

قالت إيرين: «أتذكّر حين كنتُ صغيرة جدًّا، كنتُ لا أزال رضيعةً تقريبًا، وكنتُ أنت تتعلّم لأول مرة كيف تتعاملُ مع السيف، تذكّر كيف اعتدتُ أن تُريني ما تعلّمته ...» فقال مبتسمًا: «أذكرُ أنكِ تبعّنتني في الأرجاء وأخذتِ تتملّقينني وتنتحبن حتى لم أجد بداً من إخباركِ.»

فقالت هي: «تملّقتكِ، أجل. انتحبتُ، مُحال. وقد بدأتُ «أنت» الأمر؛ فأنا لم أسألك أن أوضّع في جرابٍ للأطفال فيما تقفز أنت بجوادك فوق الحواجز.»

«هذا خطئي أنا، أقرُّ بذلك.» تذكّر أيضًا كيف بدأت صداقتهما وإن لم يقل شيئًا عن ذلك. كان قد شعر بالأسف على قربيته الصغيرة، وكان سبب بحثه عنها في البداية هو كرهه لأولئك الذين أرادوا نبذها، خاصةً جالانا، لكن سرعان ما تحوّل الأمر لأجلها هي ذاتها: ذلك لأنها كانت ظريفة ومرحةً حتى وهي بالكاد تتحدّث، وكان أكثر ما كانت تُحب هو أن تجد أشياء تشعر بالحماسة تجاهها؛ كما أنها لم تكن تُذكّره بأنه سيكبّر ليصير ملكًا. ولم يتعلّم قطُّ أن يصدّق أنها دائمًا ما تكون خجولةً بين الناس، ولا أن الخجل هو أفضل محاولاتها لنيل اعترافٍ لبقٍ بمكانتها المتزعزعة في بلاط أبيها؛ ولا أن استعصاءها الدفاعي كان ضروريًا إلى حدٍّ كبير.

لقد أراد أن يراها تلتهب حماسةً حتى إنه صنع لها سيفًا خشبيًا صغيرًا، وبينَ لها كيف تُمسكه؛ ولاحقًا علّمها ركوب الخيل، وسمح لها بأن تركب فرسه الطويلة حين جعلها أول خيولها القزمة الجميلة والمُدلّلة، تتمنّى لو تُقلع عن الركوب تمامًا. وكان قد بيّن لها كيف تُمسك بقويس وكيف تُطلق سهمًا أو رمحًا إلى حيث تُريد له أن يذهب؛ وكيف تسلخ أرنبًا أو طريدة، وأفضل سُبُل الصيد في المجاري المائية والبرك الساكنة. فكّر الآن أنه كان لها بمثابة أخٍ أكبر بشكلٍ كامل، وللمرة الأولى كان في تفكيره هذا شيءٌ من المراحة.

قالت هي: «لا يزال بإمكانني صيدُ الطرائد والسّمك وركوب الخيل. لكنني أفتقد المبارزة بالسيف. أعرف أنك لا تحظى بالكثير من وقت الفراغ في هذه الآونة ...» ثم تردّدت في حديثها، تُقدّر أيّ أسلوبٍ سيكون هو المُرجّح أكثر أن يُثير الرّدّ الذي تبتغيه. «وأعرف أنه ليس ثمة سبب لذلك، لكنني ... لكنني كبيرة الآن بما يكفي لأن أستطيع حمل أحد سيوف التدريب التي يحملها الفتية. فهلاً ...»

سألها قائلاً: «دريتك؟» كان يخشى معرفته بمراميهها، مع أنه حاول أن يُخبر نفسه أن ذلك ليس بأسوأ من تعليمها صيد السمك. كان يعرف أن هذا لن يُجديها نفعاً حتى ولو وافق على ذلك؛ فلم يكن مُهمّاً أنها كانت فارسة ماهرة بالفعل، ولا أنها كانت، أيّاً كانت الأسباب الفطرية أو الظرفية، أقلّ تفاهةً من أيّ من نساء البلاط الملكي الأخريات؛ لم يكن مُهمّاً أنه كان يعرف، من تعليمها أشياءً أخرى، أن بإمكانه على الأرجح تعليمها أن تكون مبارزةً بارعة. كان يعرف أن عليه ألاّ يُشجّعها على ذلك الآن لأجل مصلحتها.

قال تور في نفسه: فلتمنّعها الآلهة من أن تطلب مني شيئاً لا ينبغي لي أن أقدمه لها، وبصوت مرتفع، قال: «حسنٌ إذن».

والتقت أعينهما، وأشاحت إيرين بعينيهما أولاً.

تحتّم أن تكون الدروس على فتراتٍ مُتقطّعة بسبب جولات الواجبات المتزايدة باستمرار باعتبار تور وليّاً للعهد؛ لكن إيرين ظلّت تحظى بدروسها كما أرادت، وبعد عدة أشهرٍ من التدريب تمكّنت من أن تجعل مُعلّمها يلهث ويتصبّب عرقاً فيما يثبّ كلُّ منهما حول الآخر. وكانت دروسها هي دروس جندي مُشاة فقط؛ فلم تجر الإشارة إلى الخيول، وكانت حصيفةً بما يكفي ألاّ تعترض على ذلك، فقد اكتسبت الكثير.

وكانت إيرين تعتزُّ جداً، بما تعلّمته من تور؛ لم يكن في حاجة لأن يعرف بشأن الساعات الطويلة التي استغلّتها في التدريب والتعلم، فكانت تضرب أوراق الأشجار وذرات الغبار حين لم يكن موجوداً. وقد أبدت، ما عدّته هي، احتجاجاتٍ إجبارية بشأن فترات التوقف المنتظمة التي تتخلل ما تُحرزه من تقدّم حين كان تور يُبعث إلى مكانٍ ما، لكن في الحقيقة كانت مسرورة بتلك الفترات؛ لأنها حينها كانت تحظى بالوقت لتضع إضافتها، فكانت تفرض الدروس على عضلاتها البطيئة البليدة «العديمة الهبة». لكنها كانت دوّماً مُتلهفةً إلى لقاءها التالي مع ولي العهد، ولم يُناقش هو معها ما ظنّه متعلّقاً بجلسات تدريبها الخاصة، أكثر من نقاشهما لحقيقة أنه لم يُقاتل من دون حصانٍ منذ كان صبيّاً صغيراً يتعلّم أول دروسه في المبارزة بالسيف. فالأمراء دائماً ما يقودون سلاح الفرسان. وعرفت إيرين جيداً حين حان الوقت أنها لو كانت في تدريبٍ حقيقيٍّ لوضّعت على صهوة حصان؛ لكن مرّت تلك اللحظة أيضاً في صمت.

لكن شيئاً جيداً مرّ في صمتٍ أيضاً؛ لأن كبرياء إيرين كانت تمنعها من أن تُذكره، وذلك لأسباب مختلفة: أخيراً فإنّ التحكّم العضلي والتناسُق لاستخدام السيف ببراعة، أخرجاً منها

آخِرَ ما كان من تأثيرِ لنبته السوركا في جسمها. كان قد مرَّ عامان منذُ لقائهما مع جالانا في الحديقة الملكية.

لقاءات تور وإيرين عند أقصى ميادين التدريب الأقل استخدامًا أعطتُهما كذلك مُبررًا لأن يكونا معًا، كما كانا معًا على الدوام، دون أن يكونا في حاجةٍ لأن يُقرَّرا بالتحفظ المستجد بينهما، ودون اكتشاف أن الحديث بينهما كان يزداد ارتباطًا.

وكانت إيرين تعرف أن تور كان حريصًا على ألا يستخدم قوّته الحقيقية حين يدفعها إلى التراجع؛ لكن على الأقل، وكما عرفت، كان عليه أن يكون سريعًا ليصدّها عنه، وكانت تأمل في أن القوة ستأتي لاحقًا. كانت إيرين تنمو مثل عشب؛ إذ كان قد حلَّ عيد ميلادها السابع عشر وولّى، بالأبّهة المزعجة والضرورية لابنة ملك، والمجاملات المتكلفة المستلّهمة من ابنة الملك غير المقبولة، وكانت أكبر سنًا بكثير من أن تزداد طولًا فجأة. لم تكن تُمانع في أن تفوق جالانا طولًا؛ إذ إن ملامح جالانا المثالية حين تُرى من الأعلى كانت تبدو ناتئة قليلًا عند الحاجبين وضيقه قليلًا حول العينين. وكانت إيرين تأمل أيضًا أن تفوق كيشا المتمردة طولًا وتُمنح جوادًا حقيقيًا.

جواد حقيقي. تعيّن عليها أن تُطبق فمها بقوة أكبر حول عزمها ألا تذكر أمر الجياد لتور. إذ إن قوة الفارس — أو الفارسة — كانت تكمن في الجواد. لكنها إن طلبت من تور أن يعلمها كيف تقاوت من فوق صهوة جوادٍ فسيتعيّن عليه أن يقرّ بمعرفته بمدى ما يعنيه لها الأمر، أن ما تفعله لم يكن مجرد لعبةٍ مسلية خاصة كانت تلعبها؛ وعرفت إيرين أنه كان مُزعجًا بشأن ما كانا يفعلانه بالفعل. كان سكوته الغريب حول سبب تلّهُفها للتعلّم هو ما أنبأها بذلك؛ وكان لا يزال بمقدور تور قراءة أفكارها بقدر ما يُمكنها هي قراءة أفكاره.

الفصل السادس

ازداد تالأت لياقةً وتألّقا. وكان دائماً هزياً بعض الشيء من الناحية اليمنى الخلفية من جسده حين تمتطيه، لكن أخذ الأمر يتطلّب وقتاً أقلّ لكي يتعافى. امتطته إيرين طوال أسابيع من دون عُدة، فيما أخذ الزيت يتساقط من السّرج واللجام داخل دولاّب ملابسها، إذ وجدت نفسها مُحجّمة دون سببٍ يُذكر عن أن تستخدمهما — وكأن شيئاً ما سيفسد، أو كأن هبةً ما ستتحول إلى واجب، بمجرد أن تؤدّي التسريحة دورها في جولاتهما معاً. قالت لتالأت ذات مساء: «أظنّ أنه حتى أفضل فترات الاستشفاء وأكثرها إمتاعاً لا بد أن تنتهيَ يوماً ما»؛ وفي اليوم التالي أحضرت إلى المرعى كل عُدته وسيفها الخاص من سيوف الفتية. أخذ تالأت يتشّمّم فيهم ببطءٍ ثم بحماسة، وأخذ يتراقص في نفاذ صبرٍ فيما أخذت هي تُسرّجه، حتى ضربت بقبضتها على كتفه وصاحت فيه أن يُحسن التصرّف.

تحركّ تالأت متبخّراً وأطاع كل أمر لها على الفور؛ ورغم ذلك وجدت إيرين صلصلة الأجزاء المختلفة المعدنية مزعجة، واستحوذ اللجام على قدرٍ أكبر من اللازم من يديها وكذلك من تركيزها. قالت إيرين للأذنين البيضاوين الصغيرتين: «كيف يتعامل المرء مع السيف وهذا اللجام البغيض اللعين؟ ينبغي أيضاً أن تكون ثمة طريقة لتعليق هذا الشيء البغيض حتى لا يصطدم بك وأنت لا تستخدمه. لو حملت اللجام بين أسناني — فأخفق به نفسي بطريق الخطأ — وفي تلك الأثناء لا يُمكنني أن أصبح بصيحات الحرب التي تُجمّد الدم في العروق مثل «نحو النصر!» و«لأجل دامار!» لأقذف الرعب في نفوس أعدائي، واللجام في فمي.» وبينما هما واقفان، سحبَت إيرين السيفَ من قِرابه وطوّحت به يَمنة ويسرة تُجربّه في نفس الوقت الذي أدار فيه تالأت رأسه ليتلقّف بفمه ذبابةً على كتفه، فعلق السيف في

اللجام فلم يتمكن ثلاث من أن يعدل رقبته، فظلَّ رأسه ملتفًا وإحدى عينيه الداكنتين مُثَبَّتة على راكبته تُؤنِّبها، والنصل التلم يُلامس وجنته.

قالت: «أه، تَبًّا»، وحررت السيف بانتزاعه. فانقطع زمام من زمامي اللجام. وقف ثلاث، إما في انتظار توجيهِه أو خائفًا من أن يتحرك؛ وقد تدلَّى طرف الزمام المقطوع القصير على مسافة بضع بوصات تحت ذقنه، فأحنى رأسه وأمسك به وأخذ يمضغه في تروٍّ.

قالت إيرين غاضبة: «كنا نُبلي حسنًا من دونه»، ونزلت عن صهوته، ومزَّقت اللجام وألقت به على الأرض، مُمسكةً بسيفها العَصِيّ باليد الأخرى مثل قُطَاعِ الطرُق. ثم عاودت ركوبَ صهوة ثلاث ودفعت بساقيها في جانبيه، بأقوى مما أرادت حيث أربكتها حواف السَّرج. فانطلق ثلاث مُبتهجًا في أول عُدُو له منذ يوم إصابته؛ وأنجزت إيرين بعملٍ أفضل مما كانت تتوقَّع، حيث كان ثلاث الآن يتمتَّع بالقوة والجَلَد ليعدوَ مسافةً طويلة نوعًا ما. مرق ثلاث عبر أرجاء مرعاه، ولم تستطع إيرين أن تستعيد السيطرة لا على عقلها ولا على انفعالاتها، التي بدا أنها تقبع على الأرض حيث ألقت باللجام؛ ثم اكتشفت أن السَّرج مثلما جعلها تسيء الحكم على مقدار قوة عصرها على بطن الجواد بساقيها، فإن كتلتها جعلت الآن من السهل جدًّا على ثلاث أن يتجاهلها، فيما حاولت أن تخبره بأن يتوقَّف عن طريق الغوص بقوة في ظهره. ولاح السور أمامهما؛ فقالت إيرين وهي تنُفّس: «أوه، لا»، وألقت بسيفها وأمسكت بعُرف الجواد بكلتا يديها؛ ثم قفزوا في الهواء وعبرَا السور. كان إقلاع الحصان مرتبكا، لكنهما هبطا بخفة، واكتشفت إيرين أن جوادها الذي تعافى كان لا يزال عازفًا عن التوقُّف، وكان يرغب في الانصياع لساقِيها ثانية؛ وفي نهاية المطاف أخذت الدوائر تصغر، وأصبح العُدُو أقربَ إلى الخَبَب، وفي الأخير حين جلست وظهرها للخلف تراجعت سرعته بانقيادٍ فصارَت سيرا.

لكن رأسه وذيله كانا لا يزالان مُنتصبين، وفجأة رفع ثلاث قائمتيه الخلفيتين فتشبَّثت به إيرين بذراعيها حول رقبته في اضطراب. وصهل وضرب بقائمتيه الأماميتين. كانت إيرين قد رأتَه يفعل هذا قبل سنوات، حين كان والدها يَمتطيهِ؛ ذلك أن جياذ الحرب كانت مدرِّبة على خوض المعارك، وكذلك على حُمْل فرسانها في خَضْمِها؛ وكانت قد رأت الفرسان وغيرهم من الخيالة على ساحات التدريب، وفي منافسات لابرون. لكنها وجدت أن الأمر يختلف كثيرًا حين يكون المرء على صهوة الجواد يؤدِّي ذلك.

قالت إيرين: «صه. إن لاحظ أحدُ أننا هنا بالخارج فسنُواجهُ متاعبَ.» قفز ثلاث مرة أو مرتين بقوائم مُتصلِّبة ثم هدأ واستقر. وخاطبته قائلة: «وكيف من المفترض بي أن

أعود بك إلى مرعك ثانية أيها المعتوه؟» فاهتزت أذناه متراجعةً نحو صوتها. «البوابة على مرأى من أي أحد يُراقب من الحظيرة؛ ودائمًا ما يكون أحدٌ ما في الحظيرة.» فتشنَّجت أذناه. «كلًا، لن نقفز عائدتين.» كان جسدها كله يرتجف؛ وشعرت بأن ساقَيها تختلجان على جانبي تالأت.

حوَّلته إيرين نحو الجانب القصي من المرعى مرةً أخرى، وهي تشعر أن أيَّ شيءٍ أفضل من أن يراها أحد؛ وشقًا طريقهما إلى المكان الذي قفز منه تالأت قفزته. وترجَّلت عنه. ثم قالت له: «انتظر هنا وإلا سأقطع لك سيقانك الثلاث الأخرى.» وقف تالأت ساكنًا يُشاهدها فيما تسلَّقت بحذر الجدار الصخري القصير والقضبان الخشبية فوقه. أخذت تبحث في الأرجاء بضع دقائق ثم وجدت سيفها المطروح على الأرض؛ وعادت إلى السور وشرعت تطرق طرف القضيب الأعلى بقبضة السيف حتى انزلق القضيب خارج الحامل وسقط على الأرض. وتبعه الآخر. تفحَّصت إيرين تقرُّحات يديها بتجهم، ثم مسحت العرق عن وجهها. وكان تالأت لا يزال يراقبها باهتمام، ولم يكن قد حرك حافرًا. وفجأة ابتسمت إيرين. «تدريبك جواد حربٍ لم يكن هيئًا، صحيح؟ فالأفضل فقط هو مَنْ يحمل الملك.» زوى تالأت أنفه وهو يُحمم بصوتٍ خفيض. «أو حتى وليَّة عهد حمقاء، بين الحين والآخر.»

تراجعت مبتعدةً عن السور. وقالت: «والآن، جاء دورك. تعالَ إلى هنا.» وأشارت إليه كما لو كان أحد كلاب الصيد التابعة للملك. فجمع تالأت قوائمه إلى بعضها ووثب فوق الأحجار المُتدنية، وصخب الرُّكاب على جانبيه. أعادت القضبان إلى مكانها ثانية، وأمسكت بالسيف، وبينما كان تالأت يتبعها، شعرت بأنها نالت كفايتها من الركوب لهذا اليوم، سارا عائدتين إلى البركة وحجر الركوب، وإلى اللجام والسَّرج المُتكوَّمين.

وفي اليوم التالي كان تالأت يعرج عرجًا شديدًا، ولاحقته إيرين سيرًا على قدَميها ثلاثة أيام لتجعله يَخْبُ ويداوي الألم قبل أن تَمُتطيَّه ثانية. وعادت إلى ركوبه من دون السَّرج واللجام، لكنها أخذت معها سيفها، وكانت تضرب بسيفها الأوراق المتدلية وخيوط العنكبوت — وكانت بين الحين والآخر تسقط عن ظهره حين كانت ضربة سيئة تُفقدُها توازنها — وتعلَّمت أن تتشبَّث بساقَيها حين يرفع تالأت قائمتيه الأماميتين. كما أخذًا مشيان خبيًا من دون توقُّف جهة اليسار ليعزِّزا من قوة الساق الضعيفة، وإن كان تحتم عليها في بعض الأيام أن تصيح فيه وتضرب كتفيه وخاصرته لتحمله على استئناف الحذو يسارًا.

وسألت تور في تراخٍ عن الإشارات التي تعرفها جيادُ الحرب لتؤديِ الوثبَ والاندفاع، وبحذرٍ أخبرها تور، الذي لم يكن يعرف بشأنِ ثلاث وخشيَ مما يُحتملُ أن تكون بصدده فعله حاليًّا. كاد ثلاث يُسقطها عن صهوته في المرة الأولى التي أَمَرَتْه فيها بفعل هذه الأشياء، ولم يستقرَّ ثانيةً أبدًا طوال أيام، مُنطلقًا إلى مزيدٍ من الإشارات التي تُخبره أن يقوم بأكثر ما كان يُجبِ القيام به، وهو العدو السريع في حين أنها لم تكن تُريد منه سوى الخيب.

أما عن اللجام فلم تُعده إلى خزانة ملابسها، لكنَّها عوضًا عن ذلك ألقت به تحت سريرها بعيدًا عن الأنظار. (وتيكا، التي كانت قد أعادت ترتيب الدولاب لتُفسح لزيت السرج، فقد تعجَّبت من هذا التعديل الجديد، لكنها في المُجمل وجدت أنه أفضل، حيث لم يكن يُحتفظ بفساتين البلاط تحت السرير.) انتزعت إيرين الرِّكاب من السَّرج وبدأت تفكُّ القُطب من أسفله، وأخرجت مُعظم ما به من حشو، وحاكت ما بَقِيَ منه ثانية.

ووضعت السَّرج الناتج على ظهر ثلاث، وجلست عليه، وسبَّت ولعنت، ثم خلعت عنه ومزَّقته إلى قطع صغيرة، وبدأت بعناية تُعيد تصميمه بحيث يمتثل تمامًا لقسمات ظهر ثلاث وساقَيْها، الأمر الذي يعني أنها كانت طوال عدة أسابيع تضع السَّرج على ظهره وتركب عليه ربما مراتٍ عديدة في وقت العصر، وكان ثلاث غاضبًا بعض الشيء من ذلك. كما تحمَّ عليها أن تستعير أدوات المشغولات الجلدية من هورنمار. وكانت مُتوترة للغاية بسبب الأسئلة التي لم يطرحها عليها هورنمار لكنه قد يفعل ذات يوم؛ إلا إنه أعطاهها الأدوات في صمتٍ وعن طيبِ خاطر.

في نهاية المطاف، كان العمل على سَرَجها قد انتهى. وكانت قد تركت روابطَ درع الصُّدر فيه حتى يظلَّ بوسع ثلاث ارتداء الشارة الملكية؛ وحين وضعت السَّرج ودرع الصدر عليه فوجئت كم يبدو جميلًا.

قالت وهي تُحدِّق فيما صنعت يداها: «لقد أحسنتُ صنعًا في هذا»؛ ثم تورَّدت خجلًا، لكن لم يكن بالأرجاء غير ثلاث ليرى ذلك.

في تلك الأثناء وأخيرًا، عُقد زفاف جالانا وبيرليث الذي طال انتظاره، وكان تور يؤدي مَهَامَ الإشبين لبيرليث بوجه هادئٍ وخالٍ من التعبير، وكانت جالانا تكاد تكون مُتعالية بخيلاء وسعادة، ذلك لأن عيون البلاد بأكملها كانت منصبةً عليها. كانت جميلة كفجر يوم ربيعي، تتزيَّن بألوان الورد والذهبي والفيروزي، وشعرها الأسود معقود فقط بورود ألوانها

الزهري والأبيض والأزرق الشاحب؛ لكنها عوّضت هذا الاعتدال غير المعهود بالتزين بخواتم في كل إصبع وبارتداء خاتمَيْن في كل إبهام، حتى إذا ما أقدمت على فعل إيماءات الطقوس تبدو يدها وكأنها مُشتعلة؛ إذ كانت الجواهر تعكس ضوء الشمس.

لكن أيضًا في هذا الزفاف انطلقت شائعةٌ جديدة ومزعجة بشأن ابنة الملك، شائعة لم يتعيّن على جالانا أن تُطلقها؛ لأن أعيانًا كثيرة غير عينيها راقبت واستنتجت استنتاجات مُشابهة لاستنتاجاتها من دون حافز الغيرة والكبرياء الجريئة. وقفت ابنة الملك — الأميرة إيرين — على يسار والدها، بحسب الأصول؛ وكانت ترتدي ثوبًا أخضر طويلاً، حواشيه مُمتلئة بقدر امتلاء حواشي فستان جالانا، لكن كان هذا فقط لأجل أن تُظهر لقريبتيها الاحترام اللائق. وكان الدانتيل في صدارتها بسيطًا، ولم ترتد سوى خاتمَيْن، أحدهما هو خاتم آل بيت الملك، والآخر كان والدها قد أهداها إيّاه في عيد ميلادها الثاني عشر؛ وشعرها كان معقودًا بشكلٍ أنيقٍ إلى مؤخر عنقها، ولم تكن تحمل سوى باقة أزهار صغيرة باللونين الأصفر والأبيض. ولم تكن إيرين لترغب في أن تفوق جالانا بهاءً حتى ولو أمكنها ذلك، وكانت قد تجادلت مع تيكا بشأن كل قطبة في الفستان وكل جدلية من شعرها المعقود، وحاولت أن تتملّص من حمل الأزهار من الأساس.

وقف الملك وابنته عن يمين العروسين، ووقف الأشاوين على الجهة الأخرى منهم؛ وبدا واضحًا للكثير من الحاضرين أن نظرات إشبين بيرليث مُستقرة على ابنة الملك وليس على العروس؛ وتكمن المفارقة في أنه لو لم يكن إشبينًا للعريس لوقف على يمين الملك، حيث لم يكن ليتِمكّن من النظر إلى الأميرة إيرين، سواء أراد ذلك أم لم يُرد، ومن ثمّ كان سرُّه سيبقى مكتومًا فترةً أطول قليلًا.

بدأت الشائعة في ذلك اليوم، ذلك أن الناس في مادبة الزفاف مرّوها فيما بينهم، وأخذوها إلى بيوتهم بعد ذلك، أن ولي العهد كان مُتيّمًا بابنة الملك؛ وأن ابنة الساحرة ستوقع الملك التالي لدامار في حبالها كما فعلت أمّها مع أبيها؛ وعادت إلى الأذهان نسمة خوف ضئيلة — ذلك أن افتقار إيرين إلى «الهبة» كان مُطمئنًا — ولازمت الشائعة.

كاد أن يفسد يوم مجد جالانا — وهي التي كانت تأمل أن تجعل تور يشعر فقط بقليل من الأسف لأنه لم يتزوَّجها — حين لاحظت في نهاية المطاف أين ينصبُّ اهتمام إشبين زوجها الجديد؛ لكنّ الغضب كان يُلائمها، ما دامت أبقت لسانها حبيس شفتيها. وكان الأمر يستحقّ العناء تقريبًا، ذلك أن إحدى أغبي صديقاتها، لكنها حسنة النية، ذكرت لها في قلقٍ أن إحداهن قالت إن تور كان واقعًا تحت تأثير سحر ابنة الساحرة، وأن التاريخ

سُعيِد نفسه. قالت السيدة مُقَطَّبَة: «لا أعرف بالضبط ما كانت تقصد، هل تعرفين أنتِ؟ أم الأميرة إيرين كانت ملكة؛ ومن شأن هذه أن تكون زيجةً مناسبة للغاية.»

ضحكت جالانا أكثرَ ضحكاتها فتورًا. وقالت مُداعبةً إيّاها: «أنتِ غرّةٌ للغاية. كانت فضيحةٌ رهيبة حين تزوّج أربليث بأُم إيرين. ألم تعلّمي أن والدَةَ إيرين كانت من الشمال؟» لم تكن السيدة تعرف؛ إذ كانت قد نشأت في بلدةٍ صغيرة في الجنوب، فذهشت لذلك كثيرًا؛ وكان بوسع جالانا أن تستنبط أنها شغوفة إلى الاستماع إلى بعض أخبار النميمة الجديدة لتُدسّها في مُحادثتها مع صديقاتها في المرة التالية التي تجتمع فيها بهن. قالت جالانا بنبرةٍ وديعة: «لا شك في أن أربليث تزوّجها، لكنها لم تكن بالضبط ملكة.» جالانا جعلت الأمر يبدو وكأن العُذر الوحيد لأربليث لإتيانه هذه العلاقة هو عاطفة مُضللة، ولولا أن ضلّلتَه تلك العاطفة، ربما لم يكن ليتزوَّجها مُطلقًا. تركت جالانا السيدة تستوعب هذا — كانت السيدة غبية جدًا وكان يتعيّن التلاعُب بها بحذر — ثم حين رأت في عينيها إشراق الإدراك، أرسلتها، بلُطفٍ ورقّة، إلى حال سبيلها، حتى لا يغيّب عنها ما فهمت.

تحملت إيرين نفسها وطأة الزفاف والمأدبة بعده بأفضل ما في وسعها، لكن، وحيث إن هذا كان يعني أنها صمدت أمامهم برزانية كما يصمد الشهيد في وجه التعذيب، لم تلاحظ لا عيني تور ولا غضب جالانا؛ كانت فقط مُعتادةً للغاية على أن تتجاهل جالانا متى أمكن ذلك؛ كان الشيء الوحيد الذي لاحظته بشأن العروس هو خواتمها الاثني عشر، التي كان من الصعب ألا تلاحظ — ولم تلاحظ كذلك أي شيء سوى الجمود المُعتاد في المُجاملات التي قدّمها لها من حولها. أما تور — الذي كان يُنظر إليه على أنه إما مُتيمّ بشكلٍ خطير ومن ثمّ ينبغي معاملته بحذر، أو أنه مُضللٌ بصورةٍ تُثير الشفقة ومن ثمّ ينبغي حمايته، أو على أنه قادر على تقرير مصيره كما اعتقد بعض البسطاء بشكلٍ لا يُصدّق — فلم يعرف حتى وقت متأخر لاحقًا بشأن كلِّ ما باحت به نظراته.

تجرّدت إيرين من ثيابها الفاخرة وأسلوبها الوقور وانطلقت بسرعةٍ نحو الحظائر عندما لاحت لها أول فرصة، ولم تُعد تشغل بالها بحفلات الزفاف.

كانت قد استغرقت بعض الوقت بعيدًا عن مشغولاتها الجلدية لتبدأ التجريب على الدهان المضاد للنيران. ووجدت معظم المُكونات بسهولة، لأنها كانت أشياء شائعة، كذا كان ما تتلقّاه وليّة العهد من تعليمٍ يشتمل على قدرٍ قليل من أساسيات علم الأعشاب، الذي كانت إيرين قد تعلّمتَه بكل سرور باعتباره مهربيًا من تعلّم التاريخ والسلوك. وقد طلبت شيئًا

أو شيئَيْن من تلك المكونات من هورنمار، من مخزونه الخاص بعلاجات الجياد؛ وظناً منه أنها ربما تريد أن تجرّب ضمّادة من نوعٍ ما على ساقٍ تالأت الضعيفة، منحها صلاحية استخدام علاجاته كما كان قد فعل بصندوق أدواته، ومُجدداً لم يطرح عليها أي أسئلة. كانت إيرين تعي العطية الكبيرة التي قدّمها لها، وهذه المرة لم يسعها إلا أن تنظر إليه بشيءٍ من الاستغراب.

ابتسم لها هورنمار. ثم قال بنبرةٍ دمثة: «أنا أحب تالأت أيضاً كما تعرفين. وإن كان باستطاعتي مُساعدتك، فلا يلزمك سوى أن تطلبي.»

أما مع تيكا وعشبة الجذور الحمراء فكان الأمر أصعبَ بعض الشيء.

«تيكا، ما هي عشبة الجذور الحمراء؟» هكذا سألتها إيرين عصرَ أحد الأيام وهي تضع رقعةً غير متساوية على تنورةٍ كانت دوماً تكرهها، فحملت بسخطٍ من نتيجة ذلك. ردّت عليها تيكا بحدّة: «لو أنك تقضين في الرتق ربع الوقت الذي تقضينه في تصليح ذلك السّرج العتيق، لصرت أجمل وأحلى من جالانا. مرّقي هذه واصنعيها مجدداً.»

تنهّدت إيرين وبدأت تقتلع القطب غير المنتظم. «أتصوّر أن لا جدوى من ذكر أنني لا أملك أي رغبةٍ في أن أكون أجمل من جالانا.» ثم صمتت لحظةً وأضافت: «وعلى ذكر هذا، لا ترتدي جالانا أيّ شيءٍ به رتق أو قطع قط.»

ابتسمت تيكا. وقالت: «كلّا. إنما تُزيل قطعاً كبيراً وتضع جزءاً جديداً تماماً من قماش مختلف، وبذا يُصبح الفستان جديداً.»

فأجابتها إيرين: «أرغب في أن أصنع ممسحةً أرضيةً جديدةً من هذا الشيء.»

رفعت تيكا الثوبَ من يد إيرين وأخذت تُحدّق فيه. وقالت موضّحة: «لم يبَلّ اللون تماماً، لكنّ القماش نفسه سليم. يُمكننا أن نُعيد صباغته.» فلم تُظهر إيرين أي نوبة ملحوظة من الحماسة تجاه هذا التدبير. «ربما بلون أزرق، أو أحمر. لا تُربكيني بابتهاجكِ يا صغيرتي. أنتِ دائماً ما ترغبين في ارتداء الأحمر، برغم شعرك المُتوهج ...»

غمغمت إيرين: «إنه يرتقالي.»

«سيكون مظهركِ حسناً بهذه الحاشية وهي باللون الأحمر، وسترتدين عليها ستره

ذهبية — إيرين!»

فأوضحت إيرين: «لا يزال يلزم ترقيعها.»

تنهّدت تيكا بعمق. «أنتِ ابتلاء لصبر جولوات نفسها، إن صنعتِ شيئاً مفيداً بهذا اللجام الرديء الذي ظلّ يقبع تحت الفراش طوال الأسبوعين المُنصرمين، فسأعيد صباغة

تنورتكِ البائسة، وسأرتقها بحيث لن تستطيع جالانا نفسها حتى أن تلاحظها — وكأنكِ تهتمّين بذلك.»

مدّت إيرين يدها لتحضن تيكاً، وأصدرت تيكاً صوتاً بدا أقرب إلى زفير ينم عن الانزعاج. نزلت إيرين من فوق مقعد النافذة وتوجّهت نحو الفراش على يديها وركبتيها وبدأت تنبش تحته. وعادت الظهور ولم ينل منها الغبار إلا قليلاً؛ لأنّ الخدم كانوا بارّين بواجبهم في مسح الأرض، وأمسكت باللجام أمامها على امتداد ذراعها ونظرت إليه في نفور. وقالت متسائلة: «والآن ماذا أفعل به؟»

اقترحت تيكاً بنبرة واثقة: «صعّبه على حصان.» فضحكت إيرين. وقالت: «إنني أبتكر طريقة جديدة لامتطاء الخيول يا تيكاً. لا أستخدم فيها اللجام.»

هنا ارتعش جسد تيكاً، وهي التي كانت لا تزال بين الحين والآخر تُراقب إيرين وفحلها الأبيض لتطمئن إلى أن تالات لن يُصيب طفلتها العزيزة بأي مكروه. كان من توفيق الآلهة أن تيكاً لم تكن تُراقب إيرين يوم قفز بها تالات فوق السياج. «لا أريد أن أسمع أي شيء عن ذلك.»

فأكملت إيرين وقد مدّت يدها الخاوية بجرأة: «يوماً ما، سأصبح ذائعة الصيت في القصص والأساطير» ثم توقّفت، تشعر بالحرَج من قول هذا حتى لتيكاً. بهدوءٍ قالت تيكاً وهي تُمسك بالتَّنُورة في النور حيث درّزتها بغُرْز خفيفةٍ حول الرقعة: «لم أشكّ في ذلك قطُّ يا عزيزتي.»

جلست إيرين على حافة الفراش واللجام في حجرها ونظرت إلى أطراف ستائر الفراش، والتي كانت من عُرْفٍ ذهبية طويلة لرءوس الجياد المُطرّزة على حافة السّديْل المحدودة، وفكّرت في أمّها، التي ماتت يأساً حين وجدت أنها أنجبت أنثى وليس ذكراً. تساءلت إيرين ثانية: «ما هو الجذر الأحمر؟»

فقطّبت تيكاً. «الجذر الأحمر. هذا ... هو الأستزوران. الجذر الأحمر هو اسمه القديم — وقد اعتاد الناس الظنّ بأنه مُفيد في بعض الأمور.» «أي أمور؟»

رمقتها تيكاً بنظرةٍ سريعةٍ وعصّت إيرين على شفّتها. «لماذا تريدان أن تعرفي؟» «أنا ... أوه، لقد قرأت كثيراً في الكُتب القديمة في المكتبة حين لم أكن ... حين لم أكن على ما يُرام. وكان ثمة كتاب عن الأعشاب، ذُكرت فيه الجذور الحمراء.»

تفكرت تيكّا، وكان بعض أفكارها مُشابهاً لأفكار تور، حين طلبت منه إيرين أن يعلمها المبارزة. لم تفكر تيكّا قط بشأن ما إن كان مصير إيرين مرتبطاً أكثر بحالها أو بحال دامار، ولم تفكر كذلك في علل تتجاوز أيّاً من ذلك؛ وإنما أحسّت بأن مصير إيرين كان فريداً. لكنها كانت تعرف، بأفضل حتى من القريب الذي أحبّها، أن إيرين لن تكون أبداً سيّدة بلاط؛ ليس مثل جالانا، التي كانت سيّدة مُتسلّطة جميلة، ولكن ليس أيضاً مثل تاتوريا زوجة أرلييث الأولى، التي أحبّها الجميع. ولم يكن بإمكان أيّ من أعراف بلاط أرلييث أن تساعد ابنة الملك في اكتشاف مصيرها؛ لكن تيكّا، على عكس إيرين نفسها، كانت تؤمن بأن قدرها موجود في مكان ما. تردّدت تيكّا، لكنها لم تستطع أن تتذكّر شيئاً خطيراً بشأن عشبّة الجذور الحمراء التي لم تعد ذات قيمة.

وقالت تيكّا: «لا ينمو الأستزوران في هذه الأرجاء؛ فهو نبتة عشبية قصيرة تُفضّل المروج المفتوحة. وهي تنتشر بأن تثبق سُوقها الجارية، وحيثما تمسّ السوق الجارية الأرض يخرج منها جذرٌ طويل ورفيع. هذه هي نبتة الجذور الحمراء.» تظاهرت تيكّا بأنها تُولي تركيزاً كبيراً على ما ترتقه. «قد أخرج مدّة بضعة أيام إلى المروج خارج المدينة وإلى التلال؛ فقد تذكّرت أن ثمة أعشاباً أنا في حاجة لها، وأنا أفضّل أن أجمع أعشابى بنفسى. فإن رغبت في المجيء، فسأريك بعض نباتات الأستزوران.»

ولم تطرح تيكّا أيّ أسئلة حين لفت إيرين حزمة صغيرة من الأعشاب بنفسها وربطتها إلى سرج تيكّا أثناء رحلتها، حزمة اشتملت على عدة جذور أستزوران طويلة وضعيفة، وإن كان أيّ من الفرسان المُرافقين قد لاحظ ذلك (ذلك أن تيكّا لم تكن تتركب الخيل إلا مكرهةً، وحتى وهي تمتطي مهرتها البطيئة البليدة العجوز كانت تشعر أنها أكثر أمناً بوجود عدة أشخاص آخرين من حولها)، فلم يقل شيئاً أيضاً.

وجدت إيرين أن وصفة الدهان لم تكن مضبوطة كما ينبغي. إذ صنعت مزيجاً وبسطت شيئاً منه على أحد أصابعها وزجّت به إلى لهب شمعة، وانتزعته سريعاً وهي تصرخ صرخة حادة. وصنعت ثلاث خلطات أخرى، نتجت عنها ثلاث أصابع محترقة، وتوبيخ شنيع من تيكّا، التي لم تكن، بالطبع، على علم بتفاصيل أسباب أن تبدو إيرين مصممة على حرق أصابعها. بعد ذلك استخدمت قطعاً من الخشب لتدهن عليها خلطاتها التجريبية؛ وحين كانت تُصدّر دخاناً وتحترق، تعرف أنها لم توفّق بعد في صنع خلطتها.

بعد المحاولات القليلة الأولى تنهّدت إيرين وبدأت تدوّن ملاحظاتٍ دقيقة عن كيفية صناعة كل خليط وعيّنة. ولم يكن هذا أمرًا مألوفًا لها، وبعد أن ملأت عدة رقوق كتابه برموزها وأرقامها الصغيرة الدقيقة بدأت تفقد شغفها؛ كانت رقوق الكتابة أشياء ثمينة حتى على ابنة الملك. وفكّرت في نفسها: «إن كان هذا الهراء يُجدي نفعًا بالفعل، لعرف به الجميع؛ وكان الجميع سيستخدمونه في صيد التنانين، وكانوا سيستخدمونه طوال الوقت، وما كانت التنانين لتشكّل خطرًا — وكان ذلك الكتاب سيُدْرَس وما كان ليترك ليُعطيه غبار النسيان. من حماقة أن أظنّ أنني ربما أكون قد اكتشفت شيئًا غفل عنه جميع من كانوا قبلي.» وأحنت رأسها على الغصن المُحترق، وانسابت بضع دمعاتٍ حارة على وجهها ثم على الورقة التي دوّنت فيها حساباتها.

الفصل السابع

في عيد مولدها الثامن عشر أُقيمت مأدبة للأميرة الأولى، وذلك رغم كل محاولات منع ذلك. سدّت جالانا نظراتها وكأنها سهامٌ مسمومة ولازمت جنب تور بشكلٍ لافت للنظر بالنسبة إلى كونها زوجة رجلٍ آخر منذ مدةٍ ليست بالطويلة. أبدى بيرليث ملاحظاتٍ خفيفة الظلّ في حق إيرين بأسلوبه الخفيف الناعم الذي دائماً ما كان يبدو ودياً، بغض النظر عما يقول. أما والدها الملك فاقترح نخباً على شرفها، وتألّقت وجوه الحاضرين حول الطاولات في القاعة بالبسمات؛ إلا أن إيرين نظرت إليهم في حزنٍ ولم ترَ إلا أسناناً بادية.

أخذ تور يُراقبها: كانت ترتدي سترّة قصيرة ذهبية على تنورة طويلة حمراء اللون، وعلى السترّة أزهار مطرزة تلفّ على حافتها، وتتدفّق على الكمّين بثلاث ألوان عدة؛ كما لبست الخاتمين نفسيهما اللذين ارتدتاهما في زفاف جالانا. وكان شعرها ذو اللون الناري معقوفاً حول رأسها، ومثبتاً عليه حلقة ذهبية صغيرة، وعلى جبهتها ثلاثة طيور ذهبية تمسك بفصوص خضراء في مناقيرها. رآها تور تُنحّي بصرها عن ابتسامات المتودّدين، ونفض يد جالانا عن ذراعه في تبرّم، وحينها لم تُعد جالانا حتى تتظاهر بالابتسام.

لم تلاحظ إيرين هذا، وذلك لأنها لم تكن تنظر إلى جالانا مُطلقاً إن كان بإمكانها ألا تفعل، ولم تكن تنظر لتور أيضاً إن كانت جالانا بالقرب من تور. لكن أرلييث لاحظ ذلك. كان أرلييث يعرف ما رأى، خيراً كان أو شراً، ولم تكن كثيرة هي الأحيان التي لم يكن يعرف فيها أفضل تصرّف بشأن ما رآه؛ لكن في هذه الحال، لم يكن يعرف. وآلم فؤاده ما رآه في وجه تور؛ لأنّ أعزّ أمانيه كان أن يتزوَّج هذان الاثنان، لكنه كان يعرف أن شعبه لم يُحب قط ابنة زوجته الثانية، وخشيّ سوء ظنّهم، وكانت لديه أسبابٌ لخشيته. أحسّت إيرين بذراع والدها حول كتفها، فالتفتت لترفع ناظرها وتبتسم له.

بعد المأدبة ذهبت تجلس في مقعد النافذة خاصتها، تُحدِّق في الساحة القاتمة؛ وقد خلَّفت المصابيح الموجودة حول مُحيطها بُقْعًا كبيرة من الظلمة بالقرب من جدران القلعة. وكانت حجرة نومِها مُظلمة كذلك، ولم تكن تيكاً قد وصلت بعدُ لتتأكد من أنها علَّقت ملابسها كما ينبغي لها أن تفعل عوضًا عن تركها على الأرض حيث ستدعسها. سمعت صوت طرقٍ خفيف على الباب. فالتفتت وقالت بدهشة: «ادخل»؛ لو كانت فكَّرت في الأمر لصمتت وتركت زائرِها يرحل من دون أن يجدها. أرادت أن تكون وحدها بعد أن كانت في القاعة التي تعجُّ بالطعام والحديث والبسمات المتألقة.

كان القادم هو تور. استطاعت رؤية مظهره في الضوء المنبعث من القاعة، وكانت قد ظلَّت جالسةً في الظلمة فترةً طويلة لأن ترى بوضوح. لكنه أخذ يرمش بعينيهِ وينظر فيما حوله، ذلك أن جسدها بدا وكأنه مجرد جزءٍ من الستائر الثقيلة المُعلَّقة حول الكوة العميقة للنافذة. تحرَّكت فرأى اختلاج تنورتها الحمراء.

«لماذا تجلسين في الظلمة؟»

«كانت الأضواء في القاعة أكثر مما ينبغي الليلة.»

صمت تور. وبعد لحظة، تنهَّدت إيرين ومدَّت يدها نحو شمعةٍ وقدَّاح. بدا لتور أن الظلال التي أسقطها لهب الشمعة على وجهها جعلها عجوزًا للحظة: امرأة لها أحفاد، رغم شعرها البراق. ثم وضعت إيرين الشمعة على طاولةٍ صغيرة وابتسمت له، فعادت بنت الثامنة عشرة.

لاحظت إيرين أنه يحمل شيئًا في يده: شيئًا طويلًا ورفيعًا، ملفوفًا في قماش داكن. «أحضرتُ لكِ هدية عيد ميلادك ... سرًّا، حسبما ارتأيتُ أنكِ ستُفضِّلين.» وقال في نفسه، وهكذا لن أضطرَّ إلى تقديم أي تفسيرات.

عرفت إيرين على الفور ماهية الهدية: إنها سيف. راقبت إيرين بإحساسٍ مُتزايد بالحماسة والإثارة ما بُسِّط من الأغلفة، ومن بينها خرج السيف، سيفها الخاص بها وحدها، وهو يصدر بريقًا. مدَّت إيرين يدها إليه في لهفة، واستلَّته من قرابه. كان السيف أملسٌ عدا بعض الأشغال على مقبضه لتجعل مسكته ثابتة؛ غير أنها شعرت به خفيًّا ومضبوطًا ومثاليًّا في يدها، وقد ارتعشت يدها فخرًا به.

وقالت له: «شكرًا لك»، وعيناها لا تزالان مُثَبَّتَتَيْن على السيف، ومن ثمَّ لم ترَ نظرة الأمل والشفقة على مُحيا تور وهو يُراقبها.

قال تور: «سُجِّرَ بَيْنَهُ عِنْدَ الْفَجْرِ»، وأخرجتها نبرةً صوته من حالة الاستغراق الحاملة، فرفعت عينَها إلى عينيه. وأكمل يقول: «سَأَلْكَ فِي مَكَانِنَا الْمُعْتَادِ» وحاول أن يتحدثَ إليها وكأن هذا تدريبٌ كأَيِّ تدريبٍ آخر؛ وأخفق في ذلك، ومع ذلك لم تخمّنَ إيرين سببَ إخفاقه. قالت إيرين مازحة: «هذا أفضل بكثير جدًّا من أن أحصل على ثوبٍ آخر»، وسرّها أن رأيته يبتسم.

«كان ثوبك غاية في الجمال.»

«لو كان أقلَّ جمالاً، لما كرهته بهذا القدر. كنتَ سيئاً بقدر تيكّا، تحاول أن تُبقيني في الفراش، أو أمشي في أرجاء غُرْفَتِي أرتدي ثوباً إلى الأبد.»

«وقد نفعنا ذلك كثيراً، رغم حقيقة أنك لم تستطعي الوقوف على قدميك من دون السقوط أو التعرّض للإغماء.»

فكانت إيرين، وهي تلوحُ بهدية عيد مولدها برقّة أمام وجهه: «كان تركيزي على دروسي معك هو ما أخرج مني في نهاية المطاف آخرَ تأثيرٍ للسوركا.»

أجابها تور في حزن: «أكاد أصدّقك.»

هكذا كانا واقفين، يتبادلان النظرات، والنصل المسلول مرفوع بينهما، حين دلفت تيكّا من الباب المفتوح خلفهما. قالت: «لتحفظنا جولوتات»، وأغلقت الباب خلفها.

وقالت إيرين: «أليست هدية عيد مولدي جميلة؟» وأدارت النصل يَمَنَةً وَيَسْرَةً بسرعة فأخذ يُومض في وجه مُربيتها العجوز وهي واقفة عند الباب. نظرت تيكّا إلى وجهها ثم إلى وجه تور، ثم عاودت النظر إلى إيرين ولم تقل شيئاً.

فقال تور: «سأتمنّى لكما ليلة سعيدة»، ولأن تيكّا كانت موجودة تجرّأ على أن يمدَّ يديه نحو إيرين، فوضعهما على كتفَيها وهي تضع السيف في قرابه ثم قبلَ وجنتها كما يُقبّلُ القريب قريبته؛ وما كان له أن يجرؤ على إتيان ذلك لو كانا بمفردهما. وانحنى مُحييًّا تيكّا وتركهما.

ربما كان السبب هو حصولها على سيفها الخاص بها. ربما كان السبب أنها بلغت الثامنة عشرة، أو أن ثمانية عشر عامًا من ممارسة العناد كانت تؤتي ثمارها أخيرًا. مع أنها كانت لا تزال تتعثر في حواف البُسْط أو تصطدم بالأبواب وهي تفكر في أشياء أخرى، فلم تعد تكثرُ بالنظر حولها في قلقٍ لتعرف إن كان أحد قد رآها؛ فإما أن أحدًا رآها وإما أن أحدًا لم يرها، وكانت لديها أشياء أخرى تشغل بالها؛ وكانت تنعم بتلك الأشياء الأخرى وتتمتع

بها. كانت تلك الأشياء تعني أنها لم تتورّد خجلًا بصورة تلقائية حين تقع عينها على بيرليث، وهي تعرف أنه كان سيُفكّر في شيءٍ يقوله لها منذ آخر مرة أخفقت فيها في أن تتجنّب، وأن بسمته الخفيفة الماكرة وحفنيّه المرتخين سيزيدان من سوء أي شيء يقوله. وسارت إيرين خلال قاعات القلعة وشوارع المدينة من أقصر الطرق وليس في الدروب التي كانت ستلقى فيها أقل عددٍ من الناس؛ وتفاادت نبتة السوركا في الحديقة الملكية، ولكن فقط كي لا تجعلها مريضة ثانية. ولم تنكمش خوفًا من فكرة وجودها، أو من خزي أن عليها أن تتفادها في المقام الأول؛ ولم تعد كذلك تشعر بأن تنشقّ هواء الحديقة كان مرادفًا لتنشقّ خبث جالانا.

وكانت قد اكتشفت كيف تصنع الدهان المضاد لنيران التنانين.

كانت تعرف أن العناد وحده هو ما أبقاها مُستمرةً على ذلك، أكثر من عامين من إجراء تغييراتٍ ضئيلة في الخلطات التي تُعدّها، وتعلّم كيفية إيجاد كلّ مكونات الخلطات وإعدادها، وذلك لأنها لم تستطع الاستمرار في الإغارة على مخزون هورنمار وتيكا؛ فكانت تبحث عن متاجر العطارة الصغيرة في المدينة والتي تباع المكونات النادرة، وتخرج على سهوة كيشا النافرة لتحصل على الأعشاب التي تنمو بالجوار.

في البداية تساءلت إن كان أحدٌ سيحاول أن يمنعها، وقد تسبّبت لها أولى زياراتها إلى أصحاب المتاجر وكذلك أول خروج لها خارج أسوار المدينة في آلام في معدتها من الرهبة. لكن أصحاب المتاجر تعاملوا معها باحترام بل وكانوا مُتعاونين معها، ورويدًا رويدًا لم تعد زياراتها تبدو مُخيفة. لم يكن ثمة منطق في محاولة أن تتخفّى؛ إذ كانت هي الوحيدة في المدينة التي لها شعرٌ برتقالي اللون، وأي فردٍ من أهل دامار لم يرها من قبل في الواقع كان سيعرف من فوره من تكون. حاولت أن تضع وشاحًا على شعرها الفاضح لها، لكن بمجرد أن تنظر في المراة كانت تُدرك أن هذا لن يُجدي نفعًا؛ فمن الواضح أن الغرض من الوشاح كان أن يُخفي شعرها، وكان حاجباها كذلك بلونٍ برتقالي. وكان ثمة أشياء تستخدمها جالانا لتُسوّد بها رموشها البنية، لكن لم يكن لدى إيرين أدنى فكرة عن كيفية الحصول عليها، وبدا لها أن تيكا على الرغم من أنها كانت تبدو على استعدادٍ لأن تسمح لها بروحاتها الغريبة وحدها في الوقت الراهن، فإنها كانت على الأرجح ستغضب كثيرًا وتفسد كل شيء لو أمسكت بعهدتها الملكية تتسلّل في الأرجاء وشعرها مخفيٌ وحاجباها مُدْهَمَان. وإذ لم يمنعهما أحد، تنامت ثقتُها، فكانت تدلف إلى المتاجر التي كانت تتردّد عليها برأس شامخ، كما ينبغي لأُميرة أولى، وتشتري لوازمها وتخرج ثانية.

شعرت إيرين بأنها مهيبة ورفيعة المقام جدًّا، لكن وجدها أصحاب المتاجر من الرجال والنساء بسيطةً ومتواضعةً بصورة ساحرة، حيث كانوا مُعتادين على أمثال بيرليث وجالانا الذين كانوا لا ينظرون إلى أحدٍ في عينه وهم يُحدِّثونه ولا يرضون أبدًا (كان ثمة اعتقاد سائد بأن المرأة التي تُمدُّ جالانا بمُسودٍ حاجبيها قد ربحت أكثر من السعر الخيالي الذي طلبته)، ولديهم دومًا خدَم يتولَّون أمرَ المال والمشتريات بأنفسهم، فيما يُداعب أولئك جواهرهم وينظرون إلى الأفق. وكان أرلبيث سيُسَرُّ بسماع الشائعة الجديدة الصغيرة التي بدأت تنتشر في المدينة عن ابنة الساحرة، وكيف أن الابنة (مثل أمِّها، كما تذكر قلة الآن) كانت تبتسم للجميع؛ وكاد مظهر ابنة الملك ذاك يُهدئُ الخوف منها الذي بدأ مع الشائعة التي كانت تقول إنها تلقي تعويذة سحرية على ولي العهد. وقد قرَّر قلة من أنصارها أن تور — باعتباره وليَّ العهد والملك المستقبلي — كان بطبيعة الحال يُريد حياةً أسرية هادئة؛ وأن ابنة الملك من بين كل سيدات البلاط تبدو الأرجح لأن تُقدِّم له هذه الحياة.

ومن بين الأشخاص الأكبر سنًّا بصفة خاصة، كان هناك مَنْ هزُّوا رؤوسهم وقالوا إنهم لا ينبغي لهم أن يتركوا الأميرة الأولى الشابة حبيسةً تلك القلعة بهذه الطريقة؛ وأنه سيكون من الأفضل لو أنها خرجت واختلطت بشعبها. ولو أن إيرين سمعت بذلك لضحكت.

كانت الأشياء التي تشتريها غير مؤذية، حتى ولو كان بعضها غريبًا، ورغم أنها بمرور الشهور اشترت منها كميات كبيرة. لم يكن يُوجد أيُّ شيءٍ يمكن أن يُسبب أيَّ ... ضرر. وقد ذكر هورنمار سريةً تامةً لأحد أصدقائه المقربين أو بعضهم علاج الأميرة الأولى المعجز لتالات العجوز؛ وبطريقةٍ ما انتشرت الحكاية أيضًا، وفيما كان الناس يتذكرون الابتسامة البسيطة للساحرة، بدأ بعض الناس أيضًا يتذكرون مسلكها مع الحيوانات.

وقبل بضعة أشهر قليلة من عيد مولدها التاسع عشر وضعت شيئًا من دهان أصفر على قطعة خشب جافة وأمسكتها بكماشةٍ حديدية وزجَّت بها في لهب الشمعة الصغير عند زاوية الطاولة التي تعمل عليها، ولم يحدث شيء. كانت ما برحت تفعل هذه المجموعة المُحدَّدة من الأفعال — القياس والتدوين والخلط واستخدام الدهان ومشاهدة الخشب يحترق — فترةً طويلة جدًّا حتى إن حركتها أصبحت دقيقةً ومتقنة بفعل الممارسة الطويلة فيما نزع ذهنها لأن يشرد من تلقاء نفسه ويُفكِّر في لقاءها التالي بالسيوف مع تور، أو في التذمُّر الذي من المؤكد أن تيكا ستشرع فيه في غضون اليوم أو اليومين التاليين وهي ترتق جواربها، حيث إن بها جميعًا ثقبًا، ومؤخرًا كان يتحمَّم عليها اضطرارًا أن ترتدي دائمًا أحذيةً طويلة الرقبة حين تحضُر جلسات البلاط الملكي في القاعة الكبرى حتى لا تظهر

الثقوب. كانت ترى أن الجوارب الخضراء على الأرجح بها أقل عدد من الثقوب، وكان يتعين عليها أن تتناول العشاء في القاعة الليلية. فمئذ أن أتمت الثامنة عشرة من عمرها كان يُنتظر منها أن تشارك في الرقص بين الحين والآخر، ومن المؤكد أنه سيكون هناك رقص الليلة حيث إن العشاء على شرف ثورييد وابنه، وهما من الجنوب؛ وكانت إحدى بنات ثورييد من صديقات جالانا. وكان من الصعب الرقص بالحذاء الطويل الرقبة فكانت إيرين في حاجة لكل مساعدة تستطيع الحصول عليها. هنا أدركت إيرين أن ذراعها بدأ يُصيبها التعب؛ وأن قطعة الخشب ذات الدهان الأصفر آمنة من النار التي تتقد من حولها، وأن الكماشة الحديدية كانت تزداد سخونة في يدها.

هبت إيرين وأوقعت الشمعدان وأسقطت الكماشة الساخنة، وانزلت قطعة الخشب المدهونة على الأرضية المتربة المتناثرة عليها نشارة الخشب، فاجتمعت عليها رقايات وقشارات الخشب حتى بدت كأنها نوع جديد آخر من الدهان. وكانت إيرين قد أنشأت ورشة في سقيفة حجرية مهجورة بالقرب من مرعى تالات، وكانت السقيفة فيما مضى تحوي خشباً وأشياء كمقابض فنوس قديمة وعصي خشبية يُمكن استخدامها مقابض جديدة للفنوس، ولم تسنح لها الفرصة قط لأن تكس الأرضية، وهو الأمر الذي كانت تنوي أن تفعله منذ وقت طويل. وكانت يداها ترتعشان بشدة حتى إنها أسقطت الشمعة ثانية حين حاولت التقاطها من فوق الأرض، وأخطأت حين عمدت إلى إطفاء خيط الدخان الذي تصاعد من الأرض حيث سقطت الشمعة.

جلست إيرين على كومة من مقابض الفنوس وتنفست بضعة أنفاس عميقة، وركزت تفكيرها على الجوارب الخضراء. ثم وقفت، وأشعلت الشمعة ثانية ووضعتها في هدوء في حاملها. في الشهور الطويلة المنصرمة كانت إيرين قد تعلّمت ألا تُبدد وقتها وبضاعة العطارة بإعداد مقدار ضئيل من كل خليط للتجربة، أما الوعاء الرخامي الذي كانت تضع فيه المعجون والخليط النهائي قبل التجريب على لهب الشمعة فلم يكن أكبر من كأس البيضضة. وكان في قاعه ما يكفي لدهان أنملة أصبع واحدة. اختارت إيرين السبابة اليسرى، وهي الإصبع التي احترقت نتيجة أولى محاولاتها لصناعة دهان مضاد للنار، فيما بدا أنه كان منذ أمم بعيد. ثبتت إيرين أنملة إصبعها في اللهب، وراحت تُراقبها؛ انشَقَّ اللهب المدبَّب ذو اللونين الأزرق والأصفر بسلاسة حول إصبعها وعاد يلتجم فوقها لينخس الظلال على السقف الحجري. ولم تشعر بشيء. فسحبت إصبعها وأخذت تُحدّق فيها في ارتياح،

ثم لمستها بإصبع أخرى. لم تُعد للجلد حرارة؛ وفيما بدا الدهان لزجاً على سطح قطعة الخشب، لم يكن دهنيّاً على إصبعها. يا للهول. إنه حقيقي.

تحقّقت إيرين من ملاحظاتها لتتأكد أن باستطاعتها قراءة ما كتبته عن مقادير هذه التجربة بالتحديد؛ ثم أطفأت الشمعة وانصرفت مذهولة لترتق جواربها.

سألتها تيكا مرتين بنبهة حادة عما بها من خطب، فيما حاولت أن تساعدتها في ارتداء ثيابها استعداداً لعشاء البلاط الملكي. كانت رتوق إيرين أسوأ من المعتاد، الأمر الذي كان يشي بالكثير، وقد تدمرت تيكا أكثر من المعتاد حين رأتها، وكان ذلك نابغاً من قلقها مما بأمرتها من غموض غير عادي، وكذلك سخطاً منها لإتمامها لمهمة منزلية بسيطة أخرى بطريقة سيئة. عادةً ما كانت مادب عشاء البلاط الملكي الكبيرة تجعل إيرين مُرتبكة وواعية للغاية باللحظة الراهنة. أخيراً ربطت تيكا شرائط حول كلا كاحلي إيرين لتُخفي نتوءات الرتق المزرية، وكانت أكثر هلعاً حين لم تُعارض إيرين ذلك. كانت شرائط الكاحلين من أحدث صيحات الموضة بين صاحبات النّسب الرفيع في هذا العام؛ وحين اتضح ذلك واجهت تيكا صعوبةً في إقناع إيرين بالأّ تطيل تنانيرها كلها ثمانى بوصات، حتى لا تنجرّ على الأرض فنُخفي زينة الكاحل؛ وكانت تيكا واثقةً جدّاً من أن السبب الوحيد في ربحها الجدل هو أن إيرين لم تستطع تحمّل ما سينطوي عليه أمر كهذا من حياكة كثيرة.

علّقت تيكا شُرابةً في مقدمة أحد الكاحلين، لتتدلّى بأناقة على التقوُس الشديد لقدم إيرين الطويلة (لا يعني هذا أن الشُرابة ستظلّ في مكانها؛ إذ كانت جالانا وصديقاتها قد ابتكرن ميلاً وتبحّراً في مشيتهن، ليحملن الشُرابة على السقوط نحو الأمام كما ينبغي لها)، وثبّتت دبوساً مزخرفاً صغيراً من الفضة يحمل الشعار الملكي على الكاحل الآخر، ولم تُبدِ إيرين حتى تلمّلاً. كانت تُحدّق في الفراغ حاملة؛ حتى إنها كانت تبتسم ابتسامة صغيرة. فهل يُمكن أن تكون قد أغرمت بأحدهم؟ هكذا تساءلت تيكا في نفسها. من هو؟ ابن ثوربيد، ماذا كان اسمه؟ كلّاً بالتأكيد. فقد كان أقصر منها بمقدار ليس بالضئيل، وكان ضعيف البنية.

تنهّدت تيكا وانتصبت. وقالت: «إيرين ... هل أنت واثقة من أنك لست مريضة؟»
عادت إيرين إلى وعيها واهتزّت اهتزازةً واضحة وقالت: «أنا بخير يا عزيزتي تيكا. حقاً أنا بخير.» ثم أطرقت عابسةً وهزمت كاحليها. وقالت مشمئزة: «أفّ.»

فقال تيكاً بنبرةٍ حادة: «إنها تُخبِّي مواضع الرثق لديك، إن كان يصحُّ أن يُسمَّى هذا رتقاً.»

فقال إيرين: «نمّة»، ثم ابتسمت ثانية، وفكّرت تيكاً في نفسها، ما بالُ تلك الفتاة؟ سأفقّد تور الليلة؛ حتماً سيُنَبِّئني وجهه بشيء.

الفصل الثامن

فكَّر تور في تلك الليلة أنَّ إيرين تبدو متألَّقة وتمنَّى في حُزن لو أنَّ لهذا علاقةً به، في حين كان يعرف يقيناً أنَّ ذلك ليس صحيحاً. وحين أخبرها بجرأةٍ كبيرة وهما يرقصان بين الراقصين أنها جميلة، ضحكت من قوله. فكَّر تور في نفسه أنها نضجت فعلاً؛ فقبل ستة أشهر حتى كانت ستحمرُّ خجلاً وتتخشَّب بين ذراعيِّ. قالت إيرين: «إنها الشرائط حول كاحليّ. لقد بلغت الرتوق في فضاءاتها مبلِّغاً عظيماً اليوم، وقالت تيكا إنه إما أنَّ أرتدي هذا أو أنَّ آتي حافية القدمين.»

قال تور، وهو ينظر إلى عينيها الخضراوين: «لستُ أنظر إلى قدَميكِ؛» فأجابته دون أن تجفل: «ينبغي بك إذن أن تفعل، يا قريبي العزيز، لأنك لم ترني مُزيَّنة بهذا الشكل من قبل، ومن المُستبعد أن تراني هكذا ثانية.»

ولم يكن بمقدور ابن ثوربيد الواهن أن يغضَّ نظره عنها. وقال لوالده معلِّقاً إن الأميرة إيرين كبيرة الحجم بصورة رائعة. أما ثوربيد الذي كان يروق له أن تكون المرأة بهذا الحجم لكي يُلقي بها على كتفه ويهرب بها في خفة — ولا يعني هذا أن الفرصة قد سنحت له من قبل، لكن كان ذلك معيارَ قياسٍ رائعاً وجذاباً — فلم يقل سوى «آه، هممم». أما جالانا، التي لم يكن يروق لها الرجال الضعفاء الواهنون، فكانت لا تزال غاضبةً من أنَّ أحدهم يُضيِّع وقتاً في النظر إلى إيرين، فعانقت بيرليث بلا هوادة. كانت شبه مُدعنة لكونها متزوجةً من بيرليث؛ فقد كان تور ميثوساً منه حقاً. ليت بيرليث يتملَّقها أكثر؛ شيءٌ من قنوطٍ ساخرٍ منها بسبب كونها محطَّ الاهتمام في كل تجمُّع (تقريباً)؛ شيء من الغيرة حين يكتب الشبانُ الوسماة قصائد الشعر لها، حيث كانت قادرة أحياناً على حثِّهم على فعل ذلك. لكنه كان يتعامل معها بطريقةٍ مثيرة للغضب، فحواها أنه بعرضه المُنتقى بعناية للزواج بها قد أنعم عليها بمعروف. بحق الآلهة! كانت مناسبةً له كثيراً في نهاية المطاف.

ولكنه هو أيضًا كان مناسبًا لها كثيرًا. ولم يكن أيُّ منهما لينسى هذا أبدًا. أمضت إيرين الأمسية بسلاسة. فمِنذُ أصبحت الأميرة الأولى، لم تشعر مُطلقًا بالإحراج (أو بالارتياح) لكونها قادرةً على الامتناع عن المشاركة في الرقص. ولم تكن واعيةً، بصفة خاصة، إلى أنها لم تدعس قَدَمَ أحدهم في تلك الليلة، وكان هذا على غيرِ عاداتها كثيرًا؛ وكانت مُعتادة على التأكيدات المَهذَّبة، في نهاية كل رقصة، حين يجري تبادل شركاء الرقص، بأنه كان من السارِّ كثيرًا الرقص معها، وكان ذهنها شاردًا بعيدًا حتى إنها أخفقت في التعرف إلى رنة الصدق غير المُعتادة في أصوات شركاء الرقص. لم تُمانع حتى أن ترقص ثلاث رقصات مع ابن ثوربيد (ماذا كان اسمه ثانية؟) ذلك أنها وفي حين أنَّ طوله لم يُضايقها، فإنَّ ضَعف شخصيته كان من شأنه، في مناسبةٍ أخرى، أن يُضايقها.

وقد لاحظت حين رقصت مع بيرليث أن ثَمَّةَ خبثًا عميقًا غير مألوف في كلامه وتعليقاته، وتساءلت بشكلٍ عابر عما يُضايقه. هل لون ثوبي يجعل بشرته شاحبة؟ لكن بيرليث هو الآخر كان قد لاحظ إعجابَ ابن ثوربيد بابنة الملك الوحيدة، وأزعجَه هذا تقريبًا بقدرِ ما أزعج جالانا. فقد علِمَ بيرليث يقينًا أن جالانا توقَّفت عن لعبِ دورِ صعبةِ المنال فيما مضى حين كان يتودَّد إليها؛ لأنها كانت قد قرَّرت أن تجعل في الضرورة مزية بعد أن أصبح جليًّا أن أفضل ما ستحصل عليه هو لقب أميرة من المرتبة الثانية. إلا أن أميرة من المرتبة الثانية كانت تُعد شخصية هامة، وكان بيرليث يريد أن يحسده الجميع على ظفَره بالدرجة التي يَسْتَحِقُّها نَسَبُ العريق وجاذبيته التي لا تُقاوم، وبالطبع ما يستحقُّه ما تتمتع به جالانا من جمال. كيف يجرؤ هذا القزم السوقي على أن يُعجب بالمرأة الخطأ؟

وكونه بيرليث، فقد ضبط بالطبع توقيت تودُّده إلى جالانا ليتزامن مع اللحظة التي أعلنت فيها جالانا هزيمتها في مسألة كونها ملكةً مُستقبلية؛ لكنه ما كان قادرًا أبدًا على حمل نفسه على التودَّد إلى إيرين. كان له في ابنة الملك حقُّ بقدرِ أيِّ أحد — من المؤسف أنها ذاتُ شعر برتقالي وقَدَم ضخمة الحجم — وفي حين أنه ما كان ليتزوجها أبدًا، سواء كانت ابنة الملك أو لم تكن، فلربما كان من المُسلي له أن يجعلها تُغرم به. وفي عقله الواعي كان يؤثِّر أن يُظنَّ أنه لم يجعلها تُغرم به باختيارها؛ وقد راوَدَه في لحظة كئيبة أن إيرين لم تكن تُحب أن يتودَّد إليها أحد على الأرجح، وأنَّ سحر أسلوبه الشهير (حين كان يُعنى بأن يستخدمه) ربما لم يكن ذا تأثير عليها بأي شكلٍ من الأشكال. فأبعد تلك الفكرة عن ذهنه في الحال، ودفنها إلى الأبد اعتزازُه بنفسه المُدَرَّب تدريبًا جيدًا.

كان بإمكانه الاعتراف بأنها تبدو أجمل من المعتاد هذه الليلة؛ فلم يكن قد رآها من قبل في تلك الشرائط الأنيقة، وكان لها كاحلان جميلان دقيقان برغم شكل قدميها. ولم يلين هذا الإدراك من موقفه؛ فأخذ يُحملك في شريكته في الرقص، وكان بإمكان إيرين الشعور بحملته فيها، رغم أنها عرفت أنها لو نظرت في وجهه فإن تعبيراته ستكون تعبيرات استمتاع خامل، مع وجود وميض عميق وحسب في عينيه اللتين ارتخت جفونهما كثيراً لتخبراهما بما يفكر فيه. وعند وقفة في الرقص قطف بيرليث عدة ذرات غبار ذهبية في الهواء وُجدت فجأة حين مدَّ يده نحوها. قبض بيرليث عليها بأصابعه، وابتسم وفتح يده ثانية فانبثقت بين إبهامه وسبابته حزمة صغيرة من أزهار صفراء وبيضاء، من نفس النوع الذي حملته إيرين في زفافه.

وقال لإيرين وهو ينحني: «إلى أجمل امرأة هنا الليلة.»

شحب وجه إيرين وتراجعت خطوة للوراء، ويداها خلف ظهرها. واصطدمت بالثنائي المجاور الذي كان ينتظر أن تبدأ موسيقى النمط التالي، فالتفتا مُبديين بعض الانزعاج لينظرا ما كان يحدث؛ وفجأة كانت القاعة بأكملها تتفرج. وضع الموسيقيون في البهو آلاتهم الموسيقية في حين كان ينبغي لهم أن يعزفوا النغمة الأولى؛ فلم يخطر ببالهم فعل شيء آخر. كان بيرليث يُصبح «موهوباً» جداً، خاصة حين يشعر بخيبة الأمل.

انفجرت مساحة صغيرة حول بيرليث وإيرين، وكانت باقة صغيرة من أزهار بيضاء وصفراء محطاً أنظار القاعة الشاسعة بمن فيها. غمغم تور بشيء، وأسقط من يده يد شريكته في الرقص، الأمر الذي تسبب في إزعاج تلك السيدة كثيراً (ستشعر هذه السيدة بالحنق تجاه الأميرة البرتقالية الشعر أسابع لاحقة)؛ لكنه كان عند جانب القاعة القصي الآخر من إيرين وبيرليث، وكان الحشد وكأنهم تجمدوا وهم وقوف، وذلك لأنه وجد صعوبة في شق طريقه بينهم، ولم يحاول أحد أن يفسح له الطريق.

عرفت إيرين أنها لو لمست الأزهار السحرية فإنها ستتحول إلى ضفادع، أو ستنفجر انفجاراً لن يسع أي أحد لم يلاحظ الضفادع إلا أن يلاحظه؛ أو الأسوأ من ذلك، أنها ستجعلها سقيمة على الأرض عند قدمي بيرليث. وعرف بيرليث ذلك أيضاً. فقد جعلها السحر شديدة الحساسية منذ أبكر أيام مُراهقتها، حين كان ينبغي أن تُعلن «هبتها» عن نفسها ولم تفعل؛ ومنذ اعتلت صحتها أصبحت ردة فعلها تجاه أي شيء له علاقة «بالهبات» الملكية أكثر عنفاً. وقفت إيرين عاجزة ولم تستطع التفكير في أي شيء تقوله؛ فحتى لو طلبت منه أن يُعيد الأزهار إلى ذرات من الغبار، فإن نفحة السحر حول يديه ووجهه ستبقى، وما كانت لتجرؤ على أن تعاود الرقص معه على الفور.

وقف بيرليث يبتسم لها ابتساماً رقيقة، وذراعه مرفوعة في كياسة ويده ملتفة حول باقته؛ وكان الوميض في عينه شديداً التوهج.

ثم قفزت الأزهار من بين أصابعه ونمت لها أجنحة، واستحالت طيوراً بيضاء وصفراء تغرد «إيرين، إيرين» بعدوبة قيثار زهنية، وفيما اختفت الطيور في ظلمة السقف استهلّ الموسيقيون العزف ثانية، وكانت يد تور تطوقها، وترك بيرليث ليشق طريقه إلى خارج دائرة الراقصين. وطئت إيرين قدم تور عدة مرات وهو يساعدها في مغادرة ساحة الرقص، ذلك أن السحر كان قوياً في فتحتي أنفها، ورغم أن ما حدث كان قد حدث على مسافة بعيدة من تور، ظلّ السحر عالماً به أيضاً. وقد رفعها تور بقوة المحضة حتى قالت له وهي ترتجف قليلاً: «أفلتني يا بن العم، فأنت تمزق حزام تنورتني.»

فأفلتها في الحال، ومدّت هي يدها، نحو كرسي، وليس نحو ذراعه الممدودة. فأنزل ذراعه. فقال: «عفوك، فضلاً. أنا أحرقت الليلة.»

فقالت هي بمرارة: «أنت لم تكن قط أحرقت» وسكت تور؛ ذلك أنه كان يتمنى لو أنها استندت إليه وليس إلى الكرسي، ولم يلاحظ أن معظم المارة كان موجّهاً إلى بيرليث، الذي كان يأمل أن يحرّجها أمام البلاط الملكي بأكمله، وبعضه كان موجّهاً إليها هي نفسها، ولم يكن أي قدر منه موجّهاً إليه. أخبرته أن بإمكانه أن يتركها، وأنها على ما يرام إلى حد بعيد. قبل عامين كان سيقول لها: «هراء، ما زلت شاحبة اللون، ولن أتركك؛ لكن الوقت لم يكن قبل عامين، فما كان منه إلا أن قال: «كما تشائين»، وتركها ليجد شريكته في الرقص التي هجرها ليقدّم اعتذاراته.

وأتى بيرليث إلى إيرين وهي جالسة في الكرسي الذي كانت قد استندت إليه، ترتشف من كوب من الماء كانت امرأة من الخدم قد أحضرته لها. وقال وهو يغلق عينيه حتى لم يبدُ من تحت أهدابه الطويلة إلا بصيص من لمعانها: «بكل تواضع أرجو عفوك. فقد نسيت أنك ... لا تعيرين اهتماماً لمثل ... هذه ... التذكارات.»

نظرت إليه إيرين في حزم وهدوء. وقالت: «أعرف تماماً ما كنت تبغي هذا المساء. وأتقبل اعتذارك بقدر قيمته تماماً.»

طرفت عينا بيرليث دهشة من هذا التصلب غير المتوقع، وكان عاجزاً عن الرد هنيهةً. ثم قال بمداينة: «إن كنت تقبلين اعتذاري بقدر قيمته، فأعرف أنني لست بحاجة لأن أخشى أن تحملي نحوي ضغينة بسبب حماقتي البائسة.»

وضحكت إيرين، وهو ما أدهشها بقدر ما أدهشه. «كلّا يا بن العم؛ لن أحمل نحوك ضغينة بسبب حفل هذا المساء. فقرابتنا التي تمتد سنوات كثيرة، تتجاوز بنا

حمل الضغائن.» ثم انحنى إيرين بسرعة وغادرت القاعة، خشية أن يفكر في شيء آخر يقوله لها؛ فبيرليث لم يخسر قط في المناوشات اللفظية، وأرادت أن تحتفظ قدر إمكانها بإحساسها الرائع بأنها أحرزت ضده نقاطاً.

ولاحقاً في ظلمة غرفتها، أعادت إيرين النظر في أحداث الأمسية بأكملها، وابتسمت؛ لكنها كانت ابتسامة مختلطة بتجهم، ووجدت أن النوم كان يُجافيها. كان يوماً طويلاً للغاية، وكانت في غاية التعب؛ ودائماً ما كان ذهنها يُصاب بالتشوش عندما تقضي أمسية على الملأ في القاعة الكبرى، وفي هذه الليلة، بمجرد أن صرفت أفكارها عن بيرليث وتور والطيور الصفراء، تحوّلت من فورها إلى أمر الدهان المضاد للتآكل.

وفكرت في أن تتسلل عائدةً إلى مُعملها، إلا أن أحداً قد يرى ضوءاً في المكان الذي يجب ألا توجد فيه إلا مقابض الفتوس. ولم تذكر إيرين قط أنها قد استحوذت على السقيفة القديمة، لكنها شكّت في أن أحداً قد يولي ذلك اهتماماً ما دام أن الأضواء لم تظهر في ساعات غريبة — وأنى لها أن تُفسر ما كانت تفعله؟

أخيراً قامت من سريرها ضجراً وتلففت بالمبذل الذي كان تور قد أعطاهما إيّاه، وشقّت طريقها عبر الأروقة الخلفية والدّرج، الذي كان نادراً ما يُستخدم، إلى أعلى شرفة في قلعة والدها. كانت الشرفة تطلّ على الجزء الخلفي من الفناء؛ وخلفه تقع الإسطبلات، وخلفها المراعي، وخلفهم جميعاً مرتفعات التلال المُدبّبة. ومن حيث كانت واقفة، كانت الهضبة الشاسعة حيث تقع المراعي وساحات التدريب مبسوطة أمامها مباشرة؛ لكن على يسارها امتدّت التلال بالقرب من جدران القلعة، بحيث لم يكن يصل من ضوء الشمس إلى أرض ذلك الجزء والطابق الأول فيه إلا القليل، وكانت جدران الفناء منحوتة في التلال نفسها.

كانت القلعة هي أعلى موضع في المدينة، وإن كانت الجدران التي كانت مُحيطَة بالفناء تمنع أيّ أحد يقف على مستوى الأرض بداخلها أن يرى المدينة مُنبسطة على المنحدرات السفلية. لكن من نوافذ وشرفات الطابقين الثالث والرابع المطلّة على الجزء الأمامي من القلعة كان بالإمكان رؤية الأسطح العليا للمدينة، فكانت أحجارها بالألوان الرمادي والأسود والأحمر الباهت، وكانت من البلاط والألواح الخشبية الرقيقة؛ وكانت المداخل تعلوها جميعاً. ومن نوافذ الطوابق الخامس والسادس كان بإمكان المرء رؤية طريق الملك، ذلك الطريق المُعبّد الذي يمتدّ مباشرةً من بوابات القلعة وحتى بوابات المدينة، حتى قرب آخره في استواء مُنْبَسَط نظيف تحفه كتل صخرية، إلى مسافة قصيرة بعد أسوار المدينة.

لكن من أيّ موضعٍ من القلعة أو المدينة كان يمكن للمرء أن يرفع ناظره فيرى التلال التي تحتضنهما؛ حتى الفُرجة في الخط المُتعرِّج التي أحدثتها بوابات المدينة كانت ضيقة بما يكفي لئلا تُرى على حقيقتها بسهولة. وكذلك كانت تتعذّر رؤية الممر بين قمة فاست وقمة كار، وهما قمتا التلّين الأعلى اللذين يُحيطان بأرض الغابات المتموجة التي تمتد أمام المدينة وتلتف لتلتقي بالتلال خلف القلعة. كانت إيرين تُحب التلال؛ إذ كانت في الصيف والربيع خضراء وفي الخريف بُنيّةً وصفراء، وفي الشتاء بيضاء بفعل الثلج الذي تقي المدينة منه؛ ولم تكن التلال تُخبرها البتة أنها مزعجة ومصدر خيبة أمل وأنها هجينة. نرعت إيرين الأرض حول الشرفة ونظرت إلى النجوم وإلى لمعة ضوء القمر على سطح الفناء الناعم كالزجاج. وبطريقةٍ ما كان المساء الذي قاسته قد أحمَد كثيرًا من بهجتها بما اكتشفته صباحًا. فمسألة أن شيئًا من دهانٍ أصفرٍ يمكن أن يحمي إصبعًا من لهب شمع لم يكن يُفهم منها شيء عن خصائصه الوقائية في التعامل مع التنانين؛ فقد سمعت الصيادين وهم عائدون من الصيد يقولون إن نيران التنانين عنيفة، وأنها تحرق كما لا تحرق أيّ نارٍ موقد.

وفي تجوالها الثالث حول الشرفة وجدت أن تور يترصد في ظل إحدى الزوايا المُحصّنة. قال لها تور: «أنتِ تسيرين بهدوءٍ شديد.»

فقالت باقتضاب: «حافية القدمين.»

«لو أمسكت بكِ تيكاً على هذه الحال وهواء الليل بهذه البرودة، فستوبّخك.»
«سنوبّخني فعلاً؛ لكنها تنام ملء جفونها، وقد تجاوزت الساعة مُنتصف الليل بكثير.»
«هذا صحيح.» ثمّ تنهّد تور وفرك جبهته بإحدى يديه.

فقالت إيرين: «يُدْهَشني أنك تهرّبت مبكرًا جدًّا؛ فحفل الرقص غالبًا ما يستمرّ حتى مطلع الفجر.»

ورغم خفوت الضوء، استطاعت إيرين أن ترى تور يُقَطَّب. «قد يستمر حفل الرقص في معظم الأحيان حتى الفجر، لكنني نادرًا ما أتحمل نصف تلك المدة حتى، وهو ما كنتِ ستعرفينه لو تكلفتِ عناء البقاء ومرافقتي.»

«هممم.»

«هممم ثلاثًا. هل خطر من قبل لك أيتها الأميرة إيرين أنني أيضًا لستُ براقصٍ بارع؟ وعلى الأرجح أيضًا أننا لا نرقص معًا في أحيان كثيرة وإلاّ فسنُلحق بأنفسنا أضرارًا كبيرة. لا أحدَ يجرؤ على ذكر هذا بالطبع، لأنني وليّ العهد...»

«ولأنك رجل مُفْرِط الانفعال.»

«إطراؤك عليّ لن يُجديكَ نفعًا. لكنني أغادر ساحة الرقص بمجرد أن أكون قد وقفت مرة مع كل سيدة تشعر بالإهانة إن لم أفعل.»
 بدا مزاح تور متكلفًا. فسألتَه إيرين: «ما الخطب؟»
 نخر تور ضاحكًا. «لقد أبرزتُ لك أحد أكثر عيوبي تسبُّبًا في الإحراج لأحيد بك عن هذا، وأنت ترفضين أن يتشتت انتباهك.»
 فاننتظرت إيرين.

تنهَّد تور ثانية، وخرج من بين الظلال ليتكئ بمرفقيه على السور الحجري الخفيض المحيط بالشرفة. أضفى ضوء القمر على وجهه شحوبًا، وعلى ملامحه وقارًا وسكونًا، وجعل شعره مادةً خامًا للظلمة المطلقة. وراق إيرين هذا التأثير كثيرًا، لكن تور أفسده بأن مرَّ إحدى يديه خلال شعره وعبس وتجهَّم، وعندئذ عاد إلى كونه متعبًا ومضطربًا وبشريًا. «كان ثمة اجتماع من نوع ما، عصر اليوم قبل المأدبة.» ثم سكت ثانية، لكن إيرين لم تتحرك؛ إذ توقَّعت أن ينطق بالمزيد؛ فرمَّقها بنظرة ثم استطرد. «أراد ثوربيد أن يتحدث بشأن تاج البطل.»

«أوه.» انضمت له إيرين، فاتكأت بمرفقيها على الجدار إلى جواره، فلف ذراعه حولها. فاكتشفت أنها كانت تشعر بالبرد وأنها مسرورة كثيرًا بذراعه وبدفء جواره. «ماذا أراد أن يعرف بشأنه؟»

«ما الذي يريد أيُّ أحد أن يعرفه بشأنه؟ يُريد أن يعرف مكانه.»
 «وكذلك نحن جميعًا.»

«أجل. عذرًا. أقصد أنه يُريد أن يعرف إن كنا نبحت عنه الآن وإن لم نكن نفعل فلم لا نفعل، وإن كنا نبحت عنه فبأي وسيلة، وما قدر التقدُّم الذي أحرزناه. وإن كنا نعرف مدى أهميته وما إلى ذلك.»

«أرى أنك أمضيت وقتًا لم يكن مُسليًا على الإطلاق عصر اليوم.»
 «بأي كيفية نبحت عنه في ظنِّه؟ بحق الآلهة السبع وما صاغت إيرينها! لقد رفعنا كل صخرة في دامار مرتين على الأقل بحثًا عنه، ومن قبلُ سادت صرعة اقتلَعنا خلالها الأشجار وبحثنا عنه تحتها. لقد أتينا بكل العرَّافين، المُتمرِّس منهم والمبتذل، ليُحاولوا أن يقدموا لنا استبصارًا عن مكانه.»

«أكانت أمي واحدة منهم؟ هكذا فكَّرت إيرين في نفسها.

«لا شيء. مجرد أشجار كثيرة ميتة وصخور في غير مواضعها.»
كانت جالانا قد أخبرتها ذات مرة أن ثَمَّة تاجًا يقى دamar من الشرور، وأنه لو كان التاج بحوزة أرلبيث حين التقى والده إيرين لما تزوّجها البتة، وأنه لو كان قد وجده في أي وقتٍ منذ ولادة إيرين، لما أُجبرت جالانا بعدها على تحمّل أن تقصّ لها إيرين أهدابها؛ لكنها لم تشرح لها بالتحديد كيف تعمل وظائف الحماية في التاج. عرفت إيرين أيضًا أنه كان من المنتظر من أعضاء الأسرة الملكية الأقوى موهبةً أن يمشغوا ورقةً من نبتة السوركا ليوجّوها أذهانهم نحو رصد مكان التاج. وافترضت أن تور فعل ذلك، وإن لم يكن ذلك بالشيء الذي كان سيخبرها به. وكلّ ما تعلّمته من دروس التاريخ التي تلقّتها أن ملوك دamar الحاليين كانوا قد قرّروا ألا يرددوا تيجانًا، إكرامًا لتاجٍ فقد قبل زمن طويل.
قالت إيرين بنبرة بطيئة: «سمعتُ به بالطبع، لكنني لستُ واثقة تمامًا من ماهيته، أو ما يفترض به أن يفعله.»

ساد الصمت بينهما لحظة. ثم قال تور: «ولا أنا. لقد فقد ... قبل وقت طويل. كنت أظنّ أنه مجرد أسطورة، لكن المستشار العجوز زانك ذكره قبل عدة أسابيع، وحينها أخبرني أرلبيث أنهم كانوا يبحثون عنه تحت الأشجار. وقد اعتاد جدّ زانك أن يقصّ حكاية فقدانه. ويظن زانك أن تزايد الغارات على الحدود يعود، إلى حدٍّ ما، إلى غياب التاج؛ وأن الشرور ... القادمة من الشمال ... لم تُسبّب لنا المتاعب حين كان تاج البطل في المدينة. وعلى ما يبدو أن ثوربيد يوافق الرأي، وإن لم يُصرّح كثيرًا بهذا.»

ثم هزّ كتفه، ووطّد وجودها أكثر في ثنية ذراعه. «إن تاج البطل يحوي كثيرًا من جوهر دamar؛ أو على الأقل كثيرًا مما ينبغي أن يتمتع به ملك دamar في جوهره من أجل أن يحافظ على وحدة صفّ شعبه ويحميه من الشرور. ومن المفترض أن إيرينها هي من شكّلته. وهنا نأتي إلى الأسطورة، لذا ربما تعرفينها. كان يُعتقد أن قوة دamar — أو أيًا ما كان في هذه الأرض ويجعلها على ما هي عليه ويجعلنا نحن من أبنائها — يمكن أن يُحتفظ بها بصورة أفضل أو بدرجة أكبر في شكل تاجٍ يمكن تداوله من ملك إلى ملك، حيث إن بعض الحكام أفضل بالضرورة أو أكثر حكمةً من البعض الآخر. بالطبع ينطوي هذا النظام على إمكانية فقد ذلك التاج، ومعه نفقد قوة دamar، وهو ما حدث في نهاية المطاف. ومُفاد قصة زانك أن التاج سرقه ساحرٌ أسود، وأنه توجّه شرقًا وليس شمالًا، وإلا لكان الشماليون قد تكالبوا علينا قبل وقتٍ طويل. ويظن أرلبيث ...» وهنا خفّت صوته.

«ماذا؟»

«يظن أرلييث أنه وقع في يد الشماليين في نهاية المطاف.» ثم سكت لحظة قبل أن يضيف ببطء: «يؤمن أرلييث على الأقل بوجوده. ومن ثمَّ يتحمَّ عليَّ أن أفعل كذلك.» ولم تسأله إيرين أكثر من ذلك. كان هذا هو أحلك أوقات الليلة؛ كان الفجر أقرب إليهما من منتصف الليل، لكن بدا أن السماء تُبقيهم في ترُّب. ثمَّ فجأةً وتحت وطأة الظلمة ووطأة ما عرفت لتوها، تذكَّرت الدهان المضاد لنيران التنانين، وبطريقةٍ ما لم يُعدَّ يهْمُها كثيرًا لا التاج المفقود ولا ضغينة بيرليث، التي هي سبب خروجها لتحذِّق في السماء في عتمة الليل؛ ذلك أنها، في نهاية المطاف، لم يكن بإمكانها فعلُ شيءٍ بشأن أيٍّ منهما، وكانت وصفة إعداد دهان كينيت من صنعها. ولو أنها لم تستطع النوم، فستعدُّ خليطًا تجريبيًّا كبيرًا يوم غد. قالت إيرين: «ينبغي أن أخلد إلى الفراش» ثم اعتدلت.

فقال تور: «أنا أيضًا. سيكون من المثير للإحراج كثيرًا لشرف العائلة المالكة لو أن ولي العهد وقع من فوق جواده يوم غد. هذا مبدل في غاية الجمال يا سيدتي.»

«فعلًا، أليس كذلك؟ لقد أعطانيه صديقٌ يتمتَّع بذوق رفيع.» ثم ابتسمت له، ومن دون أن يفكِّر هو، مال برأسه وقبَّلها. لكنها بدورها احتضنته فحسب في شروءٍ، لأنها كانت قلقة بالفعل بشأن ما إذا كان لديها ما يكفي من عُشبةٍ بعينها أم لا، فقد يفسد صباحها بالكامل إذا ما تعيَّن عليها أن تُحضر منها المزيد، وستكون هي فارغة الصبر لدرجةٍ كبيرة، وقد تُفسد الأمرَ كُلَّه في نهاية المطاف. قالت إيرين: «لتنعم بنومك.»

وقال تور من داخل الظلمة: «وأنتِ أيضًا.»

الفصل التاسع

كان لديها تقريبًا ما يكفي من العُشبة التي كانت قلقة بشأنها. وبعد أن تردّدت بعض الوقت وتمتعت في نفسها، قرّرت أن تشرع بصناعة الدهان بقدر ما لديها من مكوّناته، وأن تحضر المزيد يوم غد. كانت مُهمّة فوضوية، وظلّ ذهنها يشرّد بعيدًا عن الدقة اللازمة؛ وأوقعت كومةً من مقابض الفتّوس وكانت لا تُطيق صبرًا أن تجمعها ثانية ومن ثمّ أمضت عدة ساعات تتعثّر فيها وتصدم أصابع قدميها فيها وتسبّ بكلماتٍ تعلّمتها من استماعها إلى السُّيَّاس، وكذلك من الصيادين، الذين اتّسمت مفرداتهم بأنها أكثر بهجة. وحدث في مرة أنها كانت تقفز في الأرجاء على قدّم واحدة وتصيح بالنعوت حين تعثّرت قدمها الأخرى كذلك من تحتها بفعل انقضاض خلفي غادرٍ من سرية جديدة من الخشب المتدرج، فسقطت وعضّت لسانها. فهذبها هذا بما يكفي حتى إنها أنهت المهمة من دون حوادث أخرى.

حدّقت إيرين في الفوضى الدهنية السيئة المنظر في الحوض المسطح قليلًا أمامها وفكرت في نفسها: «ماذا أفعل الآن؟ أشعل نارًا وأقفز فيها؟ إن المدافئ الوحيدة الكبيرة بما يكفي تُوجد في حُجَر مطروقة بكثرة في القلعة. ربما ليست فكرة إشعال نار بالسيئة في نهاية المطاف؛ لكن سيتعيّن عليّ أن أكون بعيدةً بما يكفي حتى لا يأتي أحدهم بحثًا عن مصدر الدخان.»

في تلك الأثناء كان لديها من دهان كينيت ما يكفي لأن تدهن به كلتا يديها، فأوقدت نارًا صغيرة في منتصف أرضية السقيفة (من مقابض الفتّوس المكسورة) ووضعت كلتا يديها، وهي ترتعش بعض الشيء، في قلبها؛ ولم يحدث شيء. وفي اليوم التالي ذهب تَجَلِبب المزيد من الأعشاب.

وقرّرت في الحال أنه سيتعيّن عليها أن تغادر المدينة لتُجرب أن تُوقد نارًا؛ وقرّرت بنفس السرعة أن عليها أن تصطحب تالات. فكيشا ستكون أسوأ من مجرد إزعاج لها في مثل هذه الظروف؛ فعلى الأقل ستجد كيشا أن النار سبب كافٍ لأن تُقطع الزمام أو أن تكسر عنقها في محاولة مذعورة منها لأن تفرّ عائدة إلى المدينة.

لكن تيكّا لم تحبّ هذه الخطة على الإطلاق. كانت تيكّا على استعدادٍ لأن تتقبل فكرة أن إيرين فارسة ماهرة، وقد يُسمح لها بأن تُغادر المدينة وحيدةً بضعة ساعات على مُهرتها؛ لكن أن تذهب ليلاً برفقة ذلك الفحل الوحشي، لم تكن تيكّا على استعدادٍ للتفكير في مثل هذه الفكرة. في بادئ الأمر صرّحت أن تالات كان بالغ الضعف ولا يستطيع أن يذهب في رحلة كهذه؛ وحين حاولت إيرين مُنزعجةً أن تُقنعها بعكس ذلك، غيّرت تيكّا حجّتها وقالت إنه خطر عليها ولا يُمكن الثقة في قدرة إيرين على التحكم فيه. كانت إيرين على وشك أن تنفجر باكيةً من الغضب، وبعد بضعة أسابيع (في تلك الأثناء كانت قد أعدت كميات كبيرة من دهان كينيت وكادت تحرق شعرها بالنار وهي تُحاول أن تختبر فاعليته على أجزاء صغيرة وعديدة من جسدها)، تعيّن على تيكّا أن تُدرك أن أمر الرحلة كان أكثر من مجرد نزوة.

فقالت في الأخير كرهاً: «يُمكنك الذهاب إذا ما سمح والدك. فتالات لا يزال جواده، وله الحق في أن يُقرّر ما سيكون عليه مُستقبله. أنا ... أظن أنه سيكون فخوراً بما فعلت معه.» عرفت إيرين كم تكلفت تيكّا لتقول هذا، فتبدّد غضبها وشعرت بالخزي من نفسها. «أما بشأن الرحلة نفسها ... فأنا لا أحبّها. فهي ليست رحلة ملائمة» — وهنا ارتسمت على زاويتيّتيّ فم تيكّا الحزين بسمّة — «لكنك ستظلّين غير اعتيادية، كما كانت أمك، وكانت ترتجل وحيدةً حسبما شاءت، ولم يُحاول أبوك قط أن يمنعها. أنت امرأة ناضجة، وقد اجتزّت مرحلة الحاجة إلى مُربيةٍ لتُقومَ خطّك. فإن قال والدك إن بإمكانك الذهاب ... لا بأس إذن.»

غادرت إيرين وشرعت تتدبّر أفضل طريقةٍ تُفّتح بها والدها في الأمر. كانت قد عرفت أنه سيتعيّن عليها أن تطلبّ إذنَه في مرحلةٍ ما، لكنها أرادت أن تربح تيكّا إلى جانبها أولاً، وكانت قد أساءت تقدير مدى الرُعب الذي ستجده تيكّا، التي تخاف من الخيول، في جواد حربٍ مثل تالات، حتى ولو كان جواد حربٍ عجوزاً وسهل المراس ومُعاداً تأهيله. ولم يكن سلوك إيرين نفسها تجاه تالات سلوكاً عقلاً طوّال سنوات.

أخذت إيرين تُفكّر طوال أيامٍ بعد أن انسحبت تيكا من الصراع؛ لكنها لم تكن تفكّر وحسب بشأن الطريقة التي تُفَاتح بها والدها في الأمر، بل فكّرت أيضًا بشأن ما كانت تنبهي له تحديدًا. أن تختبر خصائص اكتشافها في صدّ النار. بهدف قتل التنانين. هل أرادت فعلًا أن تقتل التنانين؟ أجل. ولماذا؟ لم تُجر جوابًا لحظة. ثم قالت في نفسها إن السبب هو أن تفعل شيئًا ما. أن تفعل شيئًا بطريقة أفضل من أي أحد آخر يفعله.

لحقت بوالدها ذات يومٍ على الإفطار، بين الوزراء ومشاكلهم التكتيكية والمستشارين ومشاكلهم الاستراتيجية. أشرق وجهه والدها حين رآها، وسجّلت خجلة ملاحظة في عقلها مُفادها أن تأتي إليه تكرارًا؛ لم يكن والدها قطّ من الرجال الذين يستطيعون مشاركة الأطفال في ألعابهم، لكنها ربما تكون قد لاحظت من قبل كيف كان ينظر إليها بحزن. لكنها كانت الآن تُدرك، وربما للمرة الأولى، حقيقة ذلك الحزن، إنه الحرج الذي يجده والدُ مُحب لابنته لأنه لم يكن يعرف كيف يتحدّث إليها، وليس لأنها مصدرُ خزي له بسبب حالها أو بسبب ما تستطيع وما لا تستطيع فعله.

ابتسمت له إيرين، وقدم لها هو كوبًا من الملاك، ودفع نحوها بصينية الكعك ومربى الساه. قالت إيرين من بين الفتات في فمها: «أبي، أتعرف أنني كنتُ أمتطي تالات؟» فنظر إليها بتمعّن. كان هورنمار قد أبلغه هذه المعلومة قبل بضعة أشهر، مُضيفًا أن تالات كان يزداد وهنًا وكان يُحتَضَر قبل أن تتولاه إيرين. وكان أربليث قد تمنى أن تُبلغه هي نفسها بالأمر؛ أما المخاوف التي راودت تيكا فلم تخطر بباله.

فأجابها: «أجل. وعاجلاً أو آجلاً كنتُ سأخمن أن ثمة أمرًا ما حين توقفت عن إلحاحك عليّ بأن تتخلّصي من كيشا وأن نجد لك جوادًا حقيقيًا.»

بداعي التأدّب تورّد وجه إيرين خجلًا. وقالت: «لقد ... مرّ وقت طويل على ذلك. لم أكن أفكّر بشأن ما كنتُ أفعله في بادئ الأمر.»

فابتسم أربليث. «أودُّ بالتأكيد أن أراك على صهوته.»

ابتلعت إيرين الطعام الذي كان في فمها. «تريد ذلك ... حقًا؟»

«أريد ذلك حقًا.»

أضافت في تردّد: «عما قريب؟»

فقال بنبرة جادة: «كما يحلو لك، أيتها الأميرة إيرين.»

فأومأت إيرين في صمت.

«غداً إذن.»

أومأت ثانية، وأمسكت بكعكة أخرى ونظرت إليها.
حيث لم تُظهر إيرين أيَّ إشارة على أنها ستكسر الصمت، قال أربليث: «لقد خَمَنْتُ
أن ثَمَّةَ غايَةٍ ما من انضمامكِ إليَّ على الإفطار، غاية تتجاوز إخباركِ لي بشأن شيءٍ ظلَّ
يحدث طوال سنوات من دون أن تُكذِّريني به. هل لتالات علاقةٌ أكبرَ بهذا، ربما؟»
رفعت عينَيها إليه مذهولة.

«نحن الملوك نكتسب قدرةً مُعينة على إدراك المواضيع المطروحة أمامنا. ما الأمر إذن؟»
«أرغب في أن أمتطيَّ تالات إلى خارج المدينة. رحلة ليومٍ واحد ... وسأبيت بالخارج.
ثم سأعود في اليوم التالي.» كانت الآن تأسف لتناولها الكعكة؛ فقد جعلت فَمَها جافًا.
«آه. أوصيك أن تتَّجَهي شرقًا أو جنوبًا؛ يمكنك أن تتبعي نهر تسا، فسيُمدُّكِ بالماء
كما سيمنع عنكِ أن تَضَلِّي الطريق.»
«النهر؟ أجل. لقد فَكَّرْتُ ... فَكَّرْتُ في هذا الأمر بالفعل.» كانت أصابعها تُفَتِّت ما بقي
من الكعكة إلى قِطْع صغيرة.

«أحسنَت. أظنُّ أنك خطَّطت للذهاب عما قريب، أليس كذلك؟»
«أنا ... بلى. تقصد أنك ستسَمَح لي؟»
«أسمح لك؟ بالطبع. ثَمَّة القليل من الأخطار التي يُمكن أن تُسبِّب لك الأذى في حدود
مسيرة يومٍ من هنا.» ثم تصلَّبت ملامحه لحظةً عابرة. كان ثَمَّة وقت — قبل فقدان التاج
— كان يُستَلُّ فيه سيفٌ بدافع الغضب في حدود أميالٍ كثيرة من المدينة، وكان السيف
يرتدُّ في الهواء فتلتوي يدُ صاحبه عنه ويسقط السيف على الأرض. «تالات سيعتني بك.
لقد اعتنى بي عنايةً فائقة.»

«أجل. سيعتني بي.» ثم وقفت إيرين ونظرت إلى الفوضى في طبقها وحوله ونظرت
إلى والدها. وقالت: «شكرًا لك.»
فابتسم لها. «سأراك غدًا. بعد الزوال.»

أومأت إليه برأسها وابتسمت ابتسامة اختلطت فيها المشاعر، ثم ولَّت. وأتى أحد
الخدم ليرفع طبقها ويمسح الفتات.

ذهبت إيرين إلى مَرعى تالات في ساعةٍ مبكِّرة من صباح اليوم التالي. ومشَّطته حتى آلَتْها
ذراعاها، واستمتع تالات بكل دقيقةٍ من ذلك؛ إذ كان يفضِّل أن يحظى بالاهتمام حتى على
تناول الطعام.

ربما كان يجدر بها أن تضع له لجأماً. كانت قد أصلحت القَطْع في زمام لجأمة القديم ليلة أمس، وقد أحضرته معها اليوم. لكنها حين عرضت أمامه الشيء — وهو الذي كان يلبسه بحماسٍ قبل عامين، علماً منه بأن ذلك كان يعني أنه سيُمَتَّطى ثانيةً — نظر إليه ثم إليها في ارتباك واضح ومشاعرٍ جريحة. احتمل أن ترفع القضيب إلى فمه وتمرّر الأربطة فوق أذنيه، لكنه وقف ورأسه يتدلّى من الحزن.

فقالَت إيرين: «لا بأس» ونزعت عنه الشيءَ مجدداً، وألقت به على الأرض والتقطت قطعة صغيرة من القماش المبطّن تبدو كالسّرج ووضعتها على ظهره. لوى تالأت رأسه يَمَنة ويَسرة وعَضَّ على أهداب سترتها، ورمقها بعينه ليرى إن كانت غاضبة حقاً. وحين لم تبعد وجهه عنها اطمئنّ وانتظر مُتأنّياً فيما أخذت تُعدّل الصّدارة الملكية كما يروقهها. وأتى أرلييث قبل أن تتوقّع قدومه. وكان تالأت قد شعر بتوتُّرها بمجرد أن امتطت ظهره، لكنه رفع حالتها المعنوية فعُدّل مزاجها ثانية، وذلك بأن تصرّف على سجيته، وكانا يتمايلان خبياً حول عدة أشجار قصيرة حين لاحظت أرلييث يقف على الجانب الآخر من المجرى المائي الذي يمرُّ عبرَ المرج. فخاضا الماءَ ثم توقّفا، وحيّاهَا أرلييث تحيةَ الجندي للمليكتة، فتورّدت خجلاً.

وأوماً باتجاه رأس تالأت العاري من اللجام. وقال: «لستُ واثقاً أن هذه ستكون فكرةً جيدة مع جواد آخر، لكن معه ...» ثم أمسك عن الكلام وبدأ أنه يُفكّر، فحبست إيرين أنفاسها خشيةً أن يسألها كيف بدأ الأمر؛ ذلك أنها لم تكن قد قرّرت بعدُ ما تقوله له. ولم يقلّ سوى: «يمكن أن يكون مفيداً ألا يكون ثمة زمامٌ للتحكم؛ لكنني لستُ واثقاً من أن أفضل جيادنا حتى يرقى إلى هذا المستوى من التدريب.» ثم وقعت عينُه على قدَميها. «تلك طريقةٌ بارعةٌ جدّاً لامتطاء الجياد، أن تُلْفِي ساقيك حول بطنه، لكن الطعنة الأولى التي ستأتيك ستوقعك عن السّرج فوراً.»

فأجابته إيرين بشجاعة: «معظم الوقت لسنا في معركة، ويمكن للمرء أن يصنع سرجاً مخصصاً للحرب بِقَرَبوسين مُرتفعين.»

ضحك أرلييث وجزمت إيرين أنهما اجتازا الاختبار. «أرى أنه يروقه أسلوبك الجديد.» ابتسمت إيرين. «التقّط اللجام وأره إيّاه.»

وفعل أرلييث، فأرخی تالأت أذنيه للوراء وأشاح برأسه. لكن حين ألقاه أرلييث من يده، لفت تالأت رأسه ودسّ أنفه في صدر سيّده القديم، فداعبه أرلييث وتمتم بشيءٍ لم تسمعه إيرين.

ولم يرق ثلاث الدهان المضاد للنار على الإطلاق. إذ أخذ يقفز ويحاول التسلُّ والانزلاق بعيداً عن المتناول، ويضطرب أنفه وينخر، ويقبع قليلاً حين حاولت أن تدهنه به. قالت له في استياء: «رائحته كالأعشاب! وعلى الأرجح سيكون مُفيداً لجلدك؛ إنه تماماً مثل الزيت الذي يضعه هورنمار عليك لجعلك تبدو لامعاً».

واستمرَّ ثلاث في التملُّص، فقالت إيرين من بين أسنانها المطبقة: «سأربطك إن لم تُحسن التصرف». لكن بعد عدة أيام من مُطاردته حول مرعاه خطوة بخطوة ومرة بمرة، أيقن ثلاث أن سيدهته الجديدة جادة؛ وفي المرة التالية التي حملته فيها على الركض تجاه السور، عوضاً عن أن يُراوغها ثانيةً، وقف ثابتاً وترك مصيره يلحق به.

انطلقا في رحلة اليوم الواحد بعد أسبوعين من اليوم الذي رأهما فيه أرلييث يعملان معاً، وفي غضون ذلك الوقت، كان ثلاث قد سمح لإيرين أن تدهن دهانها الأصفر على جسده كله، وكان مُمهلاً لها في بعض الأحيان أكثر من غيرها. وقد علقت إيرين آمالها أن تكون الليلة دافئة؛ حيث إن اللفافة التي بدت أنها دثار وكانت معلقة خلف سرجها كانت في واقع الأمر قريبةً أسطوانية من دهان كينيت.

انطلقا قبل أن يستحيل الفجر نهراً، وحملتَ إيرين على الإسراع باعتدال، حتى تتبقى لهما عدة ساعات من النهار حين ينصبان مُخيمهما. وكان ثمة طريقٌ صغيرٌ بحذاء النهر، وكان واسعاً بما يكفي ليسع حصاناً، لكنه أضيق من أن يسع عربة، وسلكا هذا الطريق؛ إذ أرادت إيرين أن تكون قريبةً من كمية كبيرة من الماء حين تُجري تجربتها؛ وتمثَّلت ميزة إضافية في أنها لن تضلَّ طريقها.

نصبت إيرين مُخيمهما بعد الظهيرة بمدّة قصيرة. وحلَّت الربطة التي بدت كالفراش وأزالت أولاً السترة والسروالَ المصنوعين من الجلد اللذين كانت قد صنعتهما لنفسها ونفعتهما في وعاء مسطح به الدهان الأصفر طوال الأسبوعين المنصرمين. كانت قد حاولت أمس أن تُضرم النار في برّتها، لكن النار انطفأت من فورها حين لامست الكمّ الدهني، مع أنها كانت ناراً قوية كنار الشعلة. ولم يكن ارتداء تلك البرّة مُريحاً؛ إذ كانت زلقة كثيراً وقذرة، وبينما كانت تربط شعرها وتدسّه في خوذة دهنية، فكّرت في فزع في مسألة الاغتسال من الدهان لاحقاً.

أوقدت ناراً كبيرة، ثم لطّخت وجهها بالكينيت، وأخيراً ارتدت قفازها. ووقفت إلى جوار ألسنة اللهب التي كانت تستعر فوق رأسها الآن، وسمعت قلبها ينبض بسرعة كبيرة.

وتسلَّلت إلى داخل النار كسبَّاح نافر يدخُل إلى ماءٍ بارد؛ اليد أولاً ثم القدم. ثم أخذت شهيقاً عميقاً، وتمنَّت أن تكون أهدابها دُهنية بما يكفي، وخطت مباشرةً إلى داخل النار. وأتى ثلاث إلى حافة النار وأخذ يصهل بقلق.

كانت النار دافئةً على نحوٍ لطيف؛ على نحو «سائع». مسَّت النار وجهها ويديها برفق بهيج دون أن تؤذيها؛ وزمزمت في أذنها؛ ولفلفت لهيبها حولها كذراعي مُحبٍّ. قفزت إيرين إلى خارج النار وشهقت.

ثم التفتت ثانية ونظرت إلى النار. أجل، كانت ناراً حقيقية؛ كانت تستعر في عدم اكتراث، وإن كانت قد بعثرتها بقدميها اللتين كانت تلبس فيهما حذاءً طويل الرقبة. ودسَّ ثلاث أنفَه قلَقاً في رقبتها. فقالت: «حان دورك. وكم يخفى عليك.»

وكم خفي عليه بالفعل؛ فقد كان هذا الجزء هو أكثر ما يُقلقها. لم يكن ثلاث ليسير إلى داخل نارٍ مُتقدِّة ويقف فيها حتى تُخبره أن يخرج. ولأغراض قتل التنانين في المستقبل وحيث إن التنانين كانت صغيرة الحجم نوعاً ما، كانت إيرين قد عرفت أن بإمكان ثلاث أن ينجو من نيران التنانين بحماية صدره وسيقانه وبطنه وحسب. لكنها تُفضِّل أن تعرف الآن — وأن تدع ثلاث يعرف أيضاً — أن المادة الصفراء التي يعترض عليها لها استخدام مهم.

ومدَّت يدها تتحسَّس أهدابها فاطمأنت لما وجدت أنها لا تزال موجودة. كان ثلاث ينفث فيها من القلق — وأدركت وهي مشوَّشة أن رائحتها تبدو، بصورة غريبة، كرائحة الحريق — وحين أخذت في يدها مَسحةً من الكينيت نجح في مُراوغتها حتى إنها ظنَّت للحظة مشؤومة أنها قد تُضطر إلى العودة إلى الديار سيراً. لكنه أخيراً سمح لها أن تقترب منه، وبعد أن صار معظم نصفه الأمامي أصفرَ ولامعاً، سمح لها أن تقوده إلى النار.

ووقف بلا حراك حين التقطت جزءاً مُشتعلًا وسارت به نحوه. ولم يزل واقفاً حين قرَّبت الغصن أمامه وسمحت لشيءٍ من اللهب أن يلمس ركبته. كان الكينيت يُجدي نفعاً مع الجياد أيضاً.

الفصل العاشر

ركبت إيرين إلى المنزل سعيدةً ومُبتهجة. ولم يستطع الوقت المُستغرق، ولا الصابون الذي تطلبه الأمر لإزالة الدهان الأصفر من شعرها، أن يُنبِّطاً معنوياتها (لحسن الحظ أنها كانت قد فكَّرت في أن تحضر معها قَدْرًا وافرًا من صابون تنظيف الأرضيات الخشن) أكثر من الليلة الباردة التي قضتها ولم يكن بحوزتها خلالها سوى بطانية واحدة خفيفة.

ولم يستطع حتى أحدُ شئون البلاط البغيضة، والعشاء الدبلوماسي الطويل والمملُّ بعده، أن يمحقا سعادتها، وحين سُئلت للمرة الثالثة في غضون نصف ساعة عن عطرها الجديد — إذ كان ثَمَّة رائحة عشبية خفيفة ورائحة فحم بسيطة لا تزال عالقةً بها — لم يسعها إلا أن تضحك بصوتٍ مرتفع. أما السيدة، التي ما برحت تُحاول أن تُجري معها محادثة، فابتسمت لها ابتسامة جامدة وانصرفت عنها، ذلك أنها كرهت أن يضحك منها شخص من المُفترض أنها تُرثي له وتعطف عليه.

تنهَّدت إيرين لأنها فهمت مغزى الابتسامة الجامدة، وتساءلت إن كانت رائحتها ستظل دائمًا رائحة أعشاب ونار — وشيئًا من رائحة أرضية نظيفة.

كان ثَمَّة نشاط غير طبعي في بلاط والدها في الوقت الراهن؛ فلم يكن ثوربيد سوى مقدمة لأعدادٍ غفيرة من الزُّوَّار الرسميين، كلُّ منهم أكثر انفعاليًا من سابقه، وقد نزع بعضهم لأن يكونوا عدوانيين. كانت الأنشطة المتزايدة على حدود دمار الشمالية تُقلِّق الجميع ممن يعرفون بما يكفي، أو ممن رغبوا أن يُولوا الأمر اهتمامًا؛ وكان السفر والتَّرحال بين القرى والمدن الصغيرة ومدينة الملك أكثر ممَّا كان من قبلُ ويُقدَّر ما تستطيع إيرين أن تتذكَّر، وكانت مآدب العشاء في البلاط الملكي — التي دائمًا ما تكون مُتوتِّرة بفعل المراسم — تمتدُّ الآن فتصل إلى نقطة الانهيار بفعل شيءٍ كالخوف.

وكانت إيرين قد بدأت تأتي والدها على الإفطار بين الحين والحين — بعد ذلك الصباح الذي أعطاهما فيه إذنه بأن تنطلق وحدها مع تالات — ودائمًا ما بدا مسرورًا لرؤيتها. وفي بعض الأحيان كان تور يتناول معهما الإفطار، وإن كان أرلييث قد لاحظ أن تور ينضمُّ إلى إفطاره أيضًا أكثر من ذي قبل، بعدما صارت ثمة فرصة لأن يرى إيرين أيضًا، ولم يقل شيئًا. وكان تور يقضي معظم الوقت في القلعة؛ لأن أرلييث كان في حاجة له على مقربة منه.

وواصلت إيرين كونها غير واعية بالطريقة التي ينظر بها تور إليها، لكنها كانت تعي تمامًا أن الحادثات بينهما كانت محرّجة في أفضل الأحوال في هذه الآونة؛ إذ بدا أن عائقًا جديدًا صار بينهما منذ أخبر تور قريبته عن تاج البطل. وقد قرّرت إيرين أن الارتباك الحديث العهد بينهما ربما له علاقة باضطرابه أخيرًا إلى الاعتذار عن مبارزتها. وقد تفهّمت تمامًا ذلك الأمر في ظلّ ضغط العمل الذي يتعيّن عليه أن يؤديه؛ لذا حاولت أن تكون مهذّبة لتُظهر له أنها لا تُولي الأمر اهتمامًا. وحين بدا أن هذا لا يجدي نفعًا، صارت تتجاهله وتحدّث إلى والدها. وقد بدا بالفعل غريبًا أن أخذ تور الأمر على محمل الجد — فلا شك في أنه قدّر لها بعض التفهم لطبيعة حياة ولي العهد، أليس كذلك؟ — لكن إن أراد أن يتحلّى بالجمود والرسمية، فهذه مشكلته.

وهكذا كان ثلاثتهم ذات صباح يشربون من ثلاث كؤوس من الملاك بتباطؤ حين دخل عليهم أول مُقدّمي اللتماسات ليتحدّث إلى الملك. أبلغ مقدّم اللتماس عن وجود تنّين، يُدمّر المحاصيل ويقتل الدجاج. كما أصاب التنّين طفلًا، كان قد اكتشف عرينه بالصدفة، بحروق شديدة، وإن كان الطفل قد أنقذ في الوقت المناسب مما سمح بإنقاذ حياته.

تنهّد أرلييث وفرك جبهته بيده. «حسنًا. سنُرسل مَنْ يتعامل معه.» فانحنى الرجل وانصرف.

قال تور: «سيأتي المزيد من هؤلاء الآن، مع وجود المتاعب على حدودنا. يبدو أن هذه الهوام تتكاثر بصورةٍ أسرع حين تهبُّ ريح الشمال.» فردّ أرلييث: «يؤسفني أن أقول إنك مُحق. ولا يسعنا أن نستغني عن أحدٍ في هذه الآونة.»

فقال تور: «سأذهب أنا.»

فعاجله الملك: «لا تكن أحمق»، ثم أردف من فوره: «عذراً. أنت آخر مَنْ يُمكنني الاستغناء عنهم ... كما تعرف. لم تعد التنانين تقتل الناس كثيراً في هذه الآونة، لكن نادراً ما يعود صائدو التنانين من دون بضعة حروق شديدة.»

قال تور بابتسامة ساخرة: «ذات يوم حين لا يكون لدينا شيء أفضل نفعله، ينبغي أن نأتي بحلٍّ أفضل للتعامل مع التنانين. من الصعب أخذهم على محمل الجد — لكنهم مصدر إزعاج خطير.»

جلست إيرين ساكنة تماماً.

قال أرلبيث: «أجل.» وقطّب وهو ينظر إلى كأسه. واستطرد: «سأطلب غداً من نصف دزينة من المتطوعين أن يذهبوا ليتولوا هذه المسألة. لعلّه تنين عجوز وبطيء.»

كانت إيرين تأمل أيضاً أن يكون التنين عجوزاً وبطيئاً فيما كانت تنسلُّ مُنسحبة. إذ لم يكن أمامها سوى يومٍ واحدٍ كمهلة؛ لذا كانت في حاجةٍ لأن تُغادر من فورها؛ ولحسن الحظ كانت قد زارت القرية المذكورة مرةً من قبل في رحلةٍ رسمية مع والدها؛ لذا كانت تعرف نوعاً ما كيف تصل إليها. وكانت القرية تبعد مسافة بضع ساعات ركوباً.

ارتعشت يداها وهي تُسرّج ثلاث وتَحزم إليه البزة المضادة للتنانين والكينيت، وسيّفاً ورمحاً، لم تكن تعرف كيف تستخدمهما، حيث كانت قد علّمت نفسها بنفسها باستثناء بضعة دروس تلقّتها من تور حين كانت في الثامنة أو التاسعة من عمرها. ثم تعيّن عليها أن تتدبّر طريقها مروراً بالإسطبل والقلعة ثم على طريق الملك وإلى خارج المدينة من دون أن يُحاول أحد أن يُوقفها؛ وكان من الصعب بعض الشيء إخفاء السيف والرمح، رغم الرداء الطويل الذي غطّتهما به.

كان حظها — أو شيء من هذا القبيل — جيداً. كانت قلقّة للغاية بشأن ما ستقوله إن أوقفها أحدهم حتى إنها أحسّت بصداع؛ لكن وفيما انطلقت بجوادها، بدا أن الجميع لم يكونوا يَنظرون نحوها — ظنّت في نفسها أنه وكأن الناس لم يكن بوسعهم رؤيتها. وقد شعرت جراء ذلك بالارتياح. لكنها خرجت من المدينة من دون أن يعترضها أحد.

وقد انقشع عنها الصّداع والشعور الغريب ما إن انطلقت هي وتلات في الغابة أدنى المدينة. كانت الشمس ساطعة، وبدت الطيور وكأنها تُغرّد لها وحدها. تسارعت خطوات تلات فصارت خبيّاً، وتركته يעדو بعض الوقت، فكانت الرياح تنساب من خلال شعرها، وقصبة الرمح تقرع خفيفاً على ساقها، تُذكّرها أنها في طريقها لإنجاز شيء مفيد.

توقَّفت إيرين على مسافةٍ قليلةٍ من القرية الموبوءة بالتنين لترتدي بزَّتها — التي لم تُعد دهنيَّة كثيرًا؛ إذ ربما كانت قد وصلت إلى مرحلة التشبُّع، ثم تكيَّفت مع الدهان كما يتكيَّف الحذاء الذي نُقع في الزيت جيدًا مع القدم التي تلبَّسه. كانت بزَّتها لا تزال تطفئ المشاعل، لكنها أصبحت ناعمة وليَّنة كالملابس، وكادت تماثلها في سهولة ارتدائها. ودهنت إيرين الدهان على وجهها وعلى جوادها، وليست كذلك قُفَّازيها الطويلين. ودلفت إلى القرية وهي تلمع تحت ضوء الشمس وتفوح منها رائحة أعشاب لاذعة.

وكان ثلاث بحق جواد حرب، حتى من منظور شخصٍ لم يرَ في حياته جواد حرب، وعيَّن شعرُ إيرين الأحمرَ هويَّتها على الفور بأنها الأميرة الأولى. وقف صبيٌّ صغير على عتبة بابه وصاح: «لقد أتوا من أجل التنين!» ثم تجمَّع مجموعة من الناس، ثم ازدادت المجموعة في الشارع، ينظرون إليها ثم يبحثون مُتحيِّرين عن الخمسة أو الستة الذين كان يجب عليهم أن يرافقوها.

قالت إيرين: «أنا وحدي»؛ كانت ترغب في أن تشرح لهم، أنها ليست هنا من دون علم أبيها، ولكنها هنا وحدها لأنها منيعة على التنانين (كما كانت تأمل) ولم تكن في حاجة لأي مساعدة. لكنَّ شجاعتها لم تُسعفها، ولم تشرح لهم. في واقع الأمر، أتى ما رآه القرويون كبرياء ملكيَّة بنفعه، وحرصوا على ألاَّ يظهروا بمظهر غير المصدقين لأن الأميرة الأولى (حتى ولو كانت أميرة هجينة) تستطيع تويُّ أمر التنين بمفردها (وإن كانت أمها ساحرة فعلاً، فلربما كان ثمة شيء من خيرٍ في كونها هجينة في نهاية المطاف)، فتحدَّث عديدون منهم في الحال، يعرضون أن يبيِّنوا لها أين اتخذ التنين عرينه، وحرصوا جميعًا على ألاَّ يُعاودوا النظر في الطريق خلفها.

كانت تتساءل في نفسها كيف لها أن تُخبرهم في كياسة أنها لا تريد منهم أن يحوموا في الأرجاء ليشاهدوا ما سيحدث، حيث لم تكن واثقة تمامًا إلى أي مدى من المرجَّح أن يكون أول لقاء لها بتنين حقيقي محمودًا (أو ناجعًا). لكنَّ القرويين الذين رافقوها ليبيِّنوا لها الطريق لم يعتمزوا البقاء في أي مكانٍ بالقرب من مسرح المعركة؛ فالتنين إذا حوَّصر لن يُولي اهتمامًا للمارة غير المُقاتلين الذين تصادف أن طالتهم لفحة ناره التي لم تُصب هدفها. دلَّها القرويون على الطريق، ثم عادوا إلى القرية في انتظار ما سيحدث.

علَّقت إيرين سيفها حول خصرها، وثبَّتت الرُمح في ثنية ذراعها. ومشى ثلاث وأذنه مُنتصبه بحدِّ جهة الأمام، وحين نخر وجدت إيرين رائحةً أيضًا؛ رائحة نار، وشيئًا آخر.

كانت رائحةً جديدة، رائحةً مخلوق لم يعبأ إن كان اللحم الذي يتناوله طازجاً أو غير ذلك، وبيعثر العظام بعد تناول اللحم منها. كانت رائحة تنين.

وبعدما نخر تالأت نَحَرَته التحذيرية، تقدّم بحذر. وسرعان ما وصلا إلى فسحةٍ بها ربوةٌ حجرية عند حافتها. وكان بالربوة حفرة، حدُّها العلوي محفوفٌ بدخانٍ مُشحم. كانت بقايا التنين السابقة مُتناثرة في أرجاء المرج الذي كان فيما مضى أخضر، وخطر لإيرين أن رسوخ حوافر الحصان الصُّلبة سيكون أسوأ من رسوخ مخالب التَّنَّين ذات الأوتار القوية.

توقَّف تالأت عن السير، ووقفاً مكانهما، وأخذت إيرين تحدِّق إلى داخل الحفرة القاتمة في الربوة. مرَّت دقيقة أو اثنتان وتساءلت فجأةً عن الكيفية التي يحمل بها المرء التنين على أن يُعيّره انتبهاً في المقام الأول. هل يتعيّن عليها أن توقظه؟ هل تصرخ فيه؟ أم تُلقِي بالماء عليه في الكهف؟

وفي نفس اللحظة التي تراخى فيها رأس رمحها في ارتياب، اندفع التَّنَّين من عرينه نحوهما مباشرة؛ وفتح فمه ونفخ فيهما ناره، إلا أنَّ تالأت لم يكن قد خامره الشك مطلقاً، وكان على استعدادٍ لأن يبتعد عن طريقه برشاقةٍ فيما لوَّحت إيرين برمحها وقبضت على عُرف تالأت ل تمنع نفسها من السقوط على ظهر التنين. أخذ التنين يدور؛ كان يُقارب ركبتي تالأت طولاً، وكان كبير الحجم بالنسبة إلى تنين، وكان سريعاً سرعة مُخيفة وهو يجري على أقدامه ذات البرائن الصفراء، ونفث ناره نحوهما ثانية. لفحت النار ذراع إيرين هذه المرة وإن كان تالأت قد أنقذهما من أسوأ ما في الأمر. رأت إيرين النار تغمر مقبض الرمح وتومض على مرفقها، لكنها لم تشعر بها؛ وقد أمدها علمها بأن دهانها يُحقِّق الغرض منه بالقوة وصفاء الذهن. فثَبَّتت عقب الرُّمح ووكزت تالأت بأحد كاحليها؛ وفيما انحرف تالأت ودار التنين حولهم ثانيةً سدَّت رُمحها.

لم تكن تسديدها لتكون صائبةً جدًّا لأحد الصيادين أو لصياد تنانين مُخضرم، لكن التسديدة أدَّت غرضها. إذ انغرز الرُّمح في رقبة التنين، في البقعة اللينة بين الرقبة والكتف حيث كانت الحراشف ضعيفة، وأبطأ هذا حركته. انتفض التَّنَّين وضرب بذيله وزمجر فيها، لكنها كانت تعرف أنها لم تُصبه بجرحٍ مميت؛ ولو أنها تركته يهرُب مُتوارياً في عرينه، فإنه في نهاية المطاف سيُشفَى وسيُعاود الظهور، أشرَّ من ذي قبل.

التوى التَّنَّين حول الكتف المصاب وحاول أن يقبض على الرُّمح بأسنانه، وكانت أسنانه طويلة ورفيعة ومُدبَّبة ولا تُلائم الإمساك بأيِّ شيء بهذه النعومة والصلابة والحجم

الضئيل كقصبه الرمح. ترجّلت إيرين من فوق صهوة تالات واستلّت سيفها واقتربت من التنين بحذر. تجاهلها التنين، أو بدا أنه كذلك، حتى أصبحت قريبة جداً منه؛ فالتفت نحوها بسرعة برأسه الطويل النحيل ونفث ناره.

أصابتها النار على نحو مباشر؛ ولم تكن نار التنين مُعتدلةً كنار الخشب المُشتعل إلى جوار النهر. كانت نار التنين تُنازعها، تبتغي حياتها؛ خدشت النار جلدها الشاحب اللامع، وكذلك الجلد اللَّيّن الذي ترتديه؛ وفي حين لم تُضَرَّ حرارتها، فقد أضرَّتْها حرارة شرستها؛ وفيما تجاوزتها النار واختفت، وقفت إيرين جامدةً في صدمة، وحدّقت أمامها مباشرةً، ولم تتحرك.

عرف التنين أنه قد قتلها. كان تنيناً عجوزاً، وكان قد قتلَ إنساناً أو اثنين من قبل، وكان يعرف أنه أصابها في مقتلٍ إصابةً مباشرة. وكان التنين مُتحيّراً بعض الشيء من أنها لم تصرخ حين أحرقت النار ذراعها، وأنها لم تصرخ الآن كذلك ولم تسقط على الأرض تتلوّى؛ لكن هذا لم يكن يُهم. لن تُسبب له المزيد من المتاعب، ويمكن له أن يعتني بكتفه المتألمة.

تقدّمت إيرين ستّ خطواتٍ متيبسةً نحو الأمام وأمسكت بعقبِ الرمح ودفعت التنين بقوة إلى الأرض ورفعت سيفها ثم هوت به وقطعت رأس التنين.

ثم جاء صوت تالات وهو يصرخ غاضباً، فالتفتت وكان الدمُ الحارُّ المسفوك تَوّاً من رأس التنين المقتول ينبعث كالبخار ويُشوِّش عليها الرؤية؛ لكنها رأت نيران تنين، ورأت تالات يشبُّ ويضرب بقائمتيه الأماميتين.

هُرعت إيرين نحوهما وفكّرت في سريرتها، فلتُساعدين أيتها الآلهة، إن له قريباً؛ لقد نسيت، فعادةً ما يُوجد اثنان من هذه المخلوقات؛ وهوت بالسيف على ذيل التنين الثاني وأخطأت الهدف. أخذ التنين يلتفّ حولهما وينفث النار وشعرت إيرين بحرارة ناره في حلقها، ثم هاجمه تالات مُجدداً. وضربها التنين بذيله حين التفت ليُواجه الجواد مجدداً، فتعثّرت إيرين ووقعت، وعلى الفور صار التنين فوقها، تخمش مَخالبه سُرَّتْها الجلدية وتبحث أسنانه الطويلة عن رقبتها. وقد أذاها الدُخان الصادر من أنف التنين في عينيها. فصرخت صراخاً محمومًا وأخذت تتلوّى بصعوبة تحت ثقل التنين؛ وسمعت شيئاً يتمرّق، وعرفت أن نار التنين لو طالتها ثانيةً فإنها ستُحرقها.

ثم ضرب تالات بقائمتيه الخلفيتين جنب التنين بقوة فرفعت قوة الضربة كلاً من التنين وإيرين — ذلك أن برائن التنين كانت مُشبَّكةً بالشرائط الجلدية — وسقطا على

الأرض بقوة. سعل التنين لكن لم تخرج نار؛ وكانت إيرين قد سقطت تقريباً فوق المخلوق. وقد خدشها التنين بذيله المدبب فتمزق شيء آخر؛ وانطبقت أسنانه على بُعد إنشات من وجهها. كان سيفها طويلاً أكثر مما ينبغي؛ فلم تتمكّن من جعله على مقربة بما يكفي لتطعن به، وكانت كتفها تؤلمها. ألقت إيرين بالسيف وكافحت تحاول الوصول إلى حذائها الأيمن، حيث كان به خنجر قصير، لكنّ التنين أخذ يتمايل فلم تصل يدها إلى الخنجر.

ثم عاد تالأت يُهاجم مجدداً، فعصّ التنين من فوق عينه الحمراء الصغيرة، حيث ثقب الأذن؛ فلولى التنين عنقه يريد أن ينفث نحوه النار، لكنه كان لا يزال دائحاً جراء السقطة، ولم يُخرج من فمه سوى القليل من النار. ودسّ تالأت وجهه في خيط الدخان وقبض على التنين من أنفه وجرّ رأسه نحو الخلف؛ وأخذ يجره أكثر إلى الوراء. فارتفعت قائمتا التنين وصدره عن الأرض، وأخذ التنين يركل ويضرب، وتحرّرت ساقا إيرين فاستلّت الخنجر من حذائها وأقحمتّه في صدر التنين العاري من الحراشف. صرخ التنين، وانكتم صراخه جراء قبض تالأت على أنفه، وترنّحت إيرين تُريد التقاط سيفها.

أخذ تالأت يهزّ التنين المحتضّر وضرب جسده بإحدى قائمتيه الأماميتين، وصارت عضلات رقبته الضخمة متعرّقة وبها لطخات من رماد. رفعت إيرين السيف وشقّت بطن التنين، فاهتزّ التنين بعنف مرةً، ثم اختلج، ومات. أسقط تالأت جثة التنين ووقف ورأسه مُطأطأً يرتعش، وأدركت إيرين ما فعلته، وأنها لم تكن تعرف إلا قليلاً بشأن ما سينطوي عليه الأمر، وكم كانت قريبة من الإخفاق؛ فانقلبت معدتها، وأفرغت ما بقي من إفطارها على جثة التنين الثاني المشوّهة التي كان ينبعث منها الدخان.

سارت مبتعدةً بضع خطوات حتى وصلت إلى شجرة، فتحسّست بيدها على جذعها حتى وجدت الأرض فجلمت وركبتها مرفوعتان ورأسها بينهما بضع دقائق. بدأ ذهنها يصفى، وبدأت أنفاسها تتباطأ، وبينما رفعت نظرها وأخذت ترمش وهي تنظر إلى الأوراق فوقها، سمعت وقع حوافر تالأت خلفها. فمدّت يدها ودسّ أنفه الدامي في كفّها، وظلاً على هذه الحال بضع لحظات أخرى، ثم تنهّدت إيرين ووقفت. «حتى التنانين تحتاج إلى الماء. هيا نبحث عن مجرى مائي.»

وكانا محظوظين مُجدداً؛ فقد كان ثمة مجرى مائي بالجوار. غسلت إيرين وجه تالأت بحذر، ووجدت أن معظم الدماء تعود للتنين، وإن كانت ناصيته قد أصيبت بحروق حتى منتصفها. وتتمت في نفسها: «وأنا التي كدتُ ألا أكلّف نفسي عناء وضع الكينيت على رأسك. كنت أظنّ أن الأمر سيكون يسيراً.» ثم نزعت سرج تالأت عنه لتُنظّفه جيّداً، وبعد

هذا تسلَّق هو ضفة المجرى ووجد بقعة خشنة من التراب فتمرَّغ فيها بنشاطٍ وحيوية ووقف ثانية وقد استحال لونه طينياً. قالت إيرين: «يا إلهي.» ونثرت الماء على وجهها ويديها وفجأة خلعت كلَّ ملابسها التي أفسدها التين وغاصت في الماء. وخرجت منه ثانية حين احتاجت إلى التنفُّس، ثم طاردت تالأت ليعود إلى الماء لتغسل عنه الطين، ثم فرَّشته وفركته بقوة حتى استدفأت وجفَّ جسدها من عملها ولم يكن هو بأكثر من رطبٍ على الأقل.

ارتدت إيرين ملابسها على مهلٍ وفي نفور، وعادا إلى ساحة المعركة. وحاولت أن تتذكَّر ما كان ينبغي لها أن تُفكِّر فيه بشأن التنانين. البَيض؟ إن كان ثمة بيض، فإنه سيموت، ذلك أنَّ التنانين الحديثة الفقس تعتمد على والديها عدة أشهر. وإن كان ثمة تنانين صغيرة، فمن المؤكد أننا كنا سنراها ...

وفي نفورٍ أكبر بكثير، جمعت بعض الأغصان وربطتها إلى بعضها وأشعلت فيها النار بمساعدة صندوق الإشعال الخاص بها واقتربت من الحفرة المظلمة الكريهة الرائحة. كان عليها أن تنحني لكي تدلف إلى الكهف، وقد اشتعلت نار شعلتها وكادت أن تنطفئ. وكان لديها انطباعٌ عن كهفٍ أجوفٍ جدرانها غير مُمهَّدة من الحجر والوحل، وأرضيته محصَّبة؛ لكنها لم تستطع تحمُّل الرائحة، أو معرفة أن المخلوقات المروعة التي قتلتها للتو كانت تعيش هنا، فهرعت منطلقَةً عائدةً نحو الخارج إلى ضوء الشمس ثانية وألقت الشعلة وأطفأت نارها. لم تظنَّ إيرين أن ثمة أيَّ بيض أو صغار تنانين. سيتعيَّن عليها أن تأمل أنه لم يكن يُوجد أيُّ من هذا.

وفكَّرت في نفسها: «ينبغي لي أن آخذ معي رأسيهما. فالصيَّادون دائماً ما يُحضرون الرءوس، وهذا يبرهن على الأمر من دون كثيرٍ من الحديث بشأنه. لا أظنُّ أن بإمكانني الحديث عن الأمر.» ومن ثمَّ التقطت سيفها ثانية وضربت رأس التين الثاني فقطعتها ثم غسلت سيفها وخنجرها في الماء وأعادتهما إلى غمدهما وربطت الرمح خلف السَّرج. بدت التنانين الآن صغيرة، بلا رأس وبلا حراك، أكبرَ بقليلٍ من الأرانب ولا تُمثِّل خطراً أكبر منها؛ وبدت رءوسها القبيحة بأنوفها الطويلة وأسنانها المدبَّبة وكأنها مُزيَّفة، كأقنعةٍ في مسرحية للأطفال عن الوحوش أثناء أعياد المدينة، حيث ينطوي جزءٌ من المتعة على أن تكون خائفاً، لكن ليس كثيراً. فمن ذا الذي يُمكن أن يخاف من تينين؟ فكَّرت في نفسها أنها تخاف منه.

رَبَطَتْ إِيرِينَ الرَّأْسَيْنِ فِي الْقِمَاشِ الثَّقِيلِ الَّذِي حَمَلَتْ فِيهِ بَرَّتَهَا الْجَلْدِيَّةُ، وَامْتَدَّتْ صَهْوَةٌ تَلَاتٍ وَعَادَا عَلَى مَهْلٍ إِلَى الْقَرْيَةِ.

كَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ جَمِيعُهُمْ يَنْتَظِرُونَ، مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ مَنْهُمْ مَجْتَمِعِينَ عِنْدَ حُدُودِ الْبَلَدَةِ؛ وَكَانَتْ الْحُقُولُ الَّتِي تَتَجَاوَزُ الْقَرْيَةَ فَارِغَةً، وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي ثِيَابِ الْعَمَلِ يَبْدُونَ غَرِيبِينَ فِي سَكُونِهِمْ؛ إِذْ وَقَفَ جَمِيعُهُمْ يَرْقُبُونَ الطَّرِيقَ الَّذِي اخْتَفَتْ فِيهِ إِيرِينَ وَتَلَاتٍ قَبْلَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَحَسَبَ. وَقَدْ سَارَتْ هَمَهْمَةً فِيمَا وَقَعَتْ أَنْظَارُ الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنْهُمَا عَلَيْهِمَا، فَرَفَعَ تَلَاتٍ رَأْسَهُ وَقَوَّسَ رَقَبَتَهُ ذَلِكَ أَنَّهُ تَذَكَّرَ كَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ وَهُوَ عَائِدٌ إِلَى الْمَنْزَلِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ حَامِلًا أَخْبَارَ النَّصْرِ. تَقَدَّمَ النَّاسُ، وَفِيمَا خَرَجَ تَلَاتٍ مِنْ بَيْنِ الْأَشْجَارِ أَحَاطُوا بِهِ وَرَفَعُوا أَنْظَارَهُمْ إِلَى إِيرِينَ: فَقَطَّ فِتَاةٌ وَاحِدَةٌ وَحَصَانُهَا الْقَوِيُّ، مِنَ الْمَوْكَدِ أَنَّهُمَا لَمْ يَوَاجِها التَّنِينَ، لِأَنَّهُمَا غَيْرَ مُصَابِينَ بِأَيِّ جُرُوحٍ؛ وَكَانَ النَّاسُ خَجَلِينَ مِنْ أَنْ يَأْمُلُوا أَنْ تَكُونَ الْأَمِيرَةُ مُصَابَةً بِحُرُوقٍ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَنُّونَ نَهَايَةَ التَّنِينَ بِشِدَّةٍ.

قَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ فِي تَرَدُّدٍ: «سَيَدَتِي، هَلِ التَّقِيَّتُ بِالْتَّنِينَ؟»

وَأَدْرَكَتْ إِيرِينَ أَنَّ صَمْتَهُمْ كَانَ يَنْمُّ عَنِ الرِّيْبَةِ؛ كَانَتْ قَدْ خَشِيتُ فَجَاءَةً أَلَّا يَقْبَلُوا حَتَّى بِجَمِيلٍ قَتَلَ التَّنِينَ مِنْ ابْنَةِ سَاحِرَةٍ، فَابْتَسَمَتْ فِي ارْتِيَاحٍ، وَابْتَسَمَ لَهَا أَهْلُ الْقَرْيَةِ مُتَعَجِّبِينَ. «أَجَلْ، التَّقِيَّتُ التَّنِينَ؛ وَكَذَلِكَ قَرِينَتُهُ.» وَمَدَّتْ يَدَهَا خَلْفَهَا وَسَحَبَتْ الْقِمَاشَ الَّذِي يَغْلَفُ رِعْوسَ التَّنِينَ، فَسَقَطَ الرَّأْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ؛ تَدَحْرَجَ أَحَدُهُمَا فَتَفَرَّقَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَمَامَهُ وَكَأَنَّهُ لَا يَزَالُ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يُمكن أَنْ يُؤْذِيَهُمْ. حِينَهَا ضَحَكُوا بِبَعْضِ الْجَبَنِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؛ ثُمَّ التَفَّتِ الْجَمِيعُ حِينَ قَالَ الصَّبِيُّ الَّذِي كَانَ قَدْ أَعْلَنَ عَنْ وَصُولِ إِيرِينَ: «انْظُرُوا!»

كَانَ سَبْعَةُ فَرَسَانٍ يَدْخُلُونَ الْقَرْيَةَ عَلَى صَهْوَةٍ جَيَادِهِمْ كَمَا دَخَلَتْهَا إِيرِينَ. وَغَمَغَمَتْ إِيرِينَ: «لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَفْتَرَضِ أَنْ تَصِلُوا هُنَا إِلَّا غَدًا»، ذَلِكَ أَنَّهَا تَعَرَّفَتْ إِلَى جَبِييْثَ وَمِيكَ وَأُورِينَ، الَّذِينَ كَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهَا الْمُبْعَدِينَ بِضَعِّ مَرَاتٍ وَأَعْضَاءِ فِي الْبَلَاطِ الْمَلَكِيِّ لَوَالِدِهَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنْ رَجَالِهِمْ. كَانَ جَبِييْثَ وَأُورِينَ قَدْ خَرَجَا كَثِيرًا مِنْ قَبْلِ لَصِيدِ التَّنَانِينَ؛ كَانَا وَفِيَّينَ وَجِدِيرِينَ بِالثَّقَةِ، وَلَمْ يَعْتَبِرَا أَمْرَ صَيْدِ التَّنَانِينَ أَدْنَى مِنْ مَكَانَتِهِمَا، ذَلِكَ أَنَّهُ شَيْءٌ كَانَ يَتَعَيَّنُ فِعْلُهُ، وَهُوَ خِدْمَةُ يُمكنُهُمْ تَقْدِيمُهَا لِمَلِكِهِمْ.

قَالَ جَبِييْثَ: «الْأَمِيرَةُ إِيرِينَ»، وَكَانَ صَوْتُهُ يَنْطَوِي عَلَى أَنْدَهِاشٍ، وَإِجْلَالٍ — لَوَالِدِهَا وَلَيْسَ لَهَا هِيَ — وَاسْتَنْكَارٍ. فَمَا كَانَ جَبِييْثَ لِيَزْدَرِيَهَا أَمَامَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ، لَكِنَّهُ بِكُلِّ تَأَكِيدٍ سَيَقْصُصُ لَاحِقًا عَلَى أَرْلَبِيْثَ قِصَّةَ زَائِفَةٍ لِلْغَايَةِ.

قَالَتْ إِيرِينَ: «جَبِييْثَ.» وَأَخَذَتْ تَرْقُبُهُ فِي سُرُورٍ سَاخِرٍ فِيمَا حَاوَلَ أَنْ يَفَكِّرَ فِي طَرِيقَةٍ يَسْأَلُهَا بِهَا عَمَّا تَفْعَلُهُ هُنَا؛ ثُمَّ مِنْ خَلْفِهِ قَالَ أُورِينَ شَيْئًا وَأَشَارَ إِلَى الْأَرْضِ حَيْثُ كَانَ رَأْسًا

التنينين الصغيرين في التراب. حوّل جيبيث نظره عن ابنة مولاه البغيضة اليافعة التي كانت ترتدي ثياباً كثياب الفتية المحاربين الذين مرّت بهم أياماً أفضل من هذه، وأدرك ما كان ينظر إليه، ثم ردّ بصره سريعاً ليحدّق منكراً، في إيرين الحمراء الشعر وبزتها الجلدية الممزقة.

قالت إيرين: «لقد ... لقد تخلصتُ من التنينين بالفعل، إن كان هذا ما تقصده.» هبط جيبيث من فوق صهوة جواده ببطء، وببطءٍ انحنى ليحدّق إلى غنيمتيها. كان فكُّ أحدهما مفعوراً والأسنان الحادة بارزة منه. ولم يكن جيبيث سريع البديهة أو مُبدع الفكر، وقد ظلّ جالساً القرفصاء على عِقبَيه يُحدّق في الرأسين المريعين طويلاً بعدما احتاج فقط لأن يتحقّق من أنهما رأسا تنينين. وكما انحنى ببطءٍ اعتدل ثانيةً ببطءٍ وانحنى في تصلّب وتصنّع إلى إيرين وهو يقول: «سيدتي، أحييك.» وتحركت أصابعه في إشارة عرفيّة أو نحو ذلك، لكن لم تستطع إيرين أن تُحدّد التحية التي كان يُحييها بها، بل وتشكّكت في أنه كان يعرف أي واحدة أراد أن يُحييها بها. فقالت في رزانة ووقار: «شكراً لك.»

استدار جيبيث ووقعت عيناه على عيني أحد رجاله، الذي نزل بدوره من فوق جواده ولفّ رأسي التنينين في قماشهما ثانيةً؛ ثم برتدّد، وحيث لم يُشر له جيبيث بغير ذلك، اقترب الرجل من تالأت في نهاية المطاف وربط الحزمة خلف سرج إيرين.

تحاشى جيبيث وجه إيرين بحرص، قائلاً وهو يرفع ناظره ليحدّق في أذني تالأت المنتصبتين غير المُلجّمتين بلجام: «هل تسمحين لنا بمرافقتكِ إلى الديار يا سيدتي؟». فقالت ثانيةً: «شكراً لك»، وامتطى جيبيث صهوة جواده واستدار به نحو المدينة وانتظر، حتى تتولّى إيرين الصدارة؛ فتقدّم تالأت الذي كان يعرف عن قيادة الأرتال من دون أي إشارة من رايكتّه.

هلّل أهل القرية تهليلاً ضعيفاً فيما أخذ تالأت يبتعد، غير واثقين مما شهوده للتو؛ وفجأة هرع الصبّي الذي أعلن عن وصول الفرسان ليُربّت على كتف تالأت، فأخفض تالأت حطّمه تعبيراً عن شكره وسمح بهذه الألفة. وتقدّمت فتاة أكبر من الطفل بسنوات قليلة لتلحق بإيرين وقالت بنبرة واضحة: «نشكرك.» فابتسمت إيرين وقالت: «الشرف لي.» وكبرت الفتاة وصارت شابةً بالغة وهي تذكر ابتسامة الأميرة الأولى ومجلسها على حصانها الأبيض الشامخ.

الفصل الحادي عشر

كانت رحلة العودة صامتة، وبدا أنها استغرقت دهرًا. وحين دخلوا من بوابات المدينة أخيرًا كان لا يزال الوقت نهارًا، وإن كانت إيرين واثقة أن هذا النهار قد دام أسبوعًا منذ سمعت شكوى الرجل القروي إلى والدها يستجديه لقتل التنين. كان الناس محتشدين في شوارع المدينة، وفي حين أن مظهر سبعة من رجال الملك في عدة الحرب ويحملون رماح قتل التنانين لم يكن غريبًا عليهم، كان من الغريب مرأى الأميرة الأولى بينهم وهي تمتطي سهوة جواد وتبدو الأسوأ من حيث الملبس، وكانت تلك الرفقة الصغيرة محط الكثير من نظرات الفضول الطويلة. فكّرت إيرين في نفسها مُتجهّمة، أنه لا بأس أن يروني عائدةً إلى الديار. أتمنى لو أعرف أين ذهبت تلك الصورة التي غادرتُ بها أيًا كانت.

وحين وصلوا إلى الفناء الملكي ظهر هورنمار بنفسه عند مرفقها ليأخذ منها تاللات إلى الإسطبلات. وبدا لها أن مُرافقها يترجّلون عن ظهور جيادهم بطريقة خرقاء، فكان لترجّلهم قرعٌ مدوّ على الركائب وصريٌّ في الأحزمة. وسحبت إيرين الحُزمة من خلف سرج تاللات وأقامت كتفّيتها باستقامة. ولم تستطع أن تمحو نظرة الحزن من فوق وجهها في إثر تاللات المُطمئن الذي تبع هورنمار طوعًا في الاتجاه الذي كان واثقًا أنه يعني أنه سيحصل على الشوفان؛ لكنها عادت بانتباهها إلى نفسها فوجدت جيبين يُحدّق فيها بوجه جامد، فتقدّمتهم إلى داخل القلعة.

بدا أربليث نفسه مشدوّهًا حين دخلوا عليه جميعًا. كان في أحد غرف الانتظار الملحقة بقاعة الاستقبال الرئيسية، وجلس تحيطه الأوراق واللفافات وشمع الاختام والمبعوثون. وقد بدا متعبًا. لم تتبادل إيرين كلمةً واحدة مع مُرافقها الراغمين منذ غادروا القرية، لكنها شعرت بأنها تُساق ولم تُحاول أن تهرب. كان جيبين سيرفع تقريره إلى الملك فور عودته، ومن ثمّ كان يتحمّم عليها ذلك؛ ربما كانت مثل نعجة خجولة مُحاطة بالكثير من

كلاب الرعي؛ لأنها ربما كانت ستميل إلى تأجيل تقديم تقريرها النهائي لو أنها كانت قد عادت وحيدة.

قالت إيرين: «سيدي..»

نظر أربليث إلى إيرين، ثم إلى جيبيث ووجهه الجامد، ثم إلى إيرين ثانيةً.
قال أربليث: «أليكم شيء يتعين إبلاغه به؟» وكانت نبرة العطف في حديثه موجّهة لكل من ابنته وخادمه الأمين المخزي.

ظلّ جيبيث ملتزمًا الصمت؛ لذا قالت إيرين: «انطلقت صباح اليوم وحدي وذهبتُ إلى قرية كئا، لكي ... أقاتل التنين هناك. أو ... بالأحرى، التنينين.» ما الشكل المناسب لتقرير بالإبلاغ عن قتل تنين؟ كان بإمكانها أن تُوليّ مثل هذه الأشياء مزيدًا من الاهتمام قليلًا لو أنها كانت قد فكّرت في الأيام القليلة القادمة. لم تكن إيرين قد أولّت مطلقًا ما بعد قتل التنانين أيّ اعتبار خاص؛ فقد كان من المُفترض أن يكون قتلها إياها كافيًا. لكنها شعرت الآن وكأنها طفلة ضُبطت أثناء ارتكابها تصرفًا سيئًا. وقد كانت كذلك، على الأقل في نظر جيبيث.

فكّت الحُزمة التي كانت تحملها تحت إبطها، ووضعت رأسي التنينين المقطوعين على الأرض أمام طاولة والدها. وقف أربليث والتفّ حول حافة الطاولة ووقف يحدّق إلى الأسفل فيهما وقد علّت وجهه نظرة لم تشبه نظرة جيبيث حين أدرك للمرة الأولى ما على الأرض عند قدمي جواده.

قال جيبيث، وقد اختار ألا ينظر إلى تذكارات نصرها القبيحة: «وصلنا إلى القرية ... بعد وقوع هذا، وعرضتُ رفقتنا على الأميرة إيرين في طريق عودتها.»

ولدى قوله «عرضتُ رفقتنا» مرّت على مُحيا أربليث لمحّة ابتسامة، لكنه قال بنبرة غايّة في الحُزم: «أرغب في التحدّث إلى الأميرة إيرين على انفراد.» اختفى الجميع كالفران في الجدران، عدا أنهم غلّقوا الأبواب من خلفهم. وما كان جيبيث، الذي كان لا يزال غاضبًا لكرامته، ليقول شيئًا، لكن لم يكن بمقدور أحد ممن كانوا في الحجرة، حين قالت إيرين للملك إنها قتلت من فورها تنينين، أن ينتظر ليبدأ في نشر القصة.

قال أربليث: «حسنًا.» بنبرة تخلو من أي تعبيرٍ حتى إن إيرين خشيت أن يكون غاضبًا جدًّا منها رغم الابتسامة التي رأتها. لم تعرف من أين تبدأ قصّتها، وفيما تذكّرت السنوات المنصرمة وذكّرت نفسها أنه لم يضع أيّ حدٍّ أو حاجز لعملها مع تالات، ووضع ثقّته في حُكمها، شعرت بالخل من سرّها؛ لكن الكلمات الأولى التي جالت بخاطرها كانت: «ظننتُ أنك ما كنت ستسمح لي بالذهاب لو أخبرتك أولًا.»

ظلَّ أربليث صامتاً مدةً طويلة. وقال في الأخير: «هذا صحيح على الأرجح. أيمكنك أن تُخبريني سبباً كان سيجعلني أمنعك من الذهاب؟»

زفرت إيرين زفرةً طويلة. وقالت: «أقرأت من قبلُ كتاب «تاريخ أستيثيت؟» قطب أربليث لحظةً يتدكّر. «أظن ... أنني قرأته، حين كنتُ بعدُ صبيّاً. لكني لا أتذكّره جيداً». ونظر إليها بحمقةٍ ملكية، وهي أكثر شراسةً من حملة عامة الناس. «أذكر أن الكاتب خصَّص جزءاً كبيراً من الوقت والمساحة فيه للمعرفة بالتنانين، وكثير من ذلك أسطوريٌّ أكثر من كونه واقعياً.»

فقال إيرين: «أجل. لقد قرأته قبل مدة، حين كنتُ ... سقيمة. وثمة وصفة من نوع ما لدهانٍ يُدعى كينيت، مضاد لنيران التنانين، في ظهره ...»

عاود أربليث التقطيبَ وظلَّت ملامحه كذلك. وقال: «هذا شيءٌ من خرافة وهراء.» فقالت إيرين بنبرةٍ مؤكدة: «كلّا. ليس هراء؛ إنما هو غير مُحدّد وحسب.» وسمحت لنفسها أن تتجهم بسبب ما اختارت من تصريحٍ مُبسّط. «لقد أمضيتُ معظم السنوات الثلاث المنصرمة أُجرب تلك الوصفة غير المُكتملة. وقبل بضعة أشهر، اكتشفتُ أخيراً ما ... التركيبية الصحيحة.» كان عبوس أربليث قد خَفَّ، لكن كان لا يزال بادياً على وجهه. قالت: «انظر.» ثم نزعَت إيرين لفافة القماش الثقيل التي كانت قد علقتها على كتفها وأخرجت منها كيس الدهان اللين. ودهنت به إحدى يديها، ثم دهنت الأخرى، ولاحظت في أثناء ذلك أن كلتا يديها كانتا ترتعشان. وبسرعةٍ كي لا يُوقفها، ذهبت إلى المدفأة وأمسكت، بإحدى يديها المدهونتَين باللون الأصفر، غُصناً كان يحترق في المدفأة فجعلته على مسافة ذراع منها، ودسَّت يدها الأخرى مباشرة في اللهب الذي تموج حولها.

كان عبوس أربليث قد اختفى. «لقد أثبتت مقصدك؛ والآن أعيدي النار إلى الموقد؛ لأن هذا ليس بالشئ المريح مشاهدته.» ثم عاد إلى خلف الطاولة وجلس؛ وبدت الخطوط التي تنم عن التعب تظهر ثانيةً على وجهه.

جاءت إيرين إلى الجانب الآخر من الطاولة وهي تمسح يدها المليئة بالرماد في سروالها الجلدي. قال والدها، وقد رفع عينيه إليها: «اجلسي؛ فأزالت إيرين ما على أقرب كرسي، مخلفةً بأصابعها آثاراً من الفحم على لفافة حاوَلت أن تحرّكها بحذر شديد، وجلست. رmqها والدها، ثم نظر بعدها إلى الشقوق المُتهرئة في تنورتها. وقال: «أكان من السهل إذن قتلُ التنانين وهي لا تستطيع أن تحرقك؟»

بسطت إيرين أصابعها على ركبتيها وحدّقت فيها. ثم قالت في هدوء: «لا. لم أتجاوز بتفكيري ما بعد النار. ولم يكن الأمر سهلاً.»
تنهّد أرلييث. وقال: «إذن فقد تعلّمت شيئاً.»
فأجابت: «لقد تعلّمت شيئاً.» ورفعت نظرها إلى والدها في رجاء مفاجئ.
نحر أرلييث، أو ضحك ضحكة خافتة. وقال لها: «لا تنظري إليّ هكذا. لديك نظرة جرو متضرّع يظنّ أنه لا يزال بإمكانه الإفلات من عقابٍ مستحقّ. ألا تظنين أنك تستحقّين العقاب؟»
لم تردّ إيرين بشيء.

فاستطرد: «لا أقصد باستفهامي هذا أن يكون مجازياً وحسب. ما نوع العقاب الذي تستحقّينه؟ أنت أكبر قليلاً من أن أرسلك إلى حجرتك من دون عشاء، وأظنّ أنني وهبتك استقلاليّتك عن تلقّي الأوامر من تيكّا حين سمحت لك أن تمتطي تالات وحيدة.» ثم سكت برهة. وأكمل: «أظنّ أنك احتجيت أن تبتعدي عن المدينة قدر الإمكان لكي توقدي ناراً كبيرة بما يكفي لتختبري اكتشافك بدقة.» ظلّت إيرين صامتة. «لا يُمكنني أن أمنعك من تالات، لأنه الآن جوادك الخاص، وأنا أحبه كثيراً فلا يُمكنني أن أحرمه من سيده.»
ثم سكت مجدداً. «أنت تبدين مشكلةً من النوع العسكري، وبما أنك لا تتمتعين برتبة عسكرية فلا يُمكنني أن أجُردك منها، وبما أنك لا تحملين سيفاً من سيوف الملك فلا يسعه أن يأخذ منك ويضربك بنصله.» واستقرّت عينه لحظةً على هدية إيرين في عيد مولدها الثامن عشر التي تتدلى من جنبها، لكنه لم يأت على ذكرها.
كان الصمت طويلاً هذه المرة. «هل تُعلّمين الآخرين كيفية صناعة الدهان المضاد للنار إذا ما طلبت ذلك؟»

رفعت إيرين رأسها. كان بإمكانه أن يأمرها بتفسير كيفية ذلك، وكان يعرف أنها تعرف أن بإمكانه أن يأمرها. «سأعلّم بكل سرورٍ مَنْ ... مَنْ سيُسّر بتعلّم ذلك مني»، وإذ أدركت أنه لم يأمرها بذلك، أدرك هو أنها قالت «مَنْ سيُسّر بتعلّم ذلك مني»، ابنة الساحرة؛ ذلك أنه كان يعرف ما كان يُطلق على زوجته رغم أن أحداً لم يُحدّثه بذلك مباشرةً.
«أنا أودّ أن أتعلّم.» ومدّ يده إلى كيس الدهان الذي تركته إيرين على الطاولة، وأخذ شيئاً ضئيلاً من الدهان الأصفر على أنامله، وفرك به الإبهام والسبابة معاً. واشتمه. «أظنّ أن هذا يفسّر أخبارَ زيارات الأميرة الأولى المنتظمة والمفاجئة لمتاجر العطارة.»

ازدردت إيرين ريقها وأومأت إيجاباً. «سيُشرفني أن ... أن أريك كيفية صناعة الكينيت يا سيدي.»

نهض أرلييث وتقدّم إلى ابنته ليحتضنها، وترك ذراعه حول كتفَيها، غير عابئٍ بفراء كمّه الأملس وحالة تنورتها الجلدية. «اسمعي أيتها الحمقاء الشابة الساذجة. أنفهم سببَ تصرّفك بالطريقة التي تصرّفتِ بها، وأنا مُتعاطف معك، كما أنني فخور بك أيّما فخر. لكن أرجوك لا تعبثي بالأرجاء وتُخاطري بحياتك لإثبات المزيد من مقاصدك، أيمكنك ذلك؟ تعالي إليّ وحدّثيني في الأمر أولاً على الأقل.»

«والآن اذهبي، ودّعيني أعود لما كنتُ أفعله. كان لا يزال أمامي عصرٌ يوم عمل طويل قبل أن تقاطعيني.»

وغادرت إيرين مسرعةً.

بعد أسبوع، حين تجرّأت أخيراً على لقاء أبيها على الإفطار ثانية، الأمر الذي كان يعني أن تجلس إلى الطاولة وأن تُجازفَ بالدخول في مناورات المحادثات كما يحلو له أن يبدأ، قال أرلييث: «كنتُ قد بدأت أشعر بأنني شرير وشنيع. يسرّني أنك خرجت من مخبئي.»

ضحك تور، الذي كان حاضراً أيضاً، وهكذا علمت إيرين أن تور هو الآخر عرف قصّتها مع التنانين. احمرّ وجه إيرين خجلاً؛ لكن حين هدأت أولى فُورات الارتباك كان عليها أن تقرّ أمام نفسها بأن المدينة بأسرها على الأرجح تعلم القصة الآن.

انتهوا من الإفطار من دون المزيد من اللحظات المُزعجة أو المربكة، لكن وفيما نهضت إيرين لتتسلّ خلسة — ولم تكن قد تعافت بعدُ بما يكفي لأن تحتلّ الذهاب إلى قاعة الاستقبال، وكانت تُمضي أيامها تُعدّل في عدتها وتمتطي تالات — قال أرلييث: «انتظري لحظة. لديّ شيء لك، لكنني توقّفتُ عن إحضاره على الإفطار قبل عدة أيام.»

نهض تور وخرج من الحجرة، وعمد أرلييث إلى أن يصبّ لنفسه كأساً أخرى من مشروب ملاك. وعاد تور سريعاً، وإن كانت اللحظات قد مرّت طويلة على إيرين، وكان يحمل رُمحين وسيفها الأملس الصغير، ولا بد أنه ذهب إلى حجرتها لإحضاره من مكان تعليقه على الجدار بجوار سريرها. ثم قدّمها تور إلى الملك بطريقة رسمية، راکعاً وجسده منحني ويداها الممدودتان اللتان ترفعان الأسلحة تصلان إلى ارتفاع رأسه؛ فارتجفت إيرين؛ ذلك أن ولي العهد لا ينبغي له أن يمنح أحداً هذا الشرف. وبدا أرلييث موافقاً على ذلك؛ لأنه قال: «كفى يا تور، نحن نعرف بالفعل شعورك تجاه ذلك»، فنهض تور وقد بدا على وجهه أثرُ ابتسامة.

نهض أرلبيث والتفت إلى إيرين، التي نهضت بدورها، باديًا عليها الذهول. قال أرلبيث: «أولاً، أقدم لك سيفك»، وقدمه إليها فكانت إحدى يديه أسفل المقبض تمامًا والثانية قد تخطت منتصف النصل المُغمد، فأحاطت يديه بيديها. أسقط السيف في يديها، ثم أحاط بأصابعه أصابعها المطبقة. وقال: «وبهذا تتسلمين أول سيف لك من مليكك» ثم تركه؛ وأنزلت إيرين ذراعيها ببطءٍ إلى جانبيها، حتى صار السيف على فخذيها. كانت الآن تحمل سيف الملك؛ وبهذا يمكن للملك أن يستدعيه ويستدعيها متى احتاج إلى ذلك، لكي تفعل، أو لا تفعل، ما يأمرها به. جرى الدم في وجهها وولّى، وابتلعت إيرين ريقها.

ثم قال أرلبيث بنبرةٍ مرحة: «والآن، بعدما تسلمت رسميًا سيفك بيدي، يمكنني رسميًا أن أنهرِك بحقه». ومدّ يده نحو المقبض فيما وقفت إيرين مندهشةً ممسكةً بغمده، واستلّ السيف. وحرّكه في الهواء، وبدا صغيرًا في يده؛ ثم أوقفه أمام أنفها تمامًا. وقال: «هكذا»، وصفع خدّها بقوة بنصله، وقال أيضًا: «وهكذا»، وصفع خدّها الآخر بالجهة الأخرى من النصل، وأخذت إيرين تطرف بعينيها؛ ذلك أن الضربتين جعلتا عينيها تدمعان. وقف أرلبيث ينظر إليها حتى صفا بصرها، وقال بنبرةٍ جادة: «أنا أخذ هذا الأمر على محمل الجد، يا عزيزتي، وإن أمسكت بك تُغادرين من دون أن تتحدّثي إليّ أولاً، فسأعاملِك باعتباركِ خائنة.»

فأومأت إيرين.

واستطرد: «لكن حيث أنك رسميًا تحملين سيفي، وحيث إننا نفتخر بأن نُثني رسميًا على مهارتك في قتل التنانين، والتي تجلّت حديثًا»، ثم التفت وأمسك بالرُمحين اللذين كان تور لا يزال مُمسكًا بهما وأردف: «فهذان لك». مدّت إيرين ذراعيها، فارتفع حزام الغمد بسرعة فتدلى من إحدى كتفيها. قال أرلبيث: «هذان منذ أيام صيدي التنانين.» فرفعت إيرين ناظريها إليه بحدة. تابع: «أجل؛ كنت أصيد التنانين حين كنت أكبرك بقليل، ولديّ بضع ندوب تثبت هذا.» وابتسم مُستعيدًا ذكريات الماضي. «لكن سرعان ما يُصدّ أولياء العهد عن فعل أي شيءٍ خطيرٍ وغير مُستحب كصيد التنانين؛ لذا لم أستخدم هذين إلا بضع مرات قبل أن أضطر إلى طرحهما جانبًا إلى الأبد. ولم يكن احتفاظي بهما طوال هذه المدة إلا محض عناد.»

ابتسمت إيرين مُطَرِّقةً إلى ما في يديها.

«يمكنني أن أخبركِ على الأقل أنهما قويّان ومتينان ويتّجهان نحو الهدف مباشرةً.»

«ويمكنني أن أخبرك أيضًا أن قد وصلنا بلاغٌ آخرٌ عن تنين، وصلنا صباح أمس. وقد أخبرتُ الرجل أنني سأجيبه صباح اليوم؛ وهو آتٍ إلى الانعقاد الصباحي للبلاط. فهل ستعودين برفقته؟»

تبادلت إيرين وأبوها النظرات. للمرة الأولى صار لها مكان رسمي في مجلسه؛ لم تكن قد مُنحتَ فحسب تلك المكانة — كما مُنحتَ على مضضٍ منها مكانتها التي لا يمكن نكرانها إلى جواره باعتبارها ابنته — بل استحققتها. إنها تحمل سيف الملك، ومن ثمَّ فإنها من جنوده وخدمه المُحلفين على الولاء له — وإن كان ذلك بصورةٍ غير منتظمة — إضافة إلى كونها ابنته. كانت لها مكانتها الخاصة، على صعيدي المنح والاستحقاق. ضُمَّتَ إيرين الرُّمحين إلى صدرها فضربت في أثناء ذلك ركبته بغمد السيف، فألمها ذلك. وأومأت.

«حسنٌ. لو كنتِ بقيتِ في مخبئك، كنتُ سأرسل جيبيث ثانيةً، وفكّري في الشرف الذي كنتِ ستُضيّعينه على نفسك.»

فأومأت إيرين ثانيةً؛ إذ بدا أنها فقدت صوتها.
«إليك درسًا آخرٌ لتتعلّمي يا عزيزتي. لا يُسمح لأفراد العائلة الملكية بالاختباء، على الأقل ليس بعد أن يُعلنوا عن أنفسهم.»

عاد إليها شيء من قُدريتها على الحديث، فقالت بصوت متحشرج: «لقد اختبأت طَوَال حياتي.»

فالتمع شيءٌ مثل ابتسامَةٍ في عيني أربليث. «ألا أعرف هذا؟ كثيرًا ما فكّرتُ فيما ينبغي عليّ فعله إن لم تُدافعي عن نفسك من تلقاء نفسك. لكنك فعلتِ — وإن كان بطريقةٍ غير التي كنتُ أتمناها — وسأستغلُّ هذا أحسنَ استغلال.»

كانت الرحلة الثانية لقتل التنانين أفضلَ من الأولى. ربما كان سببُ ذلك رمحي والدها، اللذين كانا يتجّهان صوب هدفها بدقةٍ ظنّت أنها لم تكن تملِكُها لا في ذراعها ولا في تصويبها؛ وربما كان سبب ذلك حماسة تالوت وسرعة تعلّمه لما يتعيّن عليه فعله. كما أنه لم يكن هناك إلا تنين واحد.

كانت القرية الثانية أبعدَ عن المدينة مما كانت القرية الأولى؛ لذا فقد باتت فيها ليلتها. غسلت دماءَ التنين عن ملابسها وجسمها — إذ خَلَفَ الدم بقعًا حمراء صغيرة طافحة حيث لامست جسدها — في الحَمَّام العام، الذي حُظِرَ على الجميع حتى يتسنّى للأميرة أن تحظى بخصوصيتها، وباتت في منزلٍ كبير القرية فيما بات هو وزوجته في منزلٍ نائبه.

وتساءلت إيرين في نفسها إن كان نائبه قد نام في منزل نائبه بدوره، وإن كان هذا يعني أن أحدهم بات في نهاية المطاف في إسطنبول أو في حديقة خلفية، لكنها ظنّت أن سؤالهم عن هذا يعني وضعهم في مزيد من الحرج. وقد شعروا بما يكفي من الحرج حين احتجّت هي على إخراج كبير القرية من منزله. قال كبير القرية: «نحن نمحك الشرف اللائق بابنة الملك وقاتلة هذا الشيطان.»

لم يرقها استخدام كلمة «شيطان»؛ وتذكّرت قول تور إن زيادة شرور الشمال ستزيد من وقوع مشكلات صغيرة ومزعجة كالتنانين. وتساءلت أيضًا في سريرتها إن كان كبير القرية لم يرغب في أن يقضي ليلته هو وزوجته الحُبلى تحت نفس السقف الذي تببت تحته ابنة الساحرة، أو إن كانوا سيُحْضِرُون كاهنًا — كانت القرية أصغر من أن يكون لها كاهن خاص بها — ليبارك المنزل بعد أن تُغادره. لكنها لم تسأل، ونامت وحدها في منزل كبير القرية.

وكان خامس تنين تقتله هو أول تنين يترك في جسدها ندبة. كانت مستهترّة، وكان الخطأ خطأها. كان هذا التنين هو أصغر التنانين التي واجهتها، وكان أسرعها، وربما أدّكها؛ لأنها حين ثبّته إلى الأرض بأحد رُمَحِيهَا القويّين وأتت إليه لتقطع رأسه، لم ينفث فيها نارًا، كما تفعل التنانين عادةً. كان قد نفث فيها النار من قبلُ وكانت نتيجة ذلك مُخَيِّبةً للآمال، من وجهة نظر التنين. فحين اقتربت إيرين منه، دار في موضعه رغم الرمح الذي كان يُثبّته، وقرس أسنانه في ذراعها.

سقط سيفها من يدها، حتى إنها أهدّت حفيظًا وهي تتنفس، لأنها اكتشفت أنها أكثر اعتدًا بنفسها من أن تصرّخ. لكن عدم صراخها استنفذ تقريبًا كلّ طاقتها وقوّتها، فنظرت مُرتاعةً إلى عين التنين الحمراء الصغيرة فيما انحنت إلى جواره في وهن. وفي ارتباكٍ التقطت سيفها بيدها الأخرى، وفي ارتباكٍ لوّحت به؛ لكن التنين كان يُحتَضِرُ بالفعل، فكانت لمعة العين الصغيرة تزول، لقد استنفذ آخر غضبة له في القبض على ذراعها بفكيه. ولم يكن لديه من القوة ما يُجنّبه حتى ضربةً بطيئةً وخرقاء، وحين ضربت حافةً السيف رقبةً التنين شقق شهقةً أخيرة، وارتحى فكّه، ومات، وانسكب الدم من ذراع إيرين واختلط بدم التنين الأعماق والأغظ.

لحسن الحظ كانت تلك القرية كبيرةً بما يكفي ليكون فيها مُعالِج، وقد ربط ذراعها وقَدَّم إليها جرعة منومة لم تتجرعها؛ لأنها اشتَمَّت منه رائحةً طفيفةً لسحر حقيقي وخشيت ما يُمكن أن يمزجه المُعالِج في جرعاته. وعلى أقل تقدير، كانت الضمادة على

ذراعها مفيدة لها ولم تُسبّب لها أذى، حتى ولو لم تنلَ قسطاً من النوم في تلك الليلة بسبب الألم الحاد الذي تسبّب فيه الجرح.

وفي الديار، كانت مكانتها المرموقة وتشجيع أرلييث على ذلك قد جعلها تحضّر مزيداً من اجتماعات البلاط والمجالس التي تُدار من خلالها البلاد التي يحكمها أرلييث. وقد قال لها أرلييث: «لا تدعي اللقب يضللك. فما الملك إلا الشخص البارز والمرئي. وأنا بارز كثيراً، في واقع الأمر، حتى إنّ أناساً آخرين يتحمّ عليهم القيام بمعظم الأعمال المهمة.» فقال تور: «هراء.»

وضحك أرلييث ضحكة مكتومة. وقال: «ولاؤك يُعلي قدرك، لكنك بصدد التحول إلى شخص بارز للغاية لدرجة أن يُعيقك هذا من أن تكون ذا تأثير، فماذا تعرف عن الأمر؟» أهم ما تعلّمته إيرين كان أن الملك يحتاج إلى أناس يمكنه أن يثق بهم، ويثقون به. ومن ثمّ عرفت مجدداً أنها تفتقر إلى أهم جانبٍ من جوانب موروثها؛ ذلك أنها لم يكن بإمكانها أن تُوليّ قومَ والدها ثقتها؛ لأنهم ما كانوا سيؤلّونها ثقتهم. ولم يكن تعلّم ذلك سائغاً. لكنها كانت قد خرجت من مخبئها، ومثلما لم تستطع أن تصرخ حين عضّها التنين، لم تستطع أن تعود إلى حياتها السابقة.

وبالفعل تزايدت البلاغات عن التنانين، ولهذا كثيراً ما كانت بعيدة عن الديار، ومن ثمّ كان عذرها لتفادي المناسبات الرسمية والملكية هو عذر الغياب الأنسب، أو كان عذرها في ذلك الإنهاك لعودتها لتوها من الصيد. وقد اكتسبت سرعة ومهارة في قتلها المخلوقات الصغيرة الخطرة، ولم تتأدّ بأكثر من احتراق خُصلة من شعرها انفلتت من خوذتها المعالجة بالكيينيت لدى مواجهتها شراسة تلك المخلوقات. وقد أضحى أهل القرى الصغيرة يُحبونها، ويُطلقون عليها إيرين ذات الشعر الناري، وكانوا لطفاء معها وليس مُوقّرين لها فحسب؛ ومع أنها كانت تحذر أشكال اللطف كافة، إلا أنها توقّفت عن الاعتقاد في أن كل كبار القرى كانوا يطلبون من الكهنة أن يطردوا روح ابنة الساحرة من بيوتهم بعد أن تغادرها.

لكنّ قتلها التنانين لم يكن ذا نفع لها مع حاشية أبيها؛ إذ كان الوزراء السريعو التقلب الذين كانت جرفتهم الكلام ويتنقلون على المحفّات ولا يستطيعون أن يحملوا سيقاً، ما زالوا لا يثقون بها، وشعروا في داخلهم أنه كان ثمة شيءٌ مخزٍ في أن تكون أميرة هي من تقتل التنانين، حتى ولو كانت هجينة الدم. ولم يتسبّب خوفهم المتزايد من الشمال إلا في زيادة عدم ثقتهم بها، هي التي كانت والدتها قد أتت من الشمال؛ وتسبّب قتلها

التنانين في جعلهم يخافون منها، خاصة أن الجُرح الوحيد الذي أصيبت به في مهمة غالباً ما تتسبب في قتل الجياد وتعجز الرجال هو جُرح سطحي بسيط؛ كذا كانت قصة وقوع الأميرة الأولى في الحب، والتي كانت قد بدأت تختفي حيث لم يكن يجِدُ فيها جديد، عاودت الظهور، وقال أولئك الذين أرادوا لتلك القصة أن تعاود الظهور إن ابنة الملك كانت تمارس لعبة الصبر والانتظار. كانوا يعرفون قصة الكينيت، وكانوا يعرفون أن بإمكان أي أحد أن يتعلم إعدادها لو أراد؛ لكن لماذا كانت الأميرة إيرين هي من اكتشفته؟

ولم يطلب أحد سوى أربليث وتور أن تُعلّمه إعداد الكينيت. وذات ليلة، بعد أن تناول بيرليث الكثير من النبيذ وصار مغموراً، رُوِّح عن الحضور بأن غنى أغنية شعبية جديدة قال إنه كان قد سمعها مؤخراً من منشدة تغنيها في إحدى الأسواق الصغيرة القذرة في المدينة. وأضاف مبتسماً أن منشدة كانت صغيرة الحجم وقذرة هي الأخرى، وأنها كانت تُسافر مؤخراً عبر القرى الصغيرة المغبرة في التلال، ومن هناك أتت الأغنية الشعبية.

وكانت الأغنية الشعبية تقصُّ قصة إيرين ذات الشعر الناري، التي كان شعرها يتوهج أكثر من نار التنانين، وهكذا كانت تقتلهم من دون أن يُصيبها أذى؛ لأن التنانين كانت تجبن أمامها حين تراها، ولم تكن تستطيع أن تقاومها. وكان صوت بيرليث عذباً وصداحاً وخفيفاً، ولم يكن نظم الأغنية سيئاً للغاية، أما لحنها فكان قديماً ووقوراً استمعت به أجيالٌ كثيرة. إلا أن بيرليث سخر من إيرين بتلك الأغنية باستخدام أدقِّ تغييرات الصوت وألطف المفارقات، وكانت براجمها بيضاء حول كأس نبيذها وهي تستمع.

وحين انتهى بيرليث، أطلقت جالانا إحدى ضحكاتها الصغيرة الحادة. وقالت: «كم هذا رائع. أن نتصور ... أننا نعيش مع أسطورة. أتظنون أن أحداً سيؤلف الأغاني لأحد من بقيتنا، على الأقل لنستمع بها ونحن لا نزال على قيد الحياة؟»

قال بيرليث بهدوء: «لنأمل على الأقل أن أي أغنيات تُغنى على شرفنا لن تُبدينا بهذه الفظاعة، حيث تُفسّر هذه الأغنية سبب قتل أميرتنا للتنانين بسهولة بالغة.»

كانت إيرين تعرف أنه يتعين عليها أن تجلس ساكنة، لكنها لم تستطع، وغادرت القاعة وسمعت ضحكة جالانا تتردد ثانية في أرجاء الممر من خلفها.

وحدث أن جاءت أخبار نيرلول بعد أسبوع من غناء بيرليث أغنيته. كانت إيرين في الخارج تقتل تينياً آخر في اليوم الذي وصل فيه الرسول، ولم تُعد إلى المدينة إلا عصر اليوم

التالي. هذه المرة لم تكن تواجه زوجاً من التنانين البالغة وحسب، بل أربعة تنانين وليدة صغيرة؛ وكاد يستحيل عليها الإمساكُ برابعها، لأنه كان لا يزال صغيراً بما يكفي لأن يختبئ بسهولة، كما كان أذكى من إخوته ليفعل ذلك. لكن التنانين الصغيرة كانت كبيرة بما يكفي لأن تعتمد في طعامها على نفسها، ومن ثم لم تجرؤ على أن تترك آخرهم دون أن تقتله. وما كانت لتجده على الإطلاق لولا كبرياؤه بوصفه تنيناً والذي جعله يطلق عليها خيطاً لهبٍ صغيراً. كان من المروّع قتلُ شيء بهذا الصُّغر؛ فلم يكن التنين الصغير كبيراً بما يكفي حتى لأن يحرق جلدًا بشرياً بنيرانه الضئيلة الضعيفة. لكن إيرين ركزت على حقيقة أنه سيكبر ذات يوم ويتحوّل إلى مخلوقٍ شرس قادر على أكلِ طفل صغير، فأخرجته من حفرة وقاتلته.

وكانت البلدة التي كانت التنانين تُغير عليها كبيرة بما يكفي لأن تقيمَ وليمةً على شرفها وأن تُحضر إليها البهلوانات والمنشدين، وهكذا أمضت أمسياتها، وظلّت نائمة حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. وقد شعرت بالانفعال المُتسم بالتوتر في المدينة فيما دخلتها راكبةً في اليوم التالي، وهذا جعل ثلاث قلّة ومتملماً.

سألت إيرين هورنمار: «ماذا حدث؟»

فهزّ رأسه. وقال: «وقعت مشكلة؛ نيرلول يُثير المتاعب.»

فقالت إيرين: «نيرلول.» كانت تعرف نيرلول، وتعرف طباعَ نيرلول، وذلك من اجتماعات المجلس التي حضرتها.

بعد ستة أيام، وقفت إيرين في مواجهة والدها في القاعة الكبرى وسيفها الذي تلقته من يده مُعلّق إلى جانبها، لتطلب منه أن يسمح لها بالركوب معه؛ ورأت وجهه الذي كان قد تغيّر كثيراً عن حاله فيما مضى ليكون لطيفاً معها؛ واكتشفت قيمة المكانة التي فازت بها في حاشية والدها. إيرين قاتلة التنانين. وابنة الملك.

الجزء الثاني

الفصل الثاني عشر

جاءت لها تيكا برسالةٍ من تور بعد ذلك بثلاثة أيام. كان تور قد حاول أن يلتقي بها عدة مرات، لكنها رفضت أن تتحدّث إليه، ولم تستطع تيكا أن تُغيّر موقفها؛ ومن لمعةٍ عينها لم تجرؤ تيكا على أن تقترح على تور أن يعلن عن قدومه ببساطة. جاء في رسالته: «سننطلق غدًا عند الفجر. هلا تودّعين؟»

أرادت إيرين أن تحرق الرسالة أو أن تُمزّعها قطعًا صغيرة أو أن تمضغها أو أن تنفجر بالبكاء. أمضت ليلتها جالسةً في كوة النافذة، ملتفةً في دثار من الفرو؛ كانت تغفو بين الحين والآخر، لكنها غالبًا ما كانت تراقب النجوم وهي تتحرك عبر السماء. لم ترغب في أن تقف في برودة الفجر الرمادي وتشاهد الجيش وهو ينطلق مبتعدًا، لكنها ستفعل ذلك؛ لأنها عرفت أن والدها قد ساءه أن يرفض طلبها؛ لأنها كانت بعدُ صغيرة السن للغاية؛ وغير متمرسّة؛ لأنه لم يستطع أن يتحمّل ولو أبسط شكٍّ في ولاء رُفقاءه حين يواجهون نيرلول، ولأن حضورها سيتسبّب في ذلك الشك. لأنها كانت ابنة المرأة التي أتت من الشمال، يمكن على الأقل أن تودّعهم بالحب. كان من شيم تور أن يأتي بتلك البادرة؛ أما والدها ورغم ما يتمتّع به من عطفٍ بالغ، فقد كان مُعتدًا بنفسه للغاية — أو كان ملكًا أكثر من كونه مُعتدًا بنفسه — وكانت هي مُعتدة بنفسها للغاية، أو كانت متعصبة لرأيها للغاية، أو يافعة للغاية.

وهكذا وقفت إيرين بجفّنين ثقلين في فناء القلعة فيما ركب الفرسان ورجال الحاشية جيادهم وانتظروا الملك ووليّ العهد. وانتظرهم الجيش في الفسحة الشاسعة المقتطّعة من الغابة بعد بوابات المدينة، وهُيئ لإيرين أن بإمكانها سماع وقع الحوافر على الأرض، وصلصلة اللجم، وأن ترى الظلال الطويلة للأشجار تمتدّ على خواصر الجياد ووجوه الرجال.

وبرز هورنمار من وراء بناء القلعة الضخم غير المحدد المعالم، يقود كيثتاذ الذي سار برفق على أطراف سُوَقِهِ، وكانت أذناه منتصبَتين ومُتجهَتين للأمام وذيله مرتفعاً. رآها هورنمار وأحضر كيثتاذ إليها دون أن ينطق بكلمة وسَلَّمها لجامه في يدها. أما سائس ولي العهد فوقف ينتظر في جمود، مُمسكاً بدجيث. واستدار هورنمار ليمتطي جواده، حيث كان سيرافق الجيش؛ لكن في تلك الأثناء كان يُعطي لابنة الملك شرفَ الإمساك بركاب الملك. ولم يكن هذا شيئاً هيناً؛ فالإمساك بركاب الملك كان يجلب الحظ لمن يمسك به، وفي كثير من الأحيان فيما مضى كانت الملكة تُطالب بهذا الشرف لنفسها. لكن كثيراً أيضاً كان الملك يأمر أحداً ممن كانوا يُعدُّون محظوظين — كجنرال منتصر، أو ابن بكر، أو حتى ولي للعهد — لكي يُمسك له رُكابه، خاصة حين كان الملك يركب ذاهباً للحرب أو في حملة دبلوماسية صعبة ودقيقة يُمكن أن تتقلب حرباً.

لم يقل أحدُ شيئاً، لكن شعرت إيرين برعدة خفية تسري عبر الفناء فيما فُكّر بعض الركاب إن كانت ابنة الساحرة قد بدأت مُهمَّتهم بفألٍ شؤم أم لا، وتساءلت هي في نفسها إن كان هورنمار قد أسدى إليها صنيعاً حسناً أم لا. إن تحرَّك الجيش وهو يتوقَّع الأسوأ، فعلى الأرجح سيجد ما تَوَقَّع.

أمسكت إيرين بزمام كيثتاذ مُتجهِّمةً، لكن كيثتاذ لم يكن يروق له التجهُّم، فأخذ يهمزها بأنفه حتى ابتسمت لإرادياً وربَّتت عليه. ورفعت ناظرها حين سمعت وقع خطوات الملك، وحين التقت عيناها بعينيهِ سُرَّت أنها أذعنَت لطلب تور. قَبْلَ أرلييث جبهتها وأحاط ذقنها بيديه، ونظر إليها نظرة طويلة؛ ثم التفت إلى كيثتاذ، وأمسكت إيرين بالركاب ووجَّهته إلى قدم أرلييث.

في تلك اللحظة سرى ضجيجٌ طفيف عند بوابة الفناء، وتقدَّم رجلٌ يمتطي حصاناً منهكاً على الحجر المُزَجَّج. توقَّف الحصان وهو يتمايل على سُوَقِهِ التي تباعدت المسافة بينها؛ فقد كان مُتعباً للغاية حتى إنه لم يستطع أن يَمشي بثقة على السطح المصقول؛ ونزل الرجل عن الحصان وترك اللجام من يده، وهُرع إلى حيث يقف الملك. التفت أرلييث، وكانت يده لا تزال على كتف إيرين حين أتى الرجل إليهما.

قال الرجل: «يا صاحب الجلالة.»

مال أرلييث برأسه وكأنه في قاعته الكبرى، وهذا الرجل هو أول المُتوسِّلين في صباح طويل. كرَّر الرجل يقول: «يا صاحب الجلالة» وكأنه لا يستطيع أن يتذكَّر رسالته، أو أنه لا يجرؤ على تسليمها. انتقلت عينُ الرجل بنظرة سريعة إلى وجه إيرين وهي واقفة، وكانت

يُدها لا تزال مُمسكةً بالركاب، وأجفلت حين رأت في عيني الرجل بريقَ أملٍ عندما نظر إليها.

وقال أخيراً: «لقد ظهر «التنين الأسود». ماور، الذي لم يره أحدٌ منذ أجيال، آخِرُ التنانين العظيمة، ماور العظيم كالطود. لقد استيقظ ماور.»

كان الرجل يتصبَّب عرقاً، وتنفَّس الجواد وهو يرتجف ويلهث، مما يعني أنه كان مُصاباً بربو الخيل، وأن ركوب الرجل على ظهره كان فيه مشقَّة شديدة عليه. «أتوسَّل إليك أن ... أن تساعدنا. فربما تكون قريتي قد أُبيدت ونحن نتحدَّث. وعمَّا قريب ستتبعتها قرى أخرى.» هكذا تحدَّث الرجل فعلاً صوته فزعاً. واستطرد: «في غضون عام؛ في غضون موسم واحد، قد تستحيل دamar كُلُّها سوداءً بأنفاس ذلك التنين.»

قال تور: «هذا أدَّى يأتينا عبر الحدود»، وأوماً أرلييث موافقاً. ساد الصمت لحظةً طويلة وحزينة وكئيبة، وحين تحدَّث أرلييث ثانيةً، كانت نبرته جادة. فقال: «كما يقول تور، إن استيقاظ التنين الأسود أدَّى أرسل إلينا، وأرسل إلينا في هذا الوقت الخطير والحاسم بالتحديد بينما لا نستطيع أن نُؤليه الاهتمام اللازم.» تهاوت فجأةً كتفا الرسول كمداً، ووضع يديه على وجهه.

استطرد أرلييث، بنبرة خفيضة للغاية حتى لا يسمعه سوى إيرين وتور والرجل. «نحن الآن ناهبون لمواجهة خطرٍ قد يكون أكثر فتكاً من التنانين؛ ذلك أنه خطرٌ بشريٌّ ومن دamar ودافعه شيطاني. يُمكن لdamar أن تُواجه التنين؛ لكنها إن كانت منقسمةً إلى أشلاء فلن تكون ذات جدوى، حتى ولو قُتل التنين.» ثم استدار إلى كيثتاذ ووضع قدمه على الركاب وامتطى صهوته. وتقهقرت إيرين خطوةً إلى الخلف فيما وثب كيثتاذ؛ حيث لم يكن يأبه مطلقاً لأمر التنانين ويكثر أكثر بحمل الملك في مقدِّمة الموكب.

«سنعود بأسرع ما يُمكننا، وسنذهب للقاء تنينك الأسود. استرح، وخذ حصاناً نشيطاً، وعد إلى قريتك. ويمكن لكل أولئك الذين يرغبون في المجيء إلى مدينتنا أن يأتوا وينتظرونا في جماها.» ورفع ذراعه، فأحدثت رفقته صوتاً كحفيف أوراق الشجر، تنتظر منه إشارة لبدء المسير؛ وقاد أحدُ السُّيَّاس حصان الرسول المريض جانباً، ومرَّ موكب الملك ببوابة الساحة وسار في طريق الملك وتجاوز جدران المدينة إلى حيث كان الجيش ينتظره.

كانت إيرين قد نوت أن تصعدَ إلى قمة القلعة لتُراقب بريقهم وهم يمضون حتى يختفوا بين الأشجار خارج المدينة؛ لكنها عوضاً عن ذلك انتظرت، واقفةً إلى جوار الرسول الذي كانت يدها لا تزالان تُغطيان وجهه. وحين غاب آخرُ أصوات رحيل رفقة الملك أنزل

يَدَيْهِ، وكأنه حتى ذلك الوقت كان لا يزال يأمل في تغيير قرار الملك؛ ثم أطلق تنهيدة. وغمغم يقول، وهو يُحدّق أمامه في الفراغ: «كدتُ أفوتّهم تمامًا. وكان ذلك بلا جدوى. ليتني فوتّهم ولم أشقّ على حصاني الموث المسكين وهو مريض هكذا»، وتحولت عيناه إلى الحصان الذي كان قد أتى مُمتطيًا إِيَّاه.

فقالت إيرين: «سيتلقى الموث رعايةً حسنةً في إسطنبولنا، وسأصحبك الآن لأجد لك طعامًا وفرشًا.»

تحولت عينا الرجل ببطء نحوها، ورأت فيهما مجددًا وميض أمل خافت. «لا بد أن أعود بأسرع ما يمكنني، ومعني على الأقل رسالة إحسان الملك لمن أضحوا من أهلي بلا مأوى أو مُرتاعين.»

فقالت إيرين: «الطعام أولًا. لقد قطعتَ طريقًا طويلًا ومرهقًا.»

أومأ الرجل، لكنَّ عينيه لم تُفارقا وجهها.

فأضافت إيرين بنبرة رقيقة: «سأصحبك في طريق عودتك؛ لكنك تعرف هذا بالفعل، أليس كذلك؟»

انعكس بريقُ الأمل الآن في ابتسامه، لكنها كانت ابتسامهً ضئيلة جدًا لدرجة أن إيرين ما كانت لترأها لولا أنها كانت من جانبها تأمل أن تراها.

وقال الرجل: «شكرًا لك أيتها الأميرة إيرين، يا قاهرة التنانين.»

انطلقا معًا عصرَ ذلك اليوم. كان تالأت نشيطًا، فنزَع إلى الوشب؛ لم يهتم برماح التنانين المُعلّقة بسرجه؛ لأنه اعتقد أنه كان يعرف كلَّ شيءٍ كان يلزمه معرفته بشأن التنانين. وكانت الرحلة صامتة. انطلقا في طريقهما بأسرع ما استطاعا أن يضغطا به على جواديهما، وكان ذلك أبطأ قليلًا مما كان يودُ الرسول، لكن إيرين كانت تعرف أنها وتالأت سوف يُواجهان التنين، وكان تالأت مُسنًا؛ وإن لم يرغب تالأت في تذكُّر هذا، فكان من الأهمية بمكان أن تتذكَّره إيرين نيابةً عنه.

كان مسارهما نحو الشمال مباشرةً، لكن الجبال كانت في أشدَّ درجات انحدارها في ذلك الاتجاه؛ لذا خرجت إيرين والرسول عن مسارهما ليسلكا طريقًا أيسرَ، وتحركا بسرعة أكبر خلاله. وعند مطلع فجر اليوم الثالث كان ثمة غمامة سوداء عالقة أمامهما، بالقرب من الأفق الذي شكَّله الجبال، مع أن السماء فوقها كانت صافية؛ وبحلول عصر ذلك اليوم كانا يستنشقان هواءً لاذعًا. كان رأس الرسول قد غاص بين كتفيه، ولم يرفع عينيه عن الطريق بعد أن أبصرا الغمامة السوداء للمرة الأولى.

وقد تأنى ثلاث في خطواته في عِقب الحصان الآخر. كان ثلاث الآن أحسنَ سلوكًا مما كان عليه حين كان صغير السن وكان جواد الحرب الخاص بالملك؛ حينها كانت فكرة اتباعه لأي حصان آخر تجعله مُغتاضًا ومُستاءً. تركت إيرين هذا الأمر لثلاث؛ ذلك أنها لم تكن تنظر إلا إلى الغمامة. وحين حاد الرسول يسارًا، وبينما كانت الغمامة لا تزال تحوم فوقهما، قالت إيرين: «انتظر..»

فتوقّف الرجل ونظر خلفه. وكان الدهول بادياً على وجهه، وكأن سماعه لكلمة «انتظر» كان قد أخرجه من خِضم الخواطر. «التنين يكمن أماناً؛ إنَّ ما نراه أماناً في السماء هو الأمانة الدالة عليه. سأمضي في ذلك الطريق.»

فتح الرجل فمه، وزال الدهول عن وجهه قليلاً؛ لكنه أغلق فمه ثانيةً دون أن يقول شيئاً.

قالت إيرين بنبرة رقيقة: «اذهب إلى قومك وأبلغهم رسالة الملك. سوف آتي إليكم لاحقاً، وقتما أستطيع — وقد لا أفعل.»

أوماً الرجل، لكنه ظلّ جالساً دون حركة، والتفت على سَرجه لينظر إلى ابنة الملك، حتى تجاوزته إيرين على صهوة ثلاث وسلكت الطريق الذي كان الرجل قد حاد عنه، واتجهت مباشرةً صوب الغمامة.

ضربت إيرين مُخيمها تلك الليلة بالقرب من جدولٍ اسودَّ لونه بفعل الرماد؛ ولكي تغلي الماء لتصنع الملاك كان عليها أن تُصَفِّيه أولاً في زاويةٍ من زوايا بطانيته؛ لأن تلك كانت حالة طارئة لم تكن قد خطّطت لها. «وإن كنتُ أعتقد أنه كان ينبغي أن أخطّط لها» هكذا قالت لثلاث، وهي تُعلّق الغطاء الرطب على إطارٍ من الأغصان بالقرب من النار آملّة أن يجفّ قبل أن يتعيّن عليها أن تُدثّر به نفسها. وكان عليها أن تُصَفِّي الماء لأجل ثلاث أيضاً، ذلك أنه رفض أن يشرب من الماء المليء بالرماد في الجدول؛ إذ أخذ ينخر وينبش الأرض بحوافره ويهزّ رأسه في استياء وأذناه منبسطتان.

وكانت نار المخيم أقلّ جلباً للراحة مما كان ينبغي لها أن تكون؛ إذ توهّج ضوءها فأذى عيونهما، وبدا أن النار تُصدر دخاناً أكثر مما ينبغي بنار مُخيم صغيرة أن تفعل، وقد علق الدخان قريباً من الأرض ولم ينجرّف بعيداً، وإنما تعلّق بحلقيهما وصدريهما. تَلَفَّت إيرين بالغطاء الذي كان لا يزال رطباً وحاولت أن تنام؛ لكن أحلامها أقضت مضجعها؛ فقد سمعت التنين يتنفّس، وبدا لها أن الأرض من تحتها تهدر بنبض قلب التنين. وكان

تالات هو الآخر أرقًا، فكان كثيرًا ما يلتفت مُحدِّقًا في الظلمة، وكان ينفض جلده وكأنه كان يشعر بُدْف الرماد تحتكُّ به.

أقبل الفجر، وكانت إيرين ترقُد مُستيقظة تمامًا، تشاهد النور يزداد، وكانت لا تزال تشعر بالأرض ترتجف من نبض التنين؛ ولم يكتمل سطوع النور كما ينبغي له، وإنما ظل الجو مغيبًا كوقت الشفق. طوت إيرين بطانيتهما وتركتها مع عُدّة الطهو في جُمى صخرة؛ ودهنت جسمَ تالات كلَّه بالكينيت، وكذلك فعلت بنفسها، وارتدت بزَّتها الجلدية المدهونة؛ ثم دهنت نفسها وكذلك جوادها بالكينيت مُجددًا، وكان تالات مُستسلمًا بفعل الضوء الرمادي والأرض المُرتعشة ولم يَحْتَجَّ على هذا الانحراف عن الجدول الزمني المعتاد. ودهنت إيرين رماحها بالكينيت، وتحقَّقت من أنَّ المقابض المصنوعة من الجلد المدبوغ معقودة في مكانها بإحكام؛ وتحقَّقت من إبزيم حزام سيفها ومن مَكَم السكين القصيرة التي تحملها في فردة حذاءها اليمنى. وفي الأخير، شدَّت قُفَّازيها على يديها؛ وشعرت بأنَّ أصابعها مُتبيِّسة وكأنها خناجر.

كان ماور ينتظرهما. كانا قد أمضيا ليلتهما لا يفصلهما عن التنين سوى صخرة ناتئة أطول من تالات بقليل؛ وكان الاتجاه الذي كثيرًا ما التفت إليه تالات أثناء ساعات الليل هو الاتجاه الذي كان يكمن فيه التنين. أو ربما كان ماور قد اقترَبَ منهما من المكان الذي كان قد رقد فيه بالأمس، وكان ثَقُل أقدامه هو ما شعرت إيرين بأنه نبض قلبه فيما رقدت مُستيقظة بالقرب من نار المُخيم الكثيرة الدخان.

ربما لم يكن التنين كبيرًا بحجم جبل؛ لكن الغمامة السوداء الكثيفة التي كانت عالقة على مقربة منه جعلته أكبر من الجبل، وحين وقعت عيناه عليهما رفع جناحيه شيئًا قليلًا، فاختفت الشمس وعوت حولهما ريحٌ كأنها ريح عاصفة. ثم أحنى التنين رقبته الطويلة إلى الأرض، وكان أنفه مُسدَّدًا تجاههما، وحدَّقت عيناه الحماوان المُرتخيتا الجفن فيهما مباشرةً.

توقَّف تالات عندما صارا خلف الصخرة التي شكَّلت لهما حاجزًا واقفيًا، ورفع رأسه. كانت إيرين مستعدة للترجُّل بسرعة عن سهوة تالات إن كانت شجاعة تالات أقل من أن يُواجه ماور؛ إذ لم يكن قد حظي بما حظيت به من تحذير، وعلى الأقل حتى الليلة السابقة لا بد أنه اعتقد أنهما في طريقهما لمواجهة تنينٍ آخرٍ كغيره من التنانين. لكن تالات وقف، وقد تجذَّرت حوافره في الأرض، وأخذ يُبادل التنين التحديق، واتسعت عيناه ماور الحماوان أكثر قليلًا، وبدأ يُكشِّر قليلًا، وتسرَّب دخان من بين أسنانه التي كانت تُقارب طولَ أرجل

تالات. زحف الدخان على الأرض نحوهما، والتفَّ حول كاحلي تالات الأبيضين، فضرب الأرض بقدمه وارتجف لكنه لم يتحرَّك من موضعه، وزاد التنين من تكثيره قليلاً.

كانا في وادٍ صغير يُشكِّل حوضاً؛ أو أنَّ ما تبقى من الوادي مع وجود التنين فيه كان صغيراً. كان بالوادي فيما مضى أشجار، وكذلك كان ثمة أشجار على المنحدرات الشديدة من حولهم، لكن لم يعد ثمة أشجار الآن. كان من الصعب رؤية أي شيء. كان الدخان يتصاعد من حولها، والوادي قد صار أسود؛ وحين تحرَّك نتوء صخري مُنخفض نحوهما، أدركت إيرين فجأة أنها جزء من ذيل التنين. كانت التنانين في بعض الأحيان تصرع فرائسها بذبولها حين لم يكن لديها رغبة في أن تستهلك الطاقة التي يتطلَّبها أمرُ نفث النار، أو حين كانت تشعر أن الفريسة لا تستحقُّ العناء.

أرخت إيرين رمحاً في مكانه وقادت تالات إلى الأمام بساقيها. إلا أنه كان بطيئاً بعض الشيء في استجابته. رفعت إيرين الرمح وقذفته بكلِّ ما أوتيت من قوة نحو عين التنين الأقرب.

رفع ماور رأسه بحركة مفاجئة، فارتدَّ الرمح عن النتوء الصلب تحت عينه دون أن يُحدث أي ضرر؛ ومال تالات بعيداً عن الذَّيل المُهاجم. وفيما تفادى تالات الذيل التفت رأس التنين كالثعبان، فراوغ تالات مجدداً، ومَرَّت النار تصدَّح بالقرب من أذن إيرين، نار لم يشهد أيُّ منهما مثلها من قبل، بقدر ما كان هذا التنين مُختلفاً عن أي تنين آخر شهده من قبل. كانت النار بيضاء تقريباً، مثل البرق، وفاحت منها رائحةٌ حادة ومعدنية؛ كانت رائحتها تُشبه رائحة الصحاء وقت الظهيرة، كانت رائحتها مثل رائحة حريق في غابة؛ وكانت لفحة الهواء التي غلَّفتها أكثر سخونة من أي مصهر معادن في دامار.

وقد استحالت عين تالات ببيضاء فيما بادل التنين خلفه التحديق بنظرة غاضبة من فوق كتفه؛ كان ماور يجلس جاثماً الآن، لكنه كان يُكثِّر ثانياً عن أنيابه، ولم يأت بأي حركة تجاههما.

كانت إيرين ترتجف على السَّرج، ارتجافاً طويلاً مُضطرباً يشي بالذعر. فكَّت الرمح الثاني والتفَّت بتالات في تردُّد لتواجه التنين مجدداً؛ أرادت بشدة أن تهزَّب وتختبئ، ولولا أن حلقها كان جافاً من شدة ما بها من رعب لانتحبت. وطقطقت كتفها فيما رفعت الرمح. وحثَّت تالات على التقدُّم، فتحرَّك بأرجل مُتبيسة، وكان ذيله يضرب يَمنة ويسرة في قلق؛ وأسَّرت به إيرين وكأنهما سيجتازان التنين من جانبيهما الأيسر؛ وطوال الوقت كانت تعي أن عيني ماور الضيقتين كانتا تُراقبانها وهو ما أصابها بالذعر. سعلت إيرين من الدخان

المتصاعد، وكادت تفقد السيطرة على الرمح؛ وفيما كانا قد قاربا تجاوزَ الكتف الأخرى للثنين أدارت ثلاث فجأةً فانحرف نحو الداخل من تحت صدر التَّنين بينما هو جاثم، وقذفت الرمح نحو البُقعة الضعيفة تحت فُكِّه.

وانحرف ماور بعيداً عنهما بأسرع مما يمكن لشيءٍ في مثل حجمه أن يتحرَّك؛ وقد تسبَّب الهواء الناتج عن حركته في ترنُّح خطوات ثلاث، حتى تعثَّر. ورفع ماور رأسه وهو يزأر زئيراً بدا كصوت جبال تنهار، واندلعت في السماء نارٌ باللونين الأبيض والأصفر. تشبَّثت إيرين بوهنٍ في عُرف ثلاث فيما انحرف مُبتعداً عن مِخْلَب التنين الأمامي الجارف، ورأت أن رمحها قد أصاب هدفه؛ كان الرمح يتدَلَّى من تحت فكَّ التنين وبدأ شيئاً هشاً كعود عشب، وعرفت إيرين أن تلك الضربة لم تكن ذات جدوى. فلو كانت رميتها محكَّمة، لسقط ماور من فوره يُقاسي سكرات الموت، ولما انهال عليهم برأسه ثانيةً وقذف عليهم لهيباً أبيض من شدة حرارته.

انحرف ثلاث ثانية، ولم تمسَّهما النار إلا وهي تمر بهما. هزَّ ماور رأسه بعنف فتحرَّ رمح إيرين من مكان إصابته وارتمى بعيداً وكأنه ورقة شجر في عاصفة؛ كانت عينا التنين مفتوحَتين عن آخرهما الآن، وسمعا هسهسة أنفاسه، ووجَّه نحوهما مزيداً من اللهب، فاستدار ثلاث جانباً ثانيةً باستماتة. وكان ثمة عرق على ظهر ثلاث، وكذلك أحاط العرق بعينيَّه الداكنتين؛ ولم تستطع إيرين فعل شيء سوى التمسُّك في صمْتٍ بالسَّرج؛ إذ رفض عقلها أن يعمل. كانت قد فقدت رماحها، ولم يكن يمكن فعل شيء مفيد بسيفها. قفز ثلاث جانباً مرة ثانية، فكاد يُسقطها من فوق صهوته؛ وانكمشت بائسةً وتساءلت لماذا لم يولَّ ثلاث ظهره ويهرُب، وإنما استمرَّ في مواجهة هذا الوحش، ينتظرها أن تفعل ... شيئاً.

اندلع نحوهما تيارٌ آخر من اللهب، وهذه المرة، وبينما ارتدَّت ثلاث على عرقوبيه واستدار هلعاً جهة اليمين، خانته ساقه الخلفية الضعيفة. فصرخ، خوفاً أو خزيًا، فيما ألوت ساقه وسقط؛ وسقطت إيرين معه؛ ذلك أن ردود أفعالها كانت فاقدة للحس للغاية بحيث لم يمكن لها أن تحرَّرها. وهكذا، كانت إيرين فوق ثلاث قليلاً، ولجق بها شيء من لهيب التنين فغشيها.

كانت إحدى ذراعيها مرفوعةً لأعلى، أو تخلَّفت عنها أثناء السقوط، فأحترقت النار الجلد المتشَبَّع بالكينيت فحوَّلته رماداً على الفور، وسفَعَتْ ذراعها من تحته؛ كما اسودَّت الخوذة التي على رأسها وسقطت عنها، واحترق معظم شعرها، وشبَّت النار بوجهها

المدھون بالكينيت. فتحت فمھا لتصرخ، وحينھا كانت قذيفة اللهب قد تجاوزتها، وإلا كانت قد ماتت من فورھا؛ لكن مع ذلك انسلَّ شيءٌ قليل من الطرف الخارجي من نار التنين، والذي لم يكن أسخن من النار المُستخدمة في صناعة سيوف الملك، من بين شفتيھا وعبرَ حلقھا إلى رثتيھا، وحينھا لم يكن قد تبقَّى لها شيء تصرَّخ به.

حينھا أصبحت إيرين تحت ألسنة اللهب، وراقدة على الأرض وإحدى ساقيھا عالقة تحت جسد تالأت، ورقد تالأت بلا حراك. وكان ما بها من ألمٍ احتراقٍ حلقھا ورثتيھا عظيمًا جدًا حتى إنها كادت تنسى ما بها من ألمٍ في ذراعها ورأسها؛ لكنها وجدت، بطريقةٍ ما، ما يكفي من الوعي بداخلها لتفاجأ، وذلك حين رأت ظلًا عظيمًا يتحرَّك باتجاههما ويحوم فوقهما، أنه لا يزال بإمكانها الرؤية وبكلتا عينيھا. ما زلتُ على قيد الحياة، هكذا فُكِّرَتْ في نفسها ورمشت بعينيھا؛ وكانت وجنتھا غير المحترقة على الأرض، وشعرت بأن الأرض باردة كالثلج. فُكِّرَتْ في نفسها: «ها هو ذا التنين يميل علينا؛ لا شك أنه سيقضي علينا هذه المرة.» وأمام عينيھا كان ثمة ضباب أحمر اللون معلق في الجو، أو ربما كانت عيناها مُلتهبتين وحسب من الدخان والرماد؛ لكن لم يكن بإمكانها الرؤية بوضوح. ولا بد أنها قد تخيلت أنها رأت فكي التنين ينفِتحان؛ لأنها لو كانت قد رأتهما ينفِتحان فعلاً، لم يكن ليُصبح لديهما وقتٌ مُتبقِّ. وهكذا كان لديها وقتٌ لتفكر، بهدوء وصفاء، لقد قتلتُ تالأت لأنه ما كان ليستدير ويهرب؛ فهو جوادٌ حرب. ربما يُمكنني أن أهرُب نحو الأمام، وليس نحو الخلف أيضًا، بعدما فات أوان الهرب.

لم يكن لديها وقت لتُدرك مدى سوء إصابتها؛ لذا الملمت نفسها وألقت بنفسها على أنف التنين وهو يحنى رأسه ليحرِّكهما بأنفه، أو ليبتلعهما، أو أيًّا كان ما نوى أن يفعله؛ واكتشفت بعد فوات الأوان أن كاحلها الذي كان قد علِق تحت جسد تالأت مكسور، وأن ذراعها اليسرى مشلولة بفعل النار حتى إنها لم تكن تستطيع أن تُنفِذ ما تريد؛ لكنها وبطريقةٍ ما أمسكت بفتحتي أنف ماور، وفيما سحب رأسه نحو الأعلى بعُنْفٍ تمسَّكت به بشدَّة بيد واحدة وقدم واحدة، وربما تمسَّكت بأسنانها أيضًا. فُكِّرَتْ في نفسها، ولكن في سوداوية الآن، أنها تفعل ذلك لأجل تالأت. قالت في نفسها إنه لا يزال هناك سكين في حداثها، لكنها لا تملك إلا يدًا واحدة؛ ولا يُمكنها أن تتشبَّث به وتسحب السكين بيد واحدة. إلا أن ماور تراجع وهو يرفع رأسه، فحملها الهواء على أنفه لحظةً، وكادت تضحك، وأعملت يدها السليمة في أعلى حداثها الطويل الرقبة وسحبت السكين منه. توقَّف التنين عن التراجع وهبش أنفه بمخالب إحدى ساقيه الأماميتين؛ لكنَّ عينيّه كانتا مُتدنيَّتين كثيرًا

وتقعان في رأسه في بقعة متأخرة كثيراً بحيث لم يستطع التنين أن يرى موضعها، وكان جلده ثخيناً بأكثر من أن يستطيع أن يُحدّد بدقة موضعها، فأخطأتها ضربة مخالبه. وقالت في نفسها إنه لم يتبقَّ إلا خطوات قليلة، بضع خطوات بعد، ولا يُهم إن كان كاحلها مكسوراً؛ فوقفت حتى كادت تنتصب وجرت مسافة طولها يساوي طول رأس التنين وألقت بنفسها فتسطّحت وأغمدت سكينها في عين ماور اليمنى.

كان وزنها كلّهُ خلفَ قوة الضربة؛ ذلك أنها لم يكن قد بقي بها من القوة إلا قليل، ودفع وزنها بالسكين عميقاً في عين التنين حتى وصل إلى مخّه، وبينما كانت أصابعها المغطاة بالقفاز مقبوضة في تشنُّج حول مقبض السكين، تبعثها ذراعها حتى كتفها. فاندفعت دماء التنين الساخنة كالنار في وجهها، كالنافورة وغطّتها، وغابت عن الوعي.

الفصل الثالث عشر

حين استعادت وعيها كانت تصرُخ، أو أنها كانت ستصرخ لو كان حلقها الممزَّق قادرًا على فعل ذلك. أَلَمَّا التَّنَفُّس. رقدت على الأرض، على بُعد مسافة قليلة من حيث كان التنين يرقد مُتَكَوِّمًا أمام سفح الجبل، ورأسه وذيله ممدودان بلا حراك. قالت في نفسها لا بد أنها قتلتها في نهاية المطاف؛ لكن تلك الفكرة لم تَسْرُها كثيرًا. إذ كانت تتألم كثيرًا. وكانت الفكرة التالية التي وابتها هي الماء. كان يُوجَد جدول ماء. جعل التفكير في الماء جروحها تَطِن وتَنزُّ بعنفٍ أكبر بكثير، فغابت ثانية عن الوعي.

وخلال الفترة الطويلة بعد الظهيرة، زحفت بطريقةٍ ما نحو الجدول؛ ولم تَمُدَّ يَدَهَا فيه أخيرًا إلا وقت الغسق — يدها اليمنى التي تَخْثُر دم التنين عليها — وشعرت بالماء يجري عليها. كانت قد خشيت أن تكون، من شدة احتياجها للماء، قد تخيلت صوت الماء الجاري ورائحته، وكانت الفترات التي فقدت فيها وعيها مليئةً بالأحلام التي هُبَّئ لها فيها أنها تزحف في الاتجاه الخاطئ. ثم انسلَّت دمعَتان أو ثلاث على وجهها المُسَوَّد، فأقامت نفسها على مرفقها الأيمن وجررت نفسها نحو الأمام وسقطت بجسدها كُلِّه في الماء. وكان المكان الذي ترقُد فيه ضحلًا، فاستندت بوهنٍ على جلمودٍ صخري متوسط الحجم حيث يمكن للماء أن يجري على ذراعها اليسرى وعلى الجانب الأيسر من وجهها ولا يزال بإمكانها أن تتنفس في الوقت نفسه.

وقد أمضت تلك الليلة على الأقل في ذلك الجدول البارد، ولم تكن تتحرك إلا لكي تشرب، ثم تُعيد وجهها نحو الأعلى في مواجهة الصخرة حتى تُوَاصل التَّنَفُّس؛ وإن كانت تساءلت في بعض الأحيان فيما كانت تغيب عن الوعي وتستعيده عن سبب اهتمامها بمواصلة التَّنَفُّس. وأقبل الفجر؛ أو ربما كان هذا الفجر هو الفجر الثاني منذ جررت نفسها إلى الماء؛ أو

ربما كان هو الفجر الثاني عشر. راقبت الشمس وهي تُشرق وهيئ لها أنها تُمضي وقتًا أكثر وهي واعية، وأسفت لهذا. كانت الأمور ستُصبح أبسط لو أنها لم تُعد للوعي حين غابت عنه في وقتٍ ما أثناء الليل، تاركَةً جسدها المشلول في الماء البارد الجاري. لكن عوضًا عن ذلك وجدت نفسها تطرف بعينها بفعل نور الصباح، وتُحدّق بهيكلٍ شاحب ومألوف بصورة غامضة عند شاطئ الجدول. إنه تالأت.

ونادت بصوتٍ أجش: «تالأت»، وأدركت أنها لم تفقد صوتها تمامًا في نهاية المطاف. رفع تالأت رأسه المطأطأة ونظر إليها؛ لم يكن قد أدرك قبلئذٍ أنَّ الشيء الذي في الجدول هو عزيزته إيرين، فراح يصهل في حماسة لكن في عدم يقين. همست إيرين: «إن كنت لا تزال موجودًا، فمن الأفضل أن أبقى أنا أيضًا»، ثم أحنّت ظهرها مُتألِّمةً لتتخذ وضعية الجلوس.

تراجع تالأت خطوةً أو اثنتين بعيدًا عن الشيء الذي في الجدول وهو ينهض أمامه، لكن قال له الشيء ثانيةً بصوتٍ أجش: «تالأت»، فتوقّف تالأت. لم يكن الصوت مثلما ينبغي أن يكون صوت إيرين، لكنه كان واثقًا من أنه ذو صلةً بعزيزته إيرين، ومن ثم انتظر. وجدت إيرين أن الجلوس كان أقصى ما يُمكن لها فعله وهي في ذلك الاتجاه؛ لذا رقدت ثانيةً وتدرجت على بطنها وتقدّمت ببطءٍ نحو شاطئ الجدول. أرخى تالأت رأسه في قلقٍ ونفخ، فنحّرت إيرين من الألم لما لمس هواءَ نفّخته وجهها. أخرجت يدها اليمنى من القفاز المُخضّل، ورفعت يدها السليمة إلى حسانها، فتلمّس أصابعها بشفتيه ثم أطلق تنهيدةً عميقة، تنهيدةً ارتياح، حسبما ظنّت إيرين؛ لكنها أشاحت بوجهها بعيدًا عن أنفاسه الدافئة. وهمست: «هذا لا يُحتمل كما تعلم»، لكن خطر لها وللمرة الأولى منذ سقطا أمام التنين أنها قد لا تموت.

وبمجرد أن خرجت من الماء أخذت جروحها وكاحلها المكسور تخفق بقسوةٍ أكبر، وقالت في نفسها إنها يُمكنها أن تقضي بقية حياتها راقدةً في الجداول. وخطرت لها خاطرةٌ صغيرةٌ جدًّا، وهي أن ذلك قد لا يستمرُّ مدةً طويلةً جدًّا على أي حال. ثم فكّرت: ينبغي أن أجد طريقةً لكي أقف على الأقل وأحلّ عن تالأت سرجه قبل أن يُسبّب له القرح. حسنًا، لا تزال لديّ ذراع واحدة وساق واحدة.

كانت الطريقة التي شدّت بها نفسها إلى أعلى قائمته الأمامية اليسرى مرهقةً كثيرًا وعند ذلك شعرَ تالأت بالاستياء حتى تمكّنت من الإمساك بحزام السرج وألقت بكتفيها عبر السرج واستندت لتنهض بتلك الطريقة؛ لكن تالأت وقف جامدًا كالنتين الميت ولم يُنبئها

بقلقه إلا تصلَّب ظهره ورقبته. فتمتعت: «وأنا قلقة كذلك يا صديقي.» وتمكنت من فكّ أباذيم الحزام وتركت السرج ينزلق على الأرض؛ كان ثمة بقعة زهرية اللون يكاد يكون الجلد قد انسلخ عنها خلف مرفق تالات حيث احتكّ الحزام المبلل بالعرق بها كثيرًا. كما كانت هناك كدمتان طويلتان حمراوان حادثان؛ إحداهما في ردفه والأخرى أسفل خاصرته. نار التنين.

وانزلقت إيرين إلى الأرض ثانية فسقطت على السَّرج. ووجدت نفسها تحدّق في الأباذيم التي تُحكّم وثاق السرج. الطعام. أين تركت عُدتي؟ كانت بالقرب من الجدول هنا في مكان ما. خلف صخرة. نظرت حولها لكن نظرها كان ضبابيًا ومشوشًا، ولم تستطع أن تُميّز خُرَجها من بين الأكُم الصغير والصخور. أخذ فمها وحلقها يخفقان. على الأرجح لا يمكنني تناول أي شيء سوى الثريد، هكذا فكّرت في نفسها وتجهّمت لذلك، لكن تجعّد وجهها من تجهّمها كان مؤلمًا جدًا حتى إنها لم تستطع أن تفكّر في أي شيء آخر بضع دقائق.

كان تالات هو مَنْ وجد خُرَجها. سار الجواد بعيدًا عنها يتشّم الأرض على طول حافة الجدول؛ ثم توقّف عند مجموعة بعينها من أكمات صغيرة قاتمة وضربها بأنفه؛ وعرفت إيرين من صوت الضربة أنها لم تكن صخورًا. ثم ابتعد تالات عنها ثانية وضربها بحافره ضربةً عابرةً فجاء صوت خشخشة خافت وليس صوت الارتطام المعروف من طَرَق الحوافر على الصخر.

مرّت فترة بعد الظهيرة طويلة قبل أن تجرّ نفسها إلى حيث يمكن أن تمتدّ يدها إلى خُرَجها؛ ذلك أنها كثيرًا ما كان يتعيّن عليها أن تعود إلى الماء لتخفّف من الحروق التي بها ومن ألم كاحلها الخافق. رقدت وإحدى يديها على جلد الخُرَج الناعم، وفكّرت: لأوقد نارًا. لو أنّ بإمكانني أن أغلي شيئًا فأحوّله عجينًا بحيث يُمكنني أن أبتلعه ... ففتحت إحدى سدائل الخُرَج؛ وكان لا يزال به خبز، ووضعت في يدها وأمسكت به في الماء حتى شعرت أنه بدأ يفتت، ثم لعقته ببطء.

وبالفعل أوقدت نارًا؛ إذ وجدت طريقةً تُقحم بها حجرَ قدجها بين الأحجار حتى يتسنى لها أن تضربه بيدها السليمة؛ ولحُسن حظها، كان ثمة الكثير من الحطب بالقرب من شاطئ الجدول. إذ كانت الأشجار لا تزال تنمو هناك؛ لأنها كانت مَحَميّة بعض الشيء من وادي التنين بفعل الصخرة العالية التي كانت تحجب ماور عن موقع تخييم إيرين. وجدت بقايا نار مُخيمها، وبدت قديمة ومسفوعة؛ وخطر لها أنها لاحظت أن ماء الجدول يجري صافيًا مرةً أخرى، وتساءلت ثانيةً عن المدة التي رقدت خلالها في الجدول. ووجدت

صخرة مسطحة استخدمتها غطاءً، وبدأت عمليةً طويلةً من غلي لحم جافٍّ في صفيحة حتى صارت لينة بما يكفي لأن تأكلها. ولم تجرؤ على أن تجعل النار كبيرة؛ لأنها لم تقوَ على الذهاب بعيداً لإحضار الحطب اللازم؛ ولم تقوَ كذلك على أن تحتل حرارة النار. ونامت إيرين، أو فقدت الوعي مُجدداً؛ إذ كانت كثيراً ما تنجرف جَيئةً وذهاباً عبر حدود الوعي؛ ولم يَعد الإغماء وحده هو ما كانت تأتي به تلك الفَيَانات من الفراغ؛ إذ جلبت معها بداية التعافي. نزعَت إيرين الحذاء الطويل الرقبة عن قدمها اليمنى، وتحسَّست كاحلها بحذرٍ شديد، ولفَّته في شرائطٍ من قماش فائض، وربطت العُقَد بأسنانها ويدها؛ وأمَلت أن يكون ما فعلته شيئاً ذا نفع. ذكَّرتها الضمادات، إن لم يكن لها نفع آخر، بأن تُبقي قدمها ساكنة، وانحسر الألم إلى دمدمة خافتة.

ولم تنظر إلى ذراعها اليسرى إلا مرة واحدة، وأعيها ما رأت كثيراً حتى إنها لم تنظر إليها ثانيةً. لكن عدم نظرها إليها ذكَّرها بنفس ما كانت تُذكِّرها به ضُمادات قدمها؛ وانحسر ألم الحروق قليلاً، وكان يتعيَّن عليها بين الحين والحين أن تزحف عائدةً إلى الجدول لتنعق نفسها فيه. وفكَّرت في نفسها وهي ترتعش، كم سيمرُّ من وقتٍ قبل أن تمرض بفعل البرد؟ حتى الآن، وحيث كان جسدها يحاول أن يقاوم، أدركت إيرين أن الرقادَ في الماء البارد مدةً طويلة ليس بالأمر الحسن في العموم، وكانت أجزاء جسدها التي لم يلحق بها ضررٌ ترتجف من البرد. عطست كثيراً. وحدثت نفسها في ضجرٍ أن «هذا رائع»، ووقعت عيناها ثانيةً على الخُرج. كان من الصعب عليها أن تُفكِّر مما بها من ألم. ذهبَت أفكارها إلى الكينيت. الكينيت. لا يُمكن أن تُضرَّ المحاولة.

انتعش فيها الأمل فسَدَّ حلقها المتألم. زحفت إيرين نحو الخُرج وبسطت الحافظة الجلدية الطويلة التي احتفظت فيها بالكينيت؛ وشدَّت ذراعها اليسرى إلى الأمام وتركته يجثم على الدهان الأصفر الثخين. وأغمضت عينيها، محاولَةً ألا تُفْرِط في الأمل؛ إذ كانت تخشى أن يفقدها الألم صوابها عمّا قريب، ولم يكن بإمكانها أن تجد في نفسها من الطاقة ما يُعينها على تحمُّل خيبة أملٍ كبيرة كهذه. لكن وفيما كانت تُصارع نفسها تقلَّص الألم وانحسر وتلاشى أخيراً فأصبح شعوراً مُزعجاً بعدم الراحة. قالت في نفسها إنها تتخيَّل هذا، وفي ذلك كانت تُحاول أن تبقى ساكنة تماماً حتى لا تُعكِّر صفو حُلُم السكينة الجميل وغير المُتوقَّع هذا. فتحت إيرين عينيها. كانت ذراعها لا تزال سوداء مريعة المظهر. ورقدت إيرين ببطء شديد جداً جداً، حتى أصبحت وجنتها اليسرى على الدهان المضاد لنار التتين؛ وببطءٍ بدأ الألم في وجهها يقلُّ شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً. غطَّت إيرين في النوم، نوم

حقيقي، وكانت هذه أول مرة تنام فيها نومًا حقيقيًا عميقًا منذ المساء الذي تسلّمت فيه رسالة تور.

حَلَمْتُ بأنها استيقظت، راقدةً وذراعها اليسرى مُلتَفَّةٌ حول رأسها، ووجنتها اليسرى تضغط على الأرض. نهضت على كِلَا مرفقيها ولاحظت، دون أن يسترعي ذلك انتباهها، أن كلتا ذراعيها كانت قويةً ومتعافية. انتصبت إيرين في جليستها وأسقطت يديها بسهولة وفتور في جحرها. وفركت راحتيها معًا وفكّرت في انزعاج أنها قد راودها أكثر الأحلام بشاعةً بشأن تنينٍ ضخم جدًا ... وعندما أطرقت برأسها سقط شعرها أمامها أيضًا، ولاحظت أمرين؛ أولهما أن شعرها كان قصيرًا، يصل بالكاد إلى ذقنها. وقد أزعجها ذلك؛ إذ كانت تعرف أنها ما كانت لتقصّ شعرها البتة؛ كانت تيكًا مُتَعَنِّتَةً بشأن هذا، وكانت إيرين سرًّا فخورة قليلًا بأن شعرها كان أطول حتى من شعر جالانا، فكان يسقط مفروّدًا إلى قرب كاحليها، وكانت كثافته تُمدّد عَقَصَه في تَمُوجَات طويلة. كما كان شعرها الآن شبه مفروّد؛ وحين كانت أصغر سنًا وشعرها أقصر، كان شعرها مُجَعَّدًا بشدة. لكن أسوأ ما في الأمر أنه كان بلونٍ غير لونه الصحيح. كان لا يزال أحمر، لكنه كان داكنًا بلون الجمر المُحترق، وليس باللون المُمتنع للهب المتواثب. سيطر عليها الذعر؛ لم تكن تشعر بأنها في حالتها الطبيعية؛ لقد ماتت؛ أو ما هو أسوأ، أنها كانت لا تزال موجودة، هي إيرين، لكن حُلمَ التنين لم يكن حُلمًا على الإطلاق، وكانت إيرين الحقيقية لا تزال راقدةً في مكان ما بوجهٍ مُحترقٍ وذراعٍ مسوّدةٍ وكاحلٍ مكسور، وهذا الجسد الصحيح غير المتألم الذي تسكّنه الآن يخصُّ شخصًا آخر؛ وأنه لن يُسَمَحَ لها بالبقاء فيه.

جاءها صوتٌ يقول: «سأساعدك إن استطعت» لكنها كانت تحلم، ولم تستطع أن تتأكد إن كانت الكلمات قد قيلت جهراً. رفعت نظرها من حيث كانت تجلس مُتَكَوِّمةً على الأرض؛ وكان رجل طويل أشقرُّ يقف إلى جوارها. ركع الرجل إلى جوارها؛ كانت عيناه زرقاوين ورءوفَتين وحائرتين. قال الرجل: «أيتها الأميرة إيرين. تَدَكِّرِينِي؛ أَنْتِ في حاجة لي، وسأساعدك إن استطعت.» وبدا في عينيهِ الزرقاوين اختلاجٌ ثم اختفى. «وستعودين لدامار عونًا، وسأُخبرك بكيفية ذلك.»

قالت: «لا؛ لأنها تذكّرت ماور، وكانت تعرف أن ماور كان حقيقيًا، سواء كانت تحلم أو لا؛ وتوسّلت تقول: «لا، لا أستطيع. لا أستطيع. دعني أبقى ها هنا. لا تُعِدْنِي.»

تشكّل خطٌّ بين العينين الزرقاوين؛ ومدّ الرجل يداً نحوها، لكنه تردّد ولم يلمسها. «لا يسعني ذلك. بالكاد يُمكنني أن أبقيك هنا مدة حُلُم؛ حتى إنكِ الآن تنجّرِينَ عائدةً.» كان هذا صحيحاً. عادت رائحة الكينيت إلى أنفها ثانيةً، وعاد صوت الماء الجاري إلى أذنيها. سألت في يأس: «لكن كيف سأجدك؟» ثم استيقظت. فتحت عينيها ببطء؛ لكنها ظلّت راقدة في مكانها مدةً طويلة.

في النهاية بدأت تمشي ثانيةً، فكانت تتكئ كثيراً على عُصن غليظ وجدّته وشذّبت بهجيدٍ جهيدٍ إلى الطول المناسب. وكان يتعيّن عليها أن تسيرَ ببطءٍ شديد، ليس من أجل كاحلها وحسب، ولكن أيضاً لكي لا تهتزّ ذراعها اليسرى كثيراً؛ كما أنها كانت لا تزال تجد صعوبةً في التنفّس. فقد كانت تتألّم حتى حين كانت تتنفس أنفاساً ضئيلةً سطحية، وحين كانت تنسى وتستنشق من الهواء الكثير، كانت تسعل؛ وحين تسعل، كانت تسعل دمّاً. لكن وجهها وذراعها كانا يتعافيان.

وكانت قد اكتشفت أيضاً أن شعرها على جانب رأسها الأيسر كان قد احترق بفعل نفثة النار نفسها التي شوّهت خدّها. لذا أخرجت سكين الصيد، النصل الثلم ذاته الذي استخدمته عنوةً في صناعة عصاها، وقطعت بقية شعرها حتى لم يتبقّ من طوله ما هو أطول من عرض راحة اليد. شعرت أن رقبتها رشيقة بفعل خفة مفاجئة، وبدأ أن الريح تصفر في أذنها وفي أسفل رقبتها بأكثر مما اعتادت. وربما تكون قد بكت قليلاً على شعرها، لكنها شعرت أنها عجوز وكالحة ورثةً للغاية.

تفادت التفكير في شكل وجهها بعدما قصّت شعرها. وركّزت أفكارها على أشياء أخرى وهي تدهن خدّها بالكينيت وترتدي الثياب وتُعيد تضميد ذراعها. ولم تفكر على الإطلاق بشأن كونها على استعدادٍ لأن تواجه الآخرين مجدداً، إلا من أجل أن تنكمش ذهنيّاً خوفاً من الفكرة وتطردها من رأسها. لم تكن إيرين مغرورةً مثل جالانا، لكنها دائماً ما كرهت أن تكون محطّ الانتباه، لكنها كانت بارزة بصورةً تلقائية؛ حيث كانت الصهباء الشاحبة البشرة الوحيدة في بلادٍ نساءٍ ذوات شعر داكن وبشرة بلون القرفة؛ ولم تستطع الآن تحمّل أن جراحها ستجعل مظهرها مشوّهاً ومُنْفَرّاً أيضاً. كان التعامل مع الناس يتطلب قوةً، قوةً لكي تُحقّق نفسها بصفاتها الأميرة الأولى، قوةً لأن تكون الشخصية العامة التي لم يسعها إلا أن تكونها؛ ولم تكن لديها أيّ قوة مُتبقية. حاولت أن تقول لنفسها إنها

قد اكتسبت تلك الجراح بشرف؛ وإنها حتى فخورة بها، وقد أنجزت بنجاح عملاً بطولياً؛ لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. إذ حثَّتها غريزتها على الاحتجاب.

كانت قد فكَّرت باقتضابٍ وفي دُعر أن القرويين الذين أرسلوا الرسول إلى الملك ذلك الصباح قبل مدَّةٍ طويلة قد يرسلون رسولاً آخر ليأتي بخبرٍ ما وقع للأميرة أو التنين؛ لكنها أدركت بعد ذلك أنهم لن يفعلوا. فلو أن الأميرة قتلت التنين (وهذا مُستبعد)، لأتت، من دون شك، وأخبرتهم. وإن لم تفعل، لافترض أن التنين قتلها، ومن ثمَّ سيبتعدون قدر المُستطاع. في نهاية المطاف نفذ صبرُها. فقالت لثلاث: «ربما ينبغي أن نعود إلى الديار». وتساءلت عما حلَّ بأرلبيث وتور والجيش؛ قد يكون كل شيء انتهى الآن، وقد تكون دامار في حالة حرب أو — تقريباً جميع الاحتمالات مطروحة. لم تعرف كم مرَّ عليها في وادي التنين، وبدأت ترغب بشدة أن تعرف ما كان يحدث في العالم الخارجي. لكنها لم تكن تملك الشجاعة بعد لتغامر بالخروج من قبر ماور الأسود، إلى حيث سيحتتم عليها أن تواجه الناس ثانيةً.

في تلك الأثناء كانت تسير أبعدَ قليلاً في كل يوم؛ وذات يوم غادرت ضفةَ الجدول أخيراً، وسارت وهي تعرُّج حول الصخرة المرتفعة التي كانت تفصل الجدول عن الوادي الأسود حيث يرقد ماور. وبينما كان صوت الجدول ينحسر ظلَّت تنظر إلى قدميها؛ كانت إحدى قدميها في فردة حذاء طويل الرقبة، وكانت الأخرى ملفوفة في خرق رثة وقذرة؛ وكانت إحدهما تخطو خطوةً أوسع من الأخرى. وظلَّت تُراقب تقدُّم قدميها المتفاوت حتى تجاوزت الحاجز الصخري، فمرَّت بوجنتها نسمةً صغيرة تحمِل رائحةً احتراق، وصار صوتُ قدميها صوتَ انزلاقٍ وانسحاقٍ جراء سيرها على الرماد والجمر المُطفأ. فرفعت ناظريها.

لم تكن آكلات الجيف قد أكلت كثيراً من التنين الميت. كانت عيناه قد اختفتا، لكن جلده الغليظ كان أقسى من المخالب والأسنان العادية. ومع ذلك بدا لها ماور صغيراً؛ إذ كان زاوياً ومنكمشاً، وكان جلده الشخين أكثرَ تجعداً. عرجت إيرين ببطء مقتربةً منه أكثر، وانعطفت الزوبعة الصغيرة فمرَّت بوجنتها الأخرى. ولم تكن ثمة رائحة لحم مُتعفن في الوادي الصغير، إلا أن الشمس كانت تنهال عليها من أعلى فجعلت وجنتها تختلج ألماً من الحرارة، وذلك رغم دهانها بالكينيت. كانت رائحة الوادي كريهة، لكن بسبب الدخان والرماد؛ إذ كانت رقائق سوداء صغيرة لا تزال عالقة في الجو، وحين مرَّت النسمة على وجهها بأكمله علق الرماد في حلقتها وسعلت. سعلت إيرين وانحنت على عصاها التي تتوكأ

عليها، وشهقت وسعلت ثانيةً، حينها نفخ تالات — الذي لم يُرد أن يتبعها إلى وادي التنين لكنه أيضًا لم يُرد أن يتركها تغيب عن نظره — في قفاها العاري من الشعر ولمس كتفها بأنفه. التفتت إيرين نحوه وألقت بذراعها على حاركه وضغطت بوجنتها على رقبتها، وأخذت تتنفس عبر شعر عُرْفه الجميل حتى خفَّ السعال وتمكَّنت من الوقوف بنفسها ثانيةً.

انبسطت رقبةُ التنين الملتوية كالثعبان على الأرض، وكان خَطْمه الأسود الطويل يبدو كسلسلة نتوءات من الصخور السوداء. وكان الرماد أكثر كثافة حول التنين مما كان في بقية أرجاء الوادي الصغير، وذلك رغم نسمة الريح؛ لكن حول التنين رفعت النسمة غمامةً من الرماد أخذت تدور في دوامة وترتفع وتتموج وتتقلص حتى أصبح من الصعب معرفته أين ينتهي التنين وتبدأ الأرض، تمامًا كما كان الحال حين توجَّهت هي وتالات في البداية لمواجهة الوحش. وفيما أخذت إيرين تنظر، طافت نسمةٌ صغيرة سريعة أخرى بطول جسد التنين من أعلى كتفه وحتى ذيله الضخم؛ فهبَّت موجةً كبيرة سوداء من الرماد في أثر النسمة فتفرقت وتذرَّت لتجوب أرجاء بقية الوادي. فخبَّأت إيرين وجهها في عُرف تالات مرةً أخرى.

وحين رفعت وجهها حدَّقت في ماور، تنتظر أن تُفكر في شيء، أو أن تشعر بشيءٍ من رؤية الشيء الذي قتلته والذي كاد يقتلها؛ لكن ذهنها كان خاويًا، ولم يكن بها شيءٌ من ضغينة أو مرارة ولم يتبقَّ بداخلها أيُّ إحساس بالنصر؛ لقد أحرقت الأكم كلَّ هذا وأزاله. ولم يكن ماور أكثر من كومة سوداء قبيحة ضخمة. وفيما أخذت تُحدِّق فيه، أثارت نسمة صغيرة أخرى زوبعةً أو إعصارًا صغيرًا من الرماد، تمامًا عند طَرَف أنف التنين. ولمع شيء على الأرض هناك. شيء أحمر اللون.

فرمشت إيرين بعينها. هدأت الزوبعة وتساقط الرماد في منحنيات ودوامات جديدة؛ لكن إيرين ارتأت أنه لا يزال بإمكانها رؤية شيءٍ صغير بين الرماد، شيء صغير يلَمَع بلونٍ أحمر خافت. فتقدَّمت نحوه ببطءٍ وهي تعرُّج، وتبعها تالات وقد أعاد أذنه للخلف قليلًا ليُظهر استنكاره.

وقفت على قدَم واحدة ونبشت بعصاها؛ فضربت الشيء الأحمر الصغير الذي انبثق من بين الجمر المُطفأ بفعل الضربة وشكَّل في الهواء دائرةً نارية صغيرة وسقط على الأرض ثانيةً، فدار الرماد وهو يرتفع عن الأرض في التيار الهوائي الذي تسبَّب به ذلك الشيء وتساقط في تموجات من حوله، وكأن حجرًا قد ألقي في بركة ماء.

واجهت إيرين صعوبةً في الانحناء، لكن ثلاث، الذي كان قد تعودَ على البُطء الجديد في حركة سيّده، أتى ووقف إلى جوارها وسمح لها أن تتمسك بيدها بإحدى قائمتيه الأماميتين وهي تنزل نحو الأرض. والتقطت الشيء الأحمر؛ كان صلباً ويتلألأ بلونٍ أحمر داكنٍ شفاف، وكأنه جوهرة. فهمست: «لا بأس. لا يُمكنني أن أخذَ الرأسَ تذكّاراً هذه المرة؛ لذا سأخذ هذا. أيّا كان.»

ودسّت الشيء في مقدّمة سترتها؛ حيث كانت ذراعها المربوطة بمثابة حمّالة له، ثم رفعت نفسها على ساق ثلاث الأمامية ثانية. كان ثلاث قد أصبح مُتمرساً في كونه مساعداً لعاجزة، حتى إنها كانت تسند عصاها على جسده فلا يتحرّك هو حتى تأخذها في يدها ثانية، حتى لا تحتاج إلى أن تلتقطها من فوق الأرض.

بعد بضعة أيام من عثورها على حجر التنين الأحمر بحثت حولها عن شيء مرتفع بما يكفي لأن تمتطي بمساعدته ظهر ثلاث، ومُنخفضاً بما يكفي لأن تتمكّن من الصعود عليه أصلاً. استغرق هذا بعضَ الجهد. وأخيراً أقنعت ثلاث — كان على استعدادٍ لأن يقتنع بمجرد أن أدرك الشيء الغريب التالي الذي أرادته منه — بأن يقف في الجدول بينما تخطو هي نحو الضفة وتتوازن بصورةٍ غير مُستقرة على رديّها وتتعلّق بإحدى يديّهما بغصنٍ ضخّم طويل يتدلّى من شجرة تنمو بالقرب من الضفة الضحلة؛ وتُنزل جسدها بأبطأ ما يمكنها على ظهره العاري من السرج. أطلق ثلاث صهيلاً صغيراً ينمُّ عن سعادته لوجودها على ظهره ثانية، وخطا خطواتٍ سلسلة كأنه يسير على الحرير عندما حمّلها؛ وجلست على صهوته مُستقيمةً بأكثر قليلاً مما أمكنها وهي تقف على قدَميها، وشعرت بأنها ابنة ملك أكثر قليلاً مما شعرت قبل مدة طويلة. في ذلك اليوم امتطّته إيرين جيئةً وذهاباً على الضفة الجدول، لمجرد لذة التحرك من دون أن يؤلّمها كاحلها الأيمن؛ وفي اليوم التالي سرّجته وجربّت الأمر ثانية، وفي اليوم الذي يليه سرّجته وحزمت بقيةً أمتعتها حزماً غير مُتقن خلف السرج، وغادرا الجدول ووادي ماور إلى الأبد. وكان الحجر الأحمر يضرب أضلاعها برفق فيما تأرجح ظهرها للأمام والخلف تماشيّاً مع إيقاع خطوات ثلاث المُتمهّلة الواسعة.

الفصل الرابع عشر

استغرق الأمر ثلاثة أيام من سير ثلاث المتأني ليصلا إلى تقاطع الطُّرق الذي افترقا فيه عن دليلهما ليُكمِّلا طريقهما ويواجهما التَّنين؛ ثلاثة أيام كانت صعبةً لأنَّ إيرين لم تقوَ على النزول عن صهوة ثلاث إلا حين تجدُ شيئاً بالقرب من موقعٍ للتخييم يمكن أن يُساعدَها في النزول والعودة على صهوته في الصباح التالي.

وكانت في كل مساءٍ تشعر بإنهاكٍ شديد؛ وكان كاحلها يخفق من الألم لبقائه مُعلِّقاً بصورةٍ رأسيةٍ فترةً طويلة؛ وأدركت أنها واهنة أكثر حتى مما كانت تظن. كان من الصعب أن تحمل نفسها على تناول الطعام؛ فلم تشعرُ بالجوع مُطلقاً، وكان تناول الطعام يؤلمها، فكانت تأكل وجوباً لأن تناول الطعام هو ما يفعله المرء؛ لكنها كانت تسعد كثيراً حين ترى ثلاث يركب. وقد أكل ثلاث كلَّ شيءٍ يُمكنه أكله على ضفاف الجدول، بما في ذلك شيء من لحاء الأشجار، كما أخذ يرتع بحماسةٍ كبيرة في أرجاء العشب النَّضر الذي كانا حينئذٍ يُخيمان إلى جواره.

في مراتٍ ليست بالقليلة في أثناء النهار كانت تعود إلى رُشدها فتتنظر حولها وتُدرك أنها سرحت بأفكارها. أحياناً كانت تستغرق دقيقةً أو دقيقتين فقط لتتعرَّف على الأشجار من حولها، الأشجار الدامارية الشائعة التي كانت أشكالها وأنماطها مألوفاً لها منذ طفولتها. وبين الحين والآخر كانت تستفيق فتجد نفسها منهاراً على رقبة ثلاث. لكنه لم يكن يتركها تسقط عنه، ولم تسقط هي عنه. كان يحملها في ثبات، وهو مُحترس وأذنه منتصبه؛ وبدا أنه لم يكن يشعر بأي تردُّد بشأن الاتجاه الذي كانا يَمضيان فيه.

همست إيرين لثلاث حين وصلا في نهاية المطاف إلى تقاطع الطُّرق، وكانت أذنه منتصباً جهةً الخلف ليستمع لها: «حسناً، أنت تعي ما تفعل يا صديقي. لستُ أنا مَنْ أوصَلنا إلى هنا.»

وحين عاودا رحلتهم من تقاطع الطرق في الصباح التالي كان الطريق مفتوحاً أمامهما. لم تتذكّر إيرين أن الممرّ الضيق قد أصبح طريقاً صغيراً بتلك السرعة؛ لكن ذلك كان حين كانت إيرين لا تزال تتمتع بشعرها وجميع أطرافها ولم تكن المساحات المفتوحة تمثل أيّ خطر عليها. كانت الجبال شديدة الانحدار عن شمالهما، لكن عن يمينهما نظرت عبر سياجات إلى الحقول المزروعة، فكانت المحاصيل تتموّج بألوان الأخضر والذهبي تحت ضوء الشمس. وحاولت أن تجعل نفسها تشعر بشعور أفضل بأن تُفكّر في أنها لولا قتلها ماور — بغضّ النظر عما كلّفها ذلك — لكانت المحاصيل قد أصبحت سوداء الآن، ولكان الفلاحون طعماً للتنين. لكن شعور الارتفاع كان فاتراً، ولم تستطع أن تشعر به؛ إذ كانت مُتعمّقة في إحساسها بالرهبة مما هو آت.

في تلك الظهيرة أخذت إيرين تنجرف بين الغياب عن الإدراك والعودة إليه ثانية، وعُرف ثلاث يلتفّ حول يدها السليمة حتى لا تسقط نحو الأمام فتؤذي ذراعها المحترقة، وذلك حين توقّف ثلاث فجأةً وتبيّس مكانه — وصهل. هزّت إيرين نفسها لتستيقظ لدى سماعها صوته؛ وصهل ثلاث ثانيةً وارتجف، وعرفت أنه كان سيشبّ ويصبح مُحَيّاً أو مُتحدّياً كما دُرّبَت جياد الحرب الدامارية، لكنه لم يفعل ذلك من أجلها، وأغلقت عينيّها قليلاً على دموع كانت من الإنهاك والشفقة على نفسها.

لم يكن باستطاعتها رؤية مَنْ يقترب منها؛ أخبرها ثلاث أنه لم يكن مجرد شخص عاديّ، إنما كان أحداً يعرفه، ومن ثمّ فلا بد أنه كان من المدينة. لكن رؤيتها لم تتحسنّ مطلقاً منذ سقطت في نار التنين، وكانت عينُها اليسرى تحرقها وتتسرّب منها الدموع فيما كانت تحاول أن تُحدّق وتتفحص الطريق. أُصيبت بدوّار بسبب الجهد الذي بذلته، فكان الطريق يرتفع ويتموّج في عينها. لكنها رأت بعد ذلك أن الطريق لم يكن يتموج، إنما همّ الفرسان على الطريق والذين كانوا مُقبّلين عليها عدّواً على صهوة خيولهم؛ وحين صهل ثلاث ثانيةً، جاء الردّ من أحدهم، ورأت رأس الجواد القائد يهتزّ نحو الأعلى وهو يصهل، وفي نهاية المطاف عرفته: إنه كيثاذ. وهذه دجيث فرس تور تعدو إلى جانبه.

رفعت إيرين رأسها في فزع، فتأثّرت قشور الجروح على وجهها وألمتها. وامتدّت يدها اليمنى تُعدّل ياقة سترتها، وسحبت ثنيةً من رداؤها على رأسها لتغطّيها؛ وتلمّست بأصابعها بسرعة الجانب الأيسر من رأسها حيث نبت شعر.

وصل إليها والدها وابن عمّها والفرسان معهما على الفور تقريباً، ونادى عليها أرلييث لكنها لم تُجبه؛ لأن صوتها الأجش لم يكن ليُسمَعَ مع صوت الحوافر؛ ثم جاء تور إلى جانبها

وقال في قلق: «إيرين، هذا أنت؟» لكنها لم تُجِب من فورها حتى مدَّ يده وأمسك بها — من ساعدها الأيسر. فصرخت، عدا أنها لم تتمكَّن من الصراخ، لكنها أطلقت صوتاً أجشَّ فظيلاً، فأبعد تور يده وقال شيئاً لم تسمعه؛ لأن صرختها جعلت تسعل، فأخذت تسعل ولم تستطع أن تتوقف، وبدأ النزيف، وسقطت نِقاطٌ من الدم على رقبة تالات، وارتجف جسدها، وسقطت العباءة عنها إلى الأرض، وجمد تور وأرلييث مُتَيَبِّسَيْنِ على جواديهما يُراقبان في عجز.

لم تتذكَّر إيرين إلا القليل من بقية الرحلة. حاولوا أن يُجهِّزوا لها حمَّالة، حتى تقطع الرحلة راقدة، لكن لم تجد الراحة وهي راقدة مُدعنة، ولدى أول توقُّفٍ لهم جاهدت من أجل أن تترك النقالة وذهبت مُتجهمةً إلى تالات الذي كان يحوم بالقرب منها يتساءل عمَّا فعل حتى تُبعد عنه سيدته. علَّقت إيرين ذراعها على رقبته وخبَّأت وجهها في عُرفه، متجاهلةً ملمس خُصلات شعره على وجنتها اليسرى. تبعها تور على الفور. «إيرين...» كان صوته مُفعمًا بدموع مكبوتة وهو يُنادي عليها، فاشتدَّ إحكام أصابعها على عُرف تالات، تالات العزيز الجذل الذي شعر أن ليس ثمة خطبٍ جسيم ما دامت تمتطيه. وتحدَّثت إيرين وفمُّها في رقبته: «لا أجد راحةً في حملي. أفضِّل أن أمتطي الجواد.» وهكذا امتطت الجواد وتقدَّم المرافقون كُلُّهم على الوتيرة المتأنية للغاية التي كان يسير بها تالات، ومرَّ وقت طويل قبل أن يصلوا إلى المدينة.

وأخيراً حين برزت المدينة أمامهم من الغابة، تحسَّست تبغي عباءتها، فسحبتها للأمام لتُوارِي وجهها مُجدداً، وكان والدها، الذي كان راكباً إلى جوارها، يُراقبها. نظرت إيرين إليه، وتركت العباءة تنسلُّ للوراء إلى حيث كانت، وأقامت نفسها على السرج؛ وتذكَّرت وصفَ موت جورثولد في كتاب «تاريخ أستييث»، وكيف حُمِل، وهو ينزف من جراح عديدة، إلى داخل المدينة، حيث حيَّاه القوم جميعاً باعتباره مُنقذهم؛ ومات في قلعة الملك، الذي كان ابن عمومته؛ وحزنت دامار كلها على موته.

ارتسمت على فم أرلييث ابتسامةٌ مريرة نوعاً ما. وقال لها: «أنت تدخُلين المدينة دخول الأبطال؛ لقد سبقتك أنباء نصرِك، والرسول الذي جاء في المرة الأولى بقصة استيقاظ التنين الأسود موجود هنا مع مُعظم أهل قريته، وهم يتنافسون جميعاً فيما بينهم في سردِ مدى ضخامة ماور وشَّره.»

«كيف عرفوا؟»

تنهَّد أربليث. «لم أسأل. التقينا بالعديد منهم ونحن مُتوجَّهون شرقًا نحو المدينة، ولم ننتظر لنسمع التفاصيل. انظري من بين أذنيّ ثلاث؛ إنه يعرف كل شيء عن هذا النوع من الأحداث؛ كل ما عليك فعله هو أن تنتصبي في جِلستك. إنما نحن حُرَّاس شرفك.»

بدأت إيرين تقول: «لكن ...» إلا أن أربليث أشاح عنها وبالفعل، بينما كانوا يقتربون من البوابات الكبيرة، تراجع هو وتور، وتظاهر ثلاث بالتبخُّر، لكنه كان يتظاهر فقط حتى لا يهزُّ راكبته. أما هي ففعلت كما قال لها والدها، فجلست مُستقيمة وساكنة على سرجها، ولم تنظر من بين أذنيّ ثلاث تمامًا حيث يمكن لها أن ترى شيئًا، وإنما نظرت إلى أذنيه وإلى رأسه، حيث نما شعر ناصيته وأخذ يتطاير في النسيم وهو يهزُّ رأسه. كانت الشوارع هادئة، لكن شاهدهم الكثيرون وهم يمرُّون بهم؛ ومن زاويتي عينيها كانت ترى الكثير من مشاهديها يلمسون جباههم بظهور أيديهم ويمدُّون أصابعهم بتحية أهل دمار إلى عاهلهم؛ لكن أربليث كان يسير بجواده في أعقاب ابنته. وسرت بينهم نسمة نفشت شعر إيرين التالف، وسطعت الشمس بلا هوادةٍ على وجهها ذي الندوب؛ لكنَّ النظارة كانوا لا يزالون صامتين ولم يأتوا على أي حركة سوى تحريك أياديهم اليمنى ومدَّ أصابعهم.

حين وصلوا إلى ساحة القلعة، كان ثمة صفوفٌ كثيرة من جيش الملك تقف في مربع ينقصه ضلع، تاركين مساحةً كبيرة بما يكفي لحرس الشرف كي يدخلوا خلف ابنة الملك حين توقَّف ثلاث. وأمامهم على الأرض كانت رأس ماور، وحول الرأس كان المزيد من الرماح يتساقط ويتجمّع في كُتَلٍ صغيرة. فغضَّت إيرين الطُرف عن التذكّار الذي كان أحد آخر قد عاد به من أجلها. كان عظم الجمجمة حول محجري العينين الفارغتين قد تجلَّى عاريًا عن اللحم تمامًا؛ وكان العظم أسود. مرَّت عيناها ببطء على العظام الأنفية الطويلة والفق المسنن وأدركت أن قدرًا كبيرًا من عظام تلك المنطقة قد أصبح باديًا؛ فلم يبقَ من الجلد الصلب القاسي إلا شرائح مُهترئة، وبينما سرّت الريح على الرأس ونفضت بعض ذلك الجلد عن العظم، كان الجلد يقع على الأرض وقد استحال رمادًا. وكان الفكَّان المنفرجان بتكشيرتهما الكثيبة يُروّعانها.

أمسكت عُرف ثلاث بيدها اليمنى وانزلقت ببطء على جانبه، فلمست الأرض بقدميها اليسرى أولاً. ثم جاء أربليث إلى جوارها وأخذ بيدها مُجتازين جمجمة ماور المكشّرة، وتفرَّق الجنود في صمتٍ مُسرّعين، وكأنه تدريبٌ عسكري، ووصلا إلى باب القلعة؛ ثم التفت إليها أربليث وحملها بين ذراعيه وقطع بها الأروقة الطويلة وصعد بها السُلّم إلى غرفتها، وسلّمها إلى تيكّا.

بعد ذلك زارها الكثير من المُعالِجين؛ لكن لم يستطع أيُّ منهم فعل شيء لجروحها أفضل مما فعل الكينيت، وكان كاحلها يُشفى من تلقاء نفسه، ولم يستطيعوا فعل شيء لسعالها ولا لصعوبة التنفُّس لديها. أمضت وقتها في الفراش، أو في مقعد النافذة العميق الذي يطلُّ على مُؤخر الفناء، باتجاه الإسطبلات. كان هورنمار يقود تالات إلى تحت نافذتها بين الحين والآخر، وبينما لم تستطع أن تُنادي عليه من فوق، كان يُريحها أن تراه. وحاولت أن تتناول الطعام من أجل خاطر تيكا؛ ولم تُدرك من قبل أن طعامها أصبح بلا طعم مُنذ أن ذاقَت نيران التنين، لكنها أصبحت تعرف ذلك الآن. وأُخرجت حجرَ التنين من الجيب الذي كانت قد صنعته بعقدة من القماش، ووضعتَه على الطاولة بالقرب من فراشها؛ وبدا وكأن الحجر يزداد لمعاً وأن به ناراً حمراء يضطرب لهيبها حين كانت تُحدِّق فيه.

في نهاية المطاف تمكَّن منها التبرُّم والجَزَع، كما حدث في وادي التنين، فبدأت تتسلل في أرجاء القلعة وتزور تالات في الإسطبل. وكان قد استعاد مربطه القديم، وكان كيثتاذ، جوادُ أربيث الفتي، قد نُقل في واقع الأمر إلى مربطٍ آخر لكي يمنحوا سالفه مكانته المرموقة. وكان تالات واعياً تماماً بما استعاده من كرامة ومقام. وتحسَّست إيرين ردِّه بأصابعها في حذر؛ كانت الندبتان الناتجتان عن إصابته بنار التنين قد اختفتا، وإن كان لا يزال باستطاعتها رؤيتهما؛ ذلك أن الشَّعر كان قد عاد ينمو في مكانهما في الاتجاه المعاكس لاتجاه الشَّعر حولهما.

وكان شعرها ينمو نمواً حثيثاً وإن كان بشكل غير متساوٍ، وذات يوم مشَّطت تيكا شعرها من بقعةٍ وسطى في أعلى رأسها وقصَّته في شكل قوس مهنِّدٍ حول وجهها؛ ذلك أن شعرها لم يعد مجعداً. نظرت إيرين إلى نفسها في المرآة وضحكت. وقالت: «أشبهُ الصَّبية». فردَّت تيكا وهي تكنس قصاص الشَّعر: «كلَّا. تُشبهين فتاةً لها قصةُ شَّعر صبي». حدَّقت إيرين في نفسها. كانت قد تفادت النظرَ في المرايا كما تفادت الجميع عدا تور وتيكا ووالدها، والمُعالِجين الذين كانوا يُرسلونهم، والذين لم تستطع التخلُّص منهم؛ والآن بعدما شجَّعت نفسَها على النظر في المرآة كانت مندهشةً مما رأت. فالجروح الملساء على وجنتها اليسرى، وبعض الرُّقَط التي تُشبه النَّمش على الجانب الآخر من وجهها، والتي هي موضع وقوع رذاذ دم التنين الساخن، كانت باديةً لكنها لم تكن شنيعة المنظر. كانت فروة رأسها لا تزال رقيقة على الجانب الأيسر من رأسها، وكان يتعيَّن عليها أن تستخدم فرشاة شعرها بحذر؛ لكن شعرها كان يُعاود النمو بنفس كثافته من قبل، وإن كان قد أصبح داكناً أكثر ويكاد يكون مُسترسلاً. كان يبدو على وجهها الشحوب والإنهاك، عدا من هاتين

البقعتين الحمراءين اللتين تقعان في أعلى عظام وجنتيها؛ وكان ثمة خطوط على وجهها لم تكن موجودة من قبل، وبدت عيناها عجوزتين بعمر أرلبيث. فقالت: «أشبه أُمي كثيرًا الآن، أليس كذلك؟»

توقفت تيكا وقطعة القماش التي استخدمتها لجمع قصاص الشعر تتدلى من يدها. وأجابتها: «بلى».

وفي الصباح التالي ذهب لتتناول الإفطار مع والدها ثانية، وكان تور هو الآخر هناك، ولم يسعه إلا أن يهّب من مقعده ويحتضنها. كان مسرورًا جدًا بأن يراها تسير، وبأن شعرها نما ومُشط بانسيابية حول وجهها، حتى إنه كاد ينجح في أن يصرف فكره عن مدى ضالة جسدها وهو يحتضنها، ومدى الضعف الذي كانت عليه؛ وأن كل نفس تتنفسه كان يبدو أنه يجعلها تهتز، كما تهزُّ الريح شتلة صغيرة. ابتسمت له إيرين، ورأى تور البقع الحمراء على عظام وجنتيها لكنه لم ينظر إلا إلى ابتسامتها.

وسألت إيرين عن نيرلول، فقال أرلبيث إنه كان متواضعًا — وليس رعيديًا — بطريقة كرهها أرلبيث أكثر حتى من تهديده المتعجرف المعتاد؛ بدا وكأن التهديد بالانفصال لم يحدث بالمرّة. كان نيرلول قد بدا مضطربًا، فكان ينظر خلفه كثيرًا، ويجفل من أصوات لم يكن يسمعها أحد سواه. واعتذر على ذلك، ومع أنه لم يكن يحصل على قسط كافٍ من النوم، بالإضافة إلى حدوث إغارات كثيرة جدًا على حدوده، فقد بدا ما يستطيع فعله بشأن ذلك محدودًا للغاية. ردّ أرلبيث، وجيشه من خلفه، بالكلمات والتطمينات المتوقعة التي كانت مناسبة اجتماعيًا وسياسيًا في هذا الموقف، وبعد أقصر زيارة مُمكنة بما يتماشى مع قواعد الكياسة عاد إلى الديار تاركًا حاميةً من جيشه لتُساعد نيرلول في مراقبة الحدود بالقرب من أرضه. بدا نيرلول مُمتنًا بصدق، وذلك جعل أرلبيث أكثر قلقًا؛ لكن لم يكن باستطاعته فعل المزيد.

قال أرلبيث: «ليس لديّ شك في أننا استُدرجنا حينها بعيدًا عن المدينة لغاية ما، وأفضل ما أمكنني فعله هو العودة بسرعة على قدر ما يمكن للجياذ. وكدت أنسى أمر ماور».

غمغم تور: «أنا لم أنس أمره»، وتحركت عيناها نحو وجه إيرين بحركة سريعة ثم عادت لتُشيع عنها، وعرفت إيرين أنه كان قد ظنَّ أنها ستعود برفقة الرسول وستواجه التنين الأسود وحدها.

عبس أرلبيث وهو ينظر في كأسه. وقال: «لكن إن كانت الغاية الوحيدة هي جعل التنين الأسود يُهاجمنا، فلماذا إذن لا يزال يكتنفنا الإحساس بأن مصيرًا مظلمًا ينتظرنا؟ فهذا ما أشعر به».

فقال تور: «أجل.»

ساد الصمت بينهم، ثم قال أربليث أخيرًا: «لا يسعنا إلا أن نأمل أن الأميرة إيرين قد عطّلت خططهم» — وبضمير الغائب «هم» كان مُستمعوه يعرفون أنه يقصد الشماليين — «بحيث يكون لدينا ما يكفي من وقتٍ للاستعداد وما يكفي من قوة في وضع الاحتياط.» ولم يُخبرها أربليث ولا تور قطُّ بما فكّرَا فيه حين وقع نظرها عليها للمرة الأولى، حين كانت محدودةً ومصابة بحروق وتسعل دمًا على رقبة ثلاث البيضاء؛ ولم تسألها إيرين. وجرى كلُّ ما قيل بشأن هذا الأمر في صباح ذلك اليوم نفسه؛ إذ قال أبوها مُتجهماً: «تدنين لي بعقابٍ على حملكِ سيف الملك دون أمرٍ منه، أيتها الأميرة إيرين.» كانت إيرين تُفكّر في هذا الأمر كثيرًا في الفترة الأخيرة، فأومات. وقالت: «بانتظارٍ أمرك.»

أحدث تور جلبه، فأشار له أربليث أن يصمت. وقال: «عقابكِ أن تطلي حبيسة المدينة وألا تحملي سيفكِ مدةً موسمين، ستة أشهر، وليس أقل من ذلك. ولقد تولّى ماور ذلك نيابةً عني.»

أحنت إيرين رأسها؛ ثم جاءت إحدى الخادومات بشراب مالاك طازج وخبزٍ صغير ساخن، فشغلوا أنفسهم بتمرير الشراب والخبز بينهم، وكان هذا هو آخر العهد بالأمر. كانت إيرين الآن تضع الحليب في شراب المالاك الآن، كي لا يتعيّن عليها أن تنتظره حتى يُصبح معتدل السخونة من تلقاء نفسه فيلاحظ الآخرون نفاد صبرها؛ وتلك عملية طويلة في قلعة الملك، حيث كان الشراب يُقدّم في أكواب خزفية ثقيلة وضخمة لها قواعدٌ عريضةٌ وغليلةٌ وحوافٌ ضيقةٌ ومستدقةٌ. ولم تكن تُحب طعم الشراب كثيرًا — إذ كان من المفترض بشراب المالاك أن يكون لاذعًا وكان الحليب يُخفّف تلك اللذوعة — لكن كان ثمة تنازلاتٍ أسوأ عليها أن تقدّمها.

سألها أربليث متى يُمكنهم أن يُقيموا مأدبةً على شرفها، فطرفت بعينها وهي تنظر إليه في بلاءة وتُفكّر في نفسها، عيد مولدي لن يحين حتى ...؟

فقال هو برفق: «ماور. نرغب أن نُكرّمكِ من أجل قتلك ماور.»

كان كلُّ من تور وأربليث يعلم أنها لا تريد شيئًا من هذا القبيل، لكنها قالت مُبتسمة: «شكرًا لك. حدّد يوم ذلك.»

كان الصمت الذي خيّم على القاعة الكبرى في تلك الأمسية حين دخلتها أسوأ حتى مما تخيلت. كان ينبغي أن يكون الأمر مختلفًا بعضَ الاختلاف عمّا كان عليه من قبل؛

ذلك أن حاشية والدها لم تكن فيما مضى مرتاحة قط في وجود ابنته؛ لكن الحال مع ذلك كان مختلفاً. كان للصمت المخيم طنينٌ في رأسها، وصارت رؤيتها الضعيفة أضعف، حتى أضحي الناس من حولها هياكل مبهمة مكتسبة بألوان ملابس البلاط الملكي الزاهية. ارتدت إيرين فستاناً طويلاً بلون بني له ياقة عالية وأكمامه تتدلى متجاوزةً رسغها؛ ورغم كثرة التطريز فيه، كانت الخيوط باللونين الأسود والبني الداكن، ودخلت عليهم حاسرة الرأس ولم ترتد سوى خاتم واحد في يدها اليمنى. نظرت إيرين حولها فتحوّلت الهياكل عنها ببطء، واتخذت مجلسها إلى جوار أبيها. عاد الحديث يدور، لكنها لم تسمع منه كلمات؛ بل سمعت الخوف المضطرب والمتقلب المتواري وراءه، وفكرت في هدوءٍ في نفسها: إنني أنا من يخافونها.

كانت جمجمة ماور القبيحة السوداء قد علقت عالياً على أحد جدران القاعة الكبرى، التي يعادل ارتفاع سقفها ثلاثة طوابق. كانت الجمجمة قد وُضعت في مكانها هذا بتعليماتٍ من أحد آخر سواها؛ لأنها لم يكن لها علاقة بهذا الأمر، ولو سُئلت لما أرادت لها أن تكون موجودةً هناك. كانت الجمجمة ضخمة الحجم حتى في القاعة الكبرى؛ نظرت إلى الجمجمة واستطاعت أن ترى بوضوح، فارتاعت من هذا. بدا وكأن الجمجمة تقول لها: أنا تجسيد خوفهم، لأنك جرؤت على قتلي.

قالت الجمجمة: «أنا تجسيد خوفهم.»

فأجابت إيرين: لكنني عرجاء وقعيدة جرّاء لقائنا؛ أنا بشر مثلم، فقد أصبت بجروح شديدة.

ضحكت الجمجمة؛ وكانت ضحكتها على هيئة تموجات صمتٍ ثقیل كتمت صوت الحديث الملتبس الذي يدور في القاعة؛ لكن لم يسمع تلك الضحكة أحدٌ سوى إيرين. صحيح، لكنك نجوت، وقتلتني؛ وهذا كافٍ، بل وأكثر من كافٍ؛ لأنني كنتُ ضخماً كالطود وربما كنتُ سأبتلع دماراً بأكملها في نهاية المطاف. القرويون الذين رأوني قبل أن تأتي — والرجل الذي أرشدك إليّ — كلهم يقولون إنني حين كنتُ أقف على قائمتي الخلفيتين، كان رأسي يطال النجوم؛ وأنه لم يكن باستطاعة أي بشر أن يواجهني. من رأوني يقولون ذلك برهبةٍ مني وامتنانٍ لنجاتهم؛ لكن ليس هكذا تتناقل الرواية.

سمعت إيرين إيقاع الأصوات من حولها؛ الإيقاع المتقطع للمقاطع المتوارية وراء الكلمات التي كانوا ينطقون بها بصوت عالٍ. ساحرة، هكذا كانوا يقولون. ابنة ساحرة. قالت إيرين في يأس: لكنني أنقذتهم. لقد أنقذتهم.

فقالَت الجمجمة في عواء: كان من الأفضل لو لم تفعلِي! كان من الأفضل أن يكونوا الآن راقدين في أعماقِ أمعائِي!

انظروا كيف لا يزال وليُّ العهد ينظر إلى ابنة الساحرة، رغم كلِّ ما في وجهها من إنهاكٍ وندوب؛ انظروا كيف ينظر إليها، وكأنه لا يريد أن ينظر إلى أحدٍ سواها. وكأنه لا يستطيع النظر إلى أيِّ شيءٍ آخر.

قال المُسنُون من بينهم: تذكرون كيف كان الملك ينظر إلى الساحرة، وكيف سحرته لتُنْجِب منه طفلةً حتى تُولد من جديدٍ بقدرة أكبر؛ لأن دماء دامار ستسري في عروق الطفلة مع شر سحرها!

ابنة الساحرة. ما كان لبشرٍ أن يقتل ماور. سوف تبتلع دamar كما لم يكن في مقدور التنين الأسود قطُّ أن يفعل؛ لأنه كان سيُصبح في وسعنا أن نختبئ في الكهوف العميقة حتى ينام ثانيةً.

هل نتركها تفتن وليَّ العهد بسحرها؟
إننا نتذكّر القصص القديمة عن ماور. إننا نتذكّر.

ابنة الساحرة.

وكانت الكلمات التي قالوها جهرًا هي: الشمال. المُغيرون من الشمال، يُغيرون بتواتر أكثر، وبقوة أكبر. ما السبب وراء هذا الخوف المنطقي وغير المُبرّر الذي يشعر به نيرلول؟ وهو الذي، وإن لم يُعرَف عنه قطُّ التحلي بالحكمة، لم يُعرَف عنه قطُّ افتقاره إلى الشجاعة. إنه الشر.

ابنة الساحرة.

كان من الأفضل أن تتركيني ألتهمك! هكذا صاح الشيء المُعلّق على الجدار.
صاحت: كان قتلي لك مسألة حظٍّ فحسب! لم أتجرأ إلا لأنني أيقنتُ أنني كنتُ سأموت!
ضحك الشيء.

ابنة الساحرة.

كانت مسألة حظٍّ فحسب!

قال رأس ماور: أكانت كذلك؟ أكانت كذلك؟

وقفت إيرين فجأةً وقالت: «أستميحكم عذرًا.» ثم استدارت وسارت، ببطء؛ ذلك لأنها كانت لا تزال تعرّج قليلًا، نحو الباب المفتوح على مصراعيه الذي كانت ستخرج منه إلى خارج القاعة. وتبعها تور مسرعًا حتى صار على مقربةٍ منها. «إيرين؟»

صاحت: «دعني وشأني! اذهب وتحدّث إلى ضيوفك! لا تقترب منّي!» وبدأت تسعل،
ومع ذلك جرّت مُبتعدةً عنه، وهي تترنّح، غير عابئةٍ بأنها كانت تعرّج على مرأى كلّ مَنْ في
القاعة، وعبرت الباب وابتعدت.

الفصل الخامس عشر

لم تستطع أن تنام، وأخذت تسعل، وتركت الدماء بقعاً على وسادتها؛ أما الحمى، التي كانت تأتيها وتذهب عنها، ولم تتركها وشأنها حتى حين شُفيت حروقها ونما شعرها، فجاءتها مُجدداً تلك الليلة، وبينما كانت تُعاني دُواراً استحضرت المشهد الذي كان في القاعة؛ فسمعت الجمجمة تضحك وسمعت الحاشية تقول: ابنة الساحرة.

وقُرب الفجر رأت في منامها الرجلَ الأشقر الطويل الذي كانت قد رآته مرةً واحدة من قبلُ بينما كانت نائمةً في واديِ التَّنَّين. لم يُخاطبها، ولم يبدُ عليه أنه كان يعرف أنها تُراقبه. قالت في نفسها وهي تحلُم: «ربما هذا مجرد حلم»؛ لكنها نظرت إلى كيفية سقوط أشعة الشمس على أهدابه، وإلى النَّمش على ظهر يديه، وإلى الطريقة التي انعقدت بها أصابعه الدقيقة تحت قاعدة الكأس التي كان يُمسك بها، وإلى البخار الذي كان يتصاعد من الكأس. ورمش الرجل بعينيَّه حين انبعث فيهما البخار.

قالت في نفسها وهي تحلُم: «أين؟ إن كان موجوداً، فأين؟»

واستيقظت، وهي تسعل.

كان الرجل قد قال إنه سيُساعدُها. فكيف يُمكنه أن يساعدها؟ كان قد قال لها إنه سيخبرها بالكيفية التي يُمكنها بها أن تساعد دامار. لكن كان يبدو أن دamar لم يكن يروقها أن تساعدُها. انقلبت على ظهرها وتمدّدت حتى استوى حلقها وصدرها وتسطّحاً؛ أحياناً كان ذلك يُخفّف سُعالها. وأخذت تستمع إلى صرير أنفاسها المُغرغرة؛ كان الهواء لا يزال يخشخش في رئتيها مهما حاولت أن تتنفس أنفاساً قصيرة. وقالت في نفسها في فتور:

«سيقُتلني هذا السُّعال عما قريب، وسيكون ماور قد قتلني في نهاية المطاف.»

«ربما كان بإمكان الرجل الذي أراه في أحلامي أن يشفيني من سعالي.»

ليت باستطاعتها أن تجده. ليته موجود. كانت مُنهكة كثيرًا؛ ولم يكن بوسعها حتى أن تتخيل كيف هو شعور ألا تكون مُتعبة. غلبها النوم ثانية، وهي تستمع إلى أنفاسها تخشخش في صدرها وكأنها أوراق شجر جافة، واستيقظت متعبة. أخذت تُحدّق في القبة فوق رأسها بضع دقائق، وكانت عيناها تتبعان الأشكال المُطرزة الدقيقة للخيول العاديّة بأعرافها وذيلوها الفائقة الطول، فكانت الأعراف تكاد تبدو كالأجنحة، وكان العُشب تحت حوافرها يكاد يكون كالسحاب.

لم تتركها الحمّى. ولم تستطع أن تُغادر فراشها في ذلك اليوم، ولا اليوم الذي تلاه. وجاء تور ليعودها، وأبّت أن تُكلّمه؛ إلا أنه جاء ثانية، وتذكّرت أن ثمة شيئًا واحدًا كان يلزمها أن تقول له. ظلّ يسألها مرارًا وتكرارًا: «ماذا حدث؟» أخيرًا قالت: «أصابني دُوار»، لكنها لم تقل أكثر من ذلك؛ وألجم الصمت لسان تور، وهو مُمسك يدها في يده التي كانت تكاد أن تكون محمومةً مثل يدها. كانت قد تذرّعت أمام ماور بأنها كانت مسألة حظ فحسب. أكانت كذلك؟ هكذا أجابتها رأس ماور.

«إيرين». كان هذا صوت تور. ما الذي أرادت أن تقول له؟
«هلاً ... تنزل رأس ماور عن الجدار ... وتضعه ... بعيدًا ... بحيث لا يراه أحد؟»
فقال مُتلهفًا: «بالطبع. بكل تأكيد. اليوم سيُفعل هذا.»
ولم تتذكّر إيرين شيئًا بعد هذا إلا بقليلٍ من الوضوح؛ رأت وجه تيكا منكبًا عليها، وكذلك وجه تور ووجه أبيها ووجوه آخرين تذكّرت بصعوبة أنهم المُعالجون الذين لم ينفعوها من قبلٍ إلا قليلًا. لم تعرف كم أمضت من أيام أو أسابيع وهي على هذه الحال؛ ثم ذات ليلة استيقظت مُجددًا من حُلُم واضح جدًّا عن الرجل الأشقر.
«أيتها المرأة الغبية؛ اتركي فراش موتك فيما لا يزال بوسعك ذلك، وتعالى إليّ.»

كانت الكلمات لا تزال تتردّد في أذنيها. فنهضت ببطء. ولبست حذاءها وسروالها وسُترتها؛ وأخذت الحَجَر الأحمر من فوق الطاولة إلى جوار سريرها، ودسّته في جيب قميصها. ونظرت إلى سيفها — سيف الملك — المُعلّق فوق سريرها، ولم تمسّه؛ ثم مدّت يدها لتحسّس تبغي عباؤها، ووضعتها على كتفها. وتعيّن عليها أن تجلس على حافة السرير ثانية من أجل أن تلتقط أنفاسها.

قالت في نفسها: «لا بدّ أن أخبرهم إلى أين أنا ذاهبة. لكنّي لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة.»

نهضت ثانيةً، وتحركت ببطء نحو حجرة الجلوس، إلى المكتب الموجود فيها. كان الجبر جافاً؛ فتعّين عليها أن تحمّل كوب ماء من فوق طاولة سريرها، وصبّت فيه الماء من الإبريق، وذهبت به إلى حجرة الجلوس لتبلّل الجبر؛ اهتزّت يدها وسكبت معظم الماء على المكتب ولم يختلط الجبر بالماء، بل ظلّ باهتاً ومتباين اللون. سيفي بالغرض. لكن لم يكن يُوجد شيء تكتب عليه. جلست إلى المكتب، تُحدّق في سطحه الخاوي، وكأن الورق أو المخطوطات ستظهر من تلقاء نفسها إذا ما انتظرت. ولم يبدُ أنها قادرة على أن تستجمع أفكارها، لكنّ يدها امتدّت من تلقاء نفسها وتلمّست مؤخّر الخزانة الصغيرة للمكتب وسحبت منها شيئاً. كانت تلك هي الرسالة التي كتبها لها تور قبل فترة طويلة، يطلب منها أن تُودّع جيش الملك في الصباح التالي.

فقلبت الرسالة وأخذت قلماً؛ وتساقط الجبر وجرى على الورقة. كتبت إيرين: «تور. لقد حلمتُ بشخصٍ ربما يُساعدني، وأنا ذاهبة لأبحث عنه. سأعود حين يُمكنني العودة.» شقّت طريقها خلسةً إلى الطابق الأرضي ثم إلى الخارج. كانت الممرات الداخلية حالكة الظلمة، لكنها وجدت أن بإمكانها أن ترى طريقها؛ كان ثمة ضوءٌ فضي خفيف حولها — أدركت إيرين فجأةً أنها تتوهّج؛ وللمرة الأولى منذ أن تحدّث إليها رأس ماور شعرت ببارقة أمل، فأتلج هذا الأمل صدرها قليلاً، وثبّت خطاها.

ولا بدّ أن أحداً رآها وهي تقطع الفناء المفتوح، خاصة أنها أخذت تتوهّج كالقطريات المضئية في شجرة مُتخللة؛ لكن لم يأت أحد. وجرت سرج تالات الصغير والخفيف من فوق إسفينه في مواجهة مربطه، لكنها تركت جُلّ درع الصدر الخاص بالملك كما تركت سيفها. اندفع إليها رأس تالات الأبيض من فوق باب الإسطبل القصير. وتحرك منخراه في سهيل صامت ترحيباً بها، لكنّه من أيام اشتراكه في القتال استطاع أن يتعرّف التكنّم والسرية. وتعيّن على إيرين أن تكافح من أجل أن تضع السرج على ظهره؛ لأنها كانت أضعف من أن تستطيع رفعه؛ لكنها وضعته في نهاية المطاف وتقدّم تالات في إثر سيّدته برفق كأنه عاشق يتقدّم إلى فراش محبوبته.

فوجئت إيرين حين اكتشفت أن هذا الوقت من العام كان مُنتصف فصل الصيف؛ لأنها كانت قد فقدت كلّ إحساسٍ بمرور الوقت حين كانت حبيسة مرضها. وهمست في أذني تالات المنتصبّتين: «وإن كان ذلك من حُسن حظي.» وكانت تأكل الثمار من الشجر حين كانت تتذكّر أن تأكل الطعام، وفي الليل نامت مُتكئةً إلى جنب تالات، بينما أرخى هو أنفه على الأرض بالقرب من ركبتيه المُنثنيّتين. وأحياناً كان ينفّض ذيله في نومه، للتخلّص

من الذباب، الحقيقي وغير الحقيقي، فكانت إيرين تصحو نَعْسَى — ولم تكن قَطُّ تنام بعمق أصلاً — فتشعر بشعر ذيله الحريري ينسال على وجهها كقطرات المطر.

ارتحلا جهة الغرب في بادئ الأمر، ثم شَمَالاً، فكانت الجبال عن يمينهما وغابات إيردثمار الكثيفة عن شمالهما، تلك الغابات التي لم تكن قد استُكشفت بالكامل مطلقاً، والتي كانت تحوي مخلوقاتٍ لم يمنحها أحدُ اسمًا من قبل. في أوقات السَّلم كان ملوك دامار يُرسلون بعثاتٍ استكشافية لتخوض في أعماق الغابة؛ ذلك أنها كانت تقف في طريق التجارة الحرة بين مُدن مملكتهم والتقاء تلك المدن بعضها ببعض؛ لكن إيردثمار لم تكن حانيةً على أولئك الذين حاولوا رسم خريطة لها وشقَّ الطرق عبرها. وزعم أربليث أنه مُتَيَّم بتلك الغابة. إذ قال: «إنها هادئة، ولا تُسبَّب أيُّ أذى لعابري السبيل المتأدِّبين، وتحفظ بأسرارها. وذلك لو كان كل سكان دامار مُتَحَضِّرين معها.»

حدَّقت إيرين في الأشجار وهي تسير بالجواد، لكنها لم تَرَ شيئاً يُبادلها النظر سوى الظلام. كانت في الأصل قد فُكِّرَتْ أن تتَّجه غرباً لأن غابات إيردثمار بدت المكان البديهي للبحث عن مشعوذٍ غامض يزور الناس في أحلامهم؛ لكن بعدما اجتازا سفوح الجبال أحجم تالأت وانحرف شَمَالاً، وسَمَحَتْ له إيرين بذلك على مضض، ولم تأب.

لم يكن ثمة مسارٌ يتَّبِعونه؛ فعادا أدراجهما إلى سفوح الجبال، بعيداً عن الطريق المُعَبَّد الذي سلَّكه أربليث وجيشه للالتقاء بنيرلول، أو الذي يسلكه أيُّ أحدٍ له غرض مشروع حول الحافة الشرقية لغابة إيردثمار؛ لم تُرد إيرين أن تلتقي بأحدٍ يمكن أن ينقل عنها خبراً إلى المدينة، ولا أن يلحق بها أحدٌ أُرسِل في إثرها.

وصلا أخيراً إلى غورٍ في التلال؛ وإد صغير غير مميَّز كأودية كثيرة مثله، أرضه ذات عشب أرجواني كثيف، لم يكن ينمو في المدينة، وبه أشجار قليلة. وكانت الشمس تغرب حين توقفاً، ولما رأت إيرين صخرةً تصلح منصَّةً للركوب، فُكِّرَتْ في أن هذا مكان مثالي للتوقُّف أثناء الليل؛ لكنها لم تأت على أي حركةٍ تدلُّ على أنها كانت تنوي الترجُّل عن ظهر تالأت، وظلَّ تالأت واقفاً وأذناه منتصبَتان، غير مكترثٍ باللون البراق، الذي كان يُفضِّله في عموم الأمر عن أي شيءٍ آخر. وعندما اختفت الشمس بدا لإيرين أن الضوء لم يختفِ تماماً؛ لكن قد يكون ذلك من أثر الحُمَّى.

نظر تالأت خلفه، فحوَّلته ركبة إيرين، وكأنها فعلت ذلك من تلقاء نفسها، نحو الجبال خلف السفوح — جهة الشرق مرةً أخرى؛ وفي الحال وجد تالأت المسار الخفي الذي كانت بدايته عند طَرْف الغور.

سرعان ما أصبح الطريق شديد الانحدار حتى إنَّ إيرين شعرت بالقلق بشأن ساق تالأت الضعيفة؛ لكنها حين حاولت أن تنزلق عن صهوته لتسير إلى جواره هُنيهة كان يتمايل ويحكُّها في الأشجار التي كانت تنمو قريبةً حولهما، وفي نهاية المطاف توقفت عن محاولتها. كان تالأت على حق؛ إذ إنَّ تسلُّق التلِّ كان سيجعلها تسعل. تقدَّم تالأت ببطءٍ فكانت قوائمه الأربع تطأ الأرض باعتدال، وركَّزت إيرين على التمسُّك بمقدمة السَّرج بكلتا يديها. وكذلك على التقاط أنفاسها. فمؤخراً تذكَّرت أنَّ عليها أن تتنفس؛ إذ بدا لها أن رثيها تُفضِّل أن تبقيا ساكنتين.

بحلول الفجر شعرت بدوار من الحمى والارتفاع والإنهاك، فعلى الرغم من أنها نامت مدة قليلة، إلا أن التمدُّد على الأرض في سكونٍ كان طريقة أسهلٍ لتمضية الوقت من التشبُّث بسَّرج مائج. وظلَّ تالأت يكُدُّ في التسلُّق، والعرق يجري على كتفيه، رغم أنَّ الهواء كان بارداً. تركت إيرين السَّرج ولَفَّت أصابعها الباردة في عُرف تالأت لتُدْفئها.

وفجأة استوت الأرض. توقَّف تالأت، في عدم تصديق، وقوائمه الأربع كُلُّها في حالة تأهُّب؛ ثم عاود سيره، وقد انفرجت الأشجار أمامهما، وأصبح المسار الذي كان تالأت قد سلَّكه بكلِّ ثقةً طريقاً مُنبسطاً أمامهما، وفي نهاية طريقٍ قصيرٍ كان ثمة فناء صغيرٍ خاوٍ تحفه من جوانبه أعمدةٌ وبه بناء عظيم من حجر رمادي. سار تالأت إلى داخل الفناء وتوقَّف. رفعت إيرين يدها عن عُرف تالأت وحدَّقت في الأرض من فوق كتفيه المُبلَّتين وفكَّرت في الترجُّل عن صهوته؛ بعد ذلك كان رجلٌ طويلٌ أصهبٌ يقف إلى جوارها. تمتَّت لو أنها انتبهت إلى قدومه لأنها لم تره ولم تسمعه يقترب؛ لكن تالأت لم يرتبك، وتعرَّفت على وجه الرجل من أحلامها. رفع الرجل جسدها من فوق السَّرج، وفيما تلقت ذراعه وزنها، مرَّت لمحةٌ خوف بوجهه، وقال: «فلتسمع الآلهة جميعاً؛ لم يتبقَّ فيك شيء.»

وحملها إلى داخل القاعة الحجرية، وأسندت رأسها إلى صدره ولم تُفكِّر في شيء. كان حذاؤه ذا نعلٍ لئِنٍ وخطواته صامتة؛ لكن خشخشة أنفاسها تردَّدت عبر القاعة وكأنها أجنحة سرب طيور صغيرة. وضعها الرجل في كرسيٍّ ذي ظهر مرتفع في الجانب الأقصى من القاعة، والتقط قدحاً من فوق طاولة صغيرة، وحدَّق فيه، وتمتم قائلاً: «لا بد أن يفِي هذا بالغرض» وأعطاهما إيَّاه.

أمسكت إيرين بالقدح وهي شاردة، لكن القدح أخذ يتمايل وبدأ ينحني حتى وهي تمسكه بكلتا يديها، وفي تعجُّبٍ مكتوم مال الرجل عليها وقبض على القدح حول يديها.

كانت يده دافئة كمثل عُرف تالأت، وكان القدح باردًا. سألت إيرين، وهي تنظر إلى وجهه العابس المنحني عليها: «من تكون؟»

فأجاب الرجل: «أنا لوث. اشربي.»

أخذت إيرين الرشفة الأولى بإذعان كما كانت تشرب الجرعات التي تُحضرها تيكا حين كانت بعدُ صغيرة ومُصابة بالحمى. ولم تتذكّر أنها تناولت رشفةً أخرى.

استيقظت والأغطية الثقيلة تُغطّيها في سرير ضيق لا حُجُب له. كان السرير واحدًا من مجموعة كبيرة من الأسرة مصطفة بعضها بجوار بعض على طول ممرٍ طويل وضيق؛ كانت مقدّمة الأسرة مدفوعة إلى جدارٍ به نوافذٌ طولية تُدخِل ضوءَ الشمس على مؤخرها؛ وبعد الأسرة كان يُوجد ممرٌ ضيقٌ ثم الجدار الذي على الطرف الآخر، والذي كان أطول من الجدار ذي النوافذ، وكان السقف يتّجه نحو الأعلى بزاوية حادة بين الجدارين. أخذت إيرين ترمش في خمولٍ وهي تنظر إلى الجدار البعيد؛ كان من حجرٍ رمادي خالٍ من النقوش، مثل بقية قاعة لوث. أو أنه لم يكن خاليًا من النقوش. جلست إيرين منتصبّة، وهي تزيل الأغطية وقطّبت حاجبيها؛ كانت ثمة صور منحوتة نحتًا سطحيًا في الجدار الحجري الرمادي، لكنها لم تستطع أن تُحدّد ما تُصوّره تلك الصور: رجال لهم قرون، نساء لهم أجنحة، شجرٌ له أعين تُراقب. رُمشت بعينيها ثانية؛ فقدرتها على الرؤية لم تكن موثوقة منذ فترة طويلة.

كانت الحمى قد ذهبَت عنها. وشعرت بالضعف بقدر ما شعرت به حين جرجرت نفسها إلى الجدول بعد موت ماور، لكنها شعرت بالسعادة، سعادة راثقة لا معنى لها مثل سعادة طفل غصّ. كافحت مُبتهجةً لتتخلّص من الأغطية التي كانت تلفّها، ثم قامت على قدميها واهنة، وبدأت تشقّ طريقها على طول صف الأسرة، وذلك بالتشبُّث بمؤخر كلِّ سرير منها؛ كانت جميعها فارغةً وباستثناء سريرها كانت جميعها مُرتّبة بأناقة وعناية بأغطية خشنة داكنة وعليها وسادات ملفوفة بقماش ناعم داكن. وصلت إلى مدخلٍ مُقوّس فنظرت من خلاله؛ كان سُمك الجدار يجعل المدخل مُظلمًا، لكن خلف المدخل كانت القاعة الكبرى ساطعة بضوء النهار. كانت ثمة نوافذٌ مشقوقة على ارتفاع كبير في جداري القاعة الكبرى الطويلين، وكان الجداران نفسيهما مُرتفعين بما يكفي لأن تُطلَّ النوافذ على أسقف الممرات الساكنة؛ ومع ذلك كان السقف من فوق تلك النوافذ مُختفيًا في الظلام.

رأها لوث فعبس. «كان عليك أن تنامي مدةً أطول.»

«لا، لم يكن ينبغي أن أفعل ذلك. لقد نمتُ بما فيه الكفاية؛ أشعر بأني ...» وانقطعت أنفاسها، فأتكأت على المدخل، وتابعت: «جائعة على نحو مدهش. لم أشعر بالجوع منذ وقتٍ طويل.»

«سأعُدُّ أن في هذا عزائي؛ لكن من المؤكد أنني لم أتعلَّم بعدُ أن أتقبَّل مسألة الحصول على جرعات نومٍ بسيطة. كانت ليلى ستشعر بالحرج منِّي. تعالي وتناولي الطعام إذن.» وراقبها وهي تمضي مترنحةً نحوه؛ بدا أن الطريق طويل من باب الغرفة المُخصَّصة للنوم إلى الطاولة الموضوعة أمام المدفئة، وذلك حيث كان لوث واقفًا. كانت يدها مُمسكتين بالظهر العالي للكرسي الذي وقف خلفه وهو يُراقبها، لكنه لم يعرض أن يُساعدها. صارت أمام الطاولة في النهاية؛ كانت طاولةً صغيرة وضعيفة، لكن إيرين كانت في غاية الوهن، وحين بسطت كلتا يديها على سطحها لتثبَّت نفسها، حملت الطاولة ثقلها بسهولة.

رفعت إيرين نظرها إليه وابتسمت ابتسامةً مُحَبِّ، ابتسامةً عذبة ومشركة، لكنها لم تكن موجَّهة إليه؛ نظرت عينها إلى شيءٍ خفي لم تُدركه هي نفسها، إلا أن قلبه تحرَّك بشكلٍ لم يرَّقه. ردَّ على ابتسامتها بعبوسٍ أشد، فضحكت، وكان صوت ضحكها يُشبه النقر قليلًا، وكأنه وقع أقدام فأرٍ على أرضٍ حجرية. «لستُ ضريرة يا سيدي، وإن كنتُ بالفعل أرى الضوء حيث لا يوجد إلا الظلام وأرى صورًا غريبة على جدارٍ غُلف؛ وأنا واثقة إلى حدٍّ بعيد أنني أراك تعبس في وجهي بغضبٍ شديد، كمُعَلِّمٍ في وجه تلميذٍ مُصرٍّ على أن يُسيء التصرُّف. أرجوك أن تُخبرني بما اقترفت.»

«لقد انتظرت طويلاً جدًّا أن تأتي إلى هنا.»

تلاشت ابتسامتها. وقالت: «لم أكن أفكر بوضوحٍ منذ مدة ... كثيرة هي الأحلام الغريبة التي راودتني.» وفكرت في رأس ماور يتحدث إليها من فوق جدار في قلعة أبيها، فتشنَّج وجهها تشنُّجًا عابرًا ورفعت إحدى يديها من فوق الطاولة لتُغطيه. وقالت من بين أصابعها: «كان من السهل ألاَّ أُصدِّق أن ثمة نفعًا أو جدوى منها.»

ساد الصمت بينهما؛ وتحركت إيرين وأنزلت يدها من فوق وجهها، لكن كان وجهها لا يزال حزينًا. وسألت تقول: «ماذا عن تالوت؟»

«... يتناول الطعام ملء جنبه في مرعى وسط الماشية. ليس هناك ما يدعو إلى أن تخشى عليه شيئًا.»

«لستُ أخشى عليه شيئًا.» وسألت فجأة: «هل أنا أحتضر؟»

«أجل.»

«هل يُمكنك أن تشفيني؟»

تنهَّد لوث. «لستُ متأكدًا من ذلك. أظنُّ ذلك. لم يسبق لي أن ...»

قالت في شرود: «لو لم أستمع إلى رأس ماور، لأُتيتُ إلى هنا قبل مدةٍ طويلة. لو لم يُخبرني أن ليس باستطاعتي الفوز على التنين الأسود؛ لأن ذلك ليس في مقدور أحد، لربما صدَّقتُ أن ثَمَّة بقية في حياتي تستحقُّ الشفاء؛ لكنني «قاتلة تنانين»، والأدنى شأنًا في أُسرتي، وقد فعلتُ شيئًا عظيمًا، فينبغي إذن أن أموت جرَّاءه». طفَّت كلماتها في الهواء بينهما واهنة، وكأنها خيوط عنكبوت.

قال لوث بنبرةٍ عنيفة: «لستُ الأدنى شأنًا في أُسرتك. كانت أمكِ بقدر سبعة من زوجها، وأنت تتحلَّين بما تحلَّت هي به من شجاعة، وإلا لما حملت بك، ولما كنتِ تقفين هنا الآن بعد ما فعله بك ماور، وما زال يفعل بك.»

حدَّقت إيرين به. «ما زال يفعل بي؟ ... لقد علَّقوا جُمجمته في القاعة الكبرى، وقد تحدَّثت إليّ. كنتُ أقوى بعض الوقت، حتى رأيتهَا هناك وتحدَّثت إليّ.»

«تحدَّثت ...؟ كيف يمكن لأحد، ولو بعد مائة جيل، أن يكون غيبًا لدرجة أن يعود برأس التنين الأسود غنيمَةً ويُعلِّقها على جدار ليُحملق فيها الناس؟ لا شك ...»
«طلبتُ منهم أن يزيلوها، إلى حيث لا يمكن لأحد أن ينظر إليها ثانية.»

دار لوث حول الطاولة مرتين قبل أن يقول شيئًا. «أنتِ بالفعل قاتلة تنانين. إنهم لا يعرفون كم هم محظوظون لأنهم حظُّوا بك. أنهم حظُّوا بك من الأساس. وأنا أحمقُ بما يكفي لأن أرغب في إعادتك إليهم.»

فكَّرت إيرين في نفسها: ابنة الساحرة. لكنني أخبرتُ تور أنني سأعود حينما أستطيع. جلس لوث صَخرًا. «لقد جلستُ بالأعلى هنا وقتًا طويلًا للغاية؛ وإنه لأمرٌ سارٌّ، فلا أحد يتطفَّل. ربما من الممكن أن ننسى بعد مائة جيل.»

«أكنتُ تعرف أمي؟»

«نعم.»

لم تكن إجابة، ولم تكن بنبرةٍ تشجِّع على طرح المزيد من الأسئلة. أطرقت إيرين، ولاحظت أن ثمة خبزًا وفاكهة على الطاولة التي اتكأت عليها، فالتقطت حفنةً من التوت الأحمر وبدأت تأكل منها، واحدةً تلو الأُخرى.

قال لوث، بعد أن انتهت من آخر حبةٍ توت وبدأت تقضمُ قطعةً من الخبز: «كانت تُشبهكِ، لكنها كانت أصغر حجمًا. كان العبء الذي كانت تحمِّله على كاهلها مختلفًا عن

عبثك، وكان قد أثقل كاهلها سنواتٍ طويلة. حين عرفتها كانت قد نسيَت البهجة، وإن كنتُ أظنُّ أن أربيث أعاد إليها قليلاً منها.»

بدا أن صوت إيرين الخفيض الأجش يأتي من الجدران الرمادية العالية وليس من الجسد النحيف المنحني على الطاولة أمامه حين قالت: «يُشاع في المدينة أنها ماتت قنوطاً حين عرفت أنها ولدت أنثى وليس ذكراً.»

أجابها لوث بنبرة هادئة: «هذا صحيح على الأرجح». «كانت تتحلَّى بقدرٍ كبير من الشجاعة، ولكن بمخيَّلةٍ صغيرة؛ وإلا لما نسيَت البهجة، مهما كان عبثها ثقیلاً، وقد كان عبثها ثقیلاً جداً بالفعل.»

«أكان عبثاً يمكن لذكر أن يرفعه عن كاهلها؟»

«إنه عبء يمكن لأي أحدٍ من دُمها ويتحلَّى بشجاعتها أن يحمله.» قال وقد علت نبرته: «سحقاً لك. ألم تستطيعي أن تُفرقي بين الرؤيا وبين حلم خبيثٍ سمَّه تنين.»

أجابته: «لا شك في أنني لم أستطع» ونظرت إليه مباشرةً رغم أنها كانت تتكئ على الطاولة. «وأكملت: «إن كان الأمر بهذا القدر من الأهمية، وكان التنين بهذا الخبث والمكر حتى وهو ميّت، فلم لم تأتٍ لتأخذني؟»

سكت كلاهما قليلاً، ثم ابتسم لوث ابتسامةً خفيفة. «لن أحاول أن أرهبك ثانيةً.»

«لم تجب عن سؤالِي.»

«لا أرغب في الإجابة عنه.»

لم تستطع أن تتمالك نفسها، وضحكت؛ إذ كان يُشبه إلى حدٍّ كبير طفلاً مُتجهِّماً. وتردَّدت ضحكاتها في الأرجاء، صافيةً وطيقة، كما لم تضحك منذُ أن سمعت اسم ماور أول مرة.

نظر إليها لوث مُتعبباً. «أجل، أعتقد أن بإمكانني شفاءك. لا يُمكنني أن أُصدِّق أنني يمكن أن أفشل.»

قالت هي: «يسرُّني سماع ذلك»، ووجدت نفسها مندهشةً من أنها نطقت بالحقيقة، والتوى فمها بابتسامةٍ ظريفة. «يسرُّني هذا.»

وبينما راقبها لوث، كان يعرف الحقيقة وراء كلماتها والمفاجأة التي تسببت فيها تلك الكلمات لها. سارت إيرين حول الطاولة حتى وصلت إلى كرسيٍّ آخر واستقرت فيه بخفة؛ وارتخى جفناها فيما كانت لا تزال الابتسامة مرسومةً على شفَتَيْها وراحت في غفوةٍ خفيفة كغفوة قعيد لا أمل في شفائه، وارتخت على جانب كرسيِّها وأخذ لوث يُراقبها في نومها كما

كان يفعل تور، وكانت أفكارهما مُتشابهةً كثيرًا. لكن كان لدى لوث اختيار، وهو اختيار لم يكن يروق له؛ لكنه كان اختيارًا لا بد أن يبت فيه عما قريب. وحتى وهو يُفكر في هذا الاختيار، كان يعرف أن القرار كان قد اتُّخذ بالفعل. لكنه لم يكن في عجلةٍ حتى تستيقظ إيرين مُجددًا، وحينها سيفعل ما يتحتم عليه فعله.

الفصل السادس عشر

لم تستطع أن تُفكر أين كانت حين استيقظت. كانت جالسةً على كرسيٍّ خشبي، وكانت نار تشتعل في موقدٍ ليس بعيداً عن قدميها الممدودتين؛ وكانت في قاعةٍ شاسعة حتى إنها لم تستطع رؤية السقف. ولم تتذكر كلَّ ما مرَّت به إلَّا حين خطا لوث بينها وبين الموقد ليضع قطعة خشبٍ أخرى في النار؛ فأطلقت تنهيدة.

التفت لوث نحوها على الفور، وكان وجهه لا يزال جاداً وعابساً. سألت إيرين: «كيف حال تالوت؟» وكأنه كان دائماً أول ما يخطر ببالها. قال لوث في استياء: «إن كنت لا تثقين كثيراً في قدرتي على الاعتناء بفحلٍ بدينٍ وعجوزٍ ومُتكبِّرٍ، فسأريك دليلاً على ذلك.» ثم انحنى عليها مُجدداً ورفعها، وسار بها خارج القاعة الرمادية الكبيرة.

قالت إيرين في ترفعٍ: «يُمكنني أن أُسير.»

ردَّ لوث من فوق رأسها: «كلَّا، لا يُمكنك ذلك. وإن كنت ستحظين بفرصة إعادة تعلُّم ذلك في وقتٍ ما في المستقبل القريب.»

وأجلسها، أخيراً، على قدميها، عند حافة مرعى شاسع لا أسوار له؛ كان به عدة أبقار بُنية اللون ترعى، وعند طرفه الأقصى رأت وعلاً أو وعلين يرفعان رأسيهما وينظران إليها؛ لكن لم يبدُ عليهما الارتياح.

ثم سمعت صهيل تالوت القوي الرنَّان، وجاء يعدو نحوهما، وانزلق وهو يتوقَّف في اللحظة الأخيرة (غمغم لوث بشيءٍ بدا مثل «مُتباهِ») وبلَّل قميصها بلعابه. قال لوث في اشمئزاز: «يا للجيادا!» لكن إيرين خطَّت خطوةً بعيداً عن يده المثبَّنة لها لتلفَّ ذراعها حول حارك تالوت غير الموجود.

قال لوث: «ها أنت ذا. يمكن لك أن تكون مفيداً.» رفعها على ظهرِ ثلاثِ الحسنِ الاستدارة وابتعد. وقال من فوق كتفه: «اتبعني من هذا الطريق»، فانصببت أُنْدا ثلاث وتبعه مُدْعِناً. لكنَّ ساقِي لوث الطويلَيْن كانتا تقطعان الأرض بخطوات واسعة، فكان على ثلاث أن يمدَّ جسده ليُجاري خطوته؛ لأنه سيخسر هيبته ووقاره لو بدأ يَمْضي خبيّاً؛ ومن ثمَّ ارتخت أُنْذانه بعض الارتخاء نحو الخلف تعبيراً عن اعتراضه على هذه السرعة الفظَّة. وضجَّت إيرين ضحكها الصغيرة، حتى لا يُصيبها السعال.

وسرعان ما وصلوا إلى بحيرة فضيَّة واسعة. رمشت إيرين بعينيها الواهنتين؛ فقد كان من الصعب أن تُحدِّد أين انتهت الأرض وبدأت البحيرة؛ فلم تكن أحجار الشاطئ مسطَّحة وباهتة أكثر بكثير من سطح الماء المتلألئ. توقَّف ثلاث حين سحقت حوافره الحصى؛ وكان هذا هو أسوأ شيء يمكن أن يخطوَ عليه حصان ذو ساق مصابة. واستمر لوث في سيره حتى وصل إلى حافة الماء تماماً، وعندما توقَّف مباشرةً قبل أن يطول البلل قدميه، تموَّج الماء فجأةً تموَّجاً ضئيلاً مفاجئاً، فامتد من الماء قدر قليل تناثرَ على أصابع قدميه. غمغم لوث بشيء غير مسموع وردَّ الماء بأن تحدَّب إلى قمم، وتسَلَّت بضع حواف موجية صغيرة على شاطئ البحيرة، لكن لم يلمَس شيءٌ منها قدمه. ونادى لوث: «هنا.»

انزلت إيرين من فوق ظهر ثلاث، لكنها وجدت في غضون خطوتين أن لوث كان محقاً، وأنها فعلاً لا تستطيع المشي. فغاصت حيث كانت تقف، وتحدَّب ثلاث بالقرب منها وأنزل أنفه لتضع عليه يدها، واتخذت أُنْذانه مظهرًا قَلِلاً وكأنه يقول: «هذا خطئي — لا تُهمني حقاً هذه الأحجار الصغيرة التافهة — أرجوك قفي ثانيةً وسأحملك.»

بعد ذلك كان لوث راكعاً إلى جوارها، وحملها بين ذراعيه ثانيةً؛ وكانت يداه مُبللتين حتى مرفقيه. أجلسها بحرِص عند حافة البحيرة، فتموَّج الماء تموَّجاتٍ صغيرة مرةً أخرى، واندفع إلى الصخور نحوها وكأنه يشعر بالفضول؛ لكنه لم يَمَسَّسها. غمس لوث يده في الماء ثانية ورفعها وهي تسرَّب ماء إلى شفَتَيْها.

وقال لها: «اشربي.»

فقال: «أهذا مشروبٌ مُنومٌ آخر؟» لكن لم يبدُ عليه إلا الحزن والتجهم.

ردَّ عليها: «كلًا.» تقطَّر الماء على ساقها، وكانت لمستّه عبر الملابس لمسةً خاصةً بطريقة ما، فكانت مُسكَّنة ومُلطِّفة وكأنها يدٌ صديق.

شربت إيرين الماء على نحوٍ أخرقٍ من فوق إبهامه، وكان الماء فضيًّا يكاد يكون أبيض، حتى في يد لوث ذات الجلد الباهت؛ وكان له مذاقٌ حلو قليلًا، وبارد وجامح بصورةٍ ما، جموحًا بقدرٍ لم تستطع أن تجد له وصفًا يتجاوز هذه الكلمة: «جامح». وبدأ أن الماء يسلك مساره في حلقتها حسب مشيئته الخاصة، وأنه يُزبد في معدتها. رفعت إيرين ناظريها فالتقيا بعيني لوث الزرقاوين المُحدقتين فيها، وكان مُقطبًا فيما كان مُنحنياً فوقها وضامًا يديه إحداهما إلى الأخرى كالوعاء. سألته إيرين: «ما هذا...؟ هذا ليس بماء»، ثم اختفى هو والبحيرة ومذاق الماء على لسانها؛ لكن وقبل أن ينجرَفَ ذهنها بعيدًا عن كل شيءٍ شعرت بيدين تُطبّقان على كتفيها، يدين مُبلّلتين؛ إذ كان بوسعها أن تشعر بالبلل عبر أكمامها، وجرجرتها هاتان اليدان فأوقفتاهما على قدميها. وجاءها صوتٌ من بعيدٍ جدًا يُنادي: «إيرين»، ثم لم يعد لها ساقان، ولا أذنان.

«إيرين»

كانت رثتاها تشتعلان وكأنهما رثتا سباح أمضى وقتًا طويلًا جدًا تحت الماء، وأخذت تشقُّ طرُقها، وكأنها تنبش بمخالبٍ لها، نحو السطح ونحو الصوت الذي ظلَّ ينادي باسمها؛ وبدأ أن وجهها اخترق سطح الماء الذي كانت حبيسةً تحته، وظلَّت تلهث لحظة. وتكرَّر الصوت.

«إيرين»

فتحت إيرين عينيها، ولم تعد على ضفاف بحيرة فضية اللون، وإن كان ثمة رجلٌ طويل البنية يقف إلى جوارها ويُناديها باسمها ويقدم إليها قَدَحًا. قال لها الرجل: «اشربي». مدَّت يدها لتأخذ القدح؛ مدَّت يدها اليسرى لتأخذه بها، ولاحظت في اندهاش بسيط أن ذراعها كانت سليمةً وقوية. وفكرت بذكاءٍ وحكمة: أنا أحلم مجددًا؛ لكنها توقفت قبل أن تأخذ القدح، ونظرت حولها. كانت واقفةً في غرفةٍ شاسعة ظنَّت لأول وهلة أنها مستديرة، حتى أدركت أن الجدران كانت مُستقيمة، وأن بها خمسة جدران. ورفعت عينيها وكان ثمة وزن ثقيل من شعرٍ مجعَّد على رأسها، فشغل هذا بالها؛ لذا لم تتفحص المخلوقات الغريبة ذات المخالب التي كانت تتلوى على السقف، مخلوقات سوداء وحمراء وصفراء. أطرقت إيرين برأسها ثانيةً في حيرة؛ لأنها لم يسبق لها من قبلُ مُطلقًا أن كانت في هذه الغرفة، ومع ذلك بدت جدرانها الحمراء مألوفة لها.

قال الرجل ثانيةً: «اشربي»، وكان صوته مُتلَهفًا. «اشربي». ارتعش القدح في يدها الممدودة قليلًا جدًا، وتساءلت عن سببِ تلهُّف الرجل الشديد لكي تشربَ من القدح.

حاولت أن ترفع ناظرَيها إلى وجهه، لكنه كان يرتدي رداءً له قلنسوة، رداءً أحمر اللون، ذا لونٍ فاقع يُؤذي العين، وكانت القلنسوة عميقة جدًا حتى إنها لم تستطع أن ترى الوجه بداخلها. قال الرجل: «اشربي»، وكان نفاذ صبره قد بدأ يجعله يغضب، وخطر لها في نهاية المطاف أن الذي تقف أمامه لم يكن لوث.

«اشربي.»

ثم نظرت مُجددًا إلى ذراعها اليسرى وفكرت في هدوء، هذه ليست يدي؛ هذه اليد أصغر، والأصابع أدقُّ مما كانت عليه يدي من قبل. سحبت إيرين يدها، ووضعتها على رأسها وشدَّت خُصله من شعرها فاقتلعتها وأمسكت بها أمام عينيها. كان لونه هو اللون الذي كان عليه، قبل أن يحرقه ماور؛ لكن الشعرات كانت أدق.

قال الرجل الأحمر: «إيرين، ستأخذين هذا وستشربينه.»

فردَّت عليه بصوتٍ لم يكن صوتها: «كلًا.» إلا أن صوتها كان به جزعٌ وقد لاحظ الرجل الأحمر هذا فيه، وقَدَّم إليها القدرح بتلَهْف أكبر، مُدركًا أنه سيفلح. «اشربي.»

ببطءٍ وعجز، امتدَّت يدها اليسرى ثانية، وأخذت القدرح وقربته إلى شفتيها؛ لكنها لم تذُق ما كان به؛ لأنها سمعت اسمها ثانية، وتوقفت.

«إيرين.»

لم يكن هذا صوتَ الرجل الأحمر، بل كان صوتًا آخرَ مألوفًا لها. «إيرين.» كان الصوت هو صوتَ لوث، وكان مضطربًا.

سمعَ الرجل الأحمر هو الآخر صوتَ لوث، فاستدار؛ دارت العباءة على كتفيه، ومع ذلك لم ترَ شيئًا من وجهه. صاح الرجل: «لوث! لن تأخذها!»

فجاء صوتَ لوث يضحك في وهن. «لا، لن آخذها؛ لكنني سأخذ الأخرى؛ لن تأخذ كليهما.»

ثم ساد من حولها هديرٌ، وبدا أن الجدران الحمراء للغرفة الخماسية الجوانب كانت كأفواه حمراء غاضبة؛ وبعد ذلك استحال اللون الأحمر رماديًا، لكن ظلَّ التهدير مُستمرًا؛ وفجأة أصبح اللون الرمادي هو لون الجدران الصخرية، ليس بشحوب حجارة قاعة لوث، لكنه لون مدينتها الرمادي والرمادي الأكثر قتامةً والأحمر الباهت والأسود؛ لكن أمام جدرانها امتدَّ سهلٌ صحراوي خاوٍ وقاحل، كانت ثلاثة من الأعمدة الصخرية المتراسة الأربعة التي تُميّز جدران المدينة مطروحةً على جوانبها، ولم ترَ إيرين أي بشرٍ في أي مكان. فتحت فمها لتصرخ، لكن فمها كان مملوءًا بماءٍ فضي، فاختنقت، وضربت بيديها؛ وشعرت

بضوء الشمس على وجهها. بعد ذلك أدركت أن رقبتَها مُتَيَّبِسَة؛ ثم وجدت أن جسدها كُلُّه كان متَيَّبِسًا، من الرقاد ... على الحجارة.

لا عجب أنها كانت مُتَأَلِّمة. تلاشت أحلامها تحت سطوة إرهاقها الجسدي. ثنَّت مرفقها لتستندَ عليه لتنهض، ثم خطر لها أن تفتح عينيها أولاً. أشجار، وسماء زرقاء. وصخور. شدَّت نفسها مرتكزةً على مرفقها. صخور وأشجار، وسماء زرقاء. وبحيرة. ولوث.

كان جالسًا إلى جوارها. أطلق لوث لفظةً تنمُّ عن الانتباه الطفيف وأخذ يتمطَّى باحتراس. كان مُبتَلًا تمامًا؛ وخطر لها حينها أنها كانت مُبتَلَّةً تمامًا هي الأخرى، على الرغم من أنهما كانا على مسافةٍ من حافة الماء؛ كانا في واقع الأمر أقربَ إلى الأشجار. ثم جاء من خلفها صوتٌ دوس ونفخ مألوف، فمدَّت يدها من دون أن تنظر لتجد وجنةً تالأت الناعمة. كان لوث ينهض واقفًا على قدميه؛ وقد بدا مُتَيَّبِسًا بقدر ما شعرت هي أنها متَيَّبِسَة. ونظر إليها نظراتٍ غامضة فيما ترنَّحت وهي تقوم واقفةً إلى جواره. كان سطح البحيرة أملس كالزجاج. وكان المكان حيث يقفان هادئًا هادئًا غريبًا؛ فلم تسمع إيرين شيئًا سوى زقزقة طائرٍ بعيدةٍ وحركة ذيل تالأت الخاطفة بين الحين والآخر.

عدا ذلك لم تكن تسمع شيئًا.

همست قائلة: «بإمكاني أن أتَنَفَّسَ..»

قال لوث: «آه. أجل، كنتُ أَمَلُ ذلك.»

ثم عادت بسرعةٍ ضوضاءً أحلامها تُراودها. الرجل الأحمر الذي تجاهلته، لكن ...

«مدينتي ...»

استقرَّت نظرة لوث الغامضة على وجهه وكأنها كانت على وجهه طوال حياته. «لاحقًا.»

قالت: «لاحقًا؟ نهاية أرضي، ومدينتي، وقومي؟ لاحقًا؟» وراودَتْها فكرةٌ قصيَّةٌ هازئة:

أرضي. مدينتي. قومي.

فأجاب في خشونة: «أجل، لاحقًا. لم تحدُثْ بعدُ، ومصيرك يكمن في مكانٍ آخر.»

وقفت راسخةً في الأرض، تُحدِّق فيه. وقالت بنبرة عالية: «مصيري يكمن في مكانٍ

آخر. دائمًا ما كان مصيري ... في مكانٍ آخر.»

لانت ملامح وجه لوث. وقال: «أجل، هذا صحيح، لكن ليس بالطريقة التي تحسبونها.

تعالِي. سأخبرك بما يُمكنني أن أخبرك به؛ بما أنتِ في حاجةٍ إلى معرفته. وسنأمل أن يكون

ذلك كافيًا.»

فقالت في شراسة: «سيتعين أن يكون كافياً»، وحينما نظر لوث إلى عينيها كانتا تلمعان من لهيب أحلامها؛ حينها خشي لوث مغبة ما فعله. وتمتم في نفسه: «لم أكن أملك خياراً آخر»، لكن إيرين، التي كانت لا تزال شرسة من خوفها، قالت له: «لا يمكنني أن أسمعك. ماذا تقول؟»

هزّ لوث رأسه. «لا شيء سيجديك نفعاً أن تسمعيه. هيا إذن. ما حدث لك ليس سيئاً من كل جوانبه.»

الفصل السابع عشر

كان نظرها قد برأ كما برأت رثائها، ومثلما كانت تبتسم لا إرادياً في كل مرة كانت تأخذ فيها نفساً عميقاً، كانت مُنبهرة أيضاً برؤية أشياء مثل أوراق الأشجار أو الطريقة التي تتحرك بها عضلات تالأت تحت جلده حين يعدو عبر مَرعاه، فيركل ويرفس كمهرٍ صغير. خرجت إيرين في نزهاٍ طويلة بلا وجهةٍ عبر غابات وادي لوث الجبلي، أو سارت على حافة البحيرة الفضية تُشاهد انعكاس أقواس قُزَح صغيرة على الماء. وإن ظَلَّت غائبةً طويلاً جداً، كان لوث يأتي لِيُحْضِرْها؛ وقد بدا أنه قادر دائماً على العثور عليها دون أن يُواجه مشكلة في ذلك، مهما ابتعدت في تجوالها. وأحياناً ما كان يخرج معها حين تخرج في جولاتها تلك. وكانت إيرين قد توقَّفت تُحدِّق في شجرة تُشبه أشجاراً أخرى كثيرة، إلا أن أوراقها كانت تُلَوِّح لها؛ كل ورقة خضراء صغيرة ودقيقة وحادة الحواف كانت تهتزُّ لها وحدها حين يَمَسُّها النسيم؛ وكانت تبدِّل وجهها حتى يتسنَّى لإيرين أن ترى كلا جانبيها، والزخارف الشجرية المنمنمة للأوردة الخضراء، والتراكُّب البديع للفروع على الجذع وللغصون على الفروع والاندماج الرائع للفروع في الساق. وقد تعلَّقت كرمة خضراء بالشجرة والتفت حولها، وكانت أوراق الكرمة أيضاً تتحرَّك مع الريح.

قصف لوث بفتورٍ غُصِيناً من الكرمة وأعطاه إِيَّاهَا. وأخذته إيرين دون تفكير ثم عرفت ماهيته — إنه السوركا — فزال كل سرورها، وانحشرت أنفاسها في حلقها؛ وصارت أصابعها خدرة جداً حتى إنها عجزت عن إسقاط ما كانت مُمسكةً به.

زجرها لوث قائلاً: «أَمْسِكِيهِ. أَحْكِمِي قبضتكِ وكأنه نبات قَرَّاص.»

فانضغطت أصابعها المضطربة بعضها على بعض حتى انكسر الغُصَيْن وتسلَّل النُسخ الأخضر الباهت على راحتها. كان ملمسُه دافئاً بعض الشيء ومُسبباً للدغدغة، ففتحت

يدها في دهشة، فسار عنكبوت كبيرٌ مُشعرٌ على معصمها وتوقّف، وهو يُلوح لها برجلَيْه الأماميّتين.

أطلقت صوتاً يَنمُ عن المفاجأة واهتزَّ معصمها فوق العنكبوت على الأرض ومشى على مهلٍ مبتعداً. ولم تكن ثمة علامة على وجود غُصّين السوركا المكسور.

نخرَ لوث وهو يضحك، وحاول أن يُحوّل ضحكته إلى سعالٍ فشقق شهيقاً في اللحظة الخاطئة ثم سعلَ فعلاً. وقال أخيراً: «حقاً يُمكن لنبته السوركا أن تكون أداة مفيدة. ولا يمكنك أن تُحمليها فواجع طفولتك. إذا حاولت أن تتنفّس الماء، فلن تتحوّل إلى شجرة، بل ستغرقين؛ لكن يظلُّ شرب الماء جيداً.»

قالت إيرين: «حسناً»، وهي لا تزال تنتفض وتنتظر لحظة إصابتها بالغثيان أو الدُّوار أو شيء من هذا القبيل؛ لم تكن قد أمسكت بالنبته طويلاً، لكنها أمسكت بها طويلاً بما يكفي لأن يحدث لها شيءٌ مريع. «مذاق الماء لا يقتل من لا ينتمون إلى العائلة الملكية.» «حسناً. لكن حقيقة الأمر أن مسّ نُسغ السوركا أيضاً لا يقتل من ليسوا من العائلة الملكية، وإن كان تناوله سيُصيبهم بسُقمٍ شديد ولا شك، والنبته الملكية تُشكّل قصةً شائقة. إن الكيلار في دمكِ هو ما يُظهر الخصائص الغريبة لنبته السوركا؛ على الرغم من أن ميرث العجوز المسكين قتل نفسه بها بكلّ تأكيد. كما كنتِ ستقتلين نفسك لولا أن دماء والدتك تسري في عروقكِ؛ وأنتِ تستحقّين ذلك لأنكِ كنتِ حمقاء جدّاً بشأن تلك المدعوة جالوني. فأَيُّ شيءٍ قوي هو أيضاً خطير، ويجدر أن تتعاملي معه باحترامٍ أكبر من مجرد كونه حيلةً طفولية غبية كتلك.»

«تقصد جالانا.»

«أياً يكن. إنها لا تستخدم هبّتها إلا في تعظيم ذاتها، مع القليل من الأذى غير المُوجّه. إن تور لا يدرك كيف نجا بصعوبة؛ لو كانت تتمنّع بهبةٍ أكبر بشيءٍ طفيف، وكانت هبّته أقلّ بنفس المقدار لكان قد تزوّجها، طوعاً أو كرهاً، ولظَلَّ يتساءل بقية حياته عن سبب تعاسته.» ولم يبدُ أن ذلك الاحتمال قد سبّب للوثة أي حزن. «لكنكِ ليس لديكِ عُذر لنقعي في شراكها.»

«ما هو الكيلار؟»

أخذ لوثة مجموعةً من أوراق السوركا وبدأ يغزلها معاً. «إنه ما تُطلق عليه عائلتك اسم «الهبّة». ولم يتبقّ لهم من ذلك الكثير. أنتِ مُتبَيِّسة فيما تتمنّعين به من هبة — صمّاً. لم أنتهِ بعد — لأنكِ حاولتِ أن تخنقيها بجرعة زائدة من السوركا.» ورمقها بنظرة.

«على الأرجح أنك ستُعَانين دوماً حساسيةً طفيفة تجاهها بسبب ذلك؛ لكن ما زلتُ أعتقد أن بإمكانك أن تُسيطرِ عليها.»

«كنتُ في الخامسة عشرة من عمري حين أكلتُ السوركا و...»

«كلما كانت الهبة أقوى، تأخَّرتُ أكثر في الظهور، وقد نسيَ أفرادُ أسرتك المَعدومو البصيرة كلَّ ذلك فحسب؛ وذلك لأنهم لم يتعاملوا مع هبةٍ قويةٍ منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا. هبة أُمِّكِ ظهرت متأخرة. وكذلك هبة عمكِ.» ثم قَطَّبَ لوث حاجبيه وهو ينظر إلى الإكليل في يديه.

«أُمِّي.»

«إن معظم ما تتمتَّعين به من الكيلار هو إرث منها.»

قالت إيرين بتمهُّلٍ: «كانت أُمِّي من الشمال. فهل كانت إذن ساحرة — أو شيطانة — كما يقولون؟»

قال لوث بنبرة صارمة: «لم تكن شيطانة. ساحرة؟ بحقكِ. عجائز قريبتكِ، الذين يبيعون الكمادات ليدأواو التَّأليل، سحرة.»

«أكانت بشرية؟»

لم يُجِبها لوث من فوره. «يتوقَّف هذا على ما تقصدين بكلمة بشر.»

حدَّقت فيه إيرين، وكانت كل القصص التي سمعتها في طفولتها تملأ عينيها بظلال من الكآبة.

عاد الغموض يكسو ملامح لوث، وإن لم يُرَكِّز نظره إلا على إكليل السوركا في يده. «في الماضي، كان أناس غير بشريين كثيرون يعيشون في هذه الأرض. ولم يكن ذلك منذ زمنٍ بعيد. لكنَّ البشر لم تَرَفُهم تلك الفكرة، وكانوا يتجاهلون غير البشريين حين كانوا يلتقون بهم، والآن ...» هنا تلاشى الغموض عن ملامحه، ورفع عينيه عن يديه ونظر إلى الشجر، وتذكَّرت إيرين رسومات المخلوقات على جدران القاعة التي تنام فيها.

قال لوث بتأنٍّ: «لستُ أفضل من يطرح الأسئلة بشأن أشياء كالطبيعة البشرية. فأنا نفسي لستُ بشريًّا بالكامل.» ورمقها بنظرة. ثم أكمل: «حان وقت إطعامكِ مرةً أخرى.»

هزَّت إيرين رأسها، لكن معدتها زمجرت فيها؛ لم تكن معدتها تتوقَّف عن الإحساس بالجوع منذ سبحت في البحيرة الفضية. وبدا أن لوث يستمتع بإطعامها استمتاعًا ساخرًا وغريبًا؛ لم يكن طبَّاخًا ماهرًا، لكن لم يبدُ أن لهذا علاقة بالتفاخر بقدراته في الطبخ. بدا وكأنَّ مهامَّ المشعوذ لم تكن غالبًا تمتدُّ لتشمل الإشراف على المرضى المتماثلين للشفاء، وكان

يتعيّن باهتمامه، الذي أبداه في دوره المتواضع بوصفه مُعيلاً لها، أن يكون مُهيناً لكرامته، وكان خَجلاً بعض الشيء عندما اكتشف أن الأمر لم يكن على هذا النحو.
«إيرين»

رفعت ناظريها، لكن ظلال كآبة طفولتها كانت لا تزال في عينيها. ابتسم كما لو أن ذلك أَلَمه، وقال: «لا عليك.» ثم ألقى بإكليل السوركا على رأسها. استقرّ الإكليل حول كتفيها ثم تَمَوَّج فتحوّل إلى طيات فضية طويلة سقطت من كتفيها إلى قدميها، وتلاّلت كأضواء نجوم حين تحرّكت إيرين.
فقال لوث: «تبدّين كملكة.»

قالت إيرين في مرارة، وهي تبحث عن إبزيم لتحلّ به العباءة المُتلاثلة: «لا تفعل. أرجوك لا تفعل.»

فردّ لوث: «آسف»، وسقطت العباءة عنها، ولم يبقَ في يديها إلا رماذٌ فضيٌّ. أنزلت يديها إلى جانبيها، وشعرت بالخجل. «أنا أيضاً آسفة. سامحني.»

قال لوث: «لا يُهم»، لكنها مدّت يدها وفي تردّد وضعت إحدى يديها على ذراعه، فغطّى يدها بإحدى يديه. وقال: «لربما كانت ثمّة طريقة أفضل من ماء ميلداتار لإنقاذ حياتك. لكن تلك كانت هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها؛ كما أنك لم تتركي لي مُتسعاً من الوقت. ... فأنا لم أتلق تدريباً لأكون مُعالجاً.» وأغمض لوث عينيه، إلا أن يده ظلّت على يدها. «عادةً لا يكون المشعوذون مُعالجين. فهذا ليس بالشيء الباهر بما يكفي حسبما أظن؛ كما أننا قوم مُختالون إلى حدّ كبير.» وفتح عينيه مُجدداً وحاول أن يبتسم.

«إن ميلداتار هو ماء البصيرة، وينبوعه يصبّ في البحيرة هنا، «بحيرة الأحلام». نحن نعيش — هنا — على مقربة كبيرة من مجرى ميلداتار، لكن البحيرة تَمسُّ شطآنًا أخرى أيضاً وتنهل من ينابيع أخرى، لا أعرف أسماءها كلها. أخبرتك أنني لستُ مُعالجاً و... حين وصلت إلى هنا، أخيراً، كنتُ أكاد أرى ضوء الشمس من خلاله. فلولا تالات، لظننتُك شبحاً. أوحى لي ماء ميلداتار أن أُعطيك قدراً من ماء البحيرة؛ فماء البصيرة نفسه كان سينزع روحك مما تبقى من جسدك.»

«لكن البحيرة ... حتى أنا لا أفهم كلّ ما يجري في تلك البحيرة.» ثم سكت، وأبعد يده عن يدها، لكن أنفاسه حرّكت الشعر الذي سقط على جبهتها. وأخيراً قال: «يؤسفني أن أقول إنك لم تعودي ... فانية.»

حدّقت فيه إيرين، وتلاشت ظلال كآبة الطفولة لتحلّ محلّها ظلال كآبة آجالٍ مُستقبلية مجهولة كثيرة.

«إن كان في ذلك أيُّ عزاء لك، أنا أيضًا لستُ فانيًا. يتعلَّم المرء أن يتعايش مع هذا الأمر؛ لكن في غضون وقتٍ قصيرٍ إلى حدٍّ ما يجد المرء نفسه تشاق إلى وادٍ خاوٍ أو إلى قمة جبل. لقد كنتُ هنا...»

«من مدةٍ طويلة بما يكفي لتتذكَّر التنين الأسود.»
«أجل. من فترةٍ طويلة بما يكفي لتتذكَّر التنين الأسود.»
فهمست قائلة: «هل أنت متأكد؟»

فردَّ في عنف: «لا يمكن للمرء أن يكون متأكدًا من أي شيء؛ لكنها كانت قد عرفت أن غضبه لم يكن مُوجهًا إليها، بل إلى مخاوفه، فانتظرت. أغمض لوث عينيَّه مجددًا، وأخذ يفكر: إنها تصبر عليَّ. بحق الآلهة ماذا أصابني؟ إنني مُشعوذٌ مُجيد منذ أن وضع جوريلو العجوز العلامة عليَّ، وبإمكانه هو أن يتذكَّر المرة الأولى التي ظهر فيها القمر في السماء. وهذه الفتاة ذات الشعر الأحمر تنظر إليَّ مرةً واحدة بهاتين العينين الكحيلتين المحمومتين فيصيبني الهلع وأغمرها في البحيرة. ما خطُّبي؟

فتح عينيَّه مجددًا وأطرق بنظره إليها. كانت عيناها لا تزالان كحيلتين بلونٍ أخضر بُندقي، وكانتا لا تزالان تتوهَّجان بين الحين والحين بلهيبٍ كهربائي، لكنهما لم تعودا محمومتين، وصدمه هدوء عينيَّها الآن بشدةٍ بقدرٍ ما صدمه فيما مضى البريق المُحتضر فيهما. «لقد تبعتك، حين كنتِ تحت سطح الماء. تعيَّن ... تعيَّن عليَّ أن أجري مساومةً سيئةً إلى حدٍّ ما لأعيدك ثانيةً. ولم أكن أتوقَّع أن أضطرَّ إلى إجراء مساومة.» ثم سكت هنيهة. وأضاف: «أنا واثق جدًّا.»

اضطربت عيناها وأطرقت. ونظرت إلى يديها الموضوعة على ذراع لوث، ثم رفعت الأخرى لتلحق بها؛ وبلُطفٍ — وكأنها قد يروقُّها عزاءُه بقدرٍ ما راقها ما وهبها إيَّاه — وضع لوث ذراعه الأخرى حولها؛ ومالت في تمهُّلٍ إلى الأمام وأراحت رأسها على كتفه. قال لوث لها: «أنا آسف.»

ضحكت إيرين ضحكةً هامسة. وقالت: «لم أكن مستعدةً بعدُ لأن أموت؛ حسنًا، سأعيش أطول مما تمنَّيت.»

ثم تحرَّكت إيرين وابتعدت عنه وسقطت ذراعاها؛ لكن حين أمسك إحدى يديها في يده لم تحاول أن تسحبها. وأثارت الريح حفيفًا خفيًّا بين أوراق الشجر. وقالت بنبرة خفيفة: «لقد وعدتني بطعام.»
«أجل. تعاليَّ معي، إذن.»

كان طريق العودة نحو قاعة لوث ضيقاً؛ إذ كانا يسيّران جنباً إلى جنب، لأن لوث لم يكن ليترك يدها، تعيّن عليهما أن يسيّرا أحدهما على مقربة جداً من الآخر. وسُرّت إيرين لما رأت صخرة القاعة الرمادية تظهر عاليةً أمامها، وعند حافة الفناء الصغير انفصلت عن الرجل الذي كان إلى جوارها، وقطعت الدَرَجَ المُنخَفَضَ جرياً ودلفت إلى الغرفة الكبيرة العالية؛ وحين لحق بها كانت مشغولةً بالتظاهر بأنها تُدْفئُ يديها عند الموقد. لكنها لم تكن في حاجةٍ إلى دفع النار؛ لأن دمها كان مُضطرباً بصورة غريبة، وكانت الحُمرة على وجهها ترجع إلى ما هو أكثر من حمرة ضوء النار.

وأثناء تناولها طعامَ العشاء قالت: «لم أسمع أحداً آخر يُطلق عليها تسمية كيلار. كانوا يُسمونها الهبة وحسب، أو الدم الملكي.»

شعرَ لوث بالامتنان لأنها اختارت أن تكسر الصمت وأجابها بسرعة: «أجل، هذا صحيح، وإن كانت أُسْرَتِكَ قد أصبحت ملكيةً بناءً على تلك الهبة، وليس العكس. وقد أتت في الأصل من الشّمال.» ابتسم لوث لما رأى الصدمة بادية على وجهها. «أجل؛ إنكم والكائنات الشيطانية تتشاركون أحد الأسلاف، وقد عشتُم تحملون الكيلار عبر أجيالٍ كثيرة. وأنتم في حاجةٍ لذلك السلف المُشترك؛ فمن دون القوة غير الجسمانية التي تمنحكم الكيلار إيّاها، لما استطعتم أن تقاتلوا الكائنات الشيطانية، ولما أصبح لدامار وجود.»

ضحكت إيرين ضحكتها الهامسة ثانية، وقالت: «هذه لطمة ساحقة لأولئك الذين يُحبون أن يُشيروا إلى وضعي بأني هجينة.»

فقال لوث: «بالفعل»، ثم ومضَ سريعاً على وجهه الغضب الذي أصبحت مُعتادة إيّاه متى ما تحدّثاً عن بلاط أبيها الملكي. وأكمل: «إن جهلهم هائل حتى إنهم يرتعّبون من لمحةٍ من الحقيقة؛ وأنّ في حدّ ذاتكِ لمحة من الحقيقة.»

ردّت إيرين: «أنت تُبالغ بشأني. قد أكون كلّ ما تقول عني الآن، لكنني لم أكن من قبل شيئاً يُذكر، لم أكن سوى مصدر إزعاج وضرر؛ كنت مصدر ضررٍ على وجه الخصوص بسبب نِقمة أن الملك أنجبني، حيث لم يكن بالإمكان أن يتجاهلوني كما كنتُ أَسْتحق.»

قال لوث: «يتجاهلونك. ينبغي أن تكوني ملكةً بعد والدك. إن تور الموثوق والرصين هو مجرد غاصب.»

فأجابته حانقة: «كلّا. تور موثوق ورصين وسيكون ملكاً أفضل منّي بكثيرٍ إن صرت ملكة. وهذا من حُسن الطالع؛ لأنه لديه ميلٌ إلى أن يصير ملكاً، أما أنا فلا.»

سألها لوث: «ولم لا؟ إنكِ أنتِ ابنة أربليث.»
 أجابته إيرين: «من زيجته الثانية. لو أنَّ الملكة تاتوريا أنجبت طفلاً، بالطبع ذلك
 الطفل كان سيحكم خلفاً لأربليث؛ أو لا شك في أنه كان سيحكم لو كان ذكراً. لكنها لم
 تفعل. فقد ماتت. وليس من المفترض أن يتزوج الملوك ثانيةً على أي حال، ولكنهم قد
 يفعلون ذلك في ظل ظروفٍ قسريةٍ بالغة، كأن يكون الملك أرملًا ولا ولدَ له؛ لكن لا يمكن
 للملوك أن يتزوجوا من نساء غريبات مجهولات من سلالة هي موضعُ شك. أنا واثقة من
 أن الأمر كان مبعثَ ارتياحٍ عظيم لجميع المعنَّيين حين وضعت تلك الغريبةُ أنثى؛ فعادةً ما
 يتمكّنون من منعِ حتى الابنة الأولى من ذوي الأنساب التي لا غبار عليها من أن تترث؛ لذا
 كانت تَنحِيَّتِي جانباً بسهولةِ القَسَمِ بالآلهة السبعة المنزهة.»
 «تُفضّل جالانا أن تظنّ أنني لقيطة، لكنّي رأيت دفتر السجّلات، وأنا ابنة شرعية،
 لكنني لا أرقى إلى أن أكون وريثةً شرعية للعرش. إذ اختار الكهنة أن يُطلقوا على زواج
 أبي الثاني زواجاً مرغظياً (زواج الشريف من امرأةٍ من العوام)؛ فلم يُسمَحْ لأُمِّي حتى أن
 تحظى بلقب «زوجة مُكرّمة». تحسباً في حال أنجبت ولداً.»

كان إحساس إيرين بمرور الوقت مشوّشاً منذ واجهت ماور؛ وحين تعافت في وادي لوث
 الجبلي، كانت لا تزال تجد صعوبةً في تصديق أنَّ للأيام والأسابيع أيَّ معنى. وحين خطر
 لها أن أحد المواسم كان قد انتهى وأن آخرَ على مشارف الانتهاء، وأن تلك أشياء كان ينبغي
 لها أن تحيط بها علماً، تراجعت عن تلك المعرفة ثانيةً؛ لأنه حينئذٍ كان ما أخبرها به لوث،
 عن الثمن الذي دفعته لتستعيد حياتها ثانيةً، يظهر أمامها ويسخر منها. كان الخلود ثمناً
 أفضحَ بكثيرٍ مما كان يُمكنها أن تتخيّل.

وبينما كان الهواء يزداد برودةً والعشب في المرعى يتحوّل إلى اللون البُني والبنفسجي
 الباهت، وبينما توقّفت الأزهار عن التفتّح، تظاهرت إيرين بأنها تحيط بهذه الأشياء علماً
 باعتبارها ظواهرَ منفردة. وأخذ لوث يُراقبها، وكان يعرف الكثير مما كانت تُفكّر فيه، لكنّه
 لم يكن يملك لها أيّ تعزية؛ كان كلُّ ما باستطاعته أن يُقدّمه إليها هو معرفته، بالسحر،
 وبالتاريخ، وبدامار؛ وبالعوالم التي ارتحل إليها، وبالأعاجيب التي عاد بها. علّمها لوث
 بحماسة، وتعلّمت هي عنه بتلّهُف، فكان كلُّ منهما يُشَتّت الآخر عن شيءٍ لم يستطع كلُّ
 منهما بعد أن يُواجهه. وتساقط الثلج، فأمضى تالوت والماشية والأغنام أيامهم في الحظيرة
 المفتوحة المنخفضة عند طَرَفِ مرعاهم؛ وفي بعض الأحيان كانت بعض الأيائل تنضمُّ إليهم

لدى تناولهم التبغ والشوفان؛ لكن كانت الأيائل تأتي في غالب الأمر من أجل الرفقة — ومن أجل الشوفان — لأن الشتاء لم يكن قاسياً في المكان الذي كان فيه لوث، ولم يكن الثلج يكسو شواطئ بحيرة الأحلام قط.

وأحياناً كان ما تتعلّمه يُصيبها بالخوف، أو لعلّ قدرتها على تعلّم تلك الأشياء من مشعوذ هي التي أخافتها؛ وذات يوم سألته بشكلٍ لا إرادي: «لماذا تُخبرني ... بهذا القدر الكثير؟»

أخذ لوث يتأمّلها. وأجابها: «أخبرك ... بما أنت في حاجةٍ إلى معرفته، وبما استحققتِ جدارةً أن تعرفيه، وبما لن تضرك معرفته ...» ثم سكت.

«وبعد؟»

رفع لوث يديه وحاجبيه؛ وابتسم ابتسامةً باهتة. ولع ضوء شمس الشتاء الضعيفة على شعره الأصفر وتلألأ في عينيهِ الزرقاوين. لم يكن ثمة خطوط في وجهه، وكانت كتفاه المحدودتان مُستقيمتين ومتوازنتين؛ رغم ذلك ما زال يُحِيل إليها أنه عجوزٌ، عجوزٌ بعمر الجبال، بل وأكبر عمراً حتى من القاعة الرمادية الكبرى التي كان يقطنها، والتي بدت وكأنها موجودة منذ أول يومٍ سطعت فيه الشمس على البحيرة الفضية. أكمل لوث يقول:

«أحياناً أخبرك فقط لأنني أرغب في أن أخبرك.»

أصبحت دروس إيرين أطول وأطول؛ ذلك أنّ قدراتها الذهنية ازدادت بازدياد قدراتها الجسدية؛ وبدأت تُحب التعلّم لأجل التعلّم في حد ذاته، وليس لمجرد حقيقة وجود كيلار في دمها، ولأن أسرة ملك دامار ليست في حاجة لأن تتنصّل منها؛ وحينها لم يكن ثمة ما يكفيها لتتعلّمه.

قال لها لوث مُبتسماً، ذات ظهيرة باهتة، فيما كان الثلج يتساقط خفيفاً بالخارج:

«سيتعيّن عليّ أن أمنحك علامة المشعوذ عمّا قريب.»

وقفت إيرين وأخذت تذرع الأرض بخطواتها في قلق، ضعف طول القاعة نحو الباب المفتوح، ثم تعود إلى الموقد والطاولة التي كان يجلس إليها لوث. كانت القاعة مثالية لغرض المشي فيها؛ فقد كان المشي فيها يَستغرق بضعة دقائق لينتقل المرء من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ويعود ثانيةً حتى إلى الأكثر تَمَلُّلاً. وكان بابها يبقى مفتوحاً طوال العام؛ ذلك أن البرد كان يظلّ في الخارج بطريقةٍ ما، وكانت التيارات الهوائية الوحيدة في القاعة هي التيارات الدافئة المنبعثة من الموقد. أخذت إيرين تُحدّق في الباحة البيضاء المتلألئة بضع لحظات قبل أن تعود إلى لوث والطاولة أمام النار.

ثم قالت: «أتيت هنا أولاً طلباً للشفاء وثانياً للمعرفة، لكنني، بحق الآلهة، لا أدري إن كان باستطاعتي تحمّل أيّ منهما. ومع ذلك لا أملك أيّ خيار. ومع ذلك لا أعرف حتى ما رغبت في معرفته.»

وقف لوث، لكنه لم يتحرّك سوى بضع خطواتٍ قليلةٍ مُقترَباً من المدفأة. وقال لها: «سأخبرك بكل ما يجوز لي أن أخبرك به.»

فردّت إيرين في شراسة: «ما يجوز لك. ما الذي لا يجوز لك أن تُخبرني به؟ ماذا أكون الآن، بعدما لم أعد لا بشرية — وأنا أفهم أنني لم أكن قط بشرية — ولا فانية، وقد كنتُ كذلك؟ لماذا شفيتني؟ لماذا استدعيتني إلى هنا من الأساس؟ لماذا تعلّمني الكثير الآن حتى إنك تهذدني بعلامة المُسعوذ، حتى يخاف مني كلُّ من ينظر إليّ؟ سيكون ذلك مُمتعاً ومُسلياً للغاية في موطني كما تعلم، فأنا أتمتّع بالشهرة هناك بالفعل. لماذا؟ لماذا لا تطلّب مني أن أرحل؟» ثم سكتت وأطرقت تنظر إلى قدميها. وأكملت: «لماذا لا أغادر فحسب؟» تنهّد لوث. وقال: «أنا آسف. مُجدداً. ظننتُ أنه قد يكون من الأسهل أن يكون لديك أولاً فكرة عما تتمنّعين به من قوة.»

كانت لا تزال تُحدّق في حداثها، فخطا لوث خطوةً إلى جوارها ولمس إحدى كتفَيها في تردّد. حدّبت كتفَها وأشاحت بوجهها عن لوث. كان شعرها الآن يكاد طوله يصل إلى كتفِها، وقد سقط على وجهها كأنه حجاب. أراد لوث أن يُخبرها بأسبابِ حتمية بقائها، أسبابِ وجيهة وصادقة وتتعلّق بدامار، أسباب ستتنفّهمها وستقرُّ بها؛ أسباب وُلدت معها باعتبارها ابنة الملك، بغضّ النظر عن أنّ قومها جعلوها منبوذة؛ أسباب سيتعيّن عليه أن يُخبرها بها عما قريب على أي حال. لكنه أراد ... «أترغبين في الرحيل إلى هذا الحد؟» هكذا قال لها في حزن.

فجاءه صوته خفيضاً من خلف شعرها: «لا يُهمّ ذلك كثيراً. فلا أحد يفتقدني.»

فقال لوث عابساً: «تور.»

قالت: «أوه، تور»، وفجأةً أصدرت ضحكةً مُختنقةً غير مُتوقّعة، ثم رفعت يدها وأزاحت الحجاب، وهي تفرّك خديها على عجل. وكانت عيناها لا تزالان تلمعان بشدة بعض الشيء. «أجل، تور وأرلبيث أيضاً، وأشعر حقاً بالسوء حيال تيكا؛ لكنني أُخمن أنهم يعيشون على أمل، ويظنون أنهم سيروني ثانية. لا أمانع أن أبقى هنا ... وقتاً أطول قليلاً. فأنا لا أودُّ أن أرتحل في الشتاء على أي حال.»

ردَّ لوث بنبرة جافة: «شكرًا لك. سأكون مُستعدًّا بحلول الربيع ... لأن أجعلك تمضين عائدةً في طريقك.»

سألته إيرين في رفق: «وأي طريق سيكون ذلك؟»
أجابها لوث: «إلى أجسديد. ذلك الذي يتحكَّم في مستقبل دامار.»
سألته: «أجسديد. لا أعرف هذا الاسم.»

«إنه هو مَنْ يُرسل الشرور عبر حدودكم؛ وهو مَنْ حرَّض نيرلول على التمرد مدةً كافية لكي يُشَتَّ أربليث ويُكْدَّر صفوه، وهو مَنْ أيقظ ماور، وهو مَنْ يُناوش مدينتكم الآن بزبانيته، وسيتحرَّك جيشه صوب الجنوب في الربيع. اسمه أجسديد، وإن لم يكن هناك أحدٌ يعرف اسمه الآن، وجنرالات الشمال يعتقدون أنهم مُتحدون معًا ليس على شيء سوى كرههم المشترك فيما بينهم لدامار.»

«إن أجسديد ساحر — مشعوذ مُجيد، بل هو أعظمهم. وعلامته مُشعَّة جدًا حتى إنها يمكن أن تُصيب أيًّا ممن ينظرون إليها من البسطاء بالعمى، وإن كانوا لن يعرفوا إلّامْ نظروا. لقد عرفتُ أجسديد منذ زمن بعيد؛ كان أحد تلاميذ جوريلول؛ كان أفضلنا جميعًا وكان يعرف ذلك؛ لكن حتى جوريلول نفسه لم يرَ عمقَ ما لدى أجسديد من كِبَر ... وكان لجوريلول تلميذة أخرى من أسرة أجسديد؛ كانت تلك التلميذة هي أخت أجسديد. كانت تلك الأخت تخشى أخاها، كانت دومًا تخافه؛ كان خوفها مما يُمكن لِكِبَرِه أن يتسبَّب به وهو ما قادها معه إلى جوريلول، لكن قبول جوريلول بها كتلميذة له كان عن جدارةٍ منها واستحقاق.»

«أما أنا ... فسيتحتم عليَّ أن أُرسلِك إلى وكر التنين ثانيةً، وأنا بالكاد شفيتكِ مما حلَّ بكِ من مواجهتكِ للتنين الأسود، ولشفائي لكِ هذا ثمنٌ فادح. إن مَثَل أجسديد لماور كَمَثَلِ ماور للتنانين الصغيرة. إنني أَعْلَمُكِ ما يجوز لي أن أَعْلَمُكِ إياه لأن هذه هي الدرع الوحيدة التي يجوز لي — ويُمكنني — أن أعطيكِ إيّاها. لا يُمكنني أن أواجه أجسديد بنفسِي؛ لا يُمكنني ذلك.» ثم انفجر لوث يقول: «بحق الآلهة والجحيم التي لم تسمعي بها من قبل، أتحسبن أنه يروِّفني إرسالُ طفلةٍ إلى مصيرٍ مشئوم كهذا؛ مصير أعرف أنني أنا نفسي لا أستطيع أن أواجهه؟ من دون شيء يحميها سوى نصف عامٍ من فُتات الدراسة والتدريب على السَّحر؟»
«أعرف يقينًا من سلّاتي أنني لا أقدر على هزيمته؛ وإن كنتُ قد تمكَّنت من خلال سلّاتي هذه أن أتصدَّى له طوال كل تلك السنوات، حتى يتسنَّى للبطل المختار — الذي هو من سلّالته — أن ينمو ويكبر ليقوى على مواجهته؛ فلن يستطيع أن يَهزمه إلا واحدٌ

من دمه.» ثم أغمض لوث عينيه. وأردف: «صحيح أن أمك أرادت ولدًا؛ فقد اعتقدت أنه إن كان من سيهزمه من دمه فلا بد أن يكون من جنسه، وكانت تعزو فشلها هي نفسها إلى ذلك. شعرت أمك أنها لم تستطع أن تقتل أخاها لأنها امرأة.»
همست إيرين تتساءل: «أخاها؟»

هنا فتح لوث عينيه. واستطرد وكأنه لم يسمعها: «لو كانت قد حاولت، لفشلت رغم ذلك، لكنها لم تُطِق أن تُحاول؛ حتى سعى أجسديد، الذي كان يُعرف بالنبوءة كما كانت تعرفها، وذلك قبل وقتٍ طويل من أن يكون ثمة حاجة لأن يعرف بها أحد، ليُجندها طوعَ رغبتَه وإلا قضي عليها.»

«ولم يستطع أجسديد أن يُجندها طوعَ رغبتَه؛ لكنه كاد يُحقِّق مسعاه الآخر، وفي النهاية ماتت من السُّم الذي قدَّمه إليها.» نظر إليها لوث، وتذكَّرت إيرين اليد التي لم تكن يدها وكانت تُمسك بقدح، والصوت الذي لم يكن صوتَ لوث وهو يقول: «اشربي.» أكمل لوث: «لكنها في تلك الأثناء كانت قد هربت صوبَ الجنوب، ووجدت رجلًا يتمتع بالكيلار في دمه، وحملت منه طفلًا. لم تكن تملك من القوة سوى ما يُعينها على حمل الطفل قبل أن تموت.»

ثم التزم لوث الصمت، ولم تجد إيرين شيئًا تقوله. كان عقلها يضجُّ بأجسديد؛ قبل لحظةٍ أخبرت لوث أنها لا تعرف هذا الاسم، لكنها الآن على استعدادٍ لأن تقسم أنه كان يسكن كلَّ ذرة حزن من قبل ولادتها؛ أن تقسم أن أمها همست باسمه لها وهي في رحمها؛ أن تقسم بأنها تشعر على لسانها بطعم اليأس الذي قتل والدتها. أجسديد، الذي هو مقارنةً بماور مثل ماور مقارنةً بأول تنين قتلته، وكان بإمكان أول تنين قتلته أن يقتلها — وقد قتلها ماور بالفعل؛ ذلك أن الوقت الذي تعيشه الآن ليس بوقتها. أجسديد، الذي هو من دمها؛ فهو شقيق والدتها.

شُعرت إيرين بالخدر يسري في جسدها؛ حتى المشاعر الجديدة التي كانت قد استيقظت فيها منذ أن غاصت في بحيرة الأحلام وتعمَّقت في تعاليم لوث لها، كانت كلها خدرة، وعَلِقت إيرين في فراغ كبير، سجيئة اسم أجسديد.

وبعد أن سكَّت برهةً قال لوث، وكأنه يحدث نفسه: «لم أظنَّ أن قوة الكيلار التي بك ستختبئ منك هكذا. ربما كان السبب في ذلك ما أقدمت عليه من أدنى لنفسك ولِهَبَتِكَ بأكل السوركا. وربما لم تكن والدتك قادرةً تمامًا على أن تحمي الطفل الذي حملت به من الموت القريب منها. اعتقدت أنك في حاجةٍ لأن تعرفي ولو شيئًا من الحقيقة على الأقل؛ اعتقدت ذلك

حتى رأيْتُكَ تُجَابِهينِ ماورِ بشيءٍ يفوق قليلاً الشجاعةَ البشريةَ البسيطة، وإيمانٍ طائشٍ بفاعليةِ مُستحضرٍ علاجي رديءٍ كالكينيت في مواجهةِ التنينِ الأسود. وعرفت حينها أنَّني لم أكن مخطئاً بشأنك فحسب، بل إنَّ أوانَ إنقاضي لكِ من الآلامِ التي قد تُسبِّبها لكِ سذاجتُكِ قد فات؛ وخشيتُ أنكِ قد لا تُنجينِ من ذلكِ اللقاءِ من دونِ الاعتمادِ على قوةِ الكيلارِ لديكِ. وكدتُ أن أكونَ مُحققاً بشدةٍ في ذلك..»

«كنتُ مشغولاً كثيراً بينما كنتِ تكبرين، وأنا لا أنتبهُ للأعوامِ كما تفعلون؛ ولم أحرسكِ كما كان ينبغي لي أن أفعل. كما وعدتُ والدتكِ أنني سأفعل. أنا آسف، أقولها ثانيةً. لقد تأسَّفتُ على الكثيرِ من الأشياءِ معكِ، ولا يُمكنني فعلُ الكثيرِ بشأنِ أيٍّ من ذلك..»

«اعتقدتُ أنكِ ستكبرين وأنتِ تعرفين أن ثمةَ قدرًا ما ينتظركِ؛ تصورتُ أن ما يجري في دمكِ لن يسعَه سوى أن يُخبركِ بالكثير. تصورتُ أن الأحلامِ الصادقةِ التي أرسلتها لكِ ستُخبركِ بذلكِ بالضبط. تصورتُ الكثيرِ من الأشياءِ التي كانت خاطئةً.»

قالت إيرين بتبلد: «ربما حاول الكيلار أن يُخبرني، لكن شُوشت الرسالةَ بطريقةٍ ما. مما لا شك فيه أنني تأكدتُ أن قدرِي مُختلفٌ عما كان ينبغي لقدَّرِ ابنةَ أرليث أن يكون، لكن ذلك كان استنباطاً يمكن لأيِّ أحدٍ أن يفعله.»

نظر لوث إليها، ورأى اسمَ خالِها وكأنه مطبوع على وجهها. فقال مُمازحاً: «إذا أردتِ فسأذهب بنفسي إلى مدينتكِ وأضربُ كلَّ من رأسي بيرليث وجالوني بالآخر.»

حاولت إيرين أن تبتسم. وقالت: «سأتذكر هذا العرض.»
«أرجوكِ. وتذكَّري أيضاً أنني لا أتركُ جبلي هذا مُطلقاً، فانظري إذن كم أشعر بالأسف في المقام الأول.»

تلاشت ابتسامةُ إيرين. وسألتهُ كما سألت تيكاً قبل زمنٍ طويل: «هل أشبهُ والدتي حقاً؟»

نظر إليها لوث مجدداً، وتزاحمت في رأسه أشياء كثيرة يريد قولها. ثم قال أخيراً: «أنتِ تُشبهينها كثيراً. لكنكِ أفضلُ منها.»

الفصل الثامن عشر

بعد هذا، أصبح الشتاء قصيرًا فجأة، رغم الكوابيس عن رجل يرتدي عباءة حمراء وله عينان ألمع من عيون التنانين. وذاب الثلج مبكرًا جدًا، ومبكرًا جدًا أيضًا خرج أول البراعم المغلقة من الأشجار، وفارقت أولى البواكير الأرجوانية الزاهية عشب العام الماضي الجاف. وكان ثمة رائحة أريج عبقة في الجو، وظلت إيرين ترى أشياء في الظلال عند آخر ما يمكن لبصرها أن يبلغ، وتسمع ضحكاتٍ عاليةً جدًا بحيث لم تكن تستطيع أن تجزم أنها لم يكن يُخَيَّل إليها. وفي بعض الأحيان حين كانت ترى تلك الأشياء أو تسمعها كانت تلتفت بسرعةٍ لتنظر إلى لوث، الذي غالبًا ما كان يُحَدِّق في نقطةٍ متوسطة البُعد وترتسم على وجهه ابتسامةٌ مُبهمة بلهاء.

قالت إيرين: «أنت لست وحدك تمامًا هنا، أليس كذلك؟» وفوجئت بأنها شعرت بشيء ظنَّت أنه غيرة.

أعاد لوث تركيزَ انتباهه لينظر إليها نظرةً جادة. «لا. لكن ... أصدقائي ... في غاية الخجل. هم أسوأ خجلًا مني.»

أجابته إيرين: «سأُعَادِر عما قريب على أي حال. عما قريب سيعودون إليك.»

لم يردَّ عليها لوث من فوره. «أجل. عما قريب.»

أخرجت إيرين سرج ثلاث والعُدة ونظَّفت كلَّ شيءٍ ودهنت الجلد بالزيت؛ وبناءً على طلبٍ منها قدَّم إليها لوث قماشًا ثقيلًا وقطعًا جلديةً نحيلة، فجَهَّزَت درعًا جلديَّةً بسيطة، ذلك أن غارب ثلاث كان هزيلًا على أن يحمل سرجًا بصورةٍ موثوقة. كما صنعت أيضًا جرابًا جلديًّا صغيرًا لتحمل فيه حجر التنين، الذي كان موضوعًا تحت زاوية من فراشها، وعلَّقت الجراب في رقبتِها بشريطٍ جلدي. ثم أمضت ساعات وساعات تُمشط ثلاث فيما أخذ

شَعْر الشتاء يرتفع من حولهما كالسحاب وكان تالأت في أثناء ذلك يُبدي بوجهه تعبيراتٍ شنيعةً تعبر عن النشوة والابتهاج.

ذات مساء دخلت إيرين إلى القاعة الرمادية عند الغسق وهي تقطر ماءً بعد أن أسقطت قدرًا كبيرًا من الشعر والغبار في الحمام، ووجدت لوث يزيل الأغطية عن سيف. كان القماش أسودَ ومهترئًا وكأن ذلك بسبب قدمه، لكن غمد السيف كان يلمع بلونٍ أبيض فضي، وكانت الجوهرة الزرقاء الكبيرة المثبتة في مقبض السيف براقّة كالنار. تنهّدت إيرين في انبهار وهي آتية من خلفه.

التفت لوث إليها وابتسم، وقدم إليها مقبض السيف وهو يمسك به في قطعة من القماش الأسود الرث. أمسكت به إيرين من دون تردّد، وكان ملمسه ناعمًا كالزجاج، وبدا أن مقبضه يُناسب يدها تمامًا. وحرّرت إيرين السيف من الغمد فبرق في الحال بريقًا شقّ أبعد بقعةً مظلمة في قاعة لوث الدائمة الظلمة، وبدا وكأن صدّى قصفٍ شديد أصمّ المرأة الحمراء الشعر والرجل الأشقر الطويل؛ إلا أن أيًا منهما لم يسمع شيئًا. ثم بدا السيف مجردًا، يتلأأ بضوءٍ خافت في ضوء النار وبه جوهرة كبيرة زرقاء عند قمة مقبضه.

قال لوث: «بلى، كنتُ أميل إلى الظن أنه لك. قال جوريولو إنني سأعرف حين يحين الوقت. الغريب أنني لم أفكر فيه في وقتٍ أبكر؛ لن تجدي حليفًا لك أمام أجسديد أفضل منه.»

«ماذا — من هو؟» هكذا قالت إيرين وهي تُمسك بطرفه باستقامةٍ حتى يجري ضوء النار على طول نصليه وكأنه ماء.

قال لوث: «اسمه جونتوران. وجدته ... قبل وقتٍ طويل ... في أسفاري نحو ... الشرق. قبل أن أستقر هنا. وإن كنتُ أرجح أن يكون قد دعاني إليه؛ فلم يكن ثمة سببٌ وجيه لأن تتملكني رغبةً في أن أنطلق في رحلةٍ طويلةٍ نحو الشرق. فلم يكن من طبعي حبُّ السفر.» سألته إيرين قائلة: «دعاك إليه؟» وإن كانت لا تجد أيَّ صعوبةٍ في تصديق أن هذا السيف بعينه يمكن له فعل أي شيء، كأن يقفز أعلى من القمر، أو أن يحول نفسه إلى قوةٍ ماحقة، أو أن يتحدّث بأحاجٍ يمكن أن تكون نبوءات.

فأجابها لوث: «تلك قصة طويلة.»

أبعدت إيرين عينيها عن السيف مدةً طويلة بما يكفي لترمقه بنظرةٍ سخط واستياء. وأكمل: «سأقصُّها عليك يومًا»، لكن صوته لم يكن مُقنعًا.

قالت إيرين في هدوء: «سأغادر عند غرة القمر التالي.»
وقال لوث: «أجل»، قالها بنبرة ناعمة للغاية حتى إنها لم تسمعه، لكنها عرفت أنه لا بد أن يوافق؛ وانزلق جونتوران كالحرير في غمده. وفقًا لا ينظران إلى أي شيء، وأخيرًا قالت إيرين مُمازحة: «من الجيد أن أحظى بسيف؛ فقد تركتُ سيفي في المدينة، ذلك أنني أقسمتُ عليه بخدمة الملك وشئونه؛ مع أن أربيث لو عرف بأمر أجسديد لأقرُّ بأنه من شئون الملك.»

فقال لوث: «سيفعل؛ لكنه ما كان ليُقرَّ البتَّة بأنه شأنك، حتى ولو عرف القصة بأكملها. أربيث رجل فاضل، لكنه ... تقليدي. لكن جونتوران سِيرافك، وهو أفضل من عصية من فرسان دامار.»
وقالت إيرين: «وأسهل في إطعامه.»

فقال لوث: «يجب أن تنطلقِي جهة الشمال. جهة الشمال والشرق. أظن أنك ستجدين الطريق.»

وقف ثلاث ساكنًا فيما كانت إيرين تربط آخر حُزْمَةٍ خلف سرجه، لكنَّ أذنيه كانتا تنطقان بنفاد صبره. قالتا إن المُقام كان سارًّا وسائغًا، وإنهما سيُسْرُهما أن يعودا في يومٍ ما؛ لكن الوقت قد حان لينطلقا الآن.

ربطت إيرين جزاءً بأن سحبتَه للمرة الأخيرة ثم التفتت إلى لوث. كان لوث يقف إلى جوار أحد الأعمدة أمام قاعته. حدَّقت إيرين وثبَّتت نظرها على سُترته المفتوحة الرقبة حتى لا تُضطرَّ إلى رؤية أشعة شمس الربيع اللطيفة المُشرقة وهي تتراقص في شعره؛ لكنها وجدت نفسها تُشاهد نبضًا صغيرًا سريعًا ينبض في جوف حلقه، ومن ثمَّ حَوَّلَتْ انتباهها إلى كتفه اليسرى. قالت: «وداعًا. وشكرًا لك. أممم»

امتدَّت نحوها الذراع المتصلة بالكتف التي كانت تنظر إليها، وكانت منهمكة كثيرًا في ألا تفكر بشأن أي شيء آخر حتى إن قبضة تلك الذراع أمسكت بذقنها قبل أن تُفكر في جفول مُبتعدة. وبذلت اليد جهدًا نحو الأعلى فانتثنت رقبَتُها على مضضٍ نحو الخلف، لكن عينيها كانتا مثبتَتَيْن على ذقنه وظلَّتا كذلك.

قال لوث: «مهلاً، هذا أنا، أتذكّرِيني؟ ليس من المسموح لك أن تتظاهري بأنني لستُ موجودًا إلا بعد أن تُغادري جبلي.»

رفعت عينيها والتقت بعينيّه؛ فابتسمت العينان الزرقاوان للعَيْنَيْن الخضراوين المُحتجِبَتَيْن. أرخى لوث يده وقال ممازحًا: «لا بأس، افعلي ما يحلو لك. أنا لست موجودًا.»

كانت قد أشاحت بوجهها بالفعل، لكنها التفتت له حين قال ذلك، فطوّقتها بذراعيه ووقفاً هكذا بينما سطعت الشمس على جسديهما الساكنين وعلى الجواد المتمليل.
حرّرت إيرين نفسها في نهاية المطاف وألقت بنفسها على سرج الحصان فكانت بطنها إلى السرج ودارت بساقها على عجل من الخلف فضربت حزمة من أمتعتها بحذاءها إثر ذلك. فنحّرت تالأت.

قال لوث من خلفها: «عودي إليّ».

فقال صوب أذنيّ تالأت: «سأفعل»، وبعد ذلك مضى تالأت يهرول بخفة على الطريق. وكان آخر ما رأى لوث منهما هو لمعة زرقاء شاردة من قبضة السيف.

بدا وكأن الربيع يتفجّر من حولهما في كل مكان وهما يمضيان، وكأن حوافر تالأت الصغيرة المستديرة تضرب في الأرض خضرة؛ وكأن آخر شعرات طبقة شعره الشتوية البيضاء تبث في الأرض سحراً عندما تلمسها. وحين كانا ينامان، كانا ينامان في فرج شجرية صغيرة بدأت الأوراق تزهر فيها للتو؛ لكن في الصباح وبطريقة ما تكون الأوراق متفتحة وثقيلة من كثرة نسغها؛ حتى العشب الذي ترقد عليه إيرين كان يزداد كثافة أثناء ساعات الليل. وبدا أن تالأت يزداد شباباً يوماً بعد يوم، فكان لونه الأبيض اللامع يتألق في ضوء الشمس، وكان يعدو الميل تلو الآخر بلا كلل؛ وكانت الطيور تتبعهما كما كانت الأوراق تتفتح لهما والزهور تبث عبيرها من حولهما. رأت إيرين كلّ ذلك وتعجّبت، وظنّت أنها يُخيل إليها أشياء؛ وقد لا يكون هذا تخيلاً؛ لكن الشمس أنبأتها بأنهما كانا يتجهان شمالاً بثبات وانتظام، ودكّرهما ملمس جونتوران الصلب في يدها بسبب ارتحالهما.

كانا في بداية الرحلة قد نزلا إلى سهل الغابة حين تركا لوث، ثم انعطفا يميناً — أو جهة الشمال — في سفوح التلال؛ وهنا كان العشب ينمو حتى ركبتيّ تالأت، فكان يتعيّن عليه أن يشقّ طريقه خلاله بصعوبة محدثاً صوت اندفاع كأنه مقدمة سفينة تمخرّ عباب البحر. أمامهما كان العشب أرفع؛ وخلفهما رأت إيرين، حين التفتت لتتأمل، أن العشب كان أعلى نمواً في المسار الذي سلكاه، وكان العشب يتموّج من ذلك المسار بموجات متوقّسة عريضة. ضحكت إيرين. وقالت في نفسها: «أعتقد أننا نرتحل ومعنا رفقة في نهاية المطاف، وإن اختارت الرفقة أن تلزم الصمت».

نصب تالأت أذنيه جهة الخلف ليستمع إليها. لكن سرعان ما صعدا إلى الجبال ثانية، وهناك كان الربيع يلقي صعوبة أكبر في أن يتبعهما، وإن كان قد استمرّ في محاولة ذلك. ولم تكن إيرين تدرك شيئاً عن وجهة تالأت

مثلما لم تكن تُدرك شيئاً عن ذلك حين انطلقا يَبْغِيَانِ الوصولَ إلى لوث؛ إذ كان كلاهما يعرف إلى أين كانا يتجهان كما أن وجهتهما كانت تجذبهما؛ وخلفهما كان الربيع يحتُّهما على المضي قُدماً. أخذَا يَمْضِيَانِ أعلى وأعلى، فكانت الشمس تشرق فوق رأسيهما وتغيب خلف ظهريهما، ولم تُعد الأرض من تحتها عشبية؛ بل صارت صخرية، فأخذت حوافر تالأت تجلجل وتصدر رنيناً حين تدبُّ على الأرض.

حين مسّت حوافر تالأت الأرض الصخرية أول مرة، أصدرت دقاتها تنبيهاً شديداً؛ بدا أن الحوافر تقصف بأصوات الهلاك والفقد والإخفاق، وأجفل تالأت من وقع أقدامه. فقالت إيرين: «ترهات»، ونزلت عن صهوته، مُمسكةً جونتوران في يدها؛ ثم لوّحت به فوق رأسها وإلى الأسفل، ثم طعنت به المسارَ من تحتها، ولم يكن المسار صخرياً على الإطلاق بل كان ترابياً؛ وبينما سحبت نصل السيف خارج الأرض ثانية، كان هناك بعض سُوق الأعشاب الصغيرة المسحوقة بالثقب الذي أحدثته بالسيف. ركعت إيرين على رُكبتها، والتقطت حَفنة من التراب والحصى من قطعة الأرض الصغيرة التي تفتّتت تحتها؛ وألقت بالحَفنة على المسار الصخري من أمامها بقدر ما أمكن لذراعها أن تقذف؛ وبينما كانت الحَفنة التي ألقتها تفتّتت، أخذت أجزاءها تُومض. ثم ألقت بحَفنة أخرى بعد الأولى؛ وحين ألقت بتلك في الهواء كانت رائحتها كرائحة أوراق نبتة سوركا مسحوقة، ولما نظرت أمامها رأت شجيرة رمادية هزيلة تحمل أوراقاً خضراء، وكأن عينيها غفلت عنها وحسب في المرة الأولى؛ وفي الجزء الأعلى من فروعها ظهر عصفور، وكان العصفور يُغرّد؛ وحول أسفل الشجرة نما برعمُ نبتة سوركا؛ الأمر الذي فسّر وجود الرائحة النفاذة الثقيلة في الجو.

قالت إيرين بنبرة جافة: «يا له من مكانٍ يبعث على السرور»، لكن بدا أن كلماتها قد سُحبت بعيداً وتردّد صداها في مكانٍ ضيقٍ لم يكن المكان الذي تقف فيه. أحكمت قبضتها قليلاً على مقبض جونتوران، لكنها رفعت ذقنها وكأنَّ هناك احتمالاً بأن أحداً ما كان يُراقبها، وعادت تعتلي صهوة تالأت. والآن صارت حوافره ترنُّ في مَرَجٍ وابتهاج، وكأنها دقات حوافره على الطرق الصخرية في المدينة؛ وكان هناك عشبٌ ينمو في شكل خُصل بين الصخور، وبعض الأزهار البرية مُتعلّقة بالشقوق والصدوع فوق رأسيهما.

وزاد شعورها بأنَّ هناك مَنْ يُراقبها أثناء تقدُّمهما، إلا أنها لم ترَ أحداً، عدا ليلاً ربما، حين بدا أنَّ هناك خشخشةً أكثر مما كان عند وجودهما في السهل، كما كان هناك المزيد من الومضات الخاطفة التي ربما كانت عيوناً. وفي الليلة الخامسة منذ أغمدت جونتوران في

الأرض، والثانية عشرة منذ رحلت عن لوث، وقفت إيرين قُرب النار ونادت في الظلام: «فلتأتِ إذن، ولتُخبرني بما تريد.» فزعت من صوتها؛ لأنه بدا وكأنه يعرف ما يفعل، وكانت هي واثقة تماماً من أنها لم تكن تعرف ما تفعل؛ ومن ثمَّ ترتَّحت وكادت تسقط حين أتاها بالفعل شيءٌ بعد بضع دقائق، وضغط على الجانب الخلفي من فخذَيها. لم تتحرك؛ ورأت أمامها ومضات أزواج كثيرة من الأعين تقترب منها، تقريباً عند نفس مستوى ارتفاع مخلوقات بحجم المخلوق الذي ضغط على ساقَيها. كانت ذراعها متقاطعتين على صدرها؛ وفي تردُّد لا نهائي أرخت مرفقها الأيمن وتركت يدها تتدلى خلف ظهرها على ساقها، وهنا شعرت بأنفاس المخلوق. أغمضت إيرين عينيَّها ثم فتحتهما ثانية في صرخة لإرادية حيث مرَّ لسانُ خشن للغاية على ظهر يدها. ثم تغيَّر الضغط على ساقها بعض الشيء بفعل وزن المخلوق، ثم ضغطت جمجمة مستديرة على باطن يدها.

نظرت خلفها إلى أسفل منها في خوف، فبدأ الشيء الشبيه بقطعة كبيرة يُخرخر، وكان أحد حيوانات الفولستزا البرية الجبلية، التي كان بإمكانها أن تحمِل خروفاً كاملاً أو أن تُسقط حصاناً. قالت إيرين وهي ترتعش: «يسعدني التعرُّف إليك. على ما أظن.»

كانت عيناها قد أصبحتا أكثر اعتياداً على الظلمة، وفي الظلام كان بإمكانها الآن أن ترى المزيد من الفولستزا، عشرة، دَزينة، ستة عشر، عشرين؛ كانت تجوب الشجيرات من دون كلل بينما تقترب منها؛ لأنها، مثل القطط، أياً كان حجمها، لم ترغب في أن تُظهر أنها تقترب منها؛ وكانت كلها تفعل ذلك عدا تلك التي أدفأت فخذ إيرين اليمنى وأصابتها خرخرتها برعشة. في آخر الأمر جلست قطط الفولستزا أمامها في دائرة غير مُكتملة، وعيونها ترمش بألوان الأخضر أو الذهبي أو البني، أو تنظر في الأرجاء وكأنها لا تستطيع أن تستوعب كيف وجدت أنفسها في ذلك المقام. كان بعضها يجلس جلسةً أنيقة، فكانت أذياها ملتفةً حول أقدامها الأربع؛ وكان البعض الآخر يجلس مُمدداً كالقطيطات. وجلست واحدة أو اثنتان منها موليةً إيرين ظهرها. كانت مُختلفة الأحجام؛ منها الصغير الذي لم يكتمل نموه بعد ليصل إلى أقصى طول لسيقانه وحجم أقدامه، ومنها الذي أصبح خطمه رمادياً لتقدمه في العمر.

قالت إيرين: «في الواقع، أنا واثقة من ... أنني مُمتنة لرفقتكم. إن كان أجسديد يُسبب لكم المتاعب أيضاً، فأنا واثقة من أنكم ستكونون مُفيدين في ... لقائنا.»

وكأن حديث إيرين ذلك كان إشارة إليها، قامت القطط، وأخذت تقترب نحو نار التخييم الصغيرة، حيث أرجع تلات أذنيه المُسطَّحتين للخلف نحو جمجمته وأخذ يدور

بعينيه حتى بدا بياضهما. فقالت إيرين في ارتباك: «كلّا؛ أميل إلى أن أظنّ أنهم أصدقاؤنا، ألاّ تظن ذلك؟» ثم نظرت إلى الأسفل نحو المخلوق الذي لفّ نفسه بين ساقَيْها (كان عليه أن يدفن نفسه قليلاً ليتمكّن من فعل ذلك) وأخذ يفرّك رأسه في مودّة وحنان في فخذها.

كان هذا هو الأكبر بين المجموعة كلّها. أما البقية فكانوا يتّخذون مواضعهم حول النار، فتكوّم بعضهم فوق بعض، وتكوّم بعضهم على نفسه في حلقاتٍ ودوائر. أما هذا الذي كان يجلس الآن ويحدّق في إيرين فكان أسودّ اللون، وله عيانان صفراوان، وأذنان قصيرتان مُستدقّتان حولهما أهدابٌ من شعر أسودّ طويل ودقيق؛ وعلى رقبتّه وظهره كانت ثمة بقعٌ رمادية بلونٍ داكن تتناثر على كتفيه وعجزه. رأت إيرين الاختلاج في عين المخلوق وثبّتت نفسها في الوقت المناسب حين وثب على قائمته الخلفيتين ووضع قائمته الأماميتين على كتفَيْها. وكانت أنفاسه تمرّ على وجهها في لطف، وداعب طرفا شاربه وجنّتيها. وبدا المخلوق خائب الأمل قليلاً حين ظلّت جالسةً وبادلته التحديق؛ فنزل على قوائم الأربعة ثانيةً وأخذ يخطو في صمتٍ على فراشها واستلقى مفروّد الجسم مُتهيّئاً بالقرب من النار. وأخذ يُعدّل الفراش بخفٍّ إحدى قائمته الأماميتين كما يروقه، ثم استلقى عليه مُمدّداً وابتسم لها.

نظرت إليه إيرين. ثم نظرت حولها؛ كانت القطط الأخرى تُراقب باهتمامٍ بعيونٍ ضيّقة، لما بها من تراحٍ وكسل؛ ولم يكن أيّ منها يُدير ظهره لها الآن. نظرت إيرين إلى تالّات الذي تراجع حتى أصبح عجزه وذيله المفروّد يضغطان على إحدى الأشجار، وكانت أذناه لا تزالان مُسطّحتين على جمجمته. ونظرت في تلهّف إلى جونتوران، الذي كان يتدلى من الشجرة على الجانب القصيّ من النار، حيث وضعت حين بدأت في إعداد المخيم. التمع جونتوران تحت نار المخيم، لكن إيرين ظنّت أنه يُخادعها حتى كما فعلت الهرة الكبيرة، وعرفت أنه لا عون هناك.

قالت إيرين جهراً: «حتى الحليف يجب أن يعرف قدره»، وأجفلها ثانيةً كم بدا صوتُها حازماً وقاطعاً. ومشّت في شموخٍ إلى بطانيتهما والقط الذي عليها، وأمسكت بحافة البطانية وجذبتها. تدرج القط دورةً كاملة وقام ثانيةً مذهولاً، لكن إيرين لم تتوقّف لتُشاهد ذلك. لفّت بطانيتهما حول كتفَيْها، والتقطت الربطة التي كانت تستخدمها وسادةً لها، وهيأت نفسها للنوم عند ساق الشجرة التي تقع على الطرف القصيّ من النار، بحيث كان

مقبض جونتوران في تناول يدها. رقدت إيرين مُولِيَّةً ظهرها للنار، وأخذت تُحدِّق بعينَيْنِ مفتوحَتَيْنِ على اتساعهما إلى جذر الشجرة المُتمعِّج أمامها. ولم يحدث شيء.

لم يكسِر الصمت سوى صوت فرقعات النار الضئيل، وحتى هذه الفرقعات تلاشت في آخر الأمر وحلَّ ظلام تام. قالت في نفسها إنها ينبغي أن تُبقي على النار مشتعلة؛ فمن يدري ما الذي يترصَّد في الأرجاء؟ مَنْ يدري ... لكن الكوابيس استحوذت عليها وغلبها النوم؛ ومن جديد كانت عالقة في اللامكان، إلا أن ذلك اللامكان كان مُضاء بضوء أحمر داخن، وكان ثمة صوت يُنادي باسمها؛ أو ظنَّت أنه يُنادي باسمها، لكن ربما كانت الكلمة هي كلمة «خال».

استيقظت عند الفجر وهي تشعر بتشنُّج في جنبها؛ لأن رأساً ثقيلاً ذا فراءٍ أسود كان يستلقي على التجويف بين آخر أضلاعها وحوضها. وبينما تقلَّبت إيرين بدأ المخلوق يُخرخر. ومع ذلك جلست إيرين وتفرَّسته. وقالت: «أنت مُربع»، فابتسم لها المخلوق الابتسامة الناعسة نفسها التي كان قد ابتسمها لها حين حاول أن يَسْطوي على فراشها. كان تالَت يغفو بصعوبة، وهو لا يزال مُستنداً إلى الشجرة، وكان على وشك أن يغضب حين ذهبَت إيرين تضع عليه السَّرج؛ لكن ربما كان سبب ذلك هو ظلها ذا الأرجل الأربع الرمادية الذي أحضرته معها. انطلقت إيرين فوق صهوة تالَت دون أن تنظر خلفها؛ لكنها شعرت، وإن لم تسمع، بحرَكَةٍ رشيقة تتبَّعها؛ إذ كان القط الأسود يعدو إلى جوارهما بقدر ما يستطيع، وكان في أثناء ذلك يتقافز على الصخور فوقهما حين يضيق الطريق. وقد قفز مرةً فوقهما من فوق صخرة مُسطَّحة في أحد الجوانب إلى عروة على الجانب الآخر، فأمطرهما بإبرٍ صغيرة حادة وأغلفة بذور؛ وحين عاود الانضمام إليهما انعطفت تالَت فجأةً وحاول عضه، لكنه لم يفعل سوى أن ابتعد عن الطريق. وكان يبتسم ثانية. غمغمت إيرين: «لا تسمح له بأن يُثير حفيظتك». ظلَّت أذن تالَت متجهةً إلى الخلف طوال اليوم، وكانت سافه الضعيفة قاصرة بعض الشيء، لأنه لم يستطع أن يسترخي.

في اليوم التالي لحقت بهم مخلوقات اليريج، وهي كلابٌ برية شعناء لها أطواقٌ عظيمة حول رقبتها وسيقان حريرية خفيفة وأذيال طويلة مُنثنية. كانت تلك الكلاب أقلَّ إفزاعاً قليلاً من الفولستزا، والسبب الوحيد لذلك أن إيرين كانت مُعتادة على كلاب الصيد الملكية، التي لم يكن حجمها يزيد عن نصف حجم اليريج. أما قطط الحظائر الملكية التي كانت

تصطاد الفئران التي تحاول اجتياح صناديق الحبوب فكانت بالكاد عُشر حجم قطط الفولسترا.

كانت قائدة قطيع البريج ذات عينٍ واحدة وأذنٌ مُمزقة. وقد مسَّت ركبةَ إيرين برفقٍ بأنفها، ثم رفعت رأسها لتُحدِّق بشراسةٍ في وجه إيرين. قالت لها إيرين: «أرحِّب بك»؛ وافترشت الكلاب المرافقة لها أحدَ جانبي نار المُخيم، أما القطط، التي تظاهرت بأن الكلاب لم تكن موجودة، فقد وجدت جميعاً نفسها بطريقةٍ ما تتَّخذ الجانبَ الآخر من النار؛ وفي تلك الليلة نامت إيرين في دفءٍ كبير؛ فقد كانت هناك قطة عند أحد جانبيها وكلب على الجانب الآخر.

ظلُّوا يرتحلون جهةَ الشمال والشرق، وظلَّت الشمس تشرق أمامهم وتغرب من خلفهم، لكن بدا لإيرين، وهي تقود جيشها الصامت، أنَّ الشمس كانت تُشرق بوتيرةٍ أبطأ وتغرب أبكر كل يومٍ عن اليوم السابق؛ وبينما كانت الأشجار لا تزال تكتسي بأوراقٍ يافعة من أجلها، كان عددها الآن أقلَّ، وظلَّ الصوت الوحيد الذي هو صوت حوافر تالات ذات الحدوة يخفُّ أكثر فأكثر. وكانت إيرين بين الحين والآخر تُفكِّر بحزنٍ في بحيرة الأحلام، وفي قاعةٍ رمادية تنتصب على مقربةٍ منها؛ لكنها كانت تُبعد هذه الأفكار عن ذهنها بمجرد أن تعيها. ثم أتى يومٌ كان فيه الفجر لا يعدو أن يكون تخفيفاً من الظلمة، وكانت الغيوم متدنيةً كثيراً حتى إن الأمر تطلَّب إرادةً كبيرة لتقف إيرين خلالها مُنتصبَةً ولا تنحني تحت وطأتها. وقالت لمن كانوا يتبعونها: «عمًّا قريب»، وسرعان ما ارتدَّ صدى صوتها إليها كدممة حانجر كثيرة.

سار تالات ذلك الصباح وكأنَّ كلَّ مفصلٍ في جسده كان يؤلمه، وكانت إيرين تمتلك من الرغبة ما يكفي لأن تتقدَّم ببطء؛ إذ كانت تسمع ثرثرةً ضئيلة وزمجرة وتعوُّل على أطراف ذهنها، وبدا أن ضباباً أحمر يغشى عينيها، وكأنَّ العدم الذي لم يُفارق لياليها استطاع أن يجدها في النهار؛ فتمتعت بكلمةٍ كان لوث قد علَّمها إيَّاه، فتوقفت الأصوات وانقشع الضباب. لكن لم يُنح لها الاستمتاع بهذا النصر الصغير طويلاً؛ لأن صوتاً واحداً الآن كان يتمتم لها، وكانت تتمتمه تُذِّكرها بأصلها الشمالي الشيطاني ... صاحت إيرين: «لا!» وانكفأت إلى الأمام لتدسَّ وجهها في عُرف تالات، ثم شعرت بضغط قائمةٍ ثقيلة على كتفيها، وبشاربٍ يُداعب وجنتها، ففتحت عينيها ورأت عينيَّ صفراويَّين في وجهٍ أسود لم يكن يبتسم؛ ووقف تالات في سكونٍ تامٍّ ورأسه مَحْنِي، حيث كانت القائمة الأخرى للقطَّ الأسود تضغط على عُرفه.

اعتدلت إيرين في جلستها ثانية ونزل القط على الأرض والتفت تالأت لينظر إليه، ثم أدار القط رأسه لينظر خلفه. ارتخت أذنا تالأت بعض الارتخاء مُلزمةً جانبَ رأسه، ثم تحوّلت إحداهما في تردّد نحو الأمام وصوّبت إلى القط، فسار القط إليه ورفع أنفه. تحوّلت أذن تالأت الأخرى نحو الأمام وانتصبت وأخفض أنفه، وأخذ الكائنات يتنفّسان في هدوءٍ أحدهما في وجه الآخر. ثم تابعا المضيّ في طريقهما.

فجأةً انفرجت الجبال عن سهلٍ شنيع غير مُستوٍ؛ كانت أرضه سيئةً وملينةً بالصدوع الصغيرة المخفية، ولم يكن به أيُّ شجرٍ على الإطلاق. خرج أفراد جيش إيرين وانسلوا وتقدّموا من ظلال الصخور وآخر أوراق الأشجار يُجرّجون خطواتهم وتتابعوا حولها حتى أصبحت هي وتالأت محورَ القيادة؛ وأخذوا جميعاً ينظرون حولهم. قالت إيرين في هدوء: «لم نعد في دمار»، وتنهدت تالأت تنهيدةً عميقة. نزعت إيرين جونتوران من سرجها، وحملت النّصل في يدها، ومن أجل أن تشعر بالارتياح وحسب؛ إذ لم يكن هناك ما يمكن للسيف أن يفعله في تلك المساحة الشاسعة الجرداء الباعثة على الكآبة؛ حيث لا يمكن لربيع أن يأتي.

هاجمها الصمت باستمرار، وعادت تسمع تمتمةً ضئيلة، لكنها كانت متهاودة هذه المرة، وكأنها تسمعها من خلف بابٍ موصد لا شكّ لديها في قوّته. فقالت: «هيا بنا إذن»، وتقدّم تالأت، وكانت مخلوقات الريح والفولسترا تُفسّح لهما الطريق ثم تعود وتسير إلى جانبيهما. ولم يكن يُوجد ما يمكن رؤيته سوى السماء الرمادية الملبّدة وصفحة الأرض الرمادية الجرداء. لا بد أن تكون الجبال مُجدداً على الجانب القصي من هذا الحيز الكئيب؛ لكن السُّحب كانت تُغلّفها، ولم يكن ثمة أفق. تبعّتها وحوشها لأنها كانت تقودها، لكن الوحوش لم تكن ترى ما تقودها إليه.

ولم يكن بمقدورها هي كذلك أن ترى، لو كان من ذلك فائدة؛ لكن بدا أن الأصوات الضئيلة البغيضة في ذهنها تضغط على أحد جانبي جمجمتها أكثر من الآخر؛ ومن ثمّ سلكت ذلك الاتجاه.

وظهر أمامهم فجأةً جبلٌ أسود، أو كان جُرفاً صخرياً، أو صرحاً مرتفعاً، أو الثلاثة مجتمعين؛ إذ كان بحجم الجبل، لكن كان له شكل الجرف المُستعصي على التسلّق والذي سينهار كانهيارٍ ثلجي عندما تضربه العاصفة الهوجاء التالية؛ ورغم ذلك كان له أيضاً شكلٌ معلوم، وإن كان غير معهود، وكأن إنساناً هو الذي بناه — من المؤكّد أن ثمة بريق نوافذ عند قمّته، أليس كذلك؟ — لكن لا بد أنه كان مجنوناً. وحوله التفت كزُمة ضخمة من

نبات السوركا، فانقلبت مَعْدَة إيرين وكأن بها حجرًا، وكان بإمكانها سماع متممة ضئيلة وضحك.

نزلت إيرين من فوق صهوة تالات وتقدّمت ببطء. ورفعت جونتوران، فتوهّج السيف بضوء أزرق، وفجأة توقّد الصرح الأسود بلونٍ أحمر ناري وارتفعت قمّته ودارت نحوها، وكان بريق النوافذ عينيّ تنينٍ حمراوين، وأصبح الظلُّ الداكن الذي انحنى نحوها رأس تنينٍ أسود، وفتح التنين فمه لينفث النار نحوها. شلّت ذراعها اليسرى فجأةً، ثم أخذ ألم الحروق القديمة فيها يُمزّقها، فكان كأنه قد تجدد؛ واستطاعت أن تشمّ رائحة لحمها وهو يحترق. فصرخت قائلة: «كلّا!» وأسقطت جونتوران من يدها، ورفعت ذراعها اليمنى في مواجهة لهيب النار، وكانت ذراعها اليسرى تتدلّى رخوةً إلى جانبها. واستدارت لتهرّب، لكن شيئًا ما كان في طريقها؛ تعثّرت إيرين في شيءٍ أملسٍ وأسود، فسقطت نحو خاصرة تالات، وراق ذهنها ولم تُعد تشمّ رائحة لحمٍ مُحترق. استدارت إيرين في رهبة، فقد كانت ذراعها اليسرى لا تزال تخفق من ذكرى الألم، لكن لم يكن ثمة نار ولا تنين؛ لم يكن هناك سوى الصرح الأسود الشنيع تلتفُّ حوله الأوراق.

انحنى إيرين والتقطت سيفها؛ لكنّ وهجَ الأزرق كان قد انطفأ، وكان نصله معتمًا كالسهل الرمادي المحيط بهم. ونظرت ثانيةً نحو البريق الذي يبدو كبريق النوافذ؛ إذ عرفت حينئذٍ أنها وصلت إلى المكان الذي كانت تبحث عنه، وعرفت أن أجسدي موجود فيه. وعرفت أيضًا أنه لم يكن ثمة طريق للدخول؛ فقد فقدت الطريق الذي ربما كان جونتوران سيذلّها عليه.

أخذت إيرين تدور ببطءٍ حول الصرح المهيب، لكن لم يكن ثمة أبواب، والآن كان الصرح يبدو كجبلٍ أو كشيء ليس له باب، وكان من الحماقة أن تظنّ خلاف ذلك؛ وخاب مسعاها، فلو لم يكن أجسدي هنا، لما عرفت أين يكون. زحفت إيرين على الحجارة تحت نبات السوركا الذي التفّ حول الصرح الأسود؛ ذلك أنها ما كانت ستمسّ نباتات السوركا إن كان باستطاعتها ذلك، تلك السوركا التي لا بد أن عين أجسدي قد وقعت عليها وأنفاسه قد حرّكتها؛ لكنها ذهبت وحدها، فقد وقف تالات واليريج والفولستزا ينتظرونها في المكان الذي واجهت فيه الصرح بوهج جونتوران ثم فقدته.

أتمت إيرين دورةً كاملةً وعرفت أنها قد انهزمت، فذهبت نحو تالات ولفّت ذراعها حول رقبته ودسّت وجهها في عُرفه، كما كانت تفعل من قبل كثيرًا حين تُصاب بالقليل من الألم والجزع؛ والآن وفي ظلّ هذا الألم الشديد لم يكن لديها ملأٌ آخر. ضغط تالات بذقنه

على ذراعها، لكنها لم تجد في ذلك سلوى، فابتعدت عنه ثانيةً، واندفع هو نحو الأمام، وشبَّ على قائمتيه الخلفيتين، وصهل، كجواد حرب ناهب إلى معركة. حدّقت فيه إيرين فاغرةً فاها، وكان مقبض السيف الخامد يهزمها في مرفقها.

اندفع تالأت على الحجارة التي أمامهما وصهل ثانية؛ ثم اندفع إلى داخل نبات السوركا المجدول، فأبطأه ذلك بعض الشيء. شعرت إيرين وهي تُراقب وكأن الأوراق تجذبه وتعوق مروره بأفضل ما يمكنها؛ لكنه اندفع خلالها ولم يعبأ. وصهل مجددًا حين وصل إلى أسفل جدران الصرح المصقولة؛ كان الآن فوق كُرُمات السوركا، واستطاعت إيرين أن ترى خطوط نُسغها عليه. هزَّ تالأت رأسه وشبَّ ثانيةً، وضرب الجدران بقائمتيه الأماميتين؛ فتطاير الشرر، وظهرت رائحةُ أشياء تحترق، لكنها كانت رائحة احتراق أشياءٍ قذرة. نزل تالأت على قوائمه الأربع، ثم شبَّ وضرب الجدران ثانيةً؛ وبعدئذٍ تدفّقت مخلوقات اليريج والفولستزا على الحجارة وعبرَ نباتات السوركا المتلبّدة لتنضمَّ إليه، واندفعت قائدة قطع اليريج إلى نتوءٍ صخري بارز ومُرتفع وأخذت تنبش فيه.

همست إيرين: «لن يجدي ذلك نفعًا»، وشبَّ تالأت وضرب مجددًا، وكانت رائحة الاحتراق أقوى.

كانت مخلوقات الفولستزا تنبش فتائل الكُرمة الكبيرة من قاعدة الصرح وتقذف بها، وبدا الصرح وكأنه يرتجف من مرأها. وفجأةً، انهار الحجر الذي كانت قائدة قطع اليريج متعلقةً به فسقط عند قدمي تالأت؛ لكن في مكانه ظهر صدع في الجدار الأسود؛ وحين ضرب تالأت ذلك الصدع تناثر غبارٌ صخري دقيق.

كانت الكُرُمات المُمزقة تتحرّك بعنف حين تمسُّ الأرض الرملية الرمادية. مدّت إيرين يدها لتلمس واحدةً من تلك الأوراق الخبيثة فتحوّلت إلى ثعبانٍ صغيرٍ مُخطَّطٍ بشرائط وله عينان شريرتان؛ لكنها التقطت الورقة على أي حال، فلم تكن سوى ورقة. وقفت إيرين تُحدِّق فيما أخذ جيشها يتعامل على نحوٍ أفضل مع السطح الحجري للصرح الأسود؛ ومن بعيدٍ سمعت طقطقة رقائق الحجر، فالتقطت ورقةً أخرى ونسجتها عبر ساق الأولى؛ ثم جاءت بأخرى وكُرّرت صنيعها، ثم بأخرى، وحين حدث انهيارٌ مفاجئٌ وهدير ورفعت نظرها، كانت تُمسك في يدها إكليلًا أخضرَ وكثيفًا من نبات السوركا؛ وكانت يدها لزجةً من عصارتِه.

سقط جانب كبير من الصرح، وفي داخله رأت إيرين سلاالم تلتفُّ صاعدةً بداخل الجبل الأسود، وكانت حمراء بفعل إضاءة المشاعل؛ وحوّل جيش إيرين نظره نحوها، وكان

يلهث، فكانت أفواه حيواناتٍ كثيرةٍ منه تقطُرُ رغوَةً ورديةَ اللون وأقدام كثيرين منهم مُمَرَّقةً وتنزِفُ دَمًا. وكان لون تالَت قد أصبح رماديًّا من شدة العَرَق. وبوجود الإكليل في يديها وجونتوران يدقُّ على جانبها في همود، تقدَّمت إيرين بحذرٍ عبْر الرُّكام، وعبر صفوف جيشها، الذي أخذ كثيرون من أفرادها يلمسونها بأنوفهم وهي تمرُّ بهم، ووضعت قدمها على أول درجة.

الفصل التاسع عشر

التفت السلاالم حلزونياً نحو الأعلى في دورانٍ طويل وبطيء، واستمرت إيرين في الصعود عليها، فكانت تلتف وتلتف حتى خُيِّلَ إليها أنها تتسلَّق صاعدةً إلى السماء، وأنها في نهاية الدَّرَج ستخطو على السطح البارد للقمر وستنظر إلى الأسفل نحو الأرض الخضراء البعيدة. لبعض الوقت كانت تستطيع سماعَ صوتِ أصدقائها، الذين كانوا ينتظرونها في قلقٍ عند أسفل الدَّرَج؛ وسمعت مرةً أنيناً ضعيفاً للغاية، لكن هذا كان كلَّ شيء. لم يُحاول أحدٌ أن يتبعها. بعد ذلك لم تستطع سماعَ أي شيءٍ سوى وقعِ أقدامها الخافت والتلعثم العرَضِي البطيء للهب المرتعش. أَلَمَّتْهَا ساقاها من تسلُّق الدَّرَج، وأَلَمَّها ظهرها من التوتر والإجهاد، وأَلَمَّتْهَا رقبَتُها لإبقائها رأسها مرفوعاً لأعلى لتنظر إلى الدَّرَج الذي لا ينتهي؛ وأَلَمَّها ذهنها من أفكارٍ لم تجرؤ على التفكير فيها. حينها كان ضوء النهار قد اختفى منذ وقتٍ طويل، كان قد اختفى مع آخرِ أصوات وُحوشها؛ وكان الضوء في عينيها أحمر. وعند طرفي بصرها كانت تستطيع أن ترى أبواباً سوداء تؤدي إلى غرفٍ ما كانت لتتخيَّلها، فضلاً عن أن تلتفت لتنظر إليها؛ وفي بعض الأحيان كان صدى وقعِ خطواتها الخفيض يتردد بصورة غريبة على دَرَجٍ يُفضي إلى تلك الغرف.

أثقل الصمتُ كاهلها؛ وصار الهواء أثقلَ مع كل خطوةٍ تخطوها نحو الأعلى. وأدركت إيرين حجمَ الثَّقل الذي كانت تشعرُ به، وإن لم تكن قد شعرت به من قبلُ هكذا؛ إنه الشر. كانت أنفاس ماور تنتفُ من الشر، وخَلَفَت كلماته في ذهنها آثاراً خبيثة؛ لكنها واجهت ماور على الأرض وتحت السماء، وليس في صرحٍ مُظلمٍ وخانقٍ لا نهاية له. أخذت إيرين تُناضل. كانت تشعر مع كل درجةٍ تخطوها أنَّ كاحليها وعظمَ ساقَيها تصطدم بالأرض،

وَأَنْ أَوْتَارَهَا تُحَدِّثُ صَرِيرًا فِي رُكْبَتَيْهَا، وَأَنْ عَضَلَاتِ فَخْذَيْهَا الْكَبِيرَةِ تَتَفَتَّلُ وَتَتَجَعَّدُ وَأَنْ وَرَكَيْهَا تُسَحِّقَانِ فِي تَجْوِيفِيَّهِمَا. وَبَدَأَ كَاحِلَهَا الْإِيمَنَ يُؤْلِمُهَا.

كَانَتْ لَا تَزَالُ تَحْمِلُ إِكْلِيلَ السُّورِكَا، وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَفَكَّرُ فِي مَاوَرِ، تَذَكَّرَتْ الْحَجَرِ الْأَحْمَرَ الَّذِي كَانَتْ قَدْ أَخَذَتْهُ مَعَهَا مِنْ بَيْنِ رَمَادِهِ، وَتَذَكَّرَتْ أَنَّهَا تَحْمِلُهُ الْآنَ. تَمَلَّكَتْهَا رَهْبَةٌ بَارِدَةٌ لِلْحِظَةِ، حِينَ تَسَاءَلَتْ فِي نَفْسِهَا إِنْ كَانَتْ تَحْمِلُ بِنَفْسِهَا مَصْدَرَ خِيَانَتِهَا وَخَدَاعِهَا إِلَى عَرِينِ أَجْسَدِيدٍ؛ إِلَّا أَنَّهَا وَضَعَتْ يَدَهَا فِي صَدْرِ سُرَّتِهَا وَأَخْرَجَتْ الْجَرَابَ اللَّيِّنَ الصَّغِيرَ الَّذِي وَضَعَتْ فِيهِ الْحَجَرِ. كَانَ مَلَمَسُ الْحَجَرِ سَاخِنًا حِينَ سَقَطَ فِي رَاحَةِ يَدِهَا مِنَ الْجَرَابِ، وَبَدَأَ أَنَّهُ يَتَمَعَّجُ بَيْنَ أَصَابِعِهَا؛ وَكَادَ يَسْقُطُ مِنْ يَدِهَا، لَكِنَهَا فَكَّرَتْ فِي الْعِنَاكِبِ وَأَوْرَاقِ السُّورِكَا وَظَلَّتْ مُتَمَسِّكَةً بِهِ؛ ثُمَّ أَعَادَتْهُ إِلَى الْجَرَابِ وَأَحَاطَتْهُ بِأَصَابِعِهَا.

وَاسْتَمَرَّتْ إِيرِينَ فِي تَسْلُقِ الدَّرَجِ، لَكِنَهَا مَا عَادَتْ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا وَحِيدَةٌ. كَانَ الشَّرُّ يُحِيطُ بِهَا؛ كَانَ الشَّرُّ الْأَحْمَرَ يَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهَا، وَيَمْتَطِي كَتِفَيْهَا، وَيُنْهَكَ كَعْبَيْهَا؛ كَانَ الشَّرُّ يَنْتَظِرُهَا فِي الْمَادَاخِلِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَتَنْظُرَ إِلَيْهَا، وَكَانَ يَتَسَاقَطُ كَالرَّمَادِ وَيَرْتَفِعُ كَدَخَانِ الْمَشَاعِلِ. كَانَ الشَّرُّ يُحِيطُ بِهَا، وَيُرَاقِبُهَا مِنْ دُونِ عَيُونٍ، يَنْتَظِرُ أَوَّلَ زَلَّةٍ لَهَا. ظَلَّ الدَّرَجُ يَرْتَفِعُ أَمَامِهَا، وَظَلَّتْ سَاقَاهَا الْمُنْهَكَتَانِ تَحْمِلَانِهَا نَحْوَ الْأَعْلَى؛ وَتَسَاءَلَتْ كَمْ يَوْمًا مَرَّ عَلَيْهَا وَهِيَ تَتَسَلَّقُ الدَّرَجَ، وَإِنْ كَانَ جِيْشُهَا قَدْ انْفَضَّ الْآنَ، وَقَلَّ بَشَرُهَا تَلَاتِ الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ يَحْمِلُ سَرَجَهُ وَعُدَّتَهُ. كَانَ حَرِيًّا بِهَا أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنْ تُجَرِّدَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ الصَّرْحَ الْمُظْلَمَ.

كَانَ الضَّوُّ الْأَحْمَرَ يَخْفِقُ بِنَفْسِ إِيقَاعِ نَبْضِهَا؛ وَكَانَتْ تَلْهَثُ بِإِيقَاعِ بَدَأَتْ تَقْلُبَاتِهِ؛ وَكَانَ الْعَرَقُ الَّذِي يَجْرِي وَيَدْخُلُ إِلَى عَيْنَيْهَا أَحْمَرَ اللَّوْنِ وَكَانَ يُؤْلِمُهَا. وَالْآنَ كَانَ لَدَيْهَا شَيْءٌ آخَرَ يُقْلِقُهَا؛ ذَلِكَ أَنَّهَا حِينَ مَسَّتْ جِلْدَ حَلْقِهَا الرَّقِيقَ بِأَصَابِعِهَا الدَّبْقَةِ بَعْصَارَةِ السُّورِكَا حِينَ جَذِبَتْ الْحَبْلَ الرَّقِيقَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ جَرَابُ حَجَرِ التَّنِينَ، أَصْبَحَ ذَلِكَ الْجِلْدُ يُؤْلِمُهَا أَيْضًا. لَكِنَّ خَفَقَانَ أَلَمِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلاَقَةٌ بِالصَّرْحِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ. كَانَ الْجِلْدُ يَخْفِقُ عَمْدًا وَبَعْنَفٍ، وَكَانَ ذَهْنُهَا مُشْتَتًّا بِمَا يَكْفِي لِأَنْ تُفَكَّرَ فِي نَفْسِهَا أَنَّ هَذَا نَمَطِيٍّ وَتَقْلِيدِيٍّ تَمَامًا. فَهِيَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى مَصِيرٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْآلِهَةُ، وَتُصَابُ بِطَفْحِ جِلْدِي. لَكِنْ ذَلِكَ خَفَفَ مِنْ وَطْأَةِ الشَّرِّ عَلَيْهَا قَلِيلًا؛ لَمْ تَلْحَظْ هَذَا عَلَى هَذَا النَحْوِ، لَكِنَهَا اسْتَمَرَّتْ فِي كَدِّهَا وَنَصَبِهَا بِرُوحٍ مَعْنَوِيَّةٍ أَفْضَلَ قَلِيلًا. جَذِبَتْ أَحَدَ طَرَفِي يَاقَةِ سُرَّتِهَا فَحَرَّرَتْهَا وَضَغَطَتْ بِهَا عَلَى الطَّفْحِ الَّذِي تَسَبَّبَتْ فِيهِ السُّورِكَا، لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يُجِدْ نَفْعًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

أخذت ترتقي الدَّرَج. وترتقي. وكان كل شيء يؤلمها؛ فكان من المستحيل عليها أن تفرّق بين ألم تشنّجات ساقتها والصداع؛ كان الشيء الوحيد الذي لا يزال يحمل ملمحاً من ملامح التفرّد فيها هو الطفح الجلدي الذي تسبّبت به السوركا على صدرها، وكان ذلك الطفح ينتشر ويتفشّى. واستمرّت ترتقي. كانت تصعد منذ الأزل؛ وستصعد إلى الأبد. ستكون إلهة جديدة: الإلهة الصاعدة. لم يكن ذلك بعيداً الاحتمال بأكثر من الآلهة الأخرى: «الإله غير الموجود»، على سبيل المثال (ويشتهر أكثر باسم الإله التابع أو الإله السابق) وهو إله الظلّ في منتصف النهار. بدأ الطفح الجلدي يُثير حكةً، فتعيّن عليها أن تقبض أصابعها الملتصّخة بعصارة السوركا لتمنع نفسها من أن تحكّ جلد رقبته وصدورها الشديد الحساسية والرقّة. واستمرّت ترتقي. كانت حرارة الحجر الأحمر تخفق الآن في يدها حتى من خلال الجراب؛ وكانت أوراق السوركا النضرة تلسع أصابع يدها الأخرى.

وحين وصلت إلى أعلى الدَّرَج لم تُصدّق نفسها. وقفت في بلاهة، تنظر إلى الرّدهة المظلمة أمامها التي تنفتح من بابٍ مظلم ككل الأبواب المظلمة الأخرى التي مرّت بها بارتباك أثناء صعودها الحزوني الطويل؛ لكنّ الدَّرَج كان قد انتهى الآن، ولا بد أن تعبّر هذه العتبة أو أن تستدير وتعود أدراجها. لم يكن ثمة مشاعلٌ تُضيء هذه الرّدهة؛ كان آخرُ المشاعل يُلقي بضوئه عليها أدنى منها بست درجات. وفجأةً كانت تلك الظلال تختلج، وإن لم يكن يُوجد في المكان تيارٌ هوائي، فعرفت أن ثمة شيئاً على الدَّرَج خلفها، فتقدّمت ودلفت إلى الظلام.

كانت ستقول إنها لم يبقَ بها من قوّة ما يُمكنها من أن تجري، لكنها جرت، وكان جونتوران يطرق كاحلها بشدّة فألمّها ذلك، وإن كانت قدماها خدرتين من صعود الدَّرَج. ثم وجدت أن الرّدهة كانت قصيرة إلى حدٍّ كبير؛ لأن الظلمة التي كانت تكتنفها كانت من أبوابٍ مزدوجة حُفّت أطرها بخطّ رفيع للغاية من الضوء الأحمر؛ وقفت إيرين فجأةً على بُعد بضع خطوات من الأبواب المزدوجة، وعضلاتها ترتعش ورُكبتها تهدّدانها بأن تطرحاها أرضاً حتى يجدها الشيء الذي كان يصعد على الدَّرَج.

مالت إيرين على الحافة الخارجية لأحد الأبواب، وكان ظهرها مواجهاً للجدار الضئيل من مكان التقائه بجدار الرّدهة؛ وكان لأنفاسها طنينٌ وأنينٌ في حلقها. شكرت لوث على إتقانه في مداواتها، حين شعرت بالهواء الكثيف يندفع إلى أعماق صدرها ويلفّظ إلى خارجه وتلتقط رثتها قدراً نقيّاً منه. وبُلهاثها أخذ الطفح الجلدي على صدرها يخفق بمزيد من

الاتِّقاد، وكان جلد المنطقة التي تقع فوق قفصها الصدري يرتفع ويهبط أسرع. كانت مُداواتها متقنة فيما يخص الشيء الأهم، هكذا صحَّحت لنفسها.

لوث. لم تكن إيرين قد فكَّرت فيه ولا نطقت باسمه حتى في أكثر خبايا ذهنها غموضاً وخصوصية، وذلك منذ تركته. كانت قد قالت إنها ستعود إليه. هدأت أنفاسها؛ وبدأ حتى أن الهواء الخبيث قد أصبح أقلَّ سوءاً وشناعة. لوث. نظرت إلى الرِّدهة، لكنها لم ترَ شيئاً آتياً نحوها. فكَّرت في نفسها أنه ربما ليس ثمة شيء. ربما هذا هو ما يتبعها. وأطرقت تنظر إلى يديها. لم يكن باستطاعتها فتح الأبواب خلفها — بافتراض أنها تفتَح بالطريقة المعتادة — وكلتا يديها مشغولة. فركعت بعد أن ركلت طرف جونتوران جانباً فانضغط السيف في زاوية ونكز إيرين في إبطها نكزةً حادة بمقبضه، ثم وضعت الجراب وبه الحجر وإكليل السوركا على الأرض الحجرية. وببطءٍ فكَّت الجراب الجلدي فخرج منه الحجر الأحمر الساخن يستعر بلونه، وأخذت السنة طويلة حمراء تتسلَّل منه عبر الرِّدهة وعلى الجدران. جعلها ذلك تشعر بدوار. ثم نخست الإكليل وصنعت تجويفاً صغيراً في السوق المجذولة والتقطت الحجر بسرعةٍ حيث كاد يحرق أصابعها وأسقطته في التجويف. أُرَّ الحجر وهسَّ، لكن بدا أن نبتة السوركا تغلبه وتطفئه، ثم خبا الضوء الأحمر فيه. جمعت إيرين الأوراق حوله ثانيةً، وهزَّت الإكليل لتتأكَّد من أنه لن يسقط، ووقفت.

بحقَّ أجنحة أم كل الجياد، كان ما بها من طفح جلدي سيصيبها بالجنون قريباً. فركت إيرين مكان الطفح عاجزةً عن أن تمنع نفسها، فكان رُسغها يحكُّه على الوجه الداخلي لسُترتها، واستجاب جلدها لذلك بابتهاج، ذلك أنها شعرت وكأنَّ ناراً قد أحرقتة؛ لكن وبينما أنزلت يدها ثانيةً وحاولت أن تحني كتفيها حتى يسقط قميصها وسُترتها بعيداً عن الجلد المصاب، توقفت وفكَّرت فيما يُمكن أن يتسلَّل على الدَّرَج من خلفها. ولم يجد نفعاً أيضاً أنها أحنَّت كتفيها. التفتت لتواجه الباب وهي مُنزعجة، وقد ضغطت بيدها الفارغة على صدرها وهي منبسطة وكان قميصها وسُترتها بين جلدها ويدها؛ ثم ضغطت على الباب باليد التي تحمل بها السوركا. أحدثت الأوراق صريراً على الحافة الداخلية للباب ثم ...

انفجر الباب.

كان هناك هدير وكأنَّ كلَّ آلهة الرعد قد نزلت عن جبلها لتعوي جميعاً في أذنها في وقتٍ واحد؛ وعصفت الرياح من حولها وكأنها درَج حلزوني لا نهاية له تُصيبها حوافه بالرضوض. كان أمام عينيها احمرار مُمزَّق يتقطَّعه سواك ويخدشه بياض واصفرار؛

وشعرت إيرين أن عينيها سَتَقْتَلَعَانِ من محجريهما. تَرَنَّتْ نحو الأمام، وكانت لا تزال تقبض على الإكليل باليد التي كانت تُمسكه ممدودة. لم تستطع أن ترى الأرض ولا الجدران ولا السقف ولا أي شيء؛ مجرد شظايا ألوان، كخِرْقِ قماشية مجنونة تندفع مازّةً من أمامها. اتجهت يدها الأخرى نحو مقبض جونتوران، مع أنها كانت تعرف أنها لم تكن تملك فرصة سحب السيف في هذه الدوامة العاصفة؛ لكن كان من المريح لها أن تمسك بالسيف. رفعتها الريح عن الأرض تمامًا لحظةً ثم أسقطتها فترنّحت وكادت تسقط أرضًا، ثم قبضت عليها الرياح ثانيةً وقذفت بها إلى أحد الجوانب، وكان من حُسن حظّها أنها سقطت على قدميها في المرة الثانية. قالت في نفسها إن هذا لن يُجدي نفعًا، فرسّخت نفسها بأفضل ما في وسعها. وفكّرت في نفسها أنها على الأرجح ستفقد سيفها هكذا؛ ثم بسحبٍ عنيفة أخرجت جونتوران من غمده.

اشتعلت نارٌ زرقاء وطافت من حولها، ثم تراجعت الرياح ودويُّ الرعد. شنت إيرين بجونتوران هجومًا تجريبيًا، فصدّر عنه صوتٌ حادٌ وصاخب، فاخفتت الشظايا الحمراء والسوداء والخدوش والبيضاء إلى الظلام وأصبح المكان أرضيةً وخمسة جدران حمراء وسقفًا عليه رسومات، ثم تساقطت أشياء حمراء وسوداء، لها أنيابٌ ومخالبٌ صفراء.

وفي الطرف القصي من الحجرة وقف رجل متّشح بالبياض، وفي جنبه طوق سيف أحمر، فعرفته إيرين من فورها؛ لأنها كانت قد رأت وجهه في مرآتها كثيرًا. فتحت إيرين فمها لكن لم تخرج منه أيُّ كلمات. ضحك الرجل، ضحك ضحكته، لكنها كانت أعلى وأعمق ولها أصداؤه مريعة صنعت تناغماتٍ مُعَقَّدة، ووجدت تلك التناغمات في ذهنها الأماكن التي لم تنظر هي فيها قط، تلك الأماكن التي ظل وجودها يُخيفها طويلاً؛ أماكن تمنّت إيرين دومًا أن تكون قادرةً على تجاهلها. اضطرب الهواء من فوقها في شكل موجاتٍ كثيفة، وخبت نار جونتوران الزرقاء واضطربت بينما أخذت يدها ترتعش. قال الرجل: «مرحبًا يا ابنة أختي.» كان صوته خفيصًا وناعمًا ومُهدبًا؛ كان صوتًا رصينًا وعميقًا وحسيًا ولطيفًا، كان صوتًا يمكن لأي أحد أن يمنحه ثقته؛ كان صوتًا لا يُشبه صوت إيرين في أي شيء.

ردّت إيرين أخيرًا قائلةً بصوتٍ مُخْتَنِقٍ: «لا مرحبًا بك»، وبدا وكأن صوتها يُحدث ثقبًا شنيعةً في تيارات الهواء بينهما، وقد دمّرت تلك الثقوب التناغمات التي كانت لا تزال

تُهمهم في ذهنها؛ لكنها شعرت من وَقَع صوتها أنها فقدت شيئاً عزيزاً وجميلاً ربما كان سيُصبح ملكاً لها إلى الأبد. «لا مرحباً بك. لقد قتلت أُمِّي وستقتل شعبي وتُدمر وطني.» رفع الرجل كتفيه فتموَّج ثوبه الأبيض وسقط مُتخذاً ثنايا طويلة ورشيقة تالَّقت في رقة، كأنها بتلات زهور ربيعية. رمشت لها برفق عيناها الخضراوان؛ كانتا عينيها هي، لكنهما كانتا أكبر حجماً وفي موضعٍ أعمق تحت حاجبٍ أعلى. وقال: «ولماذا قد تُعيرين ذلك اهتماماً يا عزيزتي؟ أنتِ لم تلتقِ بوالدتك قط؛ لذا لا يُمكنك أن تفتقديها. ربما أكون قد أسديتُك معروفاً؛ فالكثير من البنات يشعرن بسرورٍ كبيرٍ أنهنَّ تخلصنَّ من المساعدات الضعيفة لأمهاتهن.»

«ثم متى أعطاك وطنك من قبل اهتماماً؟» صار صوته أعمق وكأنه يُخرخر، وابتسم ابتسامةٍ إيرين. ثم استطرد: «إنهم يُلقبونك ابنة الساحرة — وهكذا أنتِ فعلاً، وأكثر من ذلك، فأُمُّك ربما كانت ستحصلُ على علامة المشعوذين لو لم تهرُب قبل الأوان — وينبغي لقومك أن يُبجلوك لأجل ذلك. لكنهم اختاروا، بأساليبهم القاصرة الخبيثة، أن يحتقروك.» «أبوك رجل عطوف — لم لا يكون كذلك؟ أنتِ لم تتسببي من قبل في أي مشكلة — فلم تُطالبني من قبل قطُّ بحقك المشروع والنُصف في أن تكوني ابنته وطفلة الوحيدة؛ وقد أصبحت مؤخرًا ذات نفعٍ قليل، بقتلك التنانين، ومن ثمَّ لا يحتاج إلى أن يُرسل رجاله ذوي الاعتبار في هذه المهمة غير المُشرَّفة. لقد بقيت في الخفاء، وتركتُ هو هكذا، ولم يفعل شيئاً يستنكر به أصوات قومه حين يتهايمسون عنك، واصفين إياك بابنة الساحرة.»

«وتور؟» هنا ضحك ضحكة خافتة. «تور الأمين. إنه يُحبك. تعرفين هذا. الجميع يعرفون هذا. إنهم يقولون جميعاً إنك تُشبهين والدتك — أظنُّ أن أربليث النبيل نفسه يتساءل قليلاً عن هذا في بعض الأحيان — وأُمُّك كانت ساحرة؛ لا تنسي هذا أبداً. تور نفسه، بالطبع، ليس في وضعٍ يؤهله لأن يفكر في هذا الأمر كثيراً. وحيث إنك تُشبهين والدتك بالفعل، حتى حين لا تتذكرين ذلك ...» وهنا ابتسم لها ابتسامتها ثانية، لكن ابتسامته بدت واسعة أكثر.

قالت إيرين: «كلَّا»؛ وكان قولها أقرب إلى كونه صرخة. وتذبذب جونتوران في يدها. «بل أجل. فكّري فيمن رافقك إلى هذا اللقاء المحتوم. هل أتيت برفقة نخبة فرسان والدك؟ هل أتيت على الأقل برفقة مجموعة من الرجال السليمي الطوية وإن كانوا غير

متمرسين؟ كلاً، لقد أتيت دون حتى أدنى جندي مشاة من دamar، دون طفلٍ قروي أشعث حتى لينظف لك حذاءك. أتيت أصلاً لأنك هربت، كما يهرب السجناء، من المدينة التي ينبغي أن تكون تحت سُلطتك وإمرتك. أتيت ذليلة، برفقة وحوش التلال، تمتطين جواداً عجوزاً أعرج كان من الأجدر أن يقتل قتلاً رحيماً قبل سنوات طويلة.. وبدا أنه واجه صعوبة ما في نطقه كلمة «رحيماً»: بدا وكأن أسنانه اعترضت طريقَ الكلمة.

هزت إيرين رأسها في صمت. وأزت كلماته في أذنيها كحشرات تنتظر أن تلدغها؛ وأخذت التناغمات الشنيعة لضحكته تؤلمها في أعماق نفسها في كل مرة كانت تتحرك فيها. ليتها لم تكن تُعاني تلك الحكّة الشديدة في صدرها؛ كان من الصعب التركيز على أي شيء وهذا الإحساس بالحكة موجود؛ كان هذا الإحساس أسوأ حتى من الشعور بالصداع. كان الرجل يتحدث عن تاليت، تاليت الصبور المسكين، الذي ينتظرها بينما سرجه يُثير انزعاجه وعضبه؛ فالجياذ الرمادية غالباً ما يكون جلدها مُفرط الحساسية. لو كانت وُلدت جواداً لأصبحت بلا شك رمادية. شعرت إيرين وكأن صدرها لم يعد يُغطيه جلد؛ ربما تقشّر ولهذا فهو يؤلمها كثيراً. أو ربما كانت تلك المخلوقات الحمراء والسوداء ذات المخالب تُمزّقه. وتواصل الأزيز والغمغمّة الخفيفة.

وجاء صوته يقول: «ولوث». ثم توقف لحظة. واستطرد: «كنت أعرف لوث تمام المعرفة فيما مضى.. سمعت إيرين نبرة الحُبث حتى من خلال تلك النبرة الوديعة والرقيقة حين نطق باسم لوث؛ كانت إيرين قد أصبحت على دراية شديدة بالحُبث؛ لأنه كان يحدث ثقباً في عظام صدرها الآن. علاوة على ذلك، كان ما تسمعه هو صوتها، رغم كل ما به من جمال، وكانت تعرف حين يصبح أكثر فظاظاً من أين تأتي تلك الفظاظة. «لوث، الذي لم يعد يجرؤ على مُغادرة جبله. لوث الصغير، لم يكن قط أحد تلاميذ جوريولو المُفضّلين؛ لأنه دائماً ما كان بطيئاً، وإن كان يتحتم عليّ أن أقر أنه استطاع أن يخفي هذا في بعض الأحيان بذكاء ومهارة، بأسلوبه الفريد في العناد والمكابرة.»

«أتحسبن أنه يروقني إرسال طفلةٍ إلى مصيرٍ مشئوم كهذا، مصير أعرف أنني أنا نفسي لا أستطيع أن أواجهه؟» بدا لإيرين وكأنها تسمع الكلمات للمرة الأولى، فضجت أذناها بها؛ لم يكن صوت لوث معسولاً كصوت خالها ذي الشعر الأحمر؛ كان صوت لوث غاضباً وفجاً، كالبقعة على صدرها.

«يا للوث ولأعباه مع الصغار؛ لأن ألعاب الصغار هي كل ما يقدر عليه...»

فقالت إيرين بصوتٍ واضحٍ وهادئٍ: «هذا محض هراء. لو أن كلَّ ما تستطيع فعله هو توجيه الإهانات الرخيصة، فالنبوءة تُبَالِغ في تقديرِكَ. سأخبر لوٲ أنه كان باستطاعته أن يُواجِهَكَ بنفسه.»

قال أجسديد بصوتٍ هادرٍ: «النبوءة!» وبدا أنه يتنامى ويكْبُر حتى صار أطولَ منها بكثيرٍ وكان ثوبه يتلاطم كاللوج وشعره أحمر كالنار؛ وفكَّرت إيرين في نفسها في كَلالَةٍ أن لونَ شعره يبدو كالون شعرها قبل أن يُحْرِق ماور مُعظمه. لم يَعدَ شعرها بهذا اللون. امتدَّت يد أجسديد إلى سيفه، فرفعت إيرين جونتوران مرَّةً أخرى وهزَّتْه، فسرت نارٌ زرقاء من طرفه إلى يد إيرين ومعصمها وإلى الأرض؛ وحيثما لامست النار الأرض، ظهرت تصدُّعات، وامتدت في هيئة أشعةٍ صغيرةٍ في كل الاتجاهات. وأكملت إيرين تقول: «قد تكون مُحَقًّا بشأن تور ووالدي. قد تكون مُحَقًّا حتى بشأني. لكنك مُخطئ بشأن لوٲ.»

انسلَّ السيف الأحمر من غمده بسرعةٍ وطار نحوها، لكنَّ جونتوران تصدَّى له بسرعة البرق، وتناثر المزيْدُ من النار الزرقاء حيثما تلاقى السيفان، وبدأت على الأرض سلسلةٌ أخرى من تصدُّعات صغيرة على شكل نجوم.

دَوَّى صوت أجسديد، ولم يَعدَ ناعماً وهو يقول: «حمقاء. حمقاء. قالت النبوءة إن واحداً من دمي هو مَنْ يستطيع مُواجهتي، ولهذا قطعت كلَّ هذا الشوط؛ لكن جذور دامار في دمك لا تستطيع أن تَقِف في وجه مَنْ يضع «تاج البطل»..»

رفعت إيرين عينيها إلى جبهته، فوجدت الحلقة الرمادية الباهتة، التي هي أَقِيمُ ما تملك دامار، تُحيط بحاجبيه، ولم تكن قد رأتها على رأسه من قبل. لم تستطع إيرين أن تمنع الرعدة التي سرت في جسدها؛ لأن ما قاله كان حقيقياً. وقالت في نفسها: «كان ينبغي أن تأتيَ معي يا لوٲ؛ كان يمكن أن تُصبح النصف الآخر الذي لا يمتُّ لدامار بصلة.»

هجم السيف الأحمر عليها مُجدداً، ومُجدداً سَحَب جونتوران ذراعها في المكان والزمان المناسبين ليصدّه. ومع أن الموت كان يترقَّبها على مقربةٍ شديدةٍ منها حتى كادت تراه يفرغ فكيَّه الأحمرين، كان أصفى ما راودها من أفكار هو رغبةٌ مُلحةٌ في أن تجدَ وسيلةً توقِف بها شعور الحكمة في صدرها. وتساءلت في نفسها إن كان المرء سيشعر بالحكمة حتى بعد أن يموت؛ وانتفضت ذراعها مرَّةً أخرى بينما كان جونتوران يتصدَّى لضربةٍ طويلةٍ أخرى. لكن هذه المرة كاد السيف الأحمر يخترق دفاعها، وبدأت ذراعها ضعيفةً فجأة؛ ولم تعرف إن كان سبب ذلك أن حَصَمها يضع التاج، أم لأنها عرفت بذلك وحسب؛ وتوجَّهت عيناها ثانيةً إلى جبهته. لكنها لم تحتَمِل أن تُطيل النظر إلى ذلك الوجه، إلى وجهها ذي العينين

الواسعَتَيْنِ الخضراوين المسعورتَيْنِ والشَّعرَ الأحمر كالنار. قالت في نفسها: «لم يَعد شعري بذلك اللون، وعيناي ليستا هاتَيْنِ العَيْنَيْنِ، وأنا لستُ الرجل الذي يقف أمامي. أنا لستُ هو؛ فرَّت منه أُمِّي كما أواجهه أنا الآن، لِمَا هو عليه ولا نتشابهُ معه فيه.» ومع ذلك شَعَرَتْ بالامتنان لأنها لم تستطع النظر كثيرًا إلى ذلك الوجه الذي ليس بوجهها؛ لأنه كان يتعيَّن عليها أن تراقب اهتزاز السيف الأحمر واضطرابه.

هدر صوتُ أجسديد كالرعد وهو يقول: «مَنْ عَلَّمَكَ المبارزة؟ لا يمكن لفانٍ أن يتفوق عليَّ فيها.» وبدأ السيف الأحمر كسبعةِ سيوفٍ بينما انسلَّ باتجاهها مُجددًا؛ ومع ذلك كان جونتوران بدوره سبعةِ سيوف، صدَّت السيوف الحمراء كلها.

«يؤسفني أن أقول إنكِ لم تعودي فانية.» قالت إيرين في نفسها: «فانية.» وضحكت وترنَّح السيف الأحمر لضحكاتها؛ ربما تردَّدت ضحكة ابنة أختِ أجسديد في ذهنه بنفس فظاعة تردَّد ضحكته في ذهن إيرين. وبينما كان النصل الأحمر مُتوانيًا، ضرب جونتوران أجسديد في كتفه. فتعالت صرخةً غير بشرية، ولم تستطع إيرين أن تُحدِّد إن كان مصدرها المشعوذ الأحمر أم السيف الأزرق؛ ثم توجَّه سيف أجسديد نحوها مُجددًا، أسرع من ذي قبل، ولم تستطع إيرين حتى أن تُتابع بعينها بينما التحم السيفان، فتطاعنا وتلاطما وطاحا متباعدين. وقالت إيرين وهي تلهث: «دمي الداماري، يا خالي، ليس ملعونًا كما تظنُّ؛ لأنني سبَّحتُ في بحيرة الأحلام، ولم ... أعد ... فانية.»

صاح قائلًا: «هذا لن ينفَعك»، ووثب مُتراجعًا وقذف يديه في الهواء؛ فشَبَّت النار من حوله. نارٌ مستعرة. نار حقيقية؛ حمراء وبرتقالية، لها دخان حارق وكثيف، وألسنة فظيعة مُتوهجة امتدَّت نحوها. ذوت إيرين وارتعدت، ولم يكن هناك قطرة سوداء ولا جواد أبيض مُعاونتها. لم تكن هذه النار خداع مشعوذ؛ كان بإمكانها أن تشمَّ رائحتها، وكانت حرارتها تُلغح وجهها؛ ومُجددًا اضطربت نار جونتوران الزرقاء وخبت في يدها.

ضحك أجسديد؛ وبينما هو في داخل حلقة النار أعاد سيفه إلى غمده وعقد ذراعيه. وقال: «ما قولك الآن؟ لا يزال بإمكان النار أن تحرق مَنْ ... لم ... يعودوا ... فانين.» ضحك مُجددًا، وأجفلت إيرين من صوته كما أجفلت من ألسنة اللهب اللافحة؛ وأضحى التاج الرمادي أحمرَ تحت ضوء النار.

قالت إيرين في نفسها مُنهيكة: «حريُّ بي أن أتعلَّم ذات يومٍ أن أمضي قُدَمًا بإرادتي الحرة. ليت صدري الكريه هذا يدُعني أفكّر بذهنٍ صافٍ. ورفعت جونتوران، فانهمرت

عليها النار الزرقاء وتوالت؛ كانت النار الزرقاء بردًا على وجهها. أغمضت إيرين عينيها — وقالت في نفسها: «من الغباء أن أغمض عيني» — ثم قفّرت إلى النار.

هسهست النار وارتجّزت من حولها، لكنها تقدّمت جريًا وفتحت عينيها، وكان خالها متأخرًا بعض الشيء في معاودة استلال سيفه من حزامه، وارتفع جونتوران ووجّه ضربةً نحو عنقه، ضربة كالتي أخفق في توجيهها في المرة السابقة. أصاب النّصل غايته هذه المرة، وكانت إصابةً مباشرة.

ارتدّ النّصل مُحدّثًا صوتًا غليظًا وشنيعًا، وكان به موضعٌ مكسور في حافته؛ وكان الارتداد شديدًا حتى إن جونتوران التوى مُنفصلًا عن قبضة إيرين وسقط على الأرض المُستعرة بالنار، وسقطت إيرين معه.

قال أجسديد: «أنا أيضًا لستُ بالضبط فانيًا»، وضجّ ضحكته مُجددًا؛ وحيث رفعت إيرين عينيها إلى السيف الأحمر الذي كان على وشك أن يُغمَد فيها، قالت في نفسها: «يُخَيِّلُ إليّ أنني سأكون فانيةً بما يكفي عندما يخترق السيف قلبي؛ أتساءل أيّ كيد ساحر هذا الذي يَستخدِمه، أو ربما يرجع هذا إلى أنه يضع التاج». ولأنها لم يكن بيدها شيء آخر تفعله، ولأنها كانت لا تزال تُمسك بالإكليل في يدها الأخرى، ألقت به عليه.

صرخ أجسديد. كانت صرخته صرخةً شديدة الوطأة على كل الحواس، على الرؤية واللمس والتذوّق والشم وكذلك السمع؛ كانت صرخةً أحدّ من أي سيفٍ، ومرةً كالْبُغض والضغينة، وضاريةً كقطط الفولسترا وعديمة الرحمة كالشتاء. وعبر تلك الصرخة، لم تستطع إيرين أن تتذكّر إلّا شذراء إكليل السوركا وهو يلمس وجهه، ويسقط على رأسه فيُحيط بكتفيه؛ وحجر التنين وهو يتوهّج بلونٍ أحمرٍ برّاق كما كان سيف أجسديد، لكن لون السيف كان قد صار الآن باهتًا كلون الدم المُتخثّر؛ كما تذكّرت دائرة نارٍ أصغر، داخل دائرة النار، تتصاعد حول أجسديد وتتعالى حتى اختفى من أمام عينيها، بينما خبت النار التي ضربها بينه وبينها وخمدت وانطفأت؛ ورغم ذلك ظلّت الصرخة مُستمرة. نهضت إيرين مُترنّحةً، ووجدت أنها كانت تقبض على جونتوران بكلتا يديها؛ وأن راحة إحدهما كانت مُبتلةً بدمائها حيث أمسكت غافلةً بنصل جونتوران؛ ووجدت أن ذراعيها ويديها كانتا تتوهّجان باللون الأزرق، وحيث أحنت رأسها كان الشّعْر الذي سقط للأمام حول وجهها باللون الأزرق، وحين أطرقت بنظرها كان حذاؤها أزرق، وكانت هناك بركة من اللون الأزرق تنتشر من حولهما، وباتساع رقعة اللون الأزرق تزايدت الصدوع الدقيقة في الأرض، وأخذت تنتشر وتقطّط وتفرقع وهي تنظر، وصرخة أجسديد لا يزال يتردّد دويها

في أُنْيَها. ثم ارتفعت الصرخة مع الأصوات الحادة القصيرة التي كانت تُحدثها الأرض في هديرٍ صاخب، وانهارت الصخور التي كانت تقف عليها إيرين فسقطت ورأت الجدران تتهاوى عليها. قالت في نفسها: «سيكون لطيفاً أن أفقد وعيي عند هذه اللحظة»، لكن لم تفقد وعيها، وظلت مُتمسكة بجونتوران، لكنها نقلت يدها الدامية لتنضم إلى الأخرى المُمسكة بالمقبض. إذ حدثت نفسها قائلة: «عندما أسقط، سأنطرح أرضاً وأشق نفسي بسيفي؛ لكن ربما تقتلني السقطة قبلئذٍ». كان صوت الصرح الضخم وهو يتداعى مُرتفعاً جداً حتى إنها لم تستطع أن تجد في ذهنها مكاناً للأفكار، ومن ثم توقفت عن التفكير؛ واندفعت حجارة سوداء من حولها بعنف، وكانت قطعاً ثقيلة من تلك الحجارة السوداء تسقط معها لكنها لم تمسسها، وتساءلت إيرين إن كانت ستظل تسقط إلى الأبد كما كانت تصعد الدُرج، وربما بذلك ستُصبح الإلهة الساقطة، أو ربما الإلهة التي تصعد وتسقط. ثم أحسّت بصدمة، لم تعرف إن كانت في قدميها أم في جُمجمتها أم في عقلها فحسب؛ وأياً كان الجزء الذي تلقى الصدمة من جسدها فقد ترنح، وهزّت جسدها، واكتشفت أن رأسها هو الذي كان يختلج، ثم رمشت بعينيها ورفعتهما، فأدركت أنها ترى ضوء الشمس يتسرّب عبر الصدوع وكأنه يتسرّب من خلال جدران مُدمّرة لبناء عتيق. وفي الوقت نفسه الذي استوعبت فيه عيناها المشوّشان وذهنها الذاهل ضوء الشمس أدركت إيرين أيضاً أن قدميها كانتا تقفان على شيء ما، وأنها لم تنشق نصفين بالسقوط على جونتوران، وأنها توقفت عن السقوط.

خطت إيرين خطوة مُترددة؛ إذ لم يكن باستطاعتها أن ترى جيداً، وانسحقت قطع صغيرة من الحطام تحت قدميها وتناثرت. وتمايلت كومة الرُكام منذرةً بأنها ستسقط بها ثانية في ظلامٍ سحيق. حدثت إيرين نفسها بصرامة أن لا مغزى من التعامل مع حُسن حظها باعتباره أمراً مُسلماً به، وأعادت جونتوران إلى غمده، وفركت صدرها دون تفكير، ثم وقفت ساكنة، ترمش حتى بدأت عيناها تعتاد أشياء بسيطة كضوء النهار والجدران الحجرية المتصدعة.

الفصل العشرون

كانت إيرين على قمة جبلٍ صغيرٍ من الرُّكام؛ وعن يمينها عند أسفل هذا الجبل الصغير كان هناك خرقٌ في الجدار الدائري المحيط، وكان الخرق واسعًا بما يكفي لأن تظن أن بإمكانها على الأرجح أن تُقجم نفسها خلاله. نزلت إيرين على المنحدر ببطءٍ وحذرٍ نحو الخرق في الجدار، لكن ما تحت قدميها تحرَّك وانزلق، ووجدت إيرين نفسها قد وصلت إلى أسفل الرُّكام جالسةً على عقبيها، وقد رفعت جونتوران من غمده بيدها السليمة حتى لا يحتكَّ بالأرض. وقفت إيرين وذهبت باتجاه الخرق، وبالفعل كان بإمكانها أن تُقجم نفسها عبْرَه مع أنه كان ضيقًا بعض الشيء؛ عندئذٍ انبهر بصرُها من ضوء الشمس وارتخت ساقاها فجأةً، فجلست بسرعةٍ ووضعت وجهها بين رُكبتَيها. وبينما كانت تُحدِّق في الأرض حدثت نفسها: «أتساءل كم مرَّ عليَّ من وقتٍ منذ أكلت شيئًا. قد يُساعدني أن أتناول طعامًا.» جعلتها هذه الفكرة البسيطة تشعر بتحسُّنٍ في الحال، وكذلك جعلتها تشعر بالجوع. رفعت إيرين رأسها. كانت لا تزال تشعر بعدم الاتزان، وحين عادت تقف على قدميها جاهدةً — حيث استخدمت، بطريقةٍ خرقاء، جونتوران تُكَّاة لها — كانت رُكبتاها ترتعشان، لكنها أرجعت ذلك بانسراحٍ إلى افتقارها إلى الطعام.

نظرت إيرين حولها. وتساءلت أين هي؟ قد كان الصرح الأسود مُنتصبًا وسط سهلٍ قاحلٍ لا ينمو فيه شيء؛ والآن كانت ترى في كلِّ مكانٍ حولها أدغالًا، أشجارًا عليها نباتات مُعترشة شاسعة (لكنها لم تستطع أن ترى نبات السوركا فيها)، وبين تلك الأشجار خمائلٌ كثيفة. وقد سطع ضوء الشمس على الصرح المُدمَّر وعلى الفرجة الصغيرة التي أحدثها الركام وغطَّها، لكن لم يستطع الضوء أن يخترق الأوراق الكثيفة. أفٍّ. لن تكون رحلة الخروج سلسلة. وأين يُمكنها أن تجد تالوت؟ انطلقت تسير حول ما بقي من الصرح.

لم يكن ثمة شيء سوى صخورٍ منهارة وغابة كثيفة. لا شيء آخر. لا أثرٌ أيضًا على أنَّ أي شيءٍ آخر كان هنا، لكن أين هي؟ هل كان الصرح المدمر الذي كانت تجوب حوله الآن هو الصرح نفسه الذي كانت قد واجهته هي وتالات ووحوشها الضارية؟ أرجعت رأسها للخلف قليلًا لتتنظر إلى الأعلى إلى الجدران الباقية. لم تبدُ الجدران كبيرةً بما يكفي؛ ولم تكن الصخور المنهارة كافيةً لأن تكون هي التي كان قد بُني منها ذلك الصرح الضخم والرحيب كما تذكره. تنهَّدت إيرين وفركت وجهها بإحدى يديها، وعادت وسحبت يدها بسرعة؛ إذ تذكَّرت أن تلك كانت اليد المصابة. لكن الجرح كان قد التأم بالفعل؛ لم يكن ثمة شيء على راحة يدها سوى ندبةٍ بيضاء محدودة. حدَّقت إيرين في الندبة وهي مُتحيرة؛ لكن كانت هناك أشياء أخرى أكثر أهميةً تستدعي حيرتها.

إذن ما الخطوة التالية؟ كانت إيرين وحيدة — في مكانٍ مجهول — وجائعة، وكانت الشمس على وشك الأفول. لم تكن تتطلَّع لأن تقضي ليلتها وحيدة في هذا المكان، وإن كان قد بدا ولا شك أن لا شيء كبير الحجم بما يكفي لأن يُسبب لها مشكلةً بإمكانه أن يمرَّ عبر هذه الغابة، لكن دائمًا ما يكون هناك عناكبٌ مثلًا. وبينما كانت تُفكِّر في العناكب خطرَ لها أنها كانت بالكاد تشعر بحكة في صدرها؛ إذ لم تكن شديدة، وكأنها صارت عادةً بدأت ولا ترغب في التوقُّف عنها، وإن لم يكن هناك ما يستدعي فعلها. وفكَّرت في نفسها أن لذلك مغزًى حسبما ظنَّت؛ ثم عادت ترمق راحة يدها التي بها الندبة.

جلست إيرين وأغمضت عينيها، وتدبَّرت أمر شيءٍ أو اثنين من الأشياء البسيطة التي علَّمها إيَّاها لوث، وفكَّرت بشأن الهواء. وتتبعَّت دَوَّامات خفيَّة وتدفُّقات بالغة الصغر وهي تنجرف من فوقها وتعود إلى ما بين الأشجار ثانية؛ وفي النهاية وجدت تدفُّقًا كان رطبًا، فتبعته حتى غاص في الأرض، وهناك وجدت ينبوعًا. بدا الينبوع لا بأس به؛ وكان ملمسه كالماء.

فتحت إيرين عينيها ثم نهضت واقفة. كان الينبوع، حين وصلت إليه، لا يزال يبدو كينبوع ماء ورائحته رائحة ينبوع ماء؛ فتنهَّدت، لأنه لم يكن أمامها خيار آخر. وغطَّست رأسها فيه، ثم أرجعت شعرها المبتلَّ إلى الخلف وأخذت تنهل منه. ثم جلست على عقبيها وقطَّبت حاجبيها وهي تنظر إلى الشجيرات الصغيرة. كان الينبوع الصغير يبعد عن حافة الفرجة بضع خطواتٍ وحسب، إلا أن قَطْع هذه المسافة الصغيرة كان قد تطلَّب منها وقتًا وجهدًا. فكيف لها أن تخرج من هذه الغابة؟

كلُّ شيءٍ في حينه. تذكَّرت شيئاً آخر كان لوث قد علَّمها إيَّاه، فأخذت تجمع بضعة فروع صغيرة جافة وكومَّة من الأوراق الميتة وأشعلت فيها ناراً بأن حملت فيها بعينَيها، وإن كان هذا المجهود الذي بذلته قد سبَّب لها صداداً شديداً ولم تستطع لمدةٍ طويلة بعدها أن تُركِّزَ ببصرها على شيء، وكانت النار بطيئةً في اشتعالها وتُخرج دخاناً كثيراً. وطافت إيرين بالأرجاء تجمع المزيد من الفروع الصغيرة فكانت ترى الواحد منها اثنين وكانت ترى يدها وهي تمتدُّ لها يدين، وكانت في عموم ذلك تُخطئ في تمييز الحقيقي منهما عن غير الحقيقي؛ لكن رغم ذلك جمعت ما يكفي من الفروع لتُبقي على النار مُشتعلةً طوال الليل. أو هكذا كانت تأمل. وبدأت النار تستعر أفضل قليلاً.

وللعشاء تناولت إيرين ماءً دافئاً، وذلك بأن ملأت الجراب الذي حملت فيه حجر التنين بالماء وعلَّقته على النار؛ وكان الماء يتقاطر قليلاً جداً من الجراب. ستُحاول أن تتدبَّر أمر الطعام غداً؛ كان الجوع قد أنهكها بما يكفي، لكنها كانت منهكة أيضاً من كل شيء آخر، وكانت الشمس قد غربت، وسرعان ما سيتحوَّل الغسق إلى ظلامٍ دامس. رقدت إيرين وقد صنعت لنفسها وسادةً غير مُريحة من صخرةٍ ما، وقد شدَّت قطعةً من سترتها نحو الأعلى لتقي أذنَّها. رقدت هامدةً كالصخور التي ترقد عليها، من دون أن تتمنَّع بطاقةً حتى لكي تحاول إيجاد بقعةٍ مريحة أكثر؛ لكن كانت أفكارها لا تزال تجوب أنقاض الجبل الأسود وتنش في الركام. ربما بإمكان لوث أن يشرح لها بعض ذلك، لكنها أحجمت عن فكرة أن تراه ثانية، أو أن تسأله. أثارت الغابة كدرها؛ إذ كانت في حاجة لأن تجد طريقةً لتخرج منها؛ كان وجود الغابة أكثر من مجرد مُعضلة فلسفية — وكذلك كان انعزالها. أين تالات؟ بإمكانها أن تُصدِّق أن حلفاءها الآخرين قد تلاشوا وتبدَّدوا بنفس الطريقة التي ظهروا بها؛ ولم تفهم إيرين لماذا لحقوا برُكبها في المقام الأول. لكن ما كان تالات ليتركها. ليس بإرادته على الأقل.

ثم راودتها أسوأ فكرة على الإطلاق: لقد انتهى أمر أجسديد، أو على الأقل يبدو أن أمره قد انتهى؛ لكنها أخفقت رغم ذلك؛ فقد انتهى أمر تاج البطل أيضاً.

تقلَّبت إيرين وهي راقدة وحدَّقت في السماء. لم يكن بها قمر، لكن النجوم أضاءت بشدة في وجهها. وفجأة أدركت إيرين أن أجسديد نفسه لم يكن حقيقياً بالنسبة إليها؛ كان شعورها بالرعب حقيقياً بما يكفي، وكذلك كان دُعرها الشديد من وجهه؛ وكانت تعرف أنها ذهبت إلى معركةٍ فرصه انتصارها فيها أقلُّ من فرصة انتصارها حين واجهت ماور. لكن الشيء الذي كان يُعينها والحلم الذي كان يُحرِّكها هو تاج البطل. لم يكن للأمر علاقة

بدمها أو بحققها الشرعي باعتبارها وريثةً لأمها، لم يكن للأمر علاقة بثار شخصي؛ بل كان شغلها الشاغل هو فكرة إعادة التاج إلى المدينة، وتقديمه إلى أرلييث وتور. كانت واثقة — وإن لم تكن قد فكّرت في ذلك بوعيٍ منها — أنه كما ينقضي هلاك دامار بهلاك أجسديد، كذلك ينقضي أمر التاج المفقود. لم يكن أحد يعرف بشأن أجسديد؛ ولم يكن أحد ليصدقها لو قصّت القصة، ولم يكن بإمكانها أن تقصّها؛ إذ ماذا بإمكانها أن تقول عن النبوءة، عن صلة القرابة التي جعلتها الندّ الوحيد الممكن؟ ماذا ستقول عن خالها؟

لكن حقيقة أجسديد لم تكن مهمة، أو كانت مهمةً لها هي وحدها. أما التاج فكان مهمًّا، ولربما كانت لتقصّ قصّته: أنها انتزعته ممّن كان يستحوذ عليه، لتعيده إلى مدينتها، لتسلّمه إلى ملكها. لكن في الواقع، ورغم كلّ ما تكبّته، لم تحقّق شيئًا. لو ذهبت إيرين إلى المدينة الآن — لو عادت إلى وطنها — لكانت كعودة كلبٍ هارب إلى صاحبه، مُنكّس الرأس يجرّ أذيال الخيبة، وأقصى ما يأمل فيه أن يجد الصفح والغفران.

أغلقت عينيها ونامت خدرًا من شعورها بالإخفاق؛ لكن بعد وقتٍ قصير من منتصف الليل، حتى نومها هذا تكدّر. بدت الأرض وكأنها تهتزّ من تحتها، وسمعت هديرًا كهدير صخور تسقط بعيدًا؛ لكن ربما كانت تحلّم فحسب. لاحقًا عرفت إيرين أنها كانت تحلّم، ذلك أنها رأت وجوهاً لم تلتقِ بها من قبل قطّ في يقظتها.

رأت فتاةً حزينة الوجه تجلس إلى بركة. وكانت الجدران البيضاء من حولها شاهقة الارتفاع وكأنّ السحاب قد استقرّ على قممها؛ ومن خلفها درجاتٌ منخفضة تُفضي إلى بابٍ مفتوح، ومن خلف ذلك حجرة. ولم يكن هناك أبواب في الجدران الأخرى، وكانت الأرض المنبسطة حول البركة مغطاةً بأحجارٍ بيضاء عريضة. سقط شعر الفتاة الأسود الطويل للأمام وهي تحدّق في الماء الهادئ، وترسّخت نظرة الحزن أكثر على محياها. ثم رأت إيرين في حلمها بستانًا آخرَ محاطًا بسور، لكن كان الماء فيه يتلاعب من نافورة، وكانت الجدران فيه من الفسيفساء الأزرق؛ وفي البستان وقفت امرأةٌ شابةٌ طويلة ذات شعر أصفر، أطول من إيرين نفسها بمقدار شبر، وإلى جوارها وقفت قطة فولسترا خضراء العينين. ثم رأت رجالًا ثلاثة يقفون عند سفح جبل، على نتوءٍ صخري صغير، يُواجهون خرقًا أو ثقبًا في صدر الجبل. كان رجل ضخّم الجثة منهم له شعر أسود رقيق يُحدّق في الخرق بتعبيراتٍ تنمّ عن العناد، وكان رفيقه أشقر الشعر يقول: «لا تكن أحمق. تُومي. استمع إليّ». وكان الرجل الثالث يافعًا داكن البشرة ذا بنيةٍ ضعيفة، وبدا مُستمتعًا لكنه قال: «ليو، لا بد أنك أكثرُ حكمةً وتعقلًا من أن تدخل معه في جدال بلا طائل».

بدا أنَّ أصواتهم جعلت إيرين تستفيق من نومها بعض الشيء، ذلك أنَّ أحلامها قد أصبحت أكثر تشابكًا وتشوُّشًا، ورأت وجوهًا من دون أن تكون على يقينٍ إن كانت قد تعرَّفت على تلك الوجوه أم لا، ثم تحسَّست الفراش الوعر تحتها ثانيةً، وبدا لها وكأنَّ الأرض قد انضغطت بصورةٍ غير متساوية تحت إحدى كتفَيها وإحدى وركيها، ثم تقلَّبت فانغرس فيها حجر كانت واثقةً أنه لم يكن موجودًا من قبلُ في أسفل ظهرها فألمها. ورغم ذلك لم تستطع أن تفيق من نومها، وبعد ذلك، فتحت عينَيها وهي تشهق وقامت جالسة؛ كان الصبح قد حلَّ، وكانت النار قد انطفأت؛ لم تكن قد انطفأت فحسب، بل كانت مُبعثرة، وكأنَّ شخصًا لا تتأثر يده بالنار قد أمسك بها ونثر جُذائًا منها في كل اتجاه؛ أو كأنَّ الأرض قد تموجت من تحتها.

وكانت الغابة قد اختفت.

رمشت إيرين بعينَيها، لكن الغابة لم تزل غير موجودة. كانت إيرين في وسط التلة التي كانت قد عبرتها لتصل إلى الصرح الأسود، وإن كانت الأرض تنحدر من تحت مجلسها انحدرًا طفيفًا لكن لا لبس فيه، وحتى مسافة بعيدة نحو الجبال المحيطة، ولم تكن إيرين قد صعدت التل لتصل إلى جرفٍ أجسديد. كان الجو رائقًا وبديعًا والسما صافية، واستطاعت أن ترى عرض التلة من جميع الاتجاهات؛ كانت تلال دامار على الجانب المقابل أبعد قليلًا من الجبال الشمالية المجهولة الاسم. في خوفٍ مُفاجئٍ هبَّت إيرين واقفة على قدميها، والتفتت ونظرت حولها، لكن الجبل الأسود كان لا يزال رُكامًا؛ لم يكن يتعين عليها أن تصعد كل هذه الدرجات ثانيةً، ولا أن تُجابه مرةً أخرى مشعوذًا له وجه يشبه وجهها.

كانت قد خطت بضع خطواتٍ في اتجاهٍ غير مُحدَّد حين ارتطم بها شيء أسود طویل فأسقطها مُمددةً على الأرض. وكانت قد بدأت للتو تتحسَّس جونتوران بصورةٍ محمومة حين تعرفت إلى ذلك الشيء الأسود؛ كان القط الأسود القائد، وكان على ما يبدو مسرورًا كثيرًا لرؤيتها. كانت قائمته الأماميتان فوق كتفَيها وكان يفرك وجهه ذا الشعر الأسمر والمخمل في وجهها، وكان يُخرخر بصوتٍ عالٍ بما يكفي لأن تظنَّ أن خرخرته كافية لأن تُسقط ما بقي من الصرح على رأسيهما.

وأخيرًا تركها تجلس، مع أنه ظلَّ في حجرها. تحسَّست إيرين الأماكن التي سقطت عليها من جسمها ونظرت إليه نظراتٍ حادة. وقالت بنبرة عالية: «تلقيتُ ما يكفي من الكدمات من قبل»، فكانت مثوبة ذلك أن سمعت صهيل تالات المدوي، وظهر تالات نفسه حول حافة الصرح. ثم جاء خبيًا وتشمَّمها في شوقٍ وتلَهَّف، فربَّت على صدره وأبعدت

القط عن حجرها حتى يتسنى لها أن تقف، وأطلق تالأت تنهيدة عميقة تنم عن ارتياحه بعدما قامت. فالمرة الأخيرة التي وجدها فيها بعد معركة لم يكن لقاؤهما بهيجاً. ونفر تالأت في قميصها وجذبت هي أذنيه، والتفت القط الأسود بين ساقَيْها وكذلك بين قائمتَي تالأت الأماميتين، وقالت إيرين: «جاء غيابي بفائدة: لقد أصبحتما صديقين.» عندئذ تركهما القط وتبختر مُبتعداً. فضحكت إيرين.

ثم تبعته هي وتالأت وسرعان ما وصلوا إلى مكان بقية القطط الكبيرة، وكانت الكلاب البرية هناك أيضاً، وفي حين كان كلا المعسكرين مُلتزماً بفريقه، كان لدى إيرين إحساس قوي بأن بينهما وئام وثيق، إن لم تكن صداقة بالضبط.

كانت قطط الفولسترا وكلاب اليريج مُستقلية وسط أكوام من الأنقاض بالقرب من ظلال آخر ما بقي قائماً من الجدران؛ لكن كانت إيرين واثقة من أنها دارت حول بقايا الجبل الأسود دورة كاملة في اليوم السابق، ولم تر أثراً لأصدقائها. هبطت إيرين المنحدر نحوهم، فأتت نحوها قائدة قطيع الكلاب تلوح بذيلها الطويل تلويحاً لا يكاد يكون ملحوظاً. فمدت إيرين يدها في تردّد فأخذتها قائدة القطيع بين فكّيها في تردّد أيضاً. وقفت إيرين ساكنة فيما نظرت إليها عين زرقاء ضيقة، وبادلتها إيرين النظر. لوح الذيل ثانية، ثم تركت قائدة القطيع يد إيرين وغادرت مهرولة، ثم أعطت أوامر خفية إلى أفراد قطيعها؛ إذ تبعوها جميعاً؛ والتفت الكلاب حول حافة جبل الأنقاض مبتعدة عن إيرين، ثم اختفت. هنا شعرت إيرين أنها مخذولة قليلاً. هل انتظروا فقط لكي ... لكي يعرفوا من انتصر في المعركة؟ أكانوا سيعرفون لو أن أجسدي كان قد قتلها، ويفرّون لينشروا تلك الأخبار المشؤمة للآخرين من أمثالهم، أو ربما لكل من عاش في البرية في غاباتهم وجبالهم؟ لم تكن إيرين قد عرفت لماذا أتنّتها هذه الحيوانات في بداية المطاف، لكنها بعدما تسنى لها أن تعرف المزيد عن النوع الضار من العزلة، كانت مسرورة برفقتهم لها؛ وكانت ببساطة سعيدة لأنها وجدتهم هنا ثانية بعد أن غطت في النوم ليلة أمس وهي وحيدة ومرهقة، من دون أن تفكر فيما يتجاوز حقيقة أنهم أصدقاء لها وأنها اشتاقت إليهم. لكن لم تظهر القطط إشارة على أنها سترحل؛ وتالأت كان موجوداً على الدوام.

خلعت إيرين عن تالأت سرجه، وكانت مسرورة أنه لم يكن يعاني تقرحات تحته؛ ثم فتحت إيرين خُرْجها ومضغت قطعة صغيرة من طَرَف قطعة لحم مُجفّفة وصلبة كانت قد أحضرتها معها. وكانت معدتها مسرورة لذلك، لكنها قرقرت طلباً للمزيد. نظرت إيرين حولها ثانية وهي تتكئ على كتف تالأت الصلبة. ولم تجد سوى الأرض الجرداء

كما كان الأمر من قبل. ثم انخفضت عينُها إلى بقايا نارها المُقَوَّضة. وفيما يتجاوز المنطقة التي جابَتْها إيرين ليلة أمس لم يكن ثمة أشجار أو حطب على مرمى البصر حتى الحافة الخضراء للتلال التي تحدُّ دامار. فقالت جهراً وكأنها تُخاطب أيّاً مَنْ كان يستمع إليها: «لا بأس. على الأقل بإمكاننا أن نرى إلى أين ننتجّه من أجل أن نعود الآن.»

وبينما كانت تقول كلامها هذا، أتى كلب من كلاب اليريج يهرول من حول حافة الصرح المدمَّر نحوها ثانية، ثم تبعه كلبان أو ثلاثة آخرون. حاولت إيرين أن تكتم السعادة المفاجئة التي بدت عليها حين رأت الكلاب تعود إليها؛ لكن حينها ظهرت قائدة قطيع الكلاب ثانية، ولوّحت برأسها مرة لتلّفت انتباه إيرين، ولم يكن من إيرين إلا أن ابتسمت. كانت قائدة القطيع تُمسِك بشيءٍ في فمها، وكان الكلب البُني الصغير إلى جوارها يحمل شيئاً هو الآخر. تباطأت قائدة القطيع بعض الشيء فجاء رفيقها إلى إيرين أولاً؛ كان له طوق جميل قوي وعينان بلون النحاس، ووقار أقلُّ من قائدته بكثير؛ ذلك أنه راح يهزُّ ذيله في حماسة وأرعى أذنه وهو يقترب منها. وأسقط الكلب ما كان يمسك به على الأرض عند قدمي إيرين: كانت حلقةٌ مُتَفَحِّمة من أوراق نبتة السوركا. كانت الحلقة شديدة السواد والجفاف حتى إنها لم تكن لتعرفها لولا البريق الأحمر الذي كان بها؛ إنه حجر التنين، لا يزال مثبتّاً بشدة في مكانه. انحنت إيرين لتلتقطه فيما أسقطت قائدة القطيع ما كانت تحمله: كان تاج البطل.

الفصل الحادي والعشرون

قفلوا عائدين نحو الجبال قبل أن ترتفع الشمس أكثر في السماء. كانت إيرين قد دفنت رماد النار، بحكم العادة؛ إذ لم يكن هناك من حولها شيء يمكن أن تُصيبه النار فيحترق؛ ولَقَتْ بتوقيرٍ إكليـل السوركا والحجر الذي فيه وكذلك التاج، ووضعتهم في أحد الخُرَجَيْن على ظهر تالـات. لم يكن ثمة شيء آخر قد بقي لتفعله.

ورافقتها حاشيتها من خلفها، فكانت القطط في جناح والكلاب في آخر. ولم تنظر إيرين خلفها إلا مرةً واحدة، وذلك حين كانوا قد عبروا الأرض المُنبَسطة وكانت الشمس قد بدأت تتجّه نحو المغيـب. وكانت الطريق من الجبل الخبيث مُنحدرةً، وكانت إيرين واثقةً من أن هذا قد تغيّر، حتى ولو كانت هناك غابة مُختفية في المنتصف. لكنها فكّرت أنه إن كان هذا هو أسوأ ما بقي، فإنهم كانوا ينزلون عن المنحدر بخفةٍ شديدة.

كانت أنقاض الصرح الأسود صغيرةً وهي تُلوح من بعيد، وبدأ أن تلك الأنقاض تنظر إليها شزراً، لكنها كانت نظرةً شزراً ضئيلةً وبغيضةً وعقيمة، كنظرات طاغية يقف على منصة الإعدام وحبل المشنقة يُوضَع حول عنقه. لن يكون هذا السهل مكاناً مُزدهراً أو جذاباً سنواتٍ طويلة قادمة، ولن يكون خطراً كذلك. ومضت إيرين بسعادة أكبر.

كانت متلهفةً لأن تصل إلى حافة تلال دامار المُحبّبة إليها بحلول الليل، وذلك حتى تُخيم في ظلالها وتشرب من مائها النظيف، ولهذا ظلّت تمضي حتى أدركها أول الغسق. وأرادت أن تُغني حين أحسّت بأول نسمةٍ من نسائم الليل من الأشجار الطيبة؛ لكن صوتها لم يتكيّف مُطلقاً لأن يُنغم فلم تفعل. وبدأ جيشها بأكمله سعيداً أنه عاد ثانيةً إلى مكان مألوف له، فأخذت الكلاب تهزُّ أذيالها وتنهش بعضها في مُداعبةٍ ومرح، وأخذت القطط يلُكِم بعضها بعضاً بقوائمهم من دون مخالبتها وتتدحرج على الأرض. وأخذ تالـات يتبختر.

وهكذا وصلوا جميعًا وهم سعداء مَرحين إلى منعطفٍ في طريقهم، ولم يُولُوا أيَّ شيءٍ اهتمامًا عدا ابتهاجهم وسرورهم؛ حينها أَحَسَّتْ إيرين بنفخةٍ مفاجئةٍ من دخانٍ وكأنَّ مصدرها نار صغيرة، ثم اشتَمَّتْ رائحةَ طعامٍ يُطهى. فتثاقلت في جِلسِتها على ظهرِ ثلاث، إلا أنه نفَضَ أُذُنِيه بحركةٍ سريعةٍ إلى الوراء وكأنه يقول: «ماذا تقصدين بأن أتوقَّف؟» ثم أكمل مَسيره. وكان ثمة نار تخييم صغيرة في طية الطريق؛ حيث كان هناك مُنفرج صغير وجدول ماء ينحني حول الجانب الآخر منه.

قال لوث: «طاب يومك».

صَهَلْ ثلاث مُحييًّا، وانزلت إيرين من فوق صهوته فتقدَّم ثلاث وحده ليمسَّ يَدَي لوث بأنفه ويُداعب بها شعره. ردَّتْ إيرين: «ظننتُ أنك لا تُغادر قاعتك ولا بُحيرتك مطلقًا». فأجاب لوث: «نادرًا ما أفعل. بل هو أمر نادر للغاية. لكن يُمكن أن تدفعني ظروف استثنائية».

فابتسمت إيرين ابتسامة خافتة. «كان لديك الكثير من تلك الظروف الاستثنائية لتختار من بينها مؤخرًا».

«أجل».

«هل لي أن أسأل أيُّ تلك الظروف كانت استثنائية بما يكفي في هذه الحالة؟» قال لوث: «إيرين ...» ثم سكت، وبعدها اكتسَى صوتهُ بنبرته المازحة ثانيةً. وأردف: «ظننتُ أنك قد تُحبِّذين أن تنجِري إلى الحاضر، حتى يُمكنك أن تَصلي في الوقت المناسب لتُعطي تور تاجَه وتُنهي الحصار؛ وبالطبع سيكون هذا الآن وليس بعد بضع مئات من السنين؛ ولهذا ليس هناك غابة ستُضطرِّين إلى أن تَشُقِّي طريقك عبرها بصعوبةٍ بالغة. ليس لديَّ شك في مقدرتك على فعل ذلك، لكن كان من شأن ذلك أن يجعلك في مزاجٍ كريه، وكنتِ ستُصبحين في مزاجٍ أسوأ بحلول الوقت الذي ستصلين فيه إلى بحيرة الأحلام، بافتراض أنك كنتِ ستمتَّعين بالمنطق لتعودي إلى هناك، وليس هذا بشيءٍ يمكن أن يُعوَّل عليه المرء في حالته. كنتِ ستحتاجين مساعدتي لتستعيدتي حاضرك — فإن كان إشعال نار صغيرة يجعلك ترين الأشياء مزدوجة، فإن المُضي عبر الزمن من دون مساعدة كان من شأنه أن يُصيبك بالعمى إلى الأبد — وكلما طال مكوثك خارج نطاق الزمن، ازدادت صعوبة إعادتك إليه. لذا أتيت للقياك».

حدَّقت إيرين في النار؛ لأنها لم تستطع أن تُفكِّر متى نظرت إلى لوث. وقالت: «أمضيتُ وقتًا طويلًا حقًا في صعود الدَّرَج».

فأجاب لوث: «أجل.» «وقتًا طويلًا للغاية.»

«ووقتًا طويلًا للغاية أخذت أسقط.»

«ووقتًا طويلًا للغاية أخذت تسقطين.»

ولم تزد إيرين على قولها ذلك شيئًا، بينما نزعَت سَرج تالَات عنه وأسقطته بالقرب من النار وفركت ظهره لتجفّفه وفحصت قوائمه بحثًا عن حصّ صغير. ثم قالت: «أظنّ أن عليّ أن أسامحك إذن، لأنك جعلتني بخلاف البشر الفانين.»

«قد تُسامحيني. سأكون مُمتنًا إن فعلت.» ثم أطلق تنهيدة. واستطرد: «سيكون من اللطيف لو زعمت أنني كنتُ أعرف أن هذا سيحدث من البداية، أنني عرفتُ أن فرصتك الوحيدة لتحقيق النجاح في استعادة تاجك هو أن تفعلي كما فعلت. لكنني لم أكن أعرف. يؤسفني أن أقول إن ذلك كان محض حظ.»

وأعطاهما كوبًا من مشروب مالاك، ساخناً للغاية، فشربته إيرين في شراهة؛ ثم قدّم إليها حساءً على طبق معدني رقيق، فتناولته بسرعة كبيرة حتى إنه لم يكن هناك وقت ليلسع الطبق أصابعها، ثم تناولت بعده ثانيًا وثالثًا. وحين فرغت في النهاية، أعطى لوث ما بقي من الحساء إلى قائد قطع القطط وقائدة قطع الكلاب، بعد أن قسّمه بحرص إلى نصفين مُتساويين تمامًا، ووضع كلّ نصف في طبق منفصل. سمعت إيرين وقع خطواته من خلفها وهو عائد من وضع الأطباق إلى الحيوانات، فقالت: «شكرًا لك.»

توقّفت الخطوات خلفها تمامًا، وشعرت به ينحني عليها ثم استقرّت يداها على كتفيها. فرفعت إيرين يديها وسحبت يديه نحو الأسفل حتى صار راکعًا خلفها، ثم أحنى رأسه ليضغط بوجنته على وجهها. والتفتت وهي بين ذراعيه وطوّقت رقبتَه بذراعيها ورفعت وجهها وقبّلته.

وظلّا إلى جوار النار حتى ساعة متأخرة من الليل، فكانا يُغذيان النار بالفروع الصغيرة حتى تظلّ مشتعلة؛ وكانت الحيوانات قد غطّت في النوم منذ وقتٍ طويل، وحتى تالَات كان مُسترخيًا بما يكفي لأن يستلقي ويغفو. واستلقى لوث على ظهره ورأسه في حجر إيرين، وأخذت تُداعب شعره بين أصابعها وتشاهد تموجات شعره وهي تنثني حول أصابعها وتنفرد إلى أقصى طولها وترتدّ عائدة إلى وضعها. قال لوث: «أهذا مُسلٍّ إلى هذه الدرجة؟»

فقالت إيرين: «نعم. وإن كنتُ سأحبّه أيضًا لو كان مفروّدًا وأخضر اللون، أو لو كان رأسك أصلَع كالبيضة ودهنتَه بلونٍ فضي.»

لم تكن إيرين قد أخبرته بالكثير عن لقاءها بخالها، ولم تطرح عليه أي سؤال بشأنه؛ لكنها لم تستطع أن تعرف مقدار ما خمنه لوث — أو عرفه، بالطريقة نفسها التي عرف بها بشأن إضرامها للنار — وأنصتت إليه في لهفة حين بدأ يتحدث عن أجسديد وعن أيام دراستهما معاً. وقد هدأت عنها قشعريرة كراهيتها لشخص وجهه يشبه وجهها بينما هي تستمع، وهدأت أكثر وهي ترى لوث يبتسم لها وهو يتحدث إليها؛ وأخيراً قالت له بتردد بعض ما دار بينها وبين خالها.

وبدا لوث متجهماً وصمت هنيهة، ثم سمعاً صوت أنين رخم لكلب يتمطى قريباً وهو نائم. وقال أخيراً: «لم يكن أجسديد مخطئاً تماماً بشأنني. كنت عنيداً، وبصراحة لم أكن أحد أنبغ تلاميذ جوريلو أو أوعدهم. لكن ذلك العناد نجاني ومكثت مع مُعلّمي طويلاً بما يكفي لأن أتعلم منه أكثر مما تعلم من كانوا يتمتعون بقدرات أفضل مني في البداية ثم ذهبوا فكانوا سبباً في هلاك أنفسهم، أو أنهم صاروا رعاة غنم؛ لأن حياة المشعوذ حياة نكدة عديمة الفائدة.»

«كما أنني كنت دائماً في أسوأ حالاتي حين يكون أجسديد موجوداً؛ لأنه كان أحد أولئك المتألقين الذين تُرى كل إيماءة منهم معجزة، وكل كلمة ينطقون بها فلسفة جديدة. أنت نفسك تتمتعين ببعض هذا، بينما تُحاولين ببسالة أن تخفيه.

«لكنني لا أعرف إن كنتُ، أنا وهو، غير متكافئين جداً في نهاية المطاف أم لا؛ ذلك أنني إذا كنتُ قد أخطأتُ عن جهلٍ مني أو تعنت، فإنه أخطأ عن كبرٍ منه ...»
قالت له إيرين، بعد أن سكت: «لم تسألني كيف ... انهزم هو وفزت أنا.»
«لست أنوي أن أسألك. يُمكنك أن تخبريني أو ألا تخبريني حسب رغبتك، الآن أو لاحقاً.»

«هناك شيء واحد على الأقل أريد أن أسألك بشأنه.»

«سليبي.»

«سيطلب ذلك أن تتحرك؛ يلزمُني أن آتي بشيء من خُرْجي.»

بدا لوث مُزعجاً. «أيستحق الأمر ذلك؟»

لم تشأ إيرين أن تضحك، لكنها فعلت على أي حال، وابتسم لوث في خمولٍ وترخٍ، لكنه اعتدل في جلسته وأفلتها. قالت إيرين: «إليك هذا»، وأعطته الإكليل المحترق بحجره الأحمر.

فقال لوث: «بحق الآلهة»، وغابت أمارات النُّعاس عنه. «كان حريًّا بي أن أفكر أن بإمكانك الحصول على هذا. أنا أكثر مُعلِّمي الأرض استهتارًا، وكان جوربولو ليقطع رأسي لو كان موجودًا.» وأزال لوث العروق الجافة وأسقط الحجر الأحمر إلى يده. تلاًلاً الحجر في ضوء النار؛ وأخذ لوث يُقلِّبه بروية من يدٍ إلى أخرى. «هذا الحجر يجعل تاج البطل الخاص بكم يبدو وكأنه إرث عائلي تافه.»

سألته إيرين بانفعال: «ما هذا؟»

فأجابها لوث: «إنه حجر دم ماور. آخر قطرة من دم قلبه — القطرة المهلكة. كل التنانين التي تموت بإراقة دمائها تُهْرَقُ قطرةً من هذه في النهاية؛ لكنك ستحتاجين إلى عين كعين الصقر لتجدي آخر تلك القطرات المُتخثرة في التنانين الصغيرة.»

ارتجفت إيرين. وقالت: «إذن أبقى عليه معك. أنا مُمتنة لخصائصه في هزيمة السحرة، وإن كنتُ سيئة الحظ للغاية لدرجة الحاجة إلى هزيمة ساجرٍ آخر، فسأستعيـره منك. لكني لا أريده أن يبقى معي.»

نظر إليها لوث وهو يفكر، مُمسكًا بالحجر في يده. ثم قال: «لو وضعتِه في تاج دamar، فسيجعل من يرتديه لا يُقهر.»

هزّت إيرين رأسها نفياً بشدة. ثم أجابته: «وتلّازمني ذكرى ماور إلى الأبد؟ يمكن لdamar أن تصمد من دونه.»

«أنتِ لا تفقهين ما تقولين. حجر دم التنين لا يحمل الخير أو الشر؛ إنما هو قائم بذاته. وهو يحمل قوةً عظيمة؛ لأنه الموت الذي حصد التنين — على عكس جمجمته، التي تعامل معها قومك وكأنها تحفة غير مؤذية. حجر الدم هو الغنيمة الحقيقية، المكافأة التي تستحقُّ تحقيق النصر؛ التي تستحقُّ تحقيق أي نصر. أنت تسمحين لخبراتك بأن تصبغ إجابتك.»

«أجل، أنا أسمح لخبراتي أن تصبغ إجابتي بالفعل، وهذا هو المغزى من الخبرات. قد لا يحمل حجر قلب التنين الخير أو الشر من وجهة نظرك، لكني ولدتُ مخلوقةً فانيةً بسيطةً قبل مدة ليست بالطويلة وأنا أتذكّر عن وجهة نظر الفانين البسطاء أكثر مما عرفتُ أنتِ يومًا. إنَّ حجر الدم ليس بالرمز الآمن ليتداوله أيُّ منا — أي منهم — حتى ولو كان أولئك هم العائلة الملكية في دamar.» وتجهّمت إيرين حيث كانت تفكر بشأن بيرليث. وأكملت: «أو حتى ملوك دamar وحدهم. فحتى لو استُخدم الحجر بحكمة، لا يمكن حمايته حمايةً كافيةً وتامة؛ حيث سيكون دائماً هناك آخرون، آخرون مثلك يعرفون ماهيته —

آخرون لهم حدود وقيود مُدمّرة هي أقلُّ من تلك التي لدى ملوك دامار. انظر إلى حجم الأذى الذي سبّبه أجسديد بالتاج وحده.»

وسكنت إيرين هنيهة، ثم أضافت بتأنٍ: «لست واثقة حتى أنني أُصدّق ما تقول بشأن كونه قوة لا هي بخير ولا بِشرٍ. تقول قصصنا إن التنانين أتت أولًا ما أتت من الشمال. تقريبًا كل شرٍّ أصاب أرضنا كان من هناك، ولم يحدث أن أتى من الشمال شيء لم يكن شرًّا. أنت قلت ذات مرة إن العائلة الملكية في دامار — أي مَنْ يحملون منّا هبة الكيلار — يشتركون في أحد الأسلاف مع الشماليين. فلماذا أصبحوا هم وأرضهم على ما أصبحوا عليه وأصبحنا نحن على ما نحن عليه؟»

«لا. لن أبقى على هذا الشيء معي. أبقى عليه معك، وإلا فسأدفنه هنا قبل أن نغادر.»
رمش لوث بعينه عدة مرات. «لقد اعتدتُ أن أكون مُحققًا ... في معظم الأحيان. وكنت مُحققًا طوال الوقت في جدالي مع أولئك الذين وُلِدوا فانيين بسطاء قبل مدة ليست بالطويلة. وأظن أنك ... ربما ... تكونين مُحقِّقة في هذه الحالة. ويا له من أمرٍ غير مُتوقَّع.» وابتسم في حيرة وارتباك. ثم قال: «حسنًا. سأحتفظ به. تعرفين أين تجدينه إذا ما احتجّت إليه يومًا.»

أجابت إيرين: «سأعرف. لكن لتحفظني الآلهة من الحاجة إلى تلك المعرفة ثانيةً أبدًا.»
نظر إليها لوث وقد اعتلاه تجهم صغير. وقال: «ليس هذا بنذرٍ جيد لتقطعيه، ليس جهراً على الأقل، حيث يمكن للأشياء أن تكون منصّة.»
تنهّدت إيرين. وقالت: «أنت بالفعل مُعلّم غافل بشدة. فأنت لم تُحذّرني أيضًا بشأن قطع النذور.» غاب العبوس عن وجه لوث وضحك، وانقلب ضحكُه إلى ما يُشبه التثاؤب.
فقال: «يا إيرين. أنا مُنْهَك للغاية من إعادتك من عقبيك عبر قرون الزمن، ولا بد أن أنام، لكن سيزيد من طمأنينتي أن أطوّك بذراعي وأعلم أنني نجحت.»
فقالَت إيرين: «أجل. لم يكن الوقت الذي قضيتُه وأنا أُجرُّ وقتًا مريحًا، وسيسرّني أن أعلم أنني لن أقضي هذه الليلة وحيدة كما قضيت ليلة أمس.»

في الصباح قالت إيرين على نحوٍ مفاجئ وهي تُعدّل سرج تالات في مكانه: «يا هذا ... كيف تنتقل وأنت مسافر؟ أتسبح في الهواء كالغيم وتنطلق مع الريح؟»
«يفترض إذن أن أطلب الآن لنفسي ريحًا لتحملني في الاتجاه المطلوب. لا يا عزيزتي، إنما أسير. وهذا فعّال بصورة مدهشة.»

«أقطعت المسافة من جيلك إلى هنا سيراً؟»
فقال وهو يحمل متاعه على كتفه: «نعم بالفعل. وسأسير عائداً الآن. لكنني سأحبُّ كثيراً أن ترافقيني حتى سفح جبلي. فطريقنا واحد حتى تلك البقعة.»
حدقت فيه إيرين مذهولة.

فقال متأثراً: «يُمكِنني أن أسير بنفس سرعة هذا الحيوان المُسن الذي تُفضِّلينه مطيةً لك. أولاً، ساقاي أطول، وإن كانتا أقلَّ من سُوِّقه، وثانياً أنا أحمل أمتعةً أقلَّ من تلك بكثير. توقَّفي عن التحديق إليَّ بهذا الشكل.»
ردَّت إيرين: «حسن»، ثم امتطت تالات.

بيد أن لوث كان مُحقّقاً؛ إذ قطعت ساقاه المسافة نفسَهَا التي قطعتها إيرين وتالات وجيشهما — وإن كان يمكن القول إنهم لم يرتحلوا متجاورين. إذ سار لوث أبطأ بعض الشيء من خبب تالات، لكنه في سيره كان أسرع بكثيرٍ من تالات في سيره، فكانا يلعبان لعبة التواشب طوال رحلتهم، يُحدِّد لوث الوجهة نحو الطريق الأسرع والأكثر سلاسةً كلما قضت الحاجة فيما يسبقه تالات، ويستمتع تالات بانتباهٍ إلى توجيهات لوث وينخر حين يندفع لوث متجاوزاً إيَّاه.

ولم يرَ أيُّ منهم قطط الفولستزا وكلاب اليريج كثيراً ذلك اليوم، لكن في المساء حين نصبوا مُخيمهم، عاد جيش إيرين من ذوات الأربع ليأخذ مكانه حولهم. وقالت إيرين لصفوف الأعين المتلألئة: «يا أصدقائي، سأُتَّجه جنوباً — إلى أقصى الجنوب بعيداً جداً عن أوطانكم وأراضيكم. قد ترغبون في التفكير بشأن هذا أياماً كثيرة أخرى قبل أن ترتحلوا معي.»

انتصب قليلاً ذيلُ قائدة قطيع الكلاب ذات العين الواحدة؛ أما القائد الأسود فتجاهل كلماتها تماماً.

قال لوث وهو مُنشغل بالقدر الذي على النار: «لا يضرُّ أبداً أن يكون لك المزيد من الأصدقاء لمساندتكِ ودعمكِ.»

فقال إيرين، التي كانت قد سئمت كثيراً طعام دامار المعتاد في السفر وهي في طريقها إلى الشمال: «إنما يمكنون لأجل ما تطبخ وحسب.»

نظر إليها لوث من عَيْنَيْن شَبه مُغمضَتَيْن. وقال بلطف: «سأستغلُّ الفرصة أينما سنحت.»

طوَّقته إيرين بذراعيها، فتسللت ذراعُه التي لم تكن تحمل الملعقة حول خَصرها. وقالت له: «يمكنك أن تترك أمر الطبخ في الحال، وتبقى بقُرْبِي.»

فأجابها: «همم. حبيبتي، أجد أن من الأجدر أن أُحذركُ أنني أشعر الليلة بالانتباه والنشاط، وإن اخترتِ النوم معي مجددًا، فلن تحصيلي على أي قسطٍ من النوم.»
قالت له إيرين موافقة: «أنتطلع إذن لليلة بلا نوم»، وضجك لوث وترك ملعقته.

مرّت الأيام التالية سريعة للغاية؛ فتعبّين على إيرين أن تُذكّر نفسها أنها قضت أسبوعين هي وتالات في طريقهما من بحيرة الأحلام إلى سهل أجسديد الأجرد؛ وذلك لأن طريقها إلى الوطن بدا أقصر بكثير. في الليلة الخامسة استلّت إيرين جونتوران وأرت لوث حدّه المكسور؛ وقد آلهما منظر ذلك بقدرٍ ما آلهما يومًا منظر تالات الأعرج وهو يقف في إرهاق وفتور في مرعاه.

ولا بدّ أن ذلك بدا على وجهها؛ فقد قال لها لوث: «لا تجزعي. يُمكنني أن أصلح هذا؛ وأيضًا لست بحاجة للقلق بشأن عمره الافتراضي.» ابتسمت إيرين ابتسامة خافتة، ولس لوث وجنتها بأصابعه. وساعدته هي كما طلب منها، وفي الصباح التالي استلّت إيرين نصلًا لامعًا سليمًا؛ لكنها ولوث غطًا في نومٍ عميق وطويل في الليلتين التاليتين.

وكان الربيع قد حلّ على كل الأراضي التي ارتحلا منها؛ فكان العشب أخضر ووافرًا في كل مكان، وكانت فاكهة الصيف قد بدأت تشقّ طريقها خلال آخر بتلات الأشجار والشجيرات؛ ووجدت إيرين وكذلك لوث في كلّ شيءٍ من حولهما أصدقاءً لهما، وكانت قطط الفولستزا وكلاب اليريج مهذبةً مع لوث كما كانت مع إيرين.

لكن عرف لوث وإيرين من دون أن يحدث أيّ منهما الآخر بذلك أن ليلتهما الأخيرة معًا قد حلت، وكانت إيرين مُمتنةً أنها كانت ليلة مظلمة بلا قمر، حتى يتسنى لها أن تبكي ولا يراها لوث. في آخر المطاف استسلم لوث للنوم منطويًا إلى جانبها، فكانت ذراعها مدسوسة تحت رأسه وتطوّق أضلاعه، ويدها على صدره ويُمسكها هو بكِلتا يديه. ظلت إيرين مستيقظة، تستمع إلى لوث وهو يتنفس وإلى صوت الجو من حولها؛ وحين تنهد لوث قرب الفجر وتقلّب، سحبت يدها بلطف من بين يديه وتسَلّت من تحت الغطاء. وأخذت تذرّع الأرض جيئةً وذهابًا بضع دقائق، ثم وقفت إلى جوار رماد نار التخييم لتتنظر إلى لوث في ظل الضوء الآخذ في التزايد.

كان الغطاء قد انزلق عنه؛ فبرز صدره عاريًا حتى خَصره تقريبًا، وكانت إحدى يديه الطويلتين ممدودة خارج الغطاء. وكانت بشرته في الموضع الذي لم تمسسه الشمس قَط بيضاء كالحليب، تكاد تكون زرقاء كحليب مقشود، وإن كان وجهه قد تورّد وخشّن

بفعل الشمس والطقس. ونظرت إلى ذراعيها ويديها؛ فكان لون إيرين مقارنةً بلوث ورديًا وذهبيًا، مع أنها بدت شاحبةً كالشمع مقارنةً بأهل دامار الأصليين. وتساءلت إيرين عن جذور لوث؛ وعمّا إن كانت ستعرف ذلك يومًا أم لا؛ وعمّا سيقوله لها إن سألته. وعرفت أنها لن تسأله في هذا الصباح، هذا الصباح الأخير لهما معًا؛ فهي لم تسأله في الأيام القليلة الماضية حين تسنّت لها الفرصة لأنها لم تفكر في ذلك. وأدّى هذا إلى وعيها بأول صدمة بالفراق.

كانت تعرف أيضًا أن سنوات طويلة سوف تمرّ قبل أن يلتقيا ثانيةً، ولهذا أخذت تنفرس فيه، تحفظ ملامحه حتى يتسنى لها أن تسترجعها ثانيةً في ذهنها في أي وقتٍ خلال تلك السنوات؛ ثم تذكّرت برعشة طفيفة أنها لم تعد فانية، ولم تكن تلك الرعشة نابعة من معرفتها بذلك بل من سرورها به، وهي المرة الأولى التي يسرّها فيها هذا؛ لأن بإمكانها أن تتطلّع إلى رؤية لوث ثانيةً في يومٍ من الأيام. وقد أصابها سرورها هذا بالخوف؛ لأنها ابنة ملك دامار، ولأنها ستعود بتاج البطل إلى الوطن، إلى الملك وولي عهده، الذي سيصبح ملكًا فيما بعد، والذي ستترجّجه.

تساءلت إن لم تكن حقًا قد عرفت من قبل أن تور يحبها، وإن كان الأمر فقط أنها كانت دائمًا تخشى أن تُبادله الحب. لم تعد خائفة، وتكمن المفارقة في أن لوث هو من علّمها ألا تخاف، وأن حبها للوث هو ما جعلها تدرك حبها لتور. كانت قد قتلت التنين الأسود، وتحمل سيفًا مسحورًا، والآن ستعيد تاج البطل إلى الأرض التي فقدته، بعد أن فازت به في قتالٍ عادلٍ وغنمته من الرجل الذي استخدمه ضدها وضد دامار. يُمكنها الآن أن تعلن أنها لن تخاف بعد الآن — من إرثها ومن مكانتها في العائلة الملكية لدامار، من شعب والدها؛ ومن ثمّ يمكنها أيضًا الآن أن تتزوج تور؛ لأن هذا هو واجبها تجاه وطنها، سواء استحسن شعبها هذه الفكرة، أم لا. وسيُسّر تور برؤيتها تعود؛ كانت قد كتبت إليه خطابًا تلك الليلة في حال لاقت حتفها؛ ومن حينها تشوّش كل شيءٍ تقريبًا وأصبح ذكرى، لكنها كانت قد تذكّرت تور، وتذكّرت أن ترك له رسالةً بأنها ستعود إليه.

كانت قد قطعت وعدًا للوث ذات مرة بأنها ستعود إليه أيضًا. جلست إيرين قريبًا من مرقده وهو ساكن وحْدَته في بشرته الشديدة البياض وجذعه المائل إلى الزُرقة. وقالت في نفسها: «يقال إن الجميع حين ينامون يعودون أطفالًا كما كانوا فيما مضى. أما لوث فيبدو كما هو وحسب وهو نائم»؛ واغرورقت عينها بالدموع. ورمشت بعينيها، وحين عادت ترى بوضوح، كانت عينا لوث مفتوحتين، فمدّ إليها يده ليجذبها إليه ليُقْبَلها، ورأت إيرين

حين أبعدت رأسها بعد القُبلة بلحظة أن دمعَتين قد تحدَّرتا على صدغيه من زاويتي عينيهِ حين عاد يُغلِقهما، وقد تَلَأَّت هاتان الدمعتان في ضوء شمس الصباح.

هذا الصباح كانا حذرين؛ فتلك هي المرة الأولى التي ينبغي لكلٍّ منهما أن يحزم فيها متاعه الخاص به وحده، وذلك منذ أن التقيا عند حافة سهل أجسديد. ولم يتحدثا إلَّا قليلاً. حتى تالأت كان هادئاً، وكان ينظر في قلقٍ خلفه إلى إيرين وهي تربط سيور سرجه في مكانه، ولم يفعل ما اعتاد أن يفعله صباحاً وهو تصنُّع أنه جواد حرب يتشَمَّ رائحة أعدائه الذين يقفون على التل المقابل.

لم تركب إيرين صهوة تالأت في الحال بل التفتت إلى لوث، ومدَّ هو ذراعيه، فهُرعت إليهما. تنهَّد لوث، وأخذت أنفاسها تتلاحق وهي على صدره. «لقد وضعتكِ على صهوة حصان — هذ الحصان نفسه — ورأيتكِ ترحلين عني من قبل. وظننتُ في المرة الأولى أنني لن أخطئَ هذا ما حييت. أظن أنني تبعتكِ لأجل ذلك؛ وليس لأي غاية نبيلة أخرى كمساعدتكِ في إنقاذ دامار؛ إنما لأجمع ما بقي من أشلائك بعد لقاءك بأجسديد. وأعرف هذه المرة أنني لن أخطئَ هذا أبداً. وإن فعلتها، يوماً ما، مرةً ثالثةً، فعلى الأرجح سيؤدي هذا بحياتي.» حاولت إيرين أن تبتسم، لكن لوث أوقفها بقُبلة. «اذهبي الآن. أعتقد أن الميتة السريعة هي الأفضل.»

فقالَت إيرين، وكادت تنجح في أن تبقي نبرتها مسموعة: «لا يُمكنك أن تخفيني. لقد أخبرتني قبل وقتٍ طويل أنك لست فانيًا.»

فأجابها لوث: «لكني لم أقل قطُّ إنني لا يمكن أن ألقى حتفي. لو أردت أن تبارزيني بالمنطق يا حبيبتي، فلا بد أن تتأكَّدي من مُقدِّماتكِ.»

«سأندرب على ذلك ... بينما ... سأندرب، لكي أبهركِ حين نلتقي في المرة القادمة.»

ساد صمت قصير، وقال لوث: «لستُ في حاجةٍ لأن تُحاولي أن تُبهريني.»

وقالَت إيرين في يأس: «لا بد أن أذهب»، وألقت بنفسها على تالأت تماماً كما فعلت

فيما مضى. «سأراك مجدداً.»

فأوماً إليها لوث.

وكاد صوتها يذوب وهي تقول: «لكن سيمرُّ وقتٌ طويل قبل ذلك — وقت طويل

للغاية.»

فأوماً إليها لوث مُجدداً.

«لكننا سنلتقي.»

فأوماً لوث مرةً ثالثةً.

فصاحت به: «بحق الآلهة، قُلْ شيئاً»، وفزع ثلاث من تحتها.

قال لها لوث: «أحبك. سأظلُّ أحبكِ حتى تنهار النجوم، وهذا ليس وعداً أجوفَ مما هو معتاد أن يقوله المتحابُّون عند الفراق. هيا اذهبي سريعاً؛ لأنني لا أُطيع هذا حقاً.»

ضمّت إيرين ساقَيْها بعُنف حول ثلاث المضطرب، فانطلق يعدو مسرعاً. وبعد فترة طويلة من غياب إيرين عن الأنتظار، تمَدَّد لوث على الأرض ووضع أُذنه عليها وأخذ يستمع لوقع حوافر ثلاث وهو يحمل إيرين أبعدَ وأبعد.

الفصل الثاني والعشرون

ارتحلت إيرين في حالة من الذهول الناجمة عن البؤس والمعاناة، غير واعية بالفولستزا واليريج الذين كانوا على مقربةٍ منها حول قوائم تالات، وينظرون إلى وجهها في قلق؛ وعندما حلَّ الليل توقَّفت إيرين وهي خدرة وفاقدة للإحساس. ربما كانت ستستمرُّ في طريقها حتى تسقط من الإعياء والتعب لو كانت تسير على قدميها؛ لكنها لم تكن تسير؛ ولذا عندما جنَّ الليل توقفت وجردت حصانها من سرجه وفركته بقماشٍ جافة. وكان تالات يتألَّم بعض الشيء؛ فذلك العدو السريع المفاجئ الذي بدأ به يوماً طويلاً أضرب بساقه الضعيفة، ولهذا حلتَّ إيرين الوثاق عن شيءٍ من الدهان الذي من شأنه أن يُخفف من التيبُّس الذي يشعر به، ودلَّته به بقوة، بل إنها ابتسمت ابتسامةً خفيفةً لدى رؤيتها تالات وهو يلوي قسمات وجهه من شعوره بالمتعة والسرور.

وحين رقدت إلى جانب النار هبَّت واقفةً ثانيةً وأخذت تذرع الأرض بخطواتها جيئةً وزهاباً. كانت مشوِّشة الذهن من الإنهاك ومُتبَلِّدة الحسِّ من التعاسة، وكانت ترتحل إلى مدينةٍ لا تعرف الحال التي ستجدها عليها؛ وإن كانت تُفكِّر في ذلك، تذكَّرت أيضاً ومضاتٍ مما رآته عميقاً في بحيرة الأحلام. لكن هذا أعادها إلى التفكير مجدداً في لوث، وجرت الدموع على وجهها، وبينما كانت واقفةً أمام نار مُخيِّمها، وضعت وجهها بين يديها وأخذت تبكي. لن يُجدي هذا نفعاً. كانت تحمل التاج، وتحمل سيقاً مسحوراً؛ وفي طريق عودتها إلى الوطن عودةً مُحاربٍ منتصر — وأميرة أولى جديرة بالاحترام. شعرت إيرين وكأنها أوراق شجر ميتة، جافة ومسفوعة وهشة، وإن كانت الأوراق الميتة ليست تعيسةً على الأرجح؛ فهي تُدفن في هدوءٍ تحت الثلج وتحرقها الشمس ويُداهمها المطر حتى تتحلَّل في سلامٍ في

الأرض. وجدت إيرين نفسها تُحدّق في الأرض تحت قدميها. كان يتعين عليها أن تحصل على قسطٍ من النوم.

عادت إيرين يائسةً إلى أغطيتها فوجدت فيها جسدَيْن مكسوَيْن بالفراء. ابتسمت لها قائدةُ قطع الكلاب وحركت ذيلها المكسو بالشعر بحركةٍ ضئيلة؛ أما قائد قطع القط فنصب أذنيه وفتح عينيه قليلاً. ولم يُبدِ أيّ منهما أدنى انتباهٍ للآخر.

فضحكت إيرين كثيراً حتى كادت تختنق. وقالت: «شكراً لكما. على الأرجح سأنام في نهاية الأمر.» توسّدت إيرين خاصرة القط، واستلقت الكلبة برأسها على معدتها بين أضلاعها وحوضها، وطوّقت قدمي إيرين بذيلها. وغطت إيرين في نوم عميق من فورها؛ ثم استيقظت في الصباح وهي تحتضن رقبة قائدة الكلاب ووجهها مدفون فيها، وكان على وجه الكلبة الكبيرة نظرة صبرٍ ولينٍ كبيرين، لا شك أنها كانت تبدو عليها حين تتعامل مع مجموعة من الجراء حديثة الولادة.

كذلك استيقظت إيرين بشعورٍ من الاستعجال؛ استيقظت بشعورٍ من الاستعجال الشديد حتى إنه بدّد شعورها بالحدَر. وقالت لتالات بنبرةٍ عالية: «عاجلاً»، فنصب تالات أذنيه باتجاهها ونخر نخرةً خفيفة لاستيائه من تضيقها وثاق حزامه. وأكملت: «إنهم يحتاجوننا عاجلاً.»

كان تالات مُتصلباً هذا الصباح أيضاً، إلا أن إيرين كانت مُنتبهةً وحريصة، فحفّ عنه تصلُّبه. وقبل أن يحلّ عليهم الظلام التالي كانوا قد قاربوا على اجتياز أرض إيردثمار عن يمينهم؛ وبحلول المساء الثالث كان باستطاعة إيرين أن ترى الصدع بين قمة التلال الذي كان يُشكّل الممرَّ نحو السهل المُشجّر الواقع أمام مدينتها؛ فقد كان طريق عودتها إلى الوطن قصيراً حيث كانت وجهتها معروفة لها. وكان من المُحتمل أن يقطعوا هذا الممرَّ يوم غد.

تلك الليلة أيضاً نام صديقاها إلى جوارها، لكن كان نومهما أقلّ سلاماً وسكوناً؛ لأن إيرين رأت كوابيس بها الكثير من المعارك والصراخ وأنين الجرحى وأصوات أهل الشمال بلُغتهم الشنيعة. فاستيقظت كثيراً من نومها وهي تتفصّد عرقاً، وقبضتها مشدودة وأعصابها مضطربة. وفي آخر حُلُم راودها قبل الفجر سمعت صوت أرلبيث، وكان صوته منهنّكاً يائساً، سمعته يقول: «ليت التاج كان بحوزتنا. لكنّا...»

جاء صوت آخر بنبرة أعلى، وكان صوت بيرليث، يقول: «لو كان التاج بحوزتنا منذ البداية. لو كان التاج بحوزتنا منذ البداية لَمَا عانينا بهذا السوء أصلاً.»

وقالت جالانا بصوتٍ خفيضٍ حتى لا يسمعها أربليث: «على الأقل جالبة النحس ليست بيننا. نحمد الآلهة على هذا.»

حمداً للآلهة ... حمداً للآلهة أنها ليست هنا ... ليست بيننا ... التاج، نبتهل إلى الآلهة، نحن في حاجة للتاج، وهو ليس هنا ...

ثم استيقظت إيرين. كان الفجر يتسلّل للتوّ من فوق قمم الجبال. لم تكن إيرين تريد أن تستيقظ بعد؛ لأن اليوم ستكون المدينة على مرأى منها، وكانت تخشى ما ستجده؛ تخشى أن تكون قد أتت بعد فوات الأوان؛ تخشى ألا يكون حتى التاج نفسه كافياً. تخشى ألا يقبلوا بالتاج من يدها. تخشى أن يعرفوا من وجهها من انتزعت التاج منه.

تخشى أن يقرءوا في وجهها معرفتها الآن بأنها لا تنتمي إلى دamar. ستُحب دamar طوال حياتها، وعلى الأرجح أن حياتها تلك ستكون طويلة؛ ولديها تجاه دamar واجب قد تؤدّي بعضه إن بذلت قصارى جهدها. قالت لنفسها إنها لم تفكّر في لوث.

وتبعها جيشها من جانبيها؛ بحر من الحيوانات ذات الشعر الأسود والرمادي والبني المخطط والذهبي والضارب إلى الحمرة؛ ولم يكن يسري فيها اليوم أيّ شعورٍ بالمرح. وكانوا يؤلّون آذانهم صوبَ وجهتهم وأذياهم مخفوضة. وكانت إيرين قد أخرجت التاج من لفافته، وفي بداية الأمر كانت تضعه مُتوازناً على القربوس أمامها، ثم بعد ذلك فكّرت في إخفائه ثانية، لكنها أرادتّه قريباً منها حيث يتسنى لها أن تلمسه ويلمسها. أخيراً علّقته إلى كتفها فوق ذراعها، فأصابه الدفء في مكانه هذا حتى وجدت أنه أصبح بنفس درجة حرارة جسدها حين مدّت يدها لتلمسه.

وبينما كانوا ينطلقون وقت الصبح كانت الريح تتردّد في أذنيها، لكنها كانت تحمل أصواتاً غريبةً وشمّت إيرين فيها روائح غريبة. في نهاية المطاف كان اضطراب تالات هو ما جعلها تُدرك ما يحدث؛ ذلك أن تلك كانت أصوات وروائح المعركة.

شقوا جميعاً طريقهم على المسار الواسع المُستوي الذي كان يمتدّ بين فاث وكار إلى التلال المُشجّرة المنخفضة أمام المدينة. حين وصلوا إلى قمة المسار نَحَرَ تالات وأحجم، فتشبّثت إيرين بالسّرج وهي لا تُصدّق ما لمحتة من المنظر الذي تحتهم. ضغطت إيرين بركبتيها بقسوة على تالات فأطاعها على مضض، لكنه كان لا يزال يحاول أن ينحرف جانباً، من أجل أن يستدير ويفرّ. حتى ماور نفسه لم يكن بسوءٍ ما كان يحدث أمام أعينهم.

كانت الأشجار قد اختفت؛ حتى إنَّ التلال الوداعة بدت مستوية، وحلَّ التدافع والطَّعان الرهيبان محلَّ الخضرة وظلال الأشجار والأوراق الوارفة. كان الشماليون هناك، بينها وبين مدينتها. كان باستطاعتها أن ترى مجموعاتٍ بشريةً صغيرة، أكبرها كانت بالقرب من باب مدينتها، تُقاتل باستماتة؛ لكن أفرادها كانوا أقلَّ عددًا وكانوا يقاتلون قتالًا دفاعيًا؛ لأنَّ شرفهم يُملي عليهم ذلك؛ ولأنَّ خوفهم من أن يقعوا أحياءً في أسر الشماليين هو ما كان يدفعهم إلى ذلك؛ وليس لأنَّ أملًا كان باقياً لديهم. وكان الشماليون يعرفون هذا.

حدَّقت إيرين مصعوقةً في هذا المنظر الذي كان يدلُّ على التمرُّق والتشرُّم، واستمعت إلى صيحات الرجال الرهيبة وإلى صوت الضربات الثقيلة، فخنقَتْها أدخنة المعركة وجعلت عينَها تدمعان. بدا لها وكأنَّ الغابة التي كانت تراها يومياً من أعلى بروج قلعة والدها لم تكن موجودةً يوماً؛ وكأنَّ لوث حين أعادها إلى هذا الزمن كان قد أخطأ فأعاد إيرين غيرها إلى عالمٍ غير عالمها. وانتظرت إيرين حتى تتملَّك مشاعر الفزع لديها. هداً ثلاث ووقف ساكناً، كانت أذناه تتجَّهان نحو الأمام وكان متوتراً، لكنه كان ينتظر أوامرها؛ وكان جيشها يُحيط بها، وشكَّل تجمعاً كبيراً خلفها تناثر كالأمواج على جانبي الممر الصخريين. فقالت إيرين جهرًا، وقد أخافها ما وجدت في صوتها من هدوء: «لا بأس. ربما لن يدوم خلودي طويلًا كما ظننت.» وثبَّتت التاج على كتفها فأحكمت تثبيته، واستلَّت جونتوران الذي ومض نصله كله بلون أزرق؛ وتموَّج الوميض الأزرق عند المقبض، وتدفَّق على يد إيرين. وحين مسَّها الوميض الأزرق كان له وخزٌ خفيف، لكنه لم يكن مؤلماً؛ فظنت إيرين أنَّ سببَه اضطراب أعصابها.

وقالت: «أمل يا أصدقائي أن تُساعدوني الآن: رافقوني ... إلى هناك» وأشارت بسيفها؛ فقفزت من طرَف جونتوران شرارةً زرقاء ووقعت على الأرض وهي تنز، فتقدَّم قائد القطط نحوها ليتفحَّص البقعة التي وقعت فيها. حينها ارتأت إيرين أنَّ الوحزة التي أصابتها ربما لم تكن بسبب اضطراب أعصابها في نهاية المطاف.

وهزَّت إيرين السيف فتلاًلاً الوميض الأزرق حتى أضاء الجوَّ من حولها، وكذلك تألَّقت به الهوة من تحتها، ولمعت به عينا قائد القطط وهو ينظر إليها؛ وبطريقةٍ ما، سهَّل لها هذا الوميض الرؤية؛ ذلك أنَّ إيرين استطاعت أن ترى بوضوح تام كيثتان عند ذؤابة جونتوران، ورأت أربليث على صهوته؛ وبدا أنَّ الضوء الأزرق يستقرُّ حوله أيضًا، وذلك عند نقطة بعيدة على هذه الأرض الغريبة والمُخيفة. وبينَّ الضوء تور أيضًا، ليس ببعيدٍ

عن مَلِكِهِ؛ وتساءلت إيرين أين موقع حامل اللواء؛ لأن غياب حامل اللواء هو ما جعلها غير واثقة في أن من رآته كان بالفعل والدّها؛ لكن لم يكن أمامها مُتسع من الوقت لتفكّر في هذا الأمر الآن.

قالت إيرين: «اسمعوني»، فالتفتت إليها أعينٌ كثيرة برّاقة. وأكملت: «لا بد أن يذهب التاج إلى يد أربليث أو تور وحدهما. وليس إلى أحدٍ آخر. سأعطي أحدهما إيّاه إن استطعت»، وابتلعت ريقها واستطردت: «وإذا ما أخفقت، أو إذا ما فارق أيّ من ثلاثتنا الحياة في هذه المعركة، فلا بد أن تحملوه بعيدًا عن هنا، بعيدًا عن دامار؛ إلى أبعد ما يمكن لأقدامكم أن تحملكم.» تردّد صدى صوتها غريبًا، وكأنّ الوميض الأزرق عكّسه أو ركّزه، أو جعله مُتماسكًا؛ وفجأةً لم يُساورها أدنى ريب بشأن جيشها، وحلّ عليها إحساسٌ كبير بالارتياح، وما يُشبه الفرحة.

فقالت: «هيا بنا. أفضل كثيرًا أن أوصله بنفسي.»

ورفعت جونتوران ووثب تالأت نحو الأمام وانتشرت قطط الفولستزا وكلاب اليريج من حولها؛ فكان أول من ذاق أسنان جيش إيرين من الشماليين قد وقع فريسةً لقائدة الكلاب، وأما الثاني فطار رأسه بضربةٍ من جونتوران، وأما الثالث فسقط فريسةً للقط الأسود الكبير.

لم يكن لدى الشماليين مُستطلعون يُراقبون الجبال؛ إذ لم يكن لديهم أي سبب يدفعهم لأن يظنوا أن من الضروري أن يُراقبها أحدهم، فأقوى من في دامار كانوا مُحاصرين في المدينة أمامهم، والقليلون الباقون المتناثرون في المدن الصغيرة والقرى الجبلية كانوا مرعوبين بما يكفي من عمليات النهب التي نفّذها الشماليون بحيث يمكن التعويل على أنهم سيُلازمون منازلهم وهم يرتجفون رعبًا. علاوة على ذلك، كان القادة الشماليون يستطيعون سماع أعدائهم من مسافة بعيدة، وبإمكانهم أن يعرفوا من أيّ مكان سيأتون، مثلما كان باستطاعة بيرليث أن يُحوّل حفنة من الهواء إلى باقة زهور في حفلٍ راقص في البلاط الملكي.

كان الشماليون قادرين على ذلك. لكن لم يكن لديهم معرفة مُسبقة باقتراب إيرين منهم، ومع أنهم لم يكونوا جبناء، كانوا يعرفون الكثير عن السّحر وعن هبة الكيلار أكثر مما كان يعرف أهل دامار؛ وقد أربعتهم مفاجأة هذا العمل البطولي أكثر من مجرد وجود إيرين. ولذا لم يُهرعوا نحوها على الفور كما كان ينبغي لهم أن يفعلوا، ولو أنهم فعلوا لمزّقوها إربًا وانتصروا في المعركة وظفروا بدامار مُلغًا لهم إلى الأبد. لكنهم لم يفعلوا. انعطف الشماليون بوحوشهم التي يمتطونها — كان بعض تلك الوحوش يُقارب في شكله

الجياد، لكن معظمها لم يكن يُشبهها بتاتاً — وحاولوا أن يبتعدوا عن طريقهم أكثر مما حاولوا أن يشتبكوا معها ويختبروا قوتها.

لكنَّ عامة الجنود الشماليين كانوا أكثر خوفاً. إذ رأى هؤلاء أن قادتهم لم تُرقهم هذه الشعلة الزرقاء التي كانت تُبهر أبصارهم إن اقتربت منهم كثيراً وتُمزق أطرافهم الموصولة بغرابة بأجسادهم الغليظة؛ ولذا تزاخم هؤلاء في هروبهم من ذلك الخطر بغض النظر عن طبيعته؛ وأخذ الضوء الأزرق يتموّج من مركز انطلاقه أبعد وأبعد وانتشر حولهم في كل مكان. كان أغلب الهجوم من أسنانٍ تنقض على حناجرهم، وسرعان ما كانت دماؤهم البنية والأرجوانية تُخضّب الضوء الأزرق الأثيري بطيفٍ داكن؛ وأحياناً كان الهجوم يأتيهم من فوقهم في شكل حوافر جواد حربٍ كجلد السياط؛ كانت صرخات احتضارهم تتردّد في آذانهم، وكذلك كانت تتردّد معها نبرة صوتٍ عالية لم يسمعوها من قبل، وإن كانت تُخالطها الزمجرة الحادة للقطط الجبلية ونباح قطيع كلاب اليريج المرعب وصيحات جواد حربٍ صاخبة.

بهر الضوء الأزرق عيني إيرين أيضاً، لكنه كان إبهاراً من نوعٍ مفيد؛ لأنه كان يُقسّم حركات الشماليين المرتبكة إلى دوائر وأقواس يمكن لإيرين أن تُقدّر مداها وإيقاعها بدقة بحيث تعرف أين يمكن لها أن تُسلط عليهم جونتوران وهم يُحاولون الهرب. لم تُفكر إيرين في أعداد من قتلت منهم وشوّت؛ لم تكن تراهم إلا عقباتٍ يتحتمّ عليها أن تتخطّاها حتى يتسنى لها أن تنضمّ إلى قومها مجدداً. لم يكن كافياً لها أن تتركهم يتفرّقون وحسب من أمام حوافر تالات الساحقة؛ إذ بدت رغبتهم في ذلك شديدة؛ لأنهم كان يُمكنهم عندئذٍ أن يُضيّقوا الخناقَ عليها ثانيةً من خلفها؛ وهكذا أخذ جونتوران يسقط عليهم ثم يعلو، ويسقط عليهم ثانيةً، وكانت عينا إيرين الساطعتان بلونٍ أزرقٍ تتبعانه في ذلك وتنظران نحو الأمام إلى حيث كان أهل دamar يخوضون معركةً صمودهم الأخيرة. كان أمام إيرين علامةٌ واحدة تُرشدها في طريقها، كانت العلامة هي أحد الأحجار المُنتصبة الطويلة التي تشير إلى آخر امتدادٍ لطريق الملك أعلى التل، الذي كان يؤدي إلى المدينة؛ كان ذلك الحجر هو أحد الأحجار الأربعة التي لا تزال مُنتصبة. لكن لم يُعد باستطاعة إيرين أن ترى تور أو أربليث. ولم تجرؤ كذلك أن ترفع عينها لتنظر؛ إذ كان أمامها أولئك الذين وقفوا ليعترضوا طريقها، حاول هؤلاء أن ينتزعوا أحشاء تالات إذا ما أمكنهم ذلك حتى وهم يبتعدون عن طريقها، أو أن يرموها بخنجرٍ مسموم من ظهرها؛ فلم يكن بإمكان إيرين إلا أن تتوخّى الحذر وتنتبه. واكبها جيشها في تقدّمها؛ وكان أفرادها يخترقون صفوف الشماليين عبر

رقعة كبيرة؛ وكانت إيرين ترى بين الحين والآخر من زوايا نظرها جسدَ قطرة أو هيئة كلب رشيق يندفع تجاه قائدٍ مشوّه أو جندي شمالي ممسوخ؛ لكن في تلك اللحظة كان يتعيّن عليها أن تصوّب جونتوران من فورها من أجل توجيه ضربةٍ أخرى. وكانت تسمع في أذنيها همهمة عالية، مع أنها كانت لا تزال تسمع صرخات الشماليين المبحوحة، والأصوات الخشنة الذميمة التي تُمثّل كلمات اللغة التي ينطقون بها.

وعبر ساحة القتال، بالقرب من المدينة، وقف جنود دامار المحاصرون ينظرون ليعرفوا سببَ هذا الدُعر الذي ظهر فجأةً في صفوف الأعداء. رفعوا أنظارهم واجتهدوا في التحديق لأن ما رأوا كان موجاً أزرقٍ يندفع نحوهم، عند ذروته كائنٌ أبيض رفع قائمته الأماميتين عاليًا ليشقّ طريقه. إلا أن سطح الموج الأزرق كان أكثرَ شبهاً في تموّجه بظهور حيوانات ذات شعر من كونه تموّج ماء، وكان الكائن الأبيض المنتصب جوادَ حرب، وسيّفاً يتوهّج بلهبٍ أزرقٍ في يد الفارس المُمسك به؛ لم يكن الفارس يحمل ترساً ولا يتدرّع، لكنه كما بدا لم يكن في حاجةٍ لأيّ منهما؛ ذلك أن الشماليين كانوا يفرون من أمامه وكانت سرعة سيفه وحدها هي ما يوقف هروبهم فكان يُقتلهم وهم يولّون الأدبار.

سهّل الجواد الأبيض بضاروةٍ ونبحت كلاب اليريج، وصرخت قطط الفولستزا بصيحات الصيد الحادة، وكان الجيش الأزرق المندفع نحوهم يقترب منهم أكثر فأكثر؛ ووجد بعض جنود دامار أنفسهم مرعوبين من هذا العون الذي لم يطلبوه، وتساءلوا بشأن ما ينوي الفارس على الجواد الأبيض فعله بهم بعدما يكون قد شقّ طريقه حتى يصل إليهم؛ فلم يكن ثمة شكٌّ في أنه يقترب منهم أكثر فأكثر، وكأن وجهته هي بوابات المدينة؛ ولم يكن كذلك ثمة شكٌّ في أنه سينجح في الوصول إليها.

لكن صدرت من تور صيحةٌ مكتومة. «هلموا إليّ! أسرعوا!» واستحثّ فرسه المتعبة دجيث على التقدّم إلى الأمام، فأمدّتْها حماسته بطاقة جديدة. «اتبعوني! إنها إيرين!» لم يتبعه سوى قلةٍ منهم؛ لكن كان من المستحيل تحديد ما إن كان سبب ذلك أنهم كانوا مُنهكين أو بهم صمٌّ أو خائفين من ذلك الشيء الأزرق، أو خائفين من أن ذلك الشيء الأزرق ربما يكون هو الأميرة إيرين؛ لكن أحد أولئك الذين تبعوا تور وكانوا قريبين منه كان الرسول الذي جاء إلى الملك فيما مضى بأخبار الاستيقاظ الشنيع للثنين ماور.

عرفت إيرين أن ذراعها قد أنْهَكَت، لكن لم يبدُ أن لذلك أهمية؛ كان جونتوران يجذُّ رقاب الشماليين وأعضاءهم الحيوية بنصله الباتر ولا يفعل شيئاً سوى أن يسحب ذراع إيرين معه. ثم سمعت إيرين اسمها يُنادى، فهزّت رأسها؛ إذ كان يُخيل إليها بعض الأشياء؛

لكنها سمعته يُنادى ثانيةً. وخطر لها أن الصوت المُنادي كان يُشبه صوت تور، وأنه ربما لا يُحِيلُ إليها، فبحثت حولها وكان تور هناك بالفعل. كانت صفوف كثيفة من الشماليين لا تزال تفصلُ كلًّا منهما عن الآخر، وحتى حينما تلاقت أعينهما، كان ينتصب بينهما أحد الوحوش التي يمتطيها الشماليون، كان الوحش مُرَقَّطًا باللون الأصفر وله حوافرُ مُتشعبة وأذان قطة، ورأت إيرين القائدة العوراء تتعلَّقُ برقبتة، وآخرين من قطيعها يتَّبان ليعقرانه من خاصرته. سقط الوحش يرفس خاضعًا وعاجزًا، وجذبت الملكة رايكبهُ من فوقه ولم تشاهد إيرين أكثرَ من ذلك؛ ثم هبَّ تالات ووثب جانبًا، وأثخن جونتوران في أجساد الشماليين؛ وفي لحظةٍ تاه تور عن ناظرَيها.

نادت إيرين باسمه هذه المرة، وأخيرًا سمعته يُجيبها؛ كان الآن عن جانبها، لكنها حين دارت بتالات في ذلك الاتجاه بدا أن رحي المعركة تجذبه بعيدًا عنها. حينها اهتزَّ التاج الذي كان معلقًا بكتفها طوال هذا الوقت فانفصل عن كتفها وكأنه فعل ذلك بمشيئةٍ خاصة به، ثم تدحرج على ذراعها وسقط على مقبض جونتوران فكان لذلك صوت رنين.

صاحت إيرين ثانية: «تورا» وبينما كان يُدير وجهه إليها طرحت التاج من فوق المقبض نحو طرف السيف فجرى التاج على النصل ثم قذفت بتاج البطل من فوق بحر الجنود الخبيث الذي يضطرب بينهما.

توهَّج جونتوران كشهاب بينما كان التاج يجري على طول نصله، وبينما كان يدور مندفعًا في الهواء اشتعل بدوره فصار نارًا حمراء كشمس الظهرية أو كشعر مشعوز؛ وفي زهول رفع تور سيفه وكأنه يُحيي به، فتعلَّق التاج بطرفه وأخذ يدور حوله مُحدثًا صوتًا ثم سقط مُطَوَّقًا معصمه. كان بإمكان أي جنديٍّ شمالي أن يقتله في تلك اللحظة؛ فقد أسقط تور ترسه وكانت ذراعُه التي تحمل السيف ممدودةً بلا حراك وهو يُحدِّق إلى التاج الأحمر المتوهَّج وهو يتدلَّى من ذراعه الأخرى. لكنَّ الشماليين كانوا خائفين من التاج أيضًا؛ كانوا قد رأوا ما يكفي من الأضواء الغريبة، وكانوا يعرفون بالفعل أن اللهب الأزرق مُهلك. وقد ألقى الفارس على الجواد الأبيض هذا الشيء من السيف الأزرق المُهلك.

صرخت إيرين بأعلى صوت: «إنه التاج، ألا ترى؟ البسه!»

رفع تور نظره ثانيةً؛ كانت إيرين قد صارت قريبةً منه الآن، ثم أصبحت بجواره، واصطدمت ساقها في ركاب تور بقوةٍ فتألَّمت لذلك بينما كان تالات يتبختر ويتظاهر بأنه أعلى من الحصان الآخر. سحبت إيرين ذراع تور نحو الأسفل وحرَّرت سيفه من بين أصابعه، وأخرجت التاج من معصمه؛ بعد ذلك سحبت رأسه للأسفل نحوها وضغطت على صدغيه بالتاج.

الفصل الثالث والعشرون

بعد ذلك كانت الغلبة لأهل دامار؛ فلم يكن هناك أملٌ للشماليين بين الفارسين الأبيض والأحمر. رغم ذلك كان يومًا طويلًا ومريّرًا على المنتصرين، وفقدوا أعدادًا أخرى كبيرة من قومهم قبل أن تنتهي المعركة، من بين هؤلاء الكثير من البسطاء الذين لم يحملوا سلاحًا في حياتهم قط، إلا أنهم فضّلوا خطر الموت في ساحة المعركة على الانتظار السلبي الرهيب لكي يسمعو الخبر الأخير. كان الشماليون هم أيضًا بطيئين في الإقرار بالهزيمة، حتى بعد أن أدركوا أنه لا توجد أي فرصة لتحقيق النصر. ففي هذه الحرب لم يكن يؤخذ أسرى؛ فالأسير الداهية يكون خطرًا على أسرِه. لم يكن في وسع بقية أهل دامار التجمّع عند بداية طريق الملك أمام بوابات المدينة، وإلقاء أسلحتهم والتفكير في الراحة، إلا حين جنّ المساء، وكان ثلاث يعرّج بشدة من الإرهاق وكانت إيرين مُتَشَبِّهة بالسرج بيدها التي لا تحمل بها ترسًا. كان الشماليون يفرّون أخيرًا، يفرّون بكلّ ما أُوتوا من قوة، على ثلاث أرجل أو أربع أو خمس؛ وكان بعضهم يزحف. وأما مَنْ كانوا لا يزالون يتمتعون بالقوة من أهل دامار فقد طاردوا من الفارين أبطأهم ووجَّهوا إليهم آخرَ ضربةٍ رحيمة، لكن عندما صار الظلام كثيفًا ترك هؤلاء أعداءهم الغادرين لليل، وتجمعوا حول النار التي كانت قد أُشعلت بالقرب من آخر الأعمدة الصخرية الصامدة.

لم يكن هنالك الكثير من الابتهاج؛ فقد كان الجميع مُتعبين، مُتعبين حتى النخاع ومُنهكين حدّ الموت؛ في ذلك الصباح كانت آمالهم ضعيفةً للغاية حتى إنهم الآن في المساء لم يكونوا قد بدعوا بعدُ يُصدقون أنهم حقّقوا النصر في نهاية المطاف. وكان هنالك الجرحى الذين يحتاجون إلى الرعاية؛ في هذا قدّم المساعدة كلُّ مَنْ كان لا يزال قادرًا على الوقوف، وكان هؤلاء قلة. وكثيرٌ منهم كانوا أطفالًا؛ لأنه حتى المُعالجون كانوا قد حملوا سيوفًا أو

سكاكين بحلول النهاية وخرجوا إلى المعركة. لكن كان على الأقل بإمكان أصغر الأطفال أن يحملوا الضمادات، ويجمعوا الحطب من أجل النار، ويحملوا دلاءً صغيرة من الماء ليملئوا القدر الكبيرة المعلقة على النار؛ حيث لم يكن هناك طفل لم يفقد أباً أو أمّاً أو أخاً أكبر أو اختاً، كان الانخراط في العمل هو أفضل تعزية ممكنة استطاع من بقي من أهل دامار أن يُقدّموها إليهم.

كان إيرين وتور من بين من بقوا من دون أن يفقدوا طرفاً، وقدّما من المساعدة قدر وسعهما. ولم يلاحظ أحد هذا وقتها تحديداً، لكن لاحقاً تذكر القوم أن معظم من شعروا بيدي الأميرة الأولى، التي كان سيفها باللون الأزرق الخافت لا يزال مُعلقاً إلى جنبها، أو بيدي ولي العهد، الذي كان تاج البطل لا يزال على جبهته، وبه طيف من اللون الأحمر، قد تعافوا، مهما كانت خطورة جراحهم. وقتها كل ما لاحظته سعداء الحظ أولئك ممن مسّتهم تلك الأيدي أن ذلك أوقف شعورهم بالألم توقفاً غير مُتوقّع؛ وفي ذلك الوقت كان هذا هو كل شيء يمكن لأيّ أحد أن يُفكر فيه أو يُثمن قدره.

كان بيرليث قد سقط قتيلًا في ساحة المعركة. فقد قاد رجاله من الفرسان بلا كلل خلال الأسابيع الأخيرة الطويلة، وتبعه رجاله بإخلاص، بدافع الاحترام إن لم يكن بدافع الحب؛ حيث كانوا يثقون في رباطة جأشه في القتال، واكتسبوا الثقة في شجاعته؛ كما يعود سبب ذلك أيضاً إلى أن لسانه لم يفقد قط مهارته أو تأثيره الشديد رغم ما ألمّ به من إرهابٍ وضعف مع تقدّم الحصار. مات بيرليث في اليوم الأخير، ولم يكن قد أُصيب بأذى منذ بداية الحرب حتى ذلك اليوم، وعاد جواده من دونه بعد أن حلّ المساء، وكان السرج على ظهره لا يزال مُلطّخاً بالدماء.

كانت جالانا تُمسك بقدر من الماء لأحد المُعالجين حين عاد جواد بيرليث، وهمس لها شخصاً ما بالخبر حيث كانت جاثية. رفعت جالانا عينها إلى حامل الخبر، الذي كان هو نفسه منهكاً بشدة بحيث لم يكن تبقى لديه أي قدر من الدماثة ليُمهد للخبر، فما كان منها إلا أن قالت: «شكراً لك على إخباري». ثم أطرقت بعينها إلى الماء المصبوغ باللون الوردى ولم تتحرك. نظر إليها المُعالج في قلق؛ فقد كان عرفها جيداً في أيام أفضل، لكنها لم تُظهر أي بادرة اضطرابٍ أو انفعال؛ وكان المُعالج أيضاً منهكاً بما يتجاوز استطاعته أن يكون دمثاً، فلم يُمعن التفكير في الأمر. كانت جالانا تعلم أنها بحاجة لأن تغسل شعرها، وأن رداءها ممزّق ومتسخ — وأن يديها كانتا سترتعثان لولا الوعاء الذي تحمله؛ كان ذلك الشخص قد أخبرها للتوّ أن بيرليث قد قُتل، وأن جواده عاد بسرج ملطّخ بالدم. حاولت أن

تَفَكَّرَ في هذا، لكن ذهنها كان يعود إلى أمر شَعَرِها؛ ذلك أنها كانت تشعر بحِكة في فروة رأسها؛ حينها قالت جالاناً في نفسها: «لن أرى زوجي ثانية، فلا يُهم إن كان شعري نظيفاً أم لا. لا أعبأ حتى إن ظلَّ شعري مُتسخاً إلى الأبد.» وحدّقت بعينين خاليتين من الدموع في الوعاء الذي تحمله.

لكن لم يكن الأمير الثاني هو أعزَّ مَنْ فقدت دامار. كان كيثتاذ قد سقط في المعركة هو أيضاً، واختفى أرلييث عن أنظار الجميع بعض الوقت، في نفس الوقت الذي التقى فيه تور وإيرين وثبَّتت إيرين تاج البطل على رأسه. أخذاً يبحثان عنه في قلقٍ واضطراب، وكانت إيرين هي مَنْ وجدته، يقاتل راجلاً، وقد أُصيب بجُرح غائر في فخذه حتى إنه لم يكن يستطيع أن يُناور كثيراً، لكن كان باستطاعته أن يُجابه مَنْ يُقبل عليه. لكن ذراعَه التي كان يُمسك بها السيف كانت ترتفع بالسيف وتهبط وكأنها ماكينة لا تعرف الألم ولا الكلل.

قالت له إيرين: «اصعد خلفي. سأعود بك إلى البوابات وسيجدون لك جواداً آخر»؛ لكن أرلييث هزَّ رأسه نفياً. قالت له إيرين بانفعال شديد: «هيا.» فقال لها أرلييث: «لا أستطيع»، ثم استدار حتى تستطيع ابنته أن ترى الدم الذي غطَّى سُترته وبنطاله حتى ساقه اليمنى. «لا يُمكنني أن أقفز خلفك على السرج بساقٍ واحدة فقط — من دون ركاب.»

ردَّت إيرين: «بحق الآلهة»، ثم قذفت بنفسها من فوق السرج وجثت أمام والدها. «انهض، هيا.» وببطءٍ شديد ارتقى أرلييث على كتفي إيرين بصعوبةٍ بالغة، فيما عضَّت هي على شفتيها لِثقل وزنه، بينما أمنت قطط الفولستزا وكلاب اليريج مساحةً صغيرة لثلاثتهم، حتى صعد أرلييث على صهوة تالات وانهار للأمام على رقبة حصانه القديم. قالت إيرين «بحق الآلهة»، واختنق صوتها. ثم قالت إلى تالات: «هيا، اذهب. عُد به.» إلا أن تالات توقَّف وحسب، وبدا مُتحيراً وأخذ يرتجف؛ فنكزته بقبضتها في خاصرته. «اذهب! كم سيستطيعون أن يصدّوهم عنّا؟ هيا اذهب!» لكن تالات انحرف مبتعداً عنها ثم عاد وأبى أن يُغادر، وغاص أرلييث أكثر وأكثر على حارك تالات.

همست إيرين: «ساعدونى»، لكن لم يكن ثمة مَنْ يسمعها؛ كان تور وبقيّة المحاربين تحت ضغطٍ شديد كما كانوا بعيدين جداً؛ لذا رفعت إيرين جونتوران مُجدداً، وجَرَّت على قدميها نحو الأمام، وطعنَت أوَّل شماليِّ قابلته بعد الحلقة الصغيرة التي صنعتها القطط والكلاب الوحشية؛ فتبعها تالات وهو يحمل جملة بخضوعٍ ويحاول البقاء على مقربة من

سيدته وفي عقبها مباشرةً. وهكذا أحضروا أرلييث إلى بوابات المدينة، فساعدوا رجلان مُسنَّان، لا يقويَّان على القتال، في إنزاله من فوق سرج تالَت. حينها بدا أنه استفاق قليلاً فابتسم لإيرين.

قالت له، والدموع تنهمر على وجهها: «أيمكنك أن تسير قليلاً؟» فهمس يقول: «قليلاً»، فجذبت ذراعه حول كتفها وترنَّحت معه وهو يسير؛ وأخذ الرجلان المُسنَّان يمشيان وهما يتعثران أمامها وصاحا طلباً لأغطية، فخرج ثلاثة أطفال من الظلام ونظروا إلى مولاها وهو ينزف وإلى ابنته بعينين يملؤهما الذهول والهلع. لكنهم أحضروا أغطيةً وعباءات، ومُدَّ أرلييث عليها في ظلال أحد الأعمدة الصخرية عند بوابات مدينته.

غمغم لها أرلييث: «امضي قُدماً. لا يُمكنك أن تكوني ذات نفع هنا.» لكن إيرين ظلَّت معه وهي تبكي، وأمسكت يديه في يديها؛ ومن لمستها انتشر قليل من الدفء في يد الملك الباردة، وتغلغل الدفء إلى دماغه. ففتح عينيه أوسع قليلاً. ثم تمتم بشيء لم تستطع سماعه، لكن بينما كانت مُنحنية عليه هرَّ يديه فأزالهما من يديها، وقال: «لا تُبديها عليّ؛ أنا مُسنٌّ جدًّا ومُتعب جدًّا. أنقذي دمار من أجلك ومن أجل تور. أنقذي دمار.» ثم أغلق عينيه، فبكت وهي تقول: «أبي! لقد عُدْتُ بالتاج معي يا أبي.» ظنَّت أن أرلييث ابتسم ابتسامة خفيفة، لكنه لم يفتح عينيه ثانيةً.

نهضت إيرين ثم جرت تهبط التلَّ إلى حيث كان تالَت منتظراً وصعدت بسرعة على ظهره واندفعت عائدةً إلى المعركة، وأخيراً استولت عليها معمرة المعركة فلم تُعد بحاجة إلى التفكير، لكنها أصبحت مجرد امتدادٍ للسياف الأزرق الذي كانت تُمسك به في يدها؛ وتابعت القتال هكذا، حتى انتهت المعركة.

وحين عادت كان أرلييث قد لقي حتفه. كان تور هناك جاثياً إلى جواره وقد لطَّخت علامات الدموع وجهه ببُقَع موحلة. وهناك، وهما مُتواجهان أمام جثة الملك، تحدَّثا قليلاً، وكان حديثهما هذا هو الأول لهما منذ انطلقت إيرين بجوارها ليلاً بحثاً عن لوث وعن حياتها.

قال لها تور: «لقد حُوصرنا قُرابة الشهر، لكن الشهر مرَّ وكأنه قرون. لكننا كنَّا نقاتل — كنا دائماً نراجع، دائماً نعود إلى المدينة، ثم نخرج من جديد لكن لا نبتعد كثيراً؛ كنا دائماً ما نُحضر معنا قلةً أخرى من الناجين من القرى التي أُحرقت لننويهم هنا — كنا نقاتل دائماً، عامًّا تقريباً. وقد بدأ الأمر كله ... بعد أن رحلتِ بوقتٍ قصير.» ارتجفت إيرين.

فقال تور وبدا من نبرته مُتَحِيرًا: «رغم هذا، لم يَدُم الأمر طويلًا؛ لقد امتدَّت حروب أعوامًا وأجيالًا. لكن هذه المرة، شعرنا بطريقةٍ ما أننا منهزمون قبل أن نبدأ. دائمًا ما كنا مُرهقين وعزيمتنا مثبَّطة؛ لم نخرج إلى معركةٍ يومًا أَمِلين في النصر.» ثم سكت هنيهةً، وحدَّق في وجه ملكهم الباهت الهادئ. وأكمل يقول: «في الواقع، كانت الأمور أفضل قليلًا في الأسابيع الأخيرة؛ أو ربما اعتدنا القنوط في آخر الأمر.»

لاحقًا تحدَّثا بشكلٍ مُقتضبٍ بينما كانا يعتنيان بجيادهما ويُقدِّمان المساعدة في أماكن أخرى قدَّر استطاعتهما. لم تُفكِّر إيرين، التي كانت خِدرة من أثر الصدمة والحزن، في كلمات والدها الأخيرة لها، ولم تظن أنه ربما يُوجَد علاج خاص في يديها، أو في يدي مَنْ يلبَس تاج البطل؛ إذ كان هذا شيئًا آخر نسي لوث أن يُعلِّمها إيَّاه. وهكذا كانت تذهب وحسب إلى حيث يُنادي أحد طالبًا المساعدة. لكنها بطريقةٍ ما تمكَّنت هي وتور أن يظلَّ كلُّ منهما إلى جوار الآخر، وكان وجود أحدهما مصدر ارتياح وطمأنينة للآخر.

وذهبت أفكار إيرين إلى صرح أسود يتداعى وهي تُعدِّل أغطيتها، وفي تاج البطل الذي لم يَعد يتوجُّ رأس مَنْ يكيد لدامار الشرور وهي تُثبَّت الضمَّادات؛ وبينما ربضت قليلًا إلى جوار نار المُخيم الكبيرة التي عكست ظلالًا هائجة على جدران مدينتها، فكَرت في الكلمات التي حدَّثتها بها نار أخرى: كيف يمكن لأحد أن يكون أحمق لدرجة أن يأخذ رأس التنين الأسود تذكارَ نصرٍ ويُعلِّقه على جدار لينظر إليها الناس؟

التفتت إيرين فجأةً إلى تور وقالت: «أين هو رأس ماور؟»

حدَّق فيها تور؛ كان مذهولًا من شدة الحزن والإنهاك بقدر ما كانت، لكنه لم يستطع أن يتذكَّر مَنْ يكون ماور.

«قبل أن أغادر، طلبتُ أن يُوَضَّع رأس ماور في مكانٍ آخر بحيث لا أضطر إلى النظر إليه. أتعرف إلى أين أُخِذ؟» كان سؤالها يحوي إلحاحًا مفاجئًا، مع أنها نفسها لم تعرف سبب ذلك؛ لكن ذلك الإلحاح اخترق التشوُّش الذي أصاب ذهن تور.

فقال تور بعدم يقين: «في ... في قاعة الكنوز على ما أعتقد. لست متأكدًا.»

نهضت إيرين مُترنحةً، وفي الحال كان رأس أسود ذو شعر مُخمي تحت يديها، يُعاونها على النهوض. «لا بد أن أذهب إلى هناك.»

قال تور في استياء وهو ينظر حوله: «الآن؟ إذن سأذهب أنا أيضًا. سيتعين علينا أن نسير؛ فلا يُوجَد جواد غير منهك في المدينة بأكملها.»

كان مسيرهما طويلاً ومُضنياً؛ إذ كان كله تقريباً صعوداً على منحدر؛ فقد كانت قلعة الملك على أعلى قمةٍ بالمدينة، وكانت هذه القمة كَنَفًا منخفضاً قَمَّتَه مسطّحة بين الجبال التي تحيط به. وذهب معهما العديد من أفراد جيش إيرين، وكان أطولهم يدعمون تور في مسيره في صمت، وكان يُرَبَّت بتعجُّبٍ على الرءوس والظهور التي يجدها تحت أصابعه. قال لها تور: «ستَقْصِين عليّ قصّةً طويلة» ولم يكن حديثه بنبرة المُطالب.

ابتسمت إيرين بقدرٍ ما سمح لها ما بها من إرهاق. وأجابته: «قصة طويلة جداً». كانت أكثرَ تعباً من أن تعاود البكاء، لكنها تنهّدت، وربما سمع تور في تنهّدها تلك شيئاً؛ ذلك أنه أبعدَ كلباً من اليريج عن طريقه ولفَّ ذراعه حولها واجتهدا في المسير معاً وهما يتكئان أحدهما على الآخر.

كانت القلعة مهجورة. غداً سيُجَلَب الكثير من المرضى والجرحى إلى هنا؛ أما ليلتهم هذه فسيقضونها إلى جوار النار عند بداية طريق الملك؛ لأن حتى مَنْ ظلَّ سليماً ومعافى من أهل دامار لم يكن بقي له شيء من القوة، كما أنه لم يكن يُوجَد أحد في المدينة في الأيام الأخيرة من القتال؛ كان الجميع بالأسفل في أرض المعركة، يفعلون ما في وسعهم.

وجد تور شمعاً، وبمعجزةٍ ما كان لا يزال يحمل حجر القداحة. كانت القلعة مخيفة بما يكتنفها من صمتٍ وانعزال وظلمة؛ ولما كان بإيرين من إنهاك، كانت عيناها تريان من زاويتيها أشكالاً تترافق وكانت الصور المنعكسة تقترب أكثرَ حول ضوء الشمعة. وجدت إيرين أن عليها أن تتبع تور دون تفكير؛ كانت قد أمضت أيام حياتها كلها تقريباً في تلك الردهات والقاعات، لكنها وفي غضون أشهر قليلة نسيت كيف تضي بينها؛ ثم تذكّرت بارتياح صعودها درجاتٍ لا تنتهي في ظلمةٍ مشابهة كثيراً لهذه الظلمة، فارتجفت لذلك بشدة، وأخذت أنفاسها تُحدِّث صوتاً كالهسيس وهي تمر بين أسنانها. رمقها تور بنظرة سريعة ومدَّ يده التي لم تكن مشغولةً بشيء، فأخذت يده بامتنان لأنها كانت وحيدة تماماً عندما كانت تصعد تلك الدرجات الأخرى.

قال تور: «أعتقد أننا وصلنا.» تركت إيرين يده لكي يتولّى أمر القفل، وذلك أحدُ الأمور السحرية الصغيرة التي لم تستطع قط أن تتعلّمها. غمغم تور لحظة ثم مسَّ الباب في خمسة مواضع فانفتح.

هَبَّت عليهم هَبّة حزن، من موتٍ حصدَ الأطفال، من أمراضٍ قاسية تسلبُ الجمال سريعاً لكنها تحوّل دون الموت؛ من حبٍّ لم يكتمل، من حبٍّ ضاع أو شوّه وتحوّل إلى كره؛ من أعمالٍ نبيلة ثبت أنها عقيمة، أعمال حطّمت فؤادَ فاعليها؛ من خيانة لا مبرر لها، من

ذنبٍ لا كفارة له، من كل بؤسٍ لِقِيهِ إنسانٌ يومًا؛ هَبَّتْ عليهم هَبَّةٌ تحمل كلَّ هذا، كرائحة مسلخ، أو طعنة قاتل. انهار تور على ركبتيه وغطَّى وجهه بيديه، وارتدَّت الوحوش إلى الخلف وانكمشت خوفًا وأخذت تئن. مدَّت إيرين يدها واستندت إلى إطار الباب؛ كان هذا تمامًا هو ما تخشاه وتتوقَّعه بدرجةٍ ما؛ إلا أن واقع الأمر كان أسوأ بكثيرٍ مما استطاع ذهنها المنهك أن يُعَدَّها له.

قال رأس ماور: «مرحبًا. لم أظنَّ أنني سأحظى بشرف لقائكِ ثانيةً.»
أجابته إيرين: «هذا أنت.» وفتحت فمها لتشهق، فهُرِعَ اليأس إلى داخلها وكان مريِّرًا كالعلقم. اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها دفعت بنفسها بعيدًا عن عتبة الباب وانحنت ببطءٍ وأمسكت بحذرِ الشمعة التي كان تور قد وضعها أرضًا قبل أن يفتح الباب. وهزَّت رأسها لتستعيدَ سلامة رؤيتها، ورفعت الشمعة عاليًا ودلفت إلى داخل القاعة ذات القبَّة العالية رغم العويل الصامت للهواء. وقالت: «أنا أعرف القنوط. لم يُعَدَّ يُوجَد شيء يمكنك أن تُريني إياه.»
«حقًا؟»

تغيَّرت نبرة العويل حتى قاربت الجنون، وتدفَّقت على جلدها واهتاجت بين شعرها وكأنها أجنحة خفافش؛ فانحنت إيرين، وارتعش لهيب الشمعة حتى كاد ينطفئ. أطلق ماور ضحكة. وتذكَّرت تلك الضحكة الصامتة الجوفاء.

قالت في غضب: «لم يُعَدَّ يوجد شيء!»
وجاءها صوتُ تور مبحوحًا من خلفها يقول: «إيرين. أنيري لي الطريق ... لا يُمكنني ... رؤيتك.» انجرت الكلمات من حلقه كما جرَّ هو نفسه حتى نهض واقفًا على قدميه.
«طوال الوقت كنا ... مُنهكين ... بسبب هذا.»

«أجل.» تحوَّل الصغير وسط الصمت إلى فحيحٍ كفحيح الأفاعي، لكنَّ غضب إيرين شكَّل حولها مساحةً خالية من تلك الأصوات، فتسللت وحوشها إلى جوار ساقِها وتنقَّست من الهواء حولهما بامتنان، وترنَّح تور نحوها وكأنه رجل يعبرُ جسرًا ضيقًا نحو الحرية، ولفَّ ذراعه حولها مجددًا، لكن هذه المرة لأجل راحته هو.
قالت إيرين في هدوء: «تور، يجب أن نتخلَّص من رأس ماور. يجب أن نُخرجه من المدينة.»

هزَّ تور رأسه ببطء؛ ليس رفضًا وإنما تحيُّرًا. قال: «كيف السبيل إلى ذلك؟ إنه في غاية الضخامة؛ ولا يُمكننا أن نرفعه. لا بد أن ننتظر ...»

قال رأس ماور في فتور ضاحك: «انتظروا». فردَّت إيرين: «كلّا». وأخذت تتلَفَّت حولها بانفعالٍ شديد. كانت عفونة اليأس لا تزال تحزُّ في أنفها وعقلها، وكان غضبها ينحسر. كان عليها أن تُفكِّر. كيف؟ قالت أخيراً: «يُمكننا أن نُدرجه. فهو شبه مُستدير. يُمكننا أن ندرجه على الدَّرَج نزولاً إلى التل خارج أبواب المدينة». ودفعت نحوه بالشمعة. وقالت: «أمسك بهذه». وسارت ثابتة العزم نحو المنصة المُنخفضة التي وُضعت عليها جمجمة ماور؛ وقد تألقت الظلال التي كانت في محجري عيني الجمجمة. وتبعتها وحوشها، على مقربة كبيرة منها؛ وأتى من خلفهم تور، صافي الذهن بما يكفي لأن يُمسك بالشمعة عاليًا ويُراقب إيرين.

وضعت إيرين كتفها في أحد التجاويف الناتئة في قاعدة الجمجمة وناضلت لترفعها. ولم يحدث شيء سوى أن علت ضحكات ماور أكثر؛ وقد تلاطمت ضحكاته في ذهنها وكأنها قصف الرعد، وتلطَّخت رؤيتها باللون الأحمر. حينها وجد تور مشكاةً للشمعة وأتى لِيُساعدها؛ حاولا رفع الجمجمة وناضلا في محاولتهما، وبالكاد تحرَّكت الجمجمة الهائلة على قاعدتها. ثم أتت وحوشها ودسَّت مخالبها وأسنانها في الجمجمة؛ وتسبَّب غضب سيدتهم وما بهم من خوف في أن يُصابوا بنوبةٍ من الهياج، فاهتزَّت الجمجمة في مكانها، لكن لم يستطيعوا أن يُحرِّكوها أكثر من ذلك، وصرخت إيرين في آخر الأمر قائلة: «هدوءاً!» ووضعت يديها على أصدقائها الأوفياء. هدأت الوحوش بلمستها لكنها أخذت تلهث حيث جثمت، حتى القطط كانت أنيابها البيضاء المنحنية تلمع في الضوء الخافت. وكان لهب الشمعة قد بدأ يخفُّ.

قال تور بأنفاس مُتثاقلة: «لا جدوى». كان لا يزال يتكئ على الجمجمة، مائلاً عليها وكأنه أحبُّ أنه يلمسها؛ فجذبتة إيرين من كتفه بعُنف وأبعدته، فترنَّح. رمشَ تور بعينيهِ وهو ينظر إليها، وعاد إلى عينيهِ شيء من رُشده وصوابه، وكاد يبتسم، ثم فرك وجهه بكُمِّه في المكان الذي كان يلامس الجمجمة.

تساءل رأس ماور: «هل انتهيتُم؟»

فردَّت إيرين في شراسة: «كلّا».

«يسرني هذا. هذه أفضل متعةٍ حصلت عليها منذ هَرَبْتُ من قاعة اللوائم. بالمناسبة، شكراً لك أُنك فتحت الباب. لا بد أن قومك عند بوابات المدينة شعروا بي بجلاء الآن».

قالت إيرين: «لن تُرهبنِي ثانية!» ثم وهي لا تكاد تعرف ما فعلت، استلَّت جونتوران من غمده وصفعت بنصله قاعدة رأس ماور في المكان الذي كان فيما مضى موضع التقائها

بالعمود الفقري. فهبت لذلك نارٌ زرقاء لها ألسنةٌ حادة أضاءت القاعةَ بأكملها بأرطافها وخزاناتها وكُواتها وأبوابها التي تؤدي إلى خزائنٍ منيعةٍ أخرى. كان لون النار شاحباً ومزعجاً، لكن الجمجمة أطلقت صيحةً وسُمع صوتٌ تصدّع كأنه جبل ينفلق، ثم سقطت الجمجمة من فوق قاعدتها إلى الأرض.

اندفعت إيرين نحو الجمجمة وهي لا تزال تتحرك، فانقلبت قسراً نصف دورة أخرى؛ لكن بينما كانت الجمجمة تسقط، ضعفت فجأة كثافة اليأس الذي كان يُحاصرهم، وبشيءٍ أشبه بالأمل دفعها تور والوحوش ثانيةً، كلٌّ منهم بقدر ما أُوتِي من قوة؛ فتحرّكت الجمجمة نصف دورة أخرى.

كان القمر عاليًا في السماء بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى الباحة، وذلك لأنهم لم يتمكّنوا من سلوك الطرق المباشرة التي تؤدي إليها — كان حجم الجمجمة يُعيقهم عن أن يُحركوها في أي ممراتٍ سوى الواسعة منها. وكانت ريح الليل باردة؛ إذ كانوا ينضحون بالعرق لشدة كدّهم؛ وأصبح القمر قمرين إذ أبت عينا إيرين المُتعبتان أن تُركّزا. كان تور قد وجد حبلًا، وكانوا قد حاولوا أن يجزّوا الجمجمة، لكن ذلك لم يُجدِ نفعًا أكثر من دحرجتها؛ لذا عادوا يدرجونها. لم تكن الجمجمة كاملة الاستدارة، فكانت تتقلب تقلباتٍ نصف دائرية ثقيلة، وكانت عضلات تور وإيرين ترتجف بشدة مع كل مرة يقبلانها فيها؛ وقد كانا منهكين للغاية قبل أن يبدأ.

تمتم تور يقول: «لا بد أن نستريح.»

ردّت إيرين تقول: «الطعام.»

فحثّ تور نفسه ونشّطها. وقال: «سأُحضر بعضه. انتظري.»

أمدهما الخبز الجاف والقديم قليلاً الذي وجده والجبن الأكثر منه جفافاً وقدمًا بطاقيّة أكبر مما ظنّاه ممكناً. ثم قال تور وهو ينتصب واقفاً ويمدّد جسده قليلاً حتى أحدث عموده الفقري فرقةً: «الجولة الثانية.»

فردّت إيرين مُتجهمة، وهي تُطعم آخرَ ما بقي من الجبن معها إلى وحوشها: «الرابعة أو الخامسة، وشدة الفزع.»

فقال تور: «أجل»، وأعملا كتفیهما في الجمجمة مرة أخرى بينما تردّدت أصداؤه مقبّية لصوت العظم على الحجر في جنبات المدينة الخاوية. كانت الكأبة تنخر فيهما، لكن ما ألمّ بهما من إرهاق كان في صالحهما بشكلٍ غريب؛ ذلك أن الكأبة غالباً ما يُصاحبها الإرهاق، ومن ثمّ يمكن لهما أن يتجاهلا أحدهما باعتباره نتيجةً بسيطة وغير مفزعة للآخر. وكان

ماور قد فقد استعلاءه وتسُلَّطه بمجرد تلقيه ضربةً من جونتوران، وبينما كانت الجمجمة لا تزال ننتنة الرائحة، بدت تلك الرائحة الآن في الهواء الطلق طبيعية؛ فلم تكن تزيد عن رائحة النتن الخفيفة الصادرة عن جيفة قديمة.

أصبح عملهما أسهل قليلاً بمجرد أن وصلا إلى طريق الملك؛ فصارت كلُّ رفعةٍ أقلَّ جهداً من سابقتها، وصار سقوط الجمجمة أسرع، وارتطام الجمجمة بالأرض أقوى. ثم بدأت الجمجمة تتدحرج تقريباً؛ فكانت تتمايل وتترنح بشدةٍ مرتين في كل دورة تدورها، لكنها لم تكن تتوقَّف توقُّفاً تاماً في كل مرة؛ فاضطُرَّ تور وإيرين إلى دفعها بأيديهما وحسب. وأضحت كتفا إيرين مسلوختين تحت سُترتها، وكان هناك جُرح طويل طفيف على فُكَّها حيث مسَّتها إحدى شوكات عظام أذن التنين مساً خفيفاً؛ أما الجُرح القديم في راحة يدها، الذي أُصيبت به من نصل جونتوران فكان يخفق خفقاناً ضعيفاً.

بعد ذلك انحدرت الجمجمة مُبتعدةً عنهما عندما وصلا إلى نقطةٍ عالية عند بوابات المدينة. ولم يكن الانحدار السريع للجمجمة الآن يعود وحسب إلى المُنحدر الذي كان في هذه المرحلة أكثرَ ميلاً من معظم الطريق خلفهما؛ إنما كانت تلك هي آخر لحظات ماور، وسمعت إيرين منه آخرَ صيحات الخبث والعداوة التي طربت لها أذناها بينما كانت الجمجمة تندفع هبوطاً على الطريق.

صاحت إيرين: «انقشع عنا!» في نفس اللحظة التي رفع فيها تور صوته عالياً قائلاً: «احذري!»

بالفعل كان القوم أمام بوابات المدينة قد وجدوا ريح ماور الخانقة الكريهة بعد أن فُتح باب قاعة الكنوز، فاستلقى مُعظمهم أو جثموا في مكانهم حين هبَّت عليهم تلك الريح البغيضة المروعة. وكانت قد انقشعت قليلاً الآن، لكن الأيام التي سبقت يومهم هذا كانت محمومة، وبمجرد أن مسَّهم ذلك القنوط الشديد وجدوا صعوبةً في أن يتحرَّروا من وطأته. كانوا يتقلقلون الآن بفعل الأصوات وبفعل الاستعجال اليائس الذي تملَّكهم فأخذوا يتطلَّعون في الأرجاء.

كانت النار قد خبت، فلم يكن أحد يملك العزم ليُعْذِها منذ فُتح باب قاعة الكنوز. حطَّت جمجمة ماور في وسط النار وتطايرت الأغصان التي كانت لا تزال مُشتعلةً في كل اتجاه، وتناثر الجمر كالماء؛ وبينما أخذ قلةً من الناس يصيحون من الألم المفاجئ، كانت النار أقلَّ من أن تُسبِّبَ لهم أدنى بالغاً. ثم اصطدمت الجمجمة بأحد الأعمدة الصخرية الخربة، فتهشَّم، ثم اختفت الجمجمة السوداء في سواد الليل، ثم جاء صوت دمدمة وتردَّد

صداه وكأنه انهيار جبلي، فأخذ مَنْ أفاقوا من سُباتهم وفتورهم ينظرون حولهم خائفين ويتساءلون من أي طريق يفرُّون؛ لكن لم يسقط عليهم أي جبل. وصار صوت الدممة أعلى، حتى وضع الناس أيديهم على آذانهم، وركع تور وإيرين على الطريق مُتعانقَيْن. تحوّل صوت الدممة إلى هدير، ثم هبَّت عاصفة مفاجئة من جهة ساحة المعركة، محمّلة برائحة الموت؛ لكن مرّت بهم تلك الرائحة وهبّت مكانها ريح شديدة ساخنة وجافة لم تشهدا تلال شرقي دamar من قبل؛ إلا أن تور رفع رأسه من فوق كتف إيرين وقال: «إنها الصحراء. هذه رائحة الصحراء الغربية.» وكانت الرياح محمّلة بجزيئات رملية صغيرة.

ثم هدأت الرياح، وتمتم الناس أحدهم للآخر؛ ومع أن القمر كان نصف بدر فإنه لم يبتّ أي ضوء يخترق الغيوم الكثيفة التي خيَّمت على ساحة المعركة. وأشعل القوم النار ثانيةً، لكنها لم تكن كبيرة، فلم يكن من بينهم مَنْ يرغب في أن يبتعد كثيراً بحثاً عن حطبٍ لها؛ وتولّى القوم معالجة الحروق التي أصابتهم وتبيّن أنها طفيفة؛ وجمعوا الجياد ثانيةً حيث كانت مُتعبة جداً ولا تقدر على العدو بعيداً، حتى ولو من الدُعر.

وقفت إيرين وتور ببطءٍ وأقبلوا على النار، وأقبلت بقيّة وحوش إيرين عليهما في ابتهاج لتحيييهما، مَنْ بقي منها على قيد الحياة، لأن كثيراً منها لم ينجُ من المعركة. تطلعت إيرين إلى تور لحظةً ثم قالت: «ماذا فعلت بالتاج؟»

كان وجهُ تور خالياً من التعبير، ثم بدا مُرتبگًا. وأجابها: «تركته في قاعة الكنوز. ليس مكاناً سيئاً له؛ فسيقضي معظم وقته هناك على أي حال.»

شعرت إيرين بشيء غريب يَحْزُها في مؤخر حلقها. ثم ضحكت حين فتحت فمها.

الفصل الرابع والعشرون

استيقظت إيرين بعد يومين في فراشها في قلعة والدها، التي أصبحت الآن قلعة تور. كان تقلُّبها في الفراش هو ما أيقظها؛ كانت عضلاتها مُتصلِّبة وتؤلِّمها بشدة، حتى إن ما بها من إنهاك كان في نهاية المطاف أقلَّ مما بها من أوجاع وآلام، وبينما كانت تتقلَّب على كتفها اليمنى استيقظت وهي تتأوَّه.

على الفور سُمِعت خشخشة من مكانٍ ما خلف ستائر الفراش تمامًا، ثم انفتحت الستائر وتدفَّق ضوء النهار. لم تستطع إيرين أن تُدرك أين هي الآن؛ وكان أول ما جال في فكرها أن المكان الذي هي فيه، أيًّا كان، هو مكان خطِر ولا شك، فأخذت تتحسَّس حولها بحثًا عن مقبض جونتوران؛ لكن بدلاً من أن تجده، غاصت أصابعها في طوقٍ مُخملي كثيف، ولعق لسانٌ طويلٌ يدها. حاولت أن تعتدل جالسةً، فجاء صوت مُختنق يعود لصاحبة اليدين اللتين فتحتا ستائر الفراش وهو يقول: «آه يا سيدتي.» تعرَّفت إيرين إلى تيكا أولاً، ثم بعدها أدركت مكانها، وعندئذٍ انحنت تيكا فوقها ودفنت وجهها في أغطية الفراش وبكت بحرقة.

فنادتها إيرين، وقد ارتاعت لدموعها: «تيكا.»

غمغمت تيكا من دون أن ترفع وجهها: «سيدتي، ظننتُ أنني لن أراك ثانيةً»، لكن حين ربَّت إيرين بتردُّدٍ على كتفها ومسحت على شعرها الأملس ذي اللونين الأسود والرمادي جلست تيكا إلى الخلف على عقبيها وتنشَّقت وقالت: «لكن ها أنا أراك، وكنتُ أراك طوال يومين ونصف اليوم، وأنا آسفة للغاية أنني كنتُ بهذه الحماقة. أنت في حاجةٍ إلى طعام وإلى التحمُّم.»

كرَّرت إيرين تقول: «يومين ونصف اليوم؟»

«يومين ونصف اليوم. ولم يستيقظ الأمير تور بعد.»

فابتمت إيرين. ثم قالت: «وبالطبع كنتِ تجلسين في هذا الكرسي طوال الوقت»، وأشارت برأسها إلى كرسي خشبي عالي الظهر عليه وسادة تدعم ظهر الجالس ورقبته، ومسند قدمين مبطّن، وطاولة صغيرة مُرتبة عليها أدوات خياطة ترتبًا دقيقًا.

فتحت تيكا عينيها على اتساعهما بالطريقة القديمة التي كانت فيما مضى تُرعب إيرين الصغيرة حين كان يُقبَض عليها وهي تُسيء التصرف. وأجابتها: «بكل تأكيد. هل ستتحمّمين أولاً أم تتناولين الطعام؟»

أخذت إيرين تُفكّر. كانت عضلاتها تؤلمها حتى تلك التي تجعل لسانها يتحرك وفكّها يُفتح ويُغلق لتتحدّث وتبتسم شفتاها. فقالت: «مالاك، ساخن جدًّا، ثم حمّام ساخن جدًّا، وبعد ذلك الطعام.» جاء من خلفها صوت تخبُّط ونكزها وجهٌ طويل مُدبَّب في كتفها. «وطعامًا لهذه أيضًا. لكننا لن نتحمّم. أين بقيتُهم؟»

عبرت تيكا. وقالت: «أينما راق لهم أن يستلقوا. تمكّنت من جمعهم في حجرتك يا سيدتي، وفي القاعة الخلفية؛ إنهم يبثّون الرعب في الخدم ومعظم أفراد البلاط الملكي. لكنهم لا يرحلون — وفي واقع الأمر، أنا أقرُّ أننا ندين لهم بدين، والولاء من الصفات المُحبَّبة للغاية حتى في الوحوش العجماء»، ثم بنبرة تنم عن الغضب المكبوت أكملت: «لكنني لا أوافق على أن تُشارك الحيوانات فراشكِ أيتها الأميرة.» فغرت قائدة الكلاب فمها وهي تتنأب، ثم نهض ظلُّ أسود طويل من عند آخر السرير الذي كانت الستائر لا تزال تُغطّيه، ومدد جسده ونزل من فوق السرير إلى الأرض. واستند إلى الجانب الخلفي من ساقِي تيكا وبدأ يُخرخر، وأبهج إيرين وأسعدها أنها رأت تورُّدًا يتسلَّل ببطءٍ إلى حلق تيكا ووجهها.

فقالت إيرين: «يسرُّني أن أصدقائي لا يُخيفون كلَّ من في قلعة أبي.»

فقالت تيكا بصوتٍ خفيض: «ليس الجميع، يا سيدتي.» فنكز قائد القطط خصر تيكا برأسه ليبتسم باعتزاز بالنفس لإيرين، التي قالت: «تعرفون أيُّها الأصدقاء البريُّون، إن كنتم تُخطِّطون للعيش معي على الدوام فسيكون لكم أسماء. إن كنتم تعيشون في منزل، فأنتم مُروّضون، وبهذا لا بدّ لكم من أسماء.» فلحق كلب اليريج الذي يجلس خلفها أذنها. بدأت إيرين عملية الخروج الطويلة المُضنية من السرير؛ كانت تشعر أنها لن تتحرك ثانيةً بسهولة أبدًا. قالت لها تيكا، بينما لامست قدما إيرين الأرض وتأنّفت لا إرادياً: «سأساعدك يا سيدتي.» كانت تيكا أنحفَ مما كانت عليه حين رأتها إيرين آخر مرة، وحين مدّت تيكا يدها لتساعد رأت إيرين ضمادةً طويلة ملفوفة حول ساعدها من تحت كمّها.

فأشاحت بعينيها وتطلّعت إلى وجه تيكا ثانيةً. وقالت مشاكسةً: «أيتحتمّ عليك أن تُناديني بسيدتي؟ أنت لم تفعلي هذا قط.»

نظرت إليها تيكا في استغراب. وقالت: «أعرف هذا تمام المعرفة. سأذهب وأتحقّق من حوض الاستحمام إن كنت قد نهضت.»

ساعدت المياه الساخنة في تخفيف الآلام العميقة، إلا أنها جعلت البثور تؤلمها بشدة. وضعت إيرين منشفتين أو ثلاثاً بطانةً لظهر حوض الاستحمام حتى يتسنى لها على الأقل أن تستلقي برفق؛ وبعد أن تناولت ثلاثة أكواب من مشروب الملاك القوي جدًّا تجرّأت على الخروج من حوض الاستحمام. جعلتها تيكا تستلقي على مقعدٍ مُبطّن وفركت جسدها قليلاً لتساعد في تخفيف شيءٍ من الألم، وذلك بمساعدة محلّول قابض (رائحته بالطبع عشبية قوية جدًّا) كان أثره على البثور أسوأ من أثر الماء الساخن؛ حتى إن إيرين صرخت من الألم.

قالت لها تيكا بقسوة: «صمتاً.» وأنهت عملها بأن ملّست بدهانٍ باهت وناعم، قالت لها إيرين إنه سَكَنَ ألمُ المحلول القابض. قالت لها تيكا بحدة: «لَمْ تجعلكِ مغامراتكِ أكثرَ كياسةً، أيتها الأميرة إيرين.»

أجابتها إيرين، وهي ترتدي قميصاً تحتياً، كانت تيكا قد أعدته لها: «من غير المعقول أن تكوني قد عقدتِ آمالاً عريضةً على ذلك.»

وأقرّت تيكا، قائلةً: «كلّا، لم أفعل»، وزمّت زاويتي فمها، وهو ما كان يعني أنها كانت تكبح ابتسامتها.

ثم التفتت إيرين لثمسك بالسترة. وتساءلت قائلة: «لماذا أرتدي الثياب وأتأنق من أجل تناول الفطور؟» كانت السترة جديدة عليها، زرقاء وثقيلة الوزن، ومخيطّة بخيوط ذهبية كثيرة.

أجابتها تيكا بنبرة رادعة: «الآن وقت العصر. وقد طلب الأمير سولا شرفَ حضوركِ لتناول غداء مُبكرٍ.»

امتعضت إيرين، ثم ارتدت السترة — ثم امتعضت ثانيةً. «إذن فقد استيقظ.»

«هذا ما يبدو. لا شيء يمكن أن يُفعل بشعركِ.»

تجهّمت إيرين وهزّت رأسها بحيث تمايلت على وجنتيها أطرافُ شعرها التي لا تكاد تصل إلى كتفيها. وقالت: «لا شيء على الإطلاق. يبدو أنه لا يرغب في أن ينمو.»

بدا تور مُنهكاً لكنه كان في طَور النقاهة، وشعرت إيرين أنها على الأرجح تبدو كذلك هي الأخرى. كانت قد تقلّدت سيفَها جونتوران إقراراً برسمية الحدث، إلا أن حزام السيف ذكَّرها بصورة حادة ببعض بثورها، وسرَّها أنها خلعتة وعلَّقته على الظهر الطويل لكُرسِيها. وفي الحال أتى تور نحوها وطَوَّقها بذراعِيه، ووقفاً، يميل أحدهما على الآخر، مدةً طويلة.

ابتعد تور عنها ذراعاً واحدة ونظر إليها. وبدأ يقول: «أنا ...» ثم أنزل ذراعِيه عنها وذرع أرجاء الحجرة مرةً أخرى. ثم التفت إليها كرجلٍ يُشجِّع نفسه على إتيان فعلٍ باسل، وقال: «سَيُنصبونني ملكاً غداً. يبدو أنهم يظنونني ملكاً عليهم بالفعل، لكن ثمة مراسم ...» ثم خمد صوته.

أجابته إيرين بنبذة لطيفة: «أجل، أعرف. أنت ملك بالطبع. هذا ما أراده ... ما أراده أربليث. كلانا يعرف هذا.» ثم قالت بصعوبة أكبر قليلاً: «وهذا ما يُريده الناس أيضاً.» حدَّقَ فيها تور بنظراتٍ قوية. «لا بد أن تكوني ملكة. كلانا يعرف هذا. لقد أعدتِ التاج؛ وبذا فُزتِ بحق ارتدائه. لا يمكن أن تكوني محلَّ شكٍّ لديهم الآن. كان أربليث سيوافق على هذا. كما أنكِ ربحتِ الحرب لأجلهم.»

هزَّت إيرين رأسها نفياً.

«لتمنحني الآلهة الصبر. بل فعلتِ. توقفي عن عنادكِ.»

«اهداً يا تور. أجل، أعرف أنني ساعدتُ في إبعاد الشماليين عن أبوابنا. لكن هذا لا يُهم حقاً. وفي الواقع، أفضِّل أن تكون أنتِ الملك.» هزَّت تور رأسه.

وابتسمت إيرين ابتسامةً حزينة. «هذا صحيح.»

«يجب عليه ألا يكون كذلك.»

هزَّت إيرين كتفَيها. وقالت: «ظننتُ أنكِ دعوتني لتطعمني. أنا جائعة للغاية ولا أريد أن أقف هنا وأتجادل معكِ.»

فقال لها تور: «تزوَّجيني. حينها ستُصبحين ملكة.»

تطلَّعت إليه إيرين مذهولةً من المفاجأة.

«أقصد أنني سأتزوّجكِ وتُصبحين ملكة، لا أقصد شيئاً من وراء الزوجة التقليدية.

أرجوك. أنا ... أنا في حاجة إليك.» كان ينظر إليها وهو يعضُّ على شفته. ثم أكمل يقول:

«لا أظنكِ ترمين إلى عدم معرفتكِ أنني سأطلب منكِ هذا. لقد عرفتُ أنا ذلك طوال سنوات.

وكذلك عرف أربليث. كان يأمل ذلك.»

ثم قال والأمل والألم يملآن عينيه: «أعرف أن هذا هو المخرج السهل. لكنني كنتُ سأطلب منك الزواج منِّي حتى لو لم تُعدي التاج — صدَّقيني. حتى ولو لم تقتلي تينياً قط، حتى ولو كسرت كل أطباق القلعة. حتى ولو كنتِ ابنة مزارع. إنني أحبك — أحبك وأنتِ تعرفين ذلك، منذ عيد مولدك الثامن عشر، لكنني أعتقد أنني أحببتكِ طوال حياتي. ولن أتزوَّج بغيركِ لو لم تقبلي بي.»

ابتلعت إيرين ريقها بصعوبة. ثم قالت: «أجل بالطبع»، ووجدت أنها لا تستطيع أن تقول أيَّ شيءٍ آخر. لم يكن مصيرها ولا واجبها هما ما أعادها إلى المدينة وإلى تور؛ فقد أحبَّت دامار وأحبَّت ملكها الجديد، وكان جزءٌ منها لا ينتمي إلى أي شيءٍ ولا إلى أي أحدٍ آخر ينتمي إليه هو. قبل عدة أيام وهي مُتجهة صوب المدينة لتضع التاج بين يدي الملك، كانت إيرين قد أخطأت فهم قدرها الحقيقي؛ لم يكن الأمر أنها تركت ما أحبَّت من أجل أن تذهب إلى حيث يتحتم عليها أن تذهب، بل كان مصيرها مزدوجاً، مثل حُبها وإرثها. من ثمَّ كان القرار أخيراً سهلاً، فتور لم يكن يُطبق الانتظار، كما أن الجزء الآخر من نفسها — الجزء الخالد بقدر كبير، الذي لا يدين بالولاء لأرض أبيها — يُمكنه الآن أن يهنأ بنوم طويل يمتدُّ سنواتٍ عديدة. ابتسمت إيرين.

فسألها تور في كربٍ ومعاناة: «أجل بالطبع» ماذا؟

قالت إيرين: «أجل بالطبع سأتزوّجك»، وحين طوّقها بذراعَيْه ليُقَبِّلها لم تنتبه إلى الألم الحاد الذي نتج عن انفجار بثورها.

بعد ذلك قصَّت عليه إيرين قصةً طويلة، ومع ذلك كانت قد أغفلت جزءاً كبيراً منها؛ ومع ذلك خطر لها أن تور خَمَّن على الأرجح بعض الأحداث المريعة جدًّا؛ إذ طرح عليها أسئلة كثيرة، لكن لم يكن أيُّ منها مما لم تكن تستطيع أن تُجيب عنه، من قبيل كيف كان شكل وجه أجسدي، أو كيف كان رحيلها الثاني عن لوث.

أكلاً طويلاً وكثيراً، ولم يكن هناك ما يُقاطع خصوصيتهما إلا وقع الأقدام الخفيف والعارض للخادم وهو يحمل أطباق طعامٍ طازج؛ لكن عند انتهائهما من وجبتهما كانت الظلال على الأرض، خاصةً تلك التي كانت بالقرب من كرسي إيرين، قد أصبحت كثيفةً بطريقةٍ غير مُعتادة، وكان لبعضها أذان وذيل.

نظر تور إلى قائدة اليريج طويلاً يتأمَّلها، وبادلته قائدة القطيع النظرات وتأمَّلته.

«يجدر أن نفعل شيئاً من أجل ... أو بشأن جيشكِ يا إيرين.»

قالت إيرين في حَرَج: «أعرف ذلك. لقد كانت تيكاً تُطعمهم الخبز والحليب فحسب طوال اليومين الماضيين، وذلك لأنها تقول إنها ترفض أن تكون رائحة الحجرة كرائحة

محل جزارة، ولحُسن الحظ هناك تلك السلالم الخلفية التي لا يستخدمها أحد — الطريق الذي كنت أستخدمه لأتسلل وأذهب لرؤية تالات. لكنني لم أعرف قط لِمَ رافقوني في المقام الأول؛ ولذا لا أعرف إلى متى ينوون المكوث أو ... كيفية التخلُّص منهم.» ثم ارتشفت رشفةً من شراب، ووجدت نفسها تنظر إلى عَيْنَيْن صفراوين هادئتين؛ ثم اهتز ذيل قائد قطط الفولستزا. «وفي الواقع لا أريد التخلُّص منهم، وإن كنتُ أعرف أنه ليس مُرحَّبًا بهم كثيرًا هنا. سأصبح وحيدة من دونهم.» وتذكَّرت إيرين كيف احتشدوا حولها في الليلة التالية لليلة التي تركت فيها لوث، فتوقَّفت عن حديثها فجأة؛ رمشت العينان الصفراوان ببطء، وانشغل تور كثيرًا بإعادة ملء قذحيهما. أمسكت إيرين قذحها ونظرت فيه، فلم ترَ لوث، بل رأت السنوات الطويلة التي قضتها في منزل والدها والتي خلالها لم يكن وجودها مُرحَّبًا به كثيرًا؛ وفكَّرت أنها ربما سيروُقها أن تملأ القلعة بضيوفٍ غير مُرحَّب بهم، ضيوفٍ كثر حضورُهم أكثرُ إثارةً للربح من أن يتجاهلهم أحد.

قال تور: «سيمكثون هنا بقدر ما يرغبون. إن دامار تدين لك بأي ثمن تطلِّبن»، ثم أضاف بنبرة جافة: «لا أظن أن أحدًا سيتأذى من أن يجدكِ وجيشكِ مُثيرين للخوف قليلًا.» فابتسمت له إيرين.

بعد ذلك أخبرها تور بما حلَّ بهم أثناء غيابها؛ وكانت تعرف أكثرَ ما قال أو خَمَّنته بالفعل. كان نيرلول قد ثار مرةً نهائيةً بُعيد أن ركبت صوب جبال لوث؛ وسرعان ما كان النبلاء المحليون وسكان القرى المجاورة له ينضمُّون إليه أو يُدمرون. ووقعت كتيبة الجيش التي تركها أرلبيث لدى نيرلول لتساعده في حماية الحدود في فحٍّ أعدَّه الشماليون؛ فلم ينجُ منهم إلا أقلُّ من نصفها وعاد هؤلاء لينضمُّوا إلى ملكهم. وانطلق أرلبيث على عجلٍ إلى هناك ليلقى نيرلول، تاركًا تور في المدينة ليستعدَّ لما كانا يعرفان أنه قادم لا محالة؛ وقد جاء بالفعل. كان قد أتاهاهم بالفعل؛ ذلك أن أرلبيث حين التقى نيرلول في المعركة، كان وجه الرجل جامدًا من الخوف، لكنه كان خوفًا مما كان آتيًا من خلفه، وليس مما كان يُواجهه؛ وحين قتله أرلبيث، زال عنه الخوف في آخر لحظات حياته، وعلت وجهه سَكينةٌ يشوبها الإنهاك ثم أغلق عَيْنَيْهِ إلى الأبد.

قال تور: «ومع ذلك لم يكن أرلبيث مندهشًا. كنا نعرف أننا نخوض حربًا خاسرة منذ استيقظ ماور.»

فقالَت إيرين: «لم أكن أعرف ذلك.»

أجابها تور: «لم يرَ أربليث سبباً يستلزم أن تعرفي. كنا ... كنا نعرف أنك كنتِ تحتَصرين.» ازدرد لُعباه، وطرق على الطاولة بأصابعه. «ظننتُ أنه من المُستبعد أن تعيشي حتى تشهدي سقوطنا، فلماذا كنا سنثقل عليكِ لِمَا تبقى من حياتكِ؟»

«وحين غادرتِ، كانت تلك أول مرة أشعر فيها بالأمل. تلك الرسالة التي تركتها لي — لم تكن الكلمات هي السبب، بل كان إحساسي بقطعة الورق في يديّ. كنت كثيراً ما أخرجها، فقط لألمسها ودائماً ما كنتُ أشعر بذلك الأمل ثانية.» ثم ابتسم ابتسامة خفيفة. «وقد نقلتُ إلى أربليث وتيكا عدوى أُملي.» توقّف عن الحديث، وتنهّد، ثم تابع حديثه. «بلغ بي الأمر أنني مضغتُ ورقة سوركا ودعوتُ أن أحلم بك؛ ورأيتكِ على ضفاف بحيرة فضية عظيمة، ورجلُ أشقر طویلٌ إلى جواركِ، وكنتِ تبتسمين عبر الماء، وبدوت بصحة وعافية.» رفع ناظريه إليها. وقال: «كان الأمر يستحقُّ أن أدفع أيّ ثمن لقاء أن أحظى بك مجدداً، وقد برأت من ذلك الشيء الذي كان سيقُتلك قبل وقتٍ طويل. أيّ ثمن مهما كان. لم يكن أربليث ولا تيكا واثقين من عودتكِ، كما كنتُ أنا. كنتُ أعرف أنكِ ستعودين.»

فقالَت إيرين: «أمل على الأقل أن التاج كان مفاجأة.»

فصحك تور. وقال: «كان التاج مفاجأة بالفعل.»

كان زوال تأثير ماور الخبيث عن المدينة المحاصرة مصدرَ ارتياح له بنفس أهمية تحقيق النصر النهائي غير المتوقع في الحرب؛ لكن كان لا يزال هناك قدر كبير من المعالجة التي يتعيّن القيام بها والقليل من الوقت للمرح واللّهو. دُفن أربليث في سلام، ووقف تور وإيرين معاً في جنازته، كما كانا معاً على الدوام تقريباً منذ قطعت إيرين ساحة المعركة لتُعطي تور التاج؛ كما لم يظهرهما معاً على الملأ هكذا من قبل. لكن بدا أن الناس الآن كانوا يتقبّلون الأمر، وببساطة أبدوا لإيرين الاحترام نفسه الهادئ المُتحفظ الذي كانت تتلقّاه منذ المعركة؛ كان الأمر وكأن الناس لم يُفرّقوا بينهما في إبداء احترامهم لهما.

مع ذلك كان الجميع يشعرون بما هو أكثر من مجرد حزنٍ عابر، وفي أعقاب غزو الشماليين ربما بدا أن وجود ابنة ساحرة اعتادوا على رؤيتها تكبر فيما بينهم طوال الأعوام العشرين المنصرمة أمرٌ هين لا يستحقُّ القلق بشأنه؛ وفي نهاية المطاف كانت هذه الفتاة أيضاً ابنة أربليث ملكهم، وقد أفجعهم حقاً موت أربليث، وتبينوا في وجهها أيضاً فجيعتها فيه. وقفت إيرين إلى جوار تور، بينما استعرت نيرانُ آخر محرقة أُحرِق فيها جثمان أربليث فيما أُلقي عليه البخور والطيب، والدموع تنهمر على وجهها؛ وقد حسّنت تلك

الدموع صورتها في وجه قومها أكثر مما فعل التاج؛ ذلك أن قلة منهم فقط كانت هي من تفهم قيمة التاج وأهميته. لكنها لم تكن تبكي لأجل أرليث وحسب، بل كانت تبكي من أجلها هي نفسها ومن أجل تور، ومن أجل جهلها الكارثي؛ لم يكن الجرح الذي قتل الملك جرحاً خطراً، وما كان ليقتله لو كان ما زال يتمتع بأي قوة حين أصيب به. كان العبء الثقيل الذي ألقاه ماور على ملك البلاد، التي طغى فيها ماور، بالغاً، وكان الملك مُسنأً. حين نُصب تور ملكاً في الاحتفال الطويل الذي أقامته دامار لتمنحه السلطة رسمياً، كانت هذه هي المرة الأولى منذ سنواتٍ كثيرة التي يضع فيها ملكٌ لدامار تاج البطل؛ إذ كان قد صار تقليداً أن يسير الملك حاسر الرأس إحياءً لذكرى التاج الذي كان منبع قوة دامار ووحدتها والذي كان مفقوداً. وبعد الاحتفال أُعيد التاج بعناية إلى قاعة الكنوز.

وحين ذهب تور ومعه إيرين ليتفقداه بعد ثلاثة أيام من اليوم الذي قذفوا فيه بجمجمة ماور خارج المدينة، وجدا التاج موضوعاً على القاعدة الفسيحة المنخفضة التي كان الرأس موضوعاً عليها قبلئذ. نظرا إليه ثم تبادلوا النظرات وتركاه في موضعه. كان التاج غرضاً صغيراً مُسطحاً أكمَد اللون، ولم يكن هناك سبب يدعو إلى تركه على تلك المنصة المنخفضة، التي لم تكن تعلق عن مستوى الركبة، والفسيحة بحيث يُمكن لعدة جياد أن تقف عليها؛ لكنهما تركاه. وحين حاول حارس الكنوز، وهو رجلٌ من رجال البلاط الملكي يتمتّع بتقدير كبير جداً لنزاهته الفنية، أن يفتح موضوعَ حفظ التاج في مكان ملائم أكثر، عارضت إيرين قبل أن يكمل الرجل حديثه، على الرغم من أنه كان يوجّه حديثه إلى تور وليس إليها.

وما كان من تور إلا أن منع أن يُنقل التاج من موضعه، وكان هذا هو ما انتهى إليه الأمر؛ وانحنى حارس الكنوز لكلّ منهما تباعاً، شاعراً بالإساءة، وانصرف. ربما لم يكن الرجل يودُّ أن يكون بهذا التهذيب الشديد مع ابنة الساحرة؛ لأن رجال البلاط كانوا يميلون إلى اتخاذ وجهة نظرٍ أكثر تشدداً وصرامة في هذه الأمور من بقية أهل دامار. لكن أي افتقار للباقة كان لا يزال موجوداً، بعد معرفة نبلاء دامار بأن الأميرة إيرين قاتلت بشراسة في المعركة الأخيرة في مواجهة الشماليين (على الرغم من أنها كانت بالطبع تتمتّع بقوة أكبر لأنها لم تشارك إلا في اليوم الأخير)، إلى جانب الحقيقة الثابتة والمؤكدة بأن ملكهم الجديد كان ينوي أن يتزوجها، كان ينحو إلى أن يتراجع أمام أتباعها من ذوي الأربع والأعين الضارية. لم يكن هؤلاء الأتباع يفعلون شيئاً أكثر من التحديق بضراوة. لكن زيارة حارس الكنوز كانت تُراقبها باهتمام تسعة حيوانات كبيرة ذات فراء موزعة حول قدمي إيرين وفي زوايا مختلفة من قاعة المقابلات.

الفصل الخامس والعشرون

كان تور قد أراد أن يكون زواجه من إيرين جزءاً من الاحتفال بتتويجه ملكاً، فيجعلها ملكةً مُعترفاً بها مع اعترافهم به ملكاً، إلا أن إيرين أصرت على الانتظار.

قال تور في تجهُّم: «يكاد المرء يظنُّ أنك لا ترغبين في أن تكوني ملكة.»

فأجابته إيرين: «يكاد يكون المرء مُحققاً. كلُّ ما في الأمر أنني لا أريد أن تُتاح فرصة لأحدٍ أن يقول إنني تسللتُ من الباب الخلفي. لا أريد أن يقولوا إنني افترضتُ أن الجميع سيكونون مشغولين بك بحيث لن يلحظ أحد أنني أنصب رسمياً ملكةً في مَعْرِض الأمر.» فقال تور: «فهمت.»

أردفت إيرين: «كان أربليث هو مَنْ أخبرني أن النبيل لا يُمكنه العودة إلى التواري عن الأنظار بعدما يأخذ مسئولياته على عاتقه.»

أوماً تور برأسه ببطء. ثم قال: «حسنًا. لكنني أظن أنك تظلمين شعبك.»

قالت إيرين: «عجباً لقولك.»

لكن تور كان مُحققاً، وإن لم يكن للأسباب التي كان سُرِّجَحها؛ فلم يكن للأمر صلة تُذكر بالمعركة الأخيرة، ويكاد يكون بعيداً كلُّ البُعد عن التاج. فبحلول الوقت الذي انتهت فيه أشهرُ الخُطبة الثلاثة التي طلبتها إيرين وأُقيم الزفاف، بعد ثلاثة عشر شهراً من وقوع ما أصبح يُطلق عليه في ظروف غامضة معركة ماور، بدا أن جميع أهل دامار (ما عدا قلةً من رجال البلاط الضيقي الأفق) قد نسوا تقريباً أنهم كانوا قد اعتبروا ابنة ملكهم الراحل موضعَ نفور كبير؛ وراحوا يُطلقون عليها بكل مودة «ذات الشعر الناري»، و«قاتلة التنانين». بل بدا أنهم، حتى، كانوا فرحين باحتمال أن تُصبح إيرين ملكتهم الجديدة؛ ومن المؤكد أن حفل الزفاف كان أكثرَ مرحاً وحيوية من حفل تتويج تور، وقد هل الحشد حين

أعلن تورُ إيرينَ ملكةً له، الأمر الذي أصاب كليهما بالدهشة. لكن الكثير من الأمور، التي كانت قد حدثت قبل اليوم الذي أُدخِلَ فيه رأس ماور المدينة، كان قد تلاشى من ذاكرة الناس، وفي حفل الزفاف كان أحدهم يقول للآخر بارتياح إن أمَّ الأميرة الأولى كانت ولا شك امرأةً من عامة الناس من قرية غريبة في الشمال، وأن الأميرة إيرين كانت دومًا طفلة غريبة الأطوار؛ لكنها ارتقت إلى مكانتها بطريقة كانت مُرضيةً جدًّا، وأنها بلا شك ساعدت في صد هجوم الشماليين بسيفها الغريب وتلك الحيوانات البرية التي كانت مولعةً جدًّا بها (كانت ثمة تعويضات أسوأ من تلك التي تُروّض الحيوانات الضارية وتجعلها وديعة).

علاوة على ذلك، بينما ظلَّ تور مصرًّا على أن يبقى عَزَبًا، كان كل أمراء جيله قد تزوجوا؛ وظلت إيرين هي الأميرة الأولى، مهما كانت نقائصها.

وحين أدركت إيرين أخيرًا ما حدث، ضجكت. وفكرت في نفسها: «إذن فقد أسدى إليَّ ماور معروفًا في نهاية المطاف. هذا هو أروع انتصار حققته.»

ربما أُطلقَ على المعركة اسم معركة ماور لأن رَحاها دارت على ما أضحي يُعرَف الآن باسم سهل ماور. وبينما نسيَ الناس الكثير والكثير من الأحداث التي وقعت قبل الأوقات التي مرَّت على المدينة فيما كان رأس ماور في القلعة وكأنه جوهرة ضخمة، أو على الأقل أصبحت تلك الأحداث ضبابيةً وغير واضحة إلى حدٍّ ما، تذكَّر الجميع جيدًا أن الغابة التي كانت عند أسفل طريق الملك قد دُمِّرت بنهاية المعركة، وأن جثث الناس والوحوش وأشباه الوحوش وأشباه البشر كانت مُتناثرة في كل مكان، بجوار أجزاء مكسورة من عتاد الحرب مختلطة مع الساحة الخربة. وتذكَّروا جمجمة ماور تندفع إلى الأسفل نحوهم — قالوا إنها كانت مُستعرةً كتنين حي، وفكَّاهما مفتوحان لينفثا النار — وتمرُّ بهم في الظلام.

وفي الصباح حين استيقظوا، بدلًا من أن يجدوا تلالًا منخفضة ومنحدرةً دُمِّرتها الحرب، وجدوا السهل مُستويًا كسطح طاولة، ممتدًّا من عند النار التي خبت، حيث كان الناجون قد ناموا بالقرب منها، إلى أسفل جبلي فاست وكار والممر الذي كانت إيرين قد توقَّفت عنده ورأت ما كان ينتظرها وجمعت جيشها وشتات نفسها. كان سهلًا صحراويًا، ظلَّ خاويًا؛ لم يكن ينمو فيه أي شيء، عدا قلة من الأشجار الصغيرة. وأتت كائنات صحراوية لتعيش فيه، وربَّى الناس سلالة جديدة من كلاب الصيد لتطارِدَ الفرائس اعتمادًا على النظر، كما صار سكان المدينة يحبُّون تغريد البريتي البرية العذبة؛ والبريتي هي قُبَّرة الصحراء. وعمدَ الناس إلى إقامة سباقات خيلٍ على السهل بعد مرور بضع سنواتٍ من تحديقهم إليه في قلق، وألفه الناس فلم يعودوا يَرونه غريبًا؛ ثم أُقيمت فيه مسابقات

مختلفة للمهارات، منها مُحَاكَاة للمعارك ومبارزات بالسيف، وأصبح السهل ساحة تدريب أفضل بكثير من الساحة القديمة الضيقة خلف القلعة والإسطبلات الملكية عند قمة المدينة. كان السهل بقعة مفيدة لتدريب الفرسان، وأولى تور إعادة بناء سلاح الفرسان في جيشه اهتمامًا كبيرًا، ذلك أنه كان يتذكّر بوضوح شديد، وكذلك زوجته — وربما كانا الوحيدَين في ذلك في المدينة — ما حدث في الأشهر التي سبقت معركة ماور. ومن ثم أصبحت منافسات لابرون أكبر حجمًا وأكثر أهمية؛ الأمر الذي كانت له مزايا عديدة؛ أما الأمر الذي كان أقلَّ فائدة وجدوى فكان نزلات تشوراكاك — مبارزات الشرف — التي شارك فيها أولئك الذين كانوا يُفِرطون في التفاخر بقدرتهم على القتال.

كان حصاد العام الأول بعد المعركة هزيلًا، لكن أرلييث كان قد خصَّص مقدارًا من الحبوب لمثل هذا الظرف تحديدًا، ولأنَّ تعداد أهل دامار أقلُّ مما كان عليه حين بنى تلك المخازن، مرَّ عليهم الشتاء ولم يكن أكثر صعوبةً من شتاءٍ يمرُّ بعد حصادٍ جيد، وإن كان الجميع قد سئموا أكل الثريد بحلول الربيع.

لكن حلَّ عليهم الربيع، فعاد النشاط إلى الناس، وشعر معظمهم بأنهم عادوا إلى سابق عهدهم، فخرجوا يحرقون الأرض أو يُرمِّمون متاجرهم أو يرعون ماشيتهم وممتلكاتهم بسماحةٍ وطيب نفس. أما من بقوا منهم في المدينة أثناء الشتاء، ليُطَبِّبوا جراحهم ويستعيدوا عافيتهم، فقد عادوا إلى قراهم وبدءوا رحلةً طويلة لإعادة إعمارها، وجرّت معظم أعمال البناء في مرح وسرور. وأرسل تور وإيرين المساعدة أينما أمكن لهما، فكانت بعض القرى الجديدة أجمل (وأفضل تصريحًا) مما كانت عليه في السابق القرى القديمة.

وفي أحد أيام الشتاء التالي للمعركة، وبينما كانت إيرين تتجول هائمةً في حديقة الباحة المركزية للقلعة، شعرت أنه كان ثمة شيء غير موجود عند البوابة التي كانت قد دلفت منها. فقطَّبت وهي تُحْمَلِق فيها حتى تذكَّرت ما هو: كانت نبتة السوركا الكبيرة ذات اللون الأخضر الزيتي قد اختفت. فحملقت حولها في كل البوابات لتتأكد من أنها لم تُخطئ النبتة، لكنها لم تكن موجودة، فمضت تبحث عن تور، وسألته عما حلَّ بها.

هرَّ تور رأسه. «لم تُعد هناك أي نبتة سوركا، في أي مكان. ذات يوم، ربما قبل أسبوعين من معركة ماور، اختفت جميعها. وقد رأيت هذه وهي تختفي؛ أتى الدخان من عدم، لكنه عندما انقشع كانت نبتة السوركا قد أصبحت هيكلاً متفحمًا. كان أمرًا غريبًا جدًّا، وكان الجميع مشغولين بأموٍرٍ غريبةٍ أخرى كان دائمًا ما يتضح أنها غير سارة، حتى إننا أخرجنا بقايا جذورها ودفناها.»

قال أرلييث «إن تلك كانت إشارةً أوضح من أن نتجاهلها، حتى لو لم نكن نعلم ما تعنيه، وهكذا لم نحمل رايةً في الأيام الأخيرة من حصار المدينة.» ثم قَطَب. وتابع قائلاً: «يبدو أن نبتة السوركا كانت شيئاً من الأشياء التي لم يَعُد أحد يتذكَّرها بوضوح. وهي ليست بالشيء الذي أريد أن أذكُر الناس به؛ فنحن على الأرجح أفضلُ حالاً من دونها. لن يكون هناك مزيد من حالاتٍ مُشابهةٍ لما فعل ميرث بنفسه.» ثم ابتسم لها.

فقالت إيرين بانفعال: «ولا المزيد من الحالات المُشابهةٍ لما فعلته إيرين.»

أما مَنْ فقدوا أعزَّاءَ كُثْراً لهم فقد مكثوا في المدينة بعد حلول الربيع؛ كانت كاتاه قد فقدت زوجها، فطلبت هي وأطفالها الستة أن يمكثوا في قلعة الملك، حيث نشأت. وقد سُرَّ تور وكذلك إيرين بإجابة طلبها؛ لأن القلعة كانت فارغةً عليهما قليلاً؛ فلم يكن أرلييث وحده من رحل، وإنما أيضاً ثورني وجيبيث وأورين، وآخرون كُثُر. ووجدت إيرين في كاتاه الموثوقة والعملية نفعاً وجدارةً جعلها فذَّةً في تحديد الدعاوى والالتماسات التي تحتاج إلى اللين والهوادة في قراراتها الملكية بشأنها، وتلك التي يمكنها أن تتجاهلها. قالت كاتاه المسكينة، التي افتقدت زوجها: «لقد وجدتُ شغفي وهدي. كان مقدراً لي أن أصبح مستشارةً ملكية.»

قالت لها إيرين: «كان مقدراً لك أن تُصبحي القوةَ الدافعةَ الخفية وراء العرش. سأحجبك بستارٍ مُخمي ويمكنك أن تهتمي لي بما أقول للناس وهم يدخلون عليّ.» فضحكت كاتاه، كما كان مُتوقَّعاً أن تفعل.

ولم تكن كاتاه هي الوحيدة التي لم يُبرئ مرور الزمان جراحها. فقد أصبح شَعر جالانا رمادياً في أول شتاء بعد المعركة، وبحلول الربيع الثاني كان قد استحال أبيض. صارت أكثر هدوءاً وبطئاً، ومع أنها لم تكن تُبدي للملكة دماراً الجديدة أيَّ مشاعر محبة، إلا أنها لم تُسبب المزيد من المشكلات، ولم يكن لها في ذلك رغبة.

وإذ كانت كاتاه مستشارةً أمينة ومُجَدَّة في عملها، أمكن لإيرين أن تتدبَّر تخصيص بعض الوقت لمطاردة التنانين — التي كانت أعدادها قد تناقصت كثيراً منذ هزيمة الشماليين — وتعليم عدد، أصبح كبيراً فجأة، من الشباب والشابات ما تعرفه عن صيد التنانين. وضمن جملة أمور أخرى، اكتشفت إيرين ما كانت تعرفه منذ البداية، وهو أنها كانت تملك جواً فائقاً. فلم تكن الجياد تُحب أن تُدَهَن بالكينيت، وكان ردُّ فعل معظمها تجاهه أسوأ من ردِّ فعل ثلاث في أي وقتٍ مضى؛ ثم كانت هناك حقيقة أن إيرين لم تكن تملك أدنى فكرة حيال ما ينبغي أن تُخبر به تلاميذها بشأن ما يتعيَّن أن يفعلوه بالزمام

بينما يُحاولون تسديدَ رماحهم على تنين. وبطريقةٍ أو بأخرى بدأت دروس إيرين في صيد التنانين تتحوّل إلى دروس فروسية، فكانت أولاً تُعلّم تلاميذها الركوبَ من دون رِكاب، ثم تُعلّمهم لاحقاً الركوب من دون زِمام. وباستخدام أسلوب التجريب والخطأ درّبت مجموعة من الجياد الصغيرة على أن يُلَازِموها كما كان تالات — وذلك لكي تُثبِت لنفسها بقدر ما تُثبِت للآخرين أن هذا الأمر ممكن مع الجياد الأخرى — وتعلّمت أن تُميّز بين الجياد التي يُمكنها أن تتعلّم ما تريد أن تُعلّمها إياه، وبين الجياد التي لا يُمكنها ذلك. وسرعان ما شاع عن ملكة دامار أن لها نظرةً ثاقبةً في الجياد، فكان الناس كثيراً ما يلتَمِسون رأيها بشأن أمهارهم.

وكان هورنمار قد أُصيب بجرحٍ بالغٍ في جنبه، وكان أكبر سنّاً من الملك الذي كان قد خدمه، وقد أوهنته وفاة أربليث بقدرٍ ما أوهنه جرحه. فتحتّم عليه أن يتقاعد من عمله وهو كبير السُّيَّاس؛ لكنه ظلَّ يعيش في القلعة، وبناءً على طلبٍ منه سُمِح له بأن يتولّى رعاية صديقه القديم تالات. وما كان من إيرين إلا أن امتنّت لذلك؛ فقد كانت كثيرة الانشغال الآن بحيث لم يكن بمقدورها أن ترعى تالات بنفس الوتيرة التي كانت معتادة إياها، ومع ذلك كانت تغبِط مَنْ يتولّى رعايته مكانها. لم تكن إيرين ترغب مُطلقاً أن تتركه لأحد السُّيَّاس العاديين، مهما بلغت مهارته وجدارته.

أما تالات نفسه فعاد إلى سابق عهده من الخِيلاء والمرح بعد عدة أسابيع من الراحة، وكان يأكل قضبان الميك وكأنه لا يشبع منها قط، لكنه بدأ في آخر الأمر يشعر بتقدّمه في العمر، فكان يتعيّن على إيرين أو هورنمار أن يُطارداه بعضاً ليحملاه على استخدام ساقه الضعيفة في الأيام التي لم تكن إيرين تملك فيها وقتاً لمتنطّيه. لكنّ ساقه كانت قوية بما يكفي بحيث إنه بعد أحد عشر شهراً من تقديم بضع أفراس بعناية له في مرعاه، كانت تولّد له مِهَارٌ ذات صفات مُستحسنة. كانت مِهَارُه كلّها ذات عيونٍ متألّقة ونابضة بالحركة من أول نفّس لها، وكان هورنمار وإيرين حريصين كلّ الحرص على من يثول إليهم التعامل مع هذه المِهَار؛ وقد كُبرت تلك المِهَار ودُرّبت على أن تكون بلا لجام كوالدها، وكان كثيرٌ منها يتّسم بشجاعة والده.

أما الكلاب الملكية فقد زادت وكثُرَت، ومَن اختار من كلاب اليريج وقطط الفولستزا أن يمكث مع سيده خُصّص له مأوى، مع أن باب الدّرج الخلفي الذي يُفضي إلى جناح إيرين القديم دائماً ما كان يُترك مفتوحاً. ومع أن الثوتار (مُرَبّي الكلاب) كانوا في بادئ الأمر متخوفين جدّاً من إجراء أيّ تهجينٍ متعمّد، إلا أنه لوحظ أن بعض الإناث الملكية كانت

تلد جِراءً أطولَ وأكثرَ شَعراً مما يمكن لأي سِلالةٍ ملكية ورسمية أخرى أن تنتجها؛ ومن عمليات التهجين تلك جاءت في نهاية المطاف الكلابُ الصحراوية الطويلة الساق. وبعد أن كُثرت بضعة أجيالٍ من صغار القطط وأنجبت مزيداً من القطط، أصبحت قِطط الفولسترا أكثرَ تقبلاً لأن يكون لها أسِباد من البشر غير إيرين، وأن تصطاد بالأمر، في معظم الحالات على الأقل. فحتى القِطط المروّضة كانت لها عقول وأمزجة خاصة بها.

لم يمنع حصول قائدة كلاب اليريج — والتي أصبح اسمها الآن كالا — على مأوى خاص بها من أن تضع أول جرائها على فراش إيرين وتور. قالت إيرين، حين رأتها هي وجِراءها: «يا إلهي»؛ إذ كانت خمسة جِراء بديعة ومعها كالا التي كانت في غاية الابتهاج. «تيكا ستسلخك حية.» أما تيكا التي كانت بعيدةً كلَّ البُعد عن أن تسلخ أحداً على قيد الحياة فقد تبَنّت أحد الجِراء وأسمته أورشا تيمناً بزهرة برية صغيرة وردية اللون، وكُبر الجِرو ليُصبح حيواناً ضخماً، أكبرَ حتى من أمّه، وكان له نظرة لئيمة مُميّزة وخِلقة لينة كِفِراش من الريش.

ولم يكن قد مرَّ على تور ثلاث سنوات وهو ملك حتى أُطلقَ عليه لقب «العادل»، وذلك لحكمته المتسمة بالإنصاف؛ حكمة قيل إنها لا تَفُتُّ أبداً، وكانت بادية في عيني الرجل الذي لم يكن قد بلغ الأربعين من عمره بعد. كانت إيرين تعرف من أين جاءت تلك الحكمة المتأصلة؛ لأنها كانت قد رأتها أول مرة عصرَ اليوم الذي قال لها فيه إنها ينبغي أن تكون ملكة، اليوم الذي طلب فيه الزواج منها؛ نفس الوقت الذي لم يسألها فيه عن لوث. وتمنّت إيرين ألا يُصيبها الفتور يوماً تجاه مشاعر تور نحوها: تور، الذي كان أعزَّ أصدقائها طوال حياتها، وأحياناً كان صديقها الوحيد. ربما كانت ذكرى الرائحة العفنة التي كانت مصاحبة للقنوط الذي بثّه ماور قد جعلتها أيضاً كثيرةَ النسيان؛ إذ بدأت تحسب البحيرة الفضية الشاسعة مكاناً زارته في أحلامها فحسب، والرجل الطويل الأشقر الذي عرفته يوماً ما، كائنًا من تلك الأحلام؛ لقد راح الجزء الخالد منها في سُبُبات عميق حتى يتسنى لها أن تُحب وطنها وزوجها.

